



مجلة العلوم الإجتماعية

Journal of Social Science

دورية دولية علمية محكمة تصدر عن المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الإستراتجية والسياسية والإقتصادية ألمانيا - برلين

العدد 12 جانفي 2020



V.R33616
ISSN 2568-6739



المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتحية والسياسية والإقتصادية
برلين-ألمانيا
ISSN 2568-6739 V.R33616

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتجية والسياسية والاقتصادية

مجلة العلوم الاجتماعية

دورية دولية علمية محكمة

الإيداع القانوني V.R33616

ISSN 2568-6739

جانفي 2020

الـــعـــدد الثاني عشر (12)

مجلة العلوم الاجتماعية

دورية دولية علمية محكمة

تصدر من ألمانيا- برلين- عن المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتجية والسياسية والاقتصادية

الهيئة العلمية والاستشارية.

شروط النشر:

مجلة العلوم الاجتماعية مجلة دولية علمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث في ميدان العلوم الاجتماعية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- أن تكون المادة المرسلة للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى ويقدم الباحث إقرارا بذلك.
- أن يكون المقال في حدود 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور.
- أن يتبع المؤلف الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس وإحترام الأمانة العلمية في تهميش المراجع والمصادر.
- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال باللغة العربية وترجمة لعنوان المقال باللغة الإنجليزية، كما تتضمن اسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة للملخصين مجتمعين،(حيث لا يزيد عدد أسطر الملخص الواحد عن 10 أسطر بخط simplified Arabic 12 للملخص العربي و Times New Roman 12 للملخص باللغة الانجليزية)، أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الانجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع simplified Arabic مقاسه 12 بمسافة 1.00 بين الأسطر، بالنسبة للعناوين تكون Gras، أما عنوان المقال يكون مقاسه 14.
- هوامش الصفحة أعلى 2 وأسفل 2 وأيمن 2 وأيسر 3 ، رأس الورقة 1.5، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة مخصص(16 23.5X).
- يجب أن يكون المقال خاليا من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية والمطبعية قدر الإمكان.
- بالنسبة للدراسات الميدانية ينبغي احترام المنهجية المعروفة كاستعراض المشكلة، والإجراءات المنهجية للدراسة، وما يتعلق بالمنهج والعينة وأدوات الدراسة والأساليب الإحصائية وعرض النتائج ومناقشتها.
- تتبنى المجلة نظام توثيق الرابطة الأمريكية لعلم النفس.(APA)، ويشار إلى المراجع داخل المتن بذكر الاسم الكامل للمؤلف ثم سنة النشر والصفحة بين قوسين، أو ذكر الإسم الكامل للمؤلف، السنة بين قوسين.
- يشار إلى ذكر قائمة المراجع في نهاية البحث وترتيبها هجائيا وفق نظام الرابطة الأمريكية لعلم النفس، المؤلف(السنة) ، عنوان الكتاب؟، ط(الطبعة إن وجدت)، دار النشر، مكان النشر، البلد، أما المقال: للمؤلف(السنة)، عنوان المقال، المجلة، م(المجلد)، ع(العدد)، مصدر المجلة(الجامعة أو المخبر مثلا)، مكان النشر، البلد.
- المقالات المرسلة لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.
- يقوم الباحث بإرسال البحث المنسق على شكل ملف مايكروسوفت وورد، إلى البريد الإلكتروني:

sciences@democraticac.de

كلمة العدد

يأتي العدد الثاني عشر لمجلة العلوم الاجتماعية في إطار تدعيم النشر أين يتضمن مجموعة من الأجزاء ضمن هذا العدد والتي تأتي جميعها في إطار النشر العلمي الذي تبادر به المجلة في كل مرة وتحرص عليه من خلال الوعي بأهمية النشر العلمي كنتاج للثرة المعرفية.

لقد أضحت المجلة قبلة للكثير من الباحثين عبر العالم أين بينت المجلة رقيها بالنشر العلمي في ظل خطوات ثابتة نحو التقدم وهو الهدف المنشود الذي تم وضعه للمجلة منذ سنة إنشاؤها في إطار تشجيع البحث العلمي من خلال نافذة النشر العلمي بالإهتمام بنشر كل البحوث المميزة التي يمكنها أن تقدم إضافة علمية في مجال المعرفة الإنسانية وهو ما نقف عليه في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية مجال إهتمام المجلة البحثي.

إننا نقف في هذا المقام وقفة إحترام وشكر لكل المساهمين في النشر خلال أجزاء هذا العدد والتي تأتي جميعها في إطار ترسيخ ثقافة علمية لتشجيع نشر المؤتمرات والملتقيات الدولية التي تعقد عبر دول العالم.

الدكتور بحري صابر

رئيس التحرير

مجلة العلوم الاجتماعية

المركز الديمقراطي العربي، العدد 12 ج 2، 2020

فهرس المحتويات

صفحة

أصول الفقه ودوره في تنظيم المجتمعات المدنية المعاصرة

محمد مزيان، جامعة ابن زهر أكادير، المملكة المغربية.

تمهيد

إذا كان علم أصول الفقه هو العلم بأدلة الفقه الإجمالية وكيفية الاستفادة منها وحال المستفيد ، فإن هذا التعريف هو الأليق للتنزيل في مجال المجتمع المدني ، وذلك لاعتماده على كيفية الاستفادة من هذه الأدلة الإجمالية دون إغفال حال المستفيدين وهم أهل الاجتهاد بالمفهوم الواسع [الخبراء ، التقنيون ، نشطاء المجتمع المدني ، المجتهدون ، الفقهاء ...]

لقد ركز البيضاوي في تعريفه هذا على التنزيل الجيد للقواعد الأصولية على الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، بعيدا عن الاتجاه النظري الذي يحصر العلم في القواعد الخاصة بالاستنباط والتي يعتمد عليها الفقيه والمفتي في الفتوى والقضاء لكي لا يقع في الزلل عند إصدار الأحكام الشرعية .

وعلى هذا فلا يبقى للمفهوم إشكال في مجال دعوى ارتباطه بالجوانب النظرية ، علما بأن لهذا القول وجاهته ، خاصة إذا لم تراعى المقاصد والقيم العليا للإسلام وكلياته الأساسية عند تنزيل القواعد المجردة على الأنظمة المدنية ، انطلاقا من الواقع الذي يعرف تغيرات وتقلبات في كل لحظة وحين ، و تمشيا مع روح العولمة التي غزت العالم ، وفرضت قيما جديدة لابد من دراستها وفق المنهج الأصولي المقاصدي لمسايرة العصر من جهة ، ودفع الأوهام والأضرار التي قد تضر بالأمة ومستقبلها من جهة أخرى .

إن النظرية الأصولية لا تصلح إلا في جانب التنظير لهذه المجتمعات ، ولا تأثير لها إلا إذا عضدت بالمقاصد العليا للشريعة ، فبهذا الجمع فقط يبلغ تأثيره في المجتمع ، ويقدم حلولا لكثير من القضايا المتعلقة بالمجتمع المدني المعاصر الذي أصبح يقدم نفسه بديلا للسلطة السياسية

التي عرفت فسادا وسباتا عميقا بسبب التبعية المطلقة للأنظمة الغربية ، والهيمنة التي مارستها على الشعوب للحفاظ على وجودها في هرم السلطة المستبدة .

إنها صرخة من أجل المساهمة في التجديد الأصولي وتوسيع دائرته لتشمل المجالات الاجتماعية والسياسية ، اعتمادا على مقاصد الشريعة وفقه الواقع والتوقع ، إذ لا يمكن إغفال ما عرفته الأمة الإسلامية عبر مسارها الطويل في مجال خدمة المجتمع وقضاياه ، حتى كادت الأمة أن تستقل بهذا العمل الإيجابي .

ولقد كان من جملة النهضة الفكرية للمسلمين تجديد أساليب مواجهة الواقع ، والمتمثلة أساسا في تجديد طريقة المواجهة لأن التغير لا يحدث طفرة ، بل لابد له من وسائل كثيرة ، وأهم هذه الوسائل إخراج أصول الفقه في ثوب جديد في إطاردراسات وآليات جادة ودقيقة ، حتى يستفاد منها في مواجهة النظريات العاصرة بتحقيق المصالح وسد الحاجات وفق منهج العقيدة الإسلامية.[١]
لقد اهتم المسلمون بالعمل التطوعي منذ مرحلة النبوة ، وكان الوحي ينزل ليحثهم على التعاون والتكافل والاعتصام بحبل الله ، والانخراط في فعل الخير وتقديمه للناس قال تعالى : " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون " آل عمران ١٠٤.

وقال تعالى : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " المائدة ٢ ، وقال تعالى مقارنا فعل الخيرات بالعبادة في الأجر والثواب: " يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون " الحج ٧٧

وبعد أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوسيع دائرة التعاون والتآزر في إطار مؤسسات اجتماعية كالوقف والحسبة ، نشط المجتمع المدني الإسلامي ، فظهرت نتائجه الإيجابية في كل مجالات الحياة ، ولم يكن علم أصول الفقه غائبا عن هذه النهضة الاجتماعية ، بل كانت قواعده هي المؤطر النظري لكل الأعمال الاجتماعية على مستوى التنظير والممارسة ، كقاعدة الواجب الكفائي وقاعدة الترك والمصلحة المرسلة والعرف والعادة ، إضافة إلى مقاصد الشريعة والقيم الإسلامية النبيلة التي أسهمت في تنزيل علم الأصول على هذه التنظيمات .

١ الاجتهاد بتحقيق المناط وسلطانه في الفقه الإسلامي لعبد الرحمن الزايدي ، مركز التراث الثقافي المغربي ، تاريخ الطبع ٢٠٠٥ ـ ص ٨

غير أن فقه الأمة بعد ذلك قد عرف فتورا بسبب بعض العوامل الخارجة عن إرادة العالم الإسلامي ، والمتمثلة أساسا في عامل الاستعمار الغربي الذي يسط سيطرته السياسية والاقتصادية والثقافية ، وما استعصم به من حركات التنصير والإستشراق والعلمانية ، هذا بالإضافة إلى بعض العوامل المنهجية والمتمثلة في إغفال هذا النوع من الفقه المستمد من القرآن والسنة والسيرة وعلم الأصول والمقاصد ، وانكباب الجهود على فقه الأحكام السلطانية إلى درجة التخمة في التأليف والتحليل منذ العصر العباسي الأول .

وبالموازاة مع هذا الفتور ، كانت أروبا تعيش فترات ازدهار بفضل التحول الديمقراطي الذي فرض على المجتمع الأروبي منذ عصر الأنوار ، مما جعل دعاة العلمانية العرب يستمدون مرجعياتهم في مجال المجتمع المدني من القوانين الأوربية ، وخالف الاتجاه الإسلامي هذا التيار معتمدا على التراث الإسلامي الغني بالفقه المدني ، بعد استحضار بعض التجارب التاريخية التي عرفت تطورا ملحوظا في مجال التنظيم المدني الإسلامي .

ومع انبلاج فجر الربيع العربي ، بدأ التفكير بجد في نفض غبار التخلف والضعف والهوان ، بعد أن عرف الجميع أن السبب الحقيقي للتخلف هو الاستبداد السياسي الذي اطردت آثاره لتمتد إلى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وهكذا تطورت هذه المجتمعات ، وأخذت زمام المبادرة ، وتحول بعضها إلى تكتلات كبيرة لتحقيق مطالب الشعوب في مجال التنمية المستدامة ، وطرحت الحاجة إلى تكوين كوادر المجتمع المدني وتشجيع المبادرات الإنسانية في أفق تحويل المنظمات الأهلية من مجتمعات جمعوية إلى مجتمعات مدنية حيث التأثير الفعال على أصحاب القرار في الدولة وانتزاع الحقوق .

فكان لهذه الثورة آثارا إيجابية خاصة بعد أن انخرط الجميع في مجال العمل الإيجابي ، وارتفع عدد الجمعيات في المغرب مثلا من ٤٥ ألف سنة ٢٠٠٨ إلى أكثر من ١٤٠ ألف سنة ٢٠١٦ وهي الوثيرة الأسرع والأعلى في الوطن العربي .[٢]

وحدث هذا بعد أن توسعت دائرة التعاون لتشمل الجمعيات الإنسانية في كل أرجاء العالم . وعلى هذا فلا بد من أن نقف وقفة مع علم الأصول تصله بواقع الحياة ، لأن قضايا الأصول في أدبنا الفقهي أصبحت تؤخذ تجريدا ، وحتى غدت مقولات نظرية عقيمة لا تكاد تلد فقها البتة ، بل تولد

---

٢ المجتمع المدني ومقاصد الشريعة ، إشكاليات المرجعية والتنزيل ، محمد الحبيب الدكالي ، دار الكلمة بمصر ، الطبعة الأولى ٢٠١٩ ، ص ٥٦

جدلا لا يتناهى ، والشأن في الفقه أن ينشأ في مجابهة التحديات العلمية ، ولابد لأصول الفقه أن تنشأ مع هذا الفقه الحي .[٣]

وكان لابد من إشراك علم أصول الفقه والمقاصد في هذه النهضة لتجويد أعمالها ، وإضفاء طابع الشرعية على أنشطتها خاصة في المجالات التي تعم بها البلوى ويحتاج الخاص والعام إلى معرفة حكمها .

<u>المطلب الأول : مصطلحات ومفاهيم البحث</u>

من المعلوم في علم الأصول أن المفاهيم لا تستقر على وضعها الاصطلاحي إلا إذا انتقلت من الوضع اللغوي أو العرفي إلى الوضع الذي تواضع الناس عليه ، فأغلب الحقائق من النوع الذي ينتقل ويستقر في الذهن والخارج .

<u>*- مصطلح أصول الفقه في اللغة والاصطلاح الشرعي</u>

تطلق كلمة الأصل في اللغة على ما يبنى عليه الشيء أو نحو ذلك. وهو قريب من المعنى الشرعي ، لأن هذا العلم يعتبر أساسا يبني عليه الفقهاء اجتهاداتهم ، قال الجرجاني : " هو ما يُبتنَى عليه غيره. والأصول: جمع أصل، وهو في اللغة: عبارة عما يفتقر إليه، ولا يفتقر هو إلى غيره. وفي الشرع عبارة عما يبنى عليه غيره، ولا يبنى هو على غيره، والأصل: ما يثبت حكمه بنفسه ويبنى على غيره."[٤]

و في الاصطلاح يطلق على الراجح، والمستصحب، والقاعدة الكلية، والدليل. وكلها معان مستمدة من المفهوم اللغوي.

وأما الفقه في اللغة فهو : الفهم الدقيق والبيان الشافي قال ابن فارس : " الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح، يدل على إدراك الشيء والعلم به. تقول: فقهت الحديث أفقهه. وكل علم بشيء فهو فقه. يقولون: لا يفقه ولا ينقه. ثم اختص بذلك علم الشريعة، فقيل لكل عالم بالحلال والحرام: فقيه. وأفقهتك الشيء، إذا بينته لك."[٥]

---

٣ قضايا التجديد " نحو مهج أصولي " حسن الترابي ، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ ، ص ١٨٩

٤ التعريفات للجرجاني ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ، ج ١ ص ٢٨

٥ معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الفكر ، سنة الطبع ١٣٩٩ه / ١٩٧٩ م ، ج ٤ ص ٤٤٢

وفي الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، قال العلوي الشنقيطي رحمه الله :

والفقه هو العلم بالأحكام ***** للشرع والفعل نماها النامي

أدلة التفصيل فيها مكتسب**** والعلم بالصلاح فيها قد ذهب[6]

وبهذا يتضح مفهوم أصول الفقه باعتباره لقبا وعلما ، وقد علم أنه العلم الذي لا ينفصل عن الفقه لارتباطه به من حيث تطبيق القواعد الأصولية على مجمل الفروع الفقهية .

وارتباطا ببنية المجتمعات المدنية التي تتشعب وتتنوع باختلاف الوسائل والأهداف والغايات والظروف ، إذ لا يصلح له إلا تعريف البيضاوي الذي ربطه بالواقع دون أن يفقده ميزته المتمثلة في ضبط الاستنباط والاجتهاد يقول البيضاوي رحمه الله : " "أصول الفقه معرفة دلائل الفقه إجمالا وكيفية الاستفادة منها وحال المستفيد".[7]

فأصول الفقه يتميز عن الفقه بأدلته الإجمالية التي تدل على الحكم وتؤدي إليه ، خلافا للفقه الذي يتميز بالأدلة التفصيلية التي تعد أحكاما جاهزة .

ولا بد من توسيع دائرة الاستفادة من هذه الأدلة الإجمالية لمسايرة العصر وربط القواعد بالنوازل المستجدة في كل لحظة وحين . مع توسيع دائرة المستفيدين من هذا العلم ليشمل جميع من يدلي بدلوه في عملية الإصلاح الاجتماعي ، وبذلك يكون علم الأصول قد أدى وظيفته في الحياة والتي تدور حول جلب المصالح ودفع المفاسد ، خاصة إذا عضد بالمقاصد والقيم الإسلامية والإنسانية ، أخذا بالأصل المعتبر في الشريعة وهو : " أصل التخلق بصفات الله تعالى "، وهذا المعنى قريب من المنهج الذي رسمه الغزالي لهذا العلم بعد أن بسطه في شجرة يانعة الثمار ، فالثمرة هي الأحكام والمثمر هي الأدلة ، ووجوه دلالة الأدلة هي طرق الاستثمار ،والمستثمر هو المجتهد . يقول رحمه الله : " القطب الأول: في الأحكام، والبداءة بها أولى لأنها الثمرة المطلوبة. القطب الثاني: في الأدلة، وهي الكتاب والسنة والإجماع وبها التثنية إذ بعد الفراغ من معرفة الثمرة لا أهم من معرفة المثمر. القطب الثالث: في طريق الاستثمار، وهو وجوه دلالة الأدلة، وهي أربعة:

---

٦ نشر البنود على مراقي السعود للعلوي الشنقيطي ، دار فضالة بالمغرب ، الطبعة الأولى بدون تاريخ ج ١ ص ١٩ ، ٢١ ،

٧الإبهاج في شرح المنهاج للسبكيين ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م ، ص ١٩

دلالة بالمنظوم، ودلالة بالمفهوم، ودلالة بالضرورة والاقتضاء، ودلالة بالمعنى المعقول. القطب الرابع: في المستثمر وهو المجتهد الذي يحكم بظنه، ويقابله المقلد الذي يلزمه اتباعه "[8]

*- مفهوم المجتمع المدني في اللغة والاصطلاح

لابد من التمييز بين مفهوم المجتمع المدني الغربي والمجتمع المدني الإسلامي ، ذلك أن الأول نشأ في جو من الصراع بين سلطة المجتمع والدين المسيحي من جهة وبين سلطة المجتمع والإقطاع من جهة ثانية ، فقد كان الإنسان الأروبي قبل عصر الأنوار والثورة الفرنسية مستعبدا جسدا وروحا من طرف الإقطاع والكنيسة .فكان لهذا الصراع نتائج تتمثل أساسا في تكوين المجتمعات الأهلية في كل بقاع أروبا ، والتي ساهمت في تقليص نفوذ الدولة المتسلطة و ظهور حركات تهتم بالعلوم والإنسان من أجل تحقيق الرفاه الاجتماعي والمساواة والعيش في ظل دولة الحق والقانون .

ولا يعني هذا أن الدين كان غائبا بالمرة عن هذه التنظيمات المدنية ، ولكنه استعمل كمحفز للانخراط في العمل الخيري ، وترسيخ ثقافة المواطنة ، فهو أداة للتحفيز على فعل الخير وليس نظاما للحياة يشمل العقيدة والشريعة ، يقول إيفرلي : " ويتطلب العمل في المجال الروحي الاهتمام بضمائر الناس وأرواحهم أولا ، وامتدادا لذلك ، الاهتمام بضمير المجتمع وروحه . فالمجتمع الذي يسعى للنظام سيغرق في فوضى أعمق إذا فقد هذا الانسجام " [9]

أما المجتمع المدني الإسلامي ، فقد كان يستمد مرجعيته من القرآن والسنة والقيم الإسلامية والإنسانية ، انطلاقا من مبدأ الاستخلاف في الأرض ، ووفقا لما شرعه الله من أحكام تعم الأفراد والمجتمعات والتي من شأنها أن تخرج الناس من عبادة الهوى إلى عبادة الله وتحررهم من كل القيود السلبية و الأغلال الشيطانية . وإذا كان المنطلق هو القرآن والسنة ، فإن أدوات التعامل مع الوحيين تتم عن طريق أصول الفقه وقواعده العامة إضافة إلى المقاصد والكليات العامة التي استمدت من الشريعة بالاستقراء . وعلى هذا فقد ارتبط هذا المفهوم في الإسلام بالدين عقيدة وشريعة وسلوكا . كما ارتبط بمبدأ التكريم الإلهي للإنسان قال تعالى : " ولقد كرمنا بني آدم

٨المستصفى ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م ، ج ١ ص٧

٩بناء مجتمع من المواطنين ، المجتمع المدني في القرن الحادي والعشرين جون إي يفرلي ، ترجمة هشام عبد الله ، الأهلية للنشر والتوزيع بالأردن ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، ص ٥٠

وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " الإسراء ٧٠

وارتباطا بهذا الاختلاف بين المفهومين الإسلامي والغربي ، اختلف علماء اللغة والاصطلاح في التعريف تبعا للمرجعيات الفكرية التي يتبعها كل طرف .

جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة أن لفظ الجمعية يطلق على طائفة تتألف من أعضاء لغرض خاص وفكرة مشتركة.

وعلى هذا فالعمل الاجتماعي هو العمل المنظم الذي يهدف إلى تقدم وتطور الظروف الاجتماعية لمجتمع ما وخاصة المجتمع المحروم، بتقديم استشارات نفسية، ومساعدات اجتماعية.[١٠]

وأما مصطلح المدني فهو يرتبط بالمدنية التي تعني التحضر والانخراط في حياة التمدن المخالفة لنظيرتها البدوية ، وقد أشار الشاعر العربي إلى هذا المعنى حين فضل حياة البداوة على التمدن حيث قال :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

وأما في الاصطلاح فقد عرف المجتمع المدني في معجم اللغة العربية المعاصرة ويقصد به مؤسسات المجتمع المستقلة عن سلطة الدولة التي تقوم العلاقات بينها على أساس رابطة اختيارية تطوعية، مثل النقابات والأحزاب والجمعيات الأهلية ومنظمات حقوق الإنسان.[١١]

وهو تعريف عام يجمع بين العمل التطوعي والعمل السياسي ، ولا يخفى أن العمل الجمعوي يجب أن لا ينخرط في الحسابات السياسية الضيقة ، لأن هذا يفقده مصداقيته لاسيما إذا كانت الأحزاب السياسية هي الممول الحقيقي لعملية التطوع .

وعرفه الباحث الأمريكي جون إيبرلي بقوله : " هو مجال شبكات العمل التطوعية والجمعيات غير الرسمية التي يدير فيها الأفراد الكثير من شؤون حياتهم " [١٢]. وقد ركز في تعريفه على عملية التشبيك والتعاون بين مكونات هذا المجتمع لتحقيق الأهداف التي عجزت الدولة عن تحقيقها ، كما ركز على الدور الهام لهذا المجتمع في الاضطلاع بأعباء المجتمع على نطاق واسع .

---

١٠ معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عبد الحميد عمر ، عالم الكتب ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م " مادة جمع " ص ٣٩٦

١١ نفس المرجع ج ٣ ص ٢٠٧٩

١٢ بناء مجتمع من المواطنين ، المجتمع المدني في القرن الحادي والعشرين جون إي يفرلي ص ٣٢

وأما تعريفي لهذا المجتمع فهو :

" المجتمع المدني هو ذلك المجتمع الذي تحكمه القوانين المدنية ، والمتكون من مجموعة من الجمعيات والنقابات ، والمنظمات الحكومية وغير الحكومية ، والتي تعمل جنبا إلى جنب مع المحكومات لتحقيق العدالة الاجتماعية ، وحماية الإنسان المدني مما يمكن أن يضر به في حياته .

وعلى مستوى العلوم الشرعية فلا يكاد يستعمل هذا المصطلح ، ويعوض بمجتمع العمران وهو مصطلح مستمد من كتابات ابن خلدون الذي كتب في العمران البشري ، غير أن الزحيلي قد أشار إلى ما يفيد التعريف في تفسيره حين تناول مجتمع المدينة المنورة حيث قال : " يتركب المجتمع المدني من فئات مختلفة وأصناف شتى، فهناك المستقيم المحسن، والمعوج المسيء، والمتوسط المحايد، وهكذا كان أصناف الناس في المدينة المنورة في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم، فمنهم الطبقة العليا من أهل الإيمان، ومنهم الفئة الدنيا الوالغة في الكفر والضلال، ومنهم الفئة المتوسطة التي جمعت بين الخير والشر، وخلطت العمل الصالح بالسيئ، وهذا التركيب الفئوي ذكره القرآن الكريم بصريح نصوصه.."[١٣]

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استعمل مصطلح المدينة ، وارتضاه لمحل دولته و إقامته ، فلا حاجة إلى التنازع والتخاصم في أمر هذا المفهوم، بدعوى استيراده من الغر ب ، لأنه تبث في بعض الكتب الإسلامية وقد استعمله بعض المفسرين كابن عاشور وسيد قطب في تفسيره الكبير .

<u>المطلب الثاني : ضوابط وقواعد المجتمع المدني بين التنظير والتنزيل</u>

لقد سبقت الإشارة في التمهيد أن الضوابط الأصولية لا تظهر إلا في المجالات التي تمس العمل الاجتماعي والسياسي كالوقف والحبس والحسبة والتطوع ، وهي المجالات التي تدخل في مطلق العمل التطوعي الذي رغب فيه الإسلام ، تحقيقا لمصالح العباد ودفع المفسدة عنهم ، مما يدل دلالة واضحة أن هذا العلم يدور مع مصالح العباد وجودا وعدما . يقول الدكتور حسن الترابي رحمه الله : " فحين كانت حياة الإسلام شاملة وكانت الممارسات الاقتصادية والسياسة العامة للمجتمع ملتزمة بالدين نشطت قواعد الأصول التي تناسبها "[١٤]

١٣ التفسير الوسيط للزحيلي ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٢ ه ، ج ١ ص ٩١٠

١٤ قضايا التجديد ص ١٩٩

وهو يقصد القواعد والضوابط الأصولية التي يتم تنزيلها على هذا النوع من الفقه ، بعد توسيع دائرته ليشمل جميع المكلفين وأعمالهم .

والناظر لكتب الأصول يجد عددا كبيرا من القواعد الأصولية التي تصلح لفقه الأمة وقضاياها ، ولكن علماء الأصول لم يمارسوا الحكم السياسي ، إنما تقلد بعضهم بعض المناصب القضائية ، مما جعل القواعد في طي الكتمان ولا تمس الواقع ، ولا يتم تطبيقها في النطاقات التي أرادها الشرع الحنيف . ويكفي النظر إلى اجتهادات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتجد تطورا للفقه الاجتماعي الذي بلغ ذروته في عهده بفضل توسيع دائرة الأصول وما يستلزم ذلك من مسايرة العصر وتطوير الاجتهاد .

وهذا مختصر لبعض هذه الضوابط قبل التفصيل فيها في المطلب الثالث .

*- قاعدة التمييز بين تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم

من القواعد التي تعد منطلقا عند الأصوليين قاعدة التمييز بين تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم

وهي تصرفات ثلاثة : تصرفاته باعتباره مبلغا ، وتصرفاته باعتباره قاضيا ، وتصرفاته باعتباره إماما ، وتختصر في التبليغ والقضاء والإمامة .

وفي التقسيم إشارة إلى الفصل بين السلطات الثلاث : القضائية والتشريعية والتنفيذية ، واستقلال بعضها عن بعض مع عدم نفي التعاون على الحق ودفع الظلم ، وليس في القسم ما يدل على علمانية الإسلام كما يزعم البعض ، لأن التمييز لا يعني الفصل الكلي ، ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصرح بالتقسيم وإنما استفيد من أفعاله وتصرفاته ، لتكون منهجا لضبط مجال السلطات ، إذ لا بد لكل سلطة من وازع ديني خلقي يصلح الأعمال ، ويسدد العزائم ، ويصحح النيات ، ويفرز النتائج الإيجابية داخل المجتمع الإسلامي. وقد توسع القرافي في كتابه الفروق في الفروع المرتبطة بهذا الضابط في الفرق السادس والثلاثون يقول رحمه الله : " و بهذه الأوصاف تختلف آثارها في الشريعة فكل ما قاله – صلى الله عليه وسلم – أو فعله على سبيل التبليغ كان ذلك حكما عاما على الثقلين إلى يوم القيامة فإن كان مأمورا به أقدم عليه كل أحد بنفسه وكذلك المباح وإن كان منهيا عنه اجتنبه كل أحد بنفسه ، وكل ما تصرف فيه – عليه السلام – بوصف الإمامة لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الإمام اقتداء به – عليه السلام – ولأن سبب تصرفه فيه بوصف الإمامة دون التبليغ يقتضي ذلك ، وما تصرف فيه – صلى الله عليه وسلم –

بوصف القضاء لا يجوز لأحد أن يقدم عليه إلا بحكم حاكم اقتداء به – صلى الله عليه وسلم – [١٥]"

وأما علاقة القاعدة بالجانب الاجتماعي فقد أشار إليه الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية حين توسع في القاعدة وأوصلها إلى اثني عشر مقاما وهي :التشريع ، والفتوى ، والقضاء ، والإمارة ، والهدى ، والصلح ، والإشارة على المستشير، والنصيحة ، وتكميل النفوس ، وتعليم الحقائق العالية ، والتأديب ، والتجرد من الإرشاد .

وكأنه يريد أن يوسع من دور القاعدة لتشمل الجوانب الاجتماعية والسياسية ، خاصة وأن التشريع في المدينة قد اتضحت معالمه ، وأصبح ينصب على جوانب المعاملات تحقيقا لمصالح العباد كما يظهر في النصوص المدنية . وهذا هو الذي غفل عنه الكثير من علماء الشريعة المهتمين بالمقاصد والأصول .

يقول الشيخ محمد المهدي شمس الدين بعد أن ذكر بالخلل الواقع في منهج التعامل مع النصوص : " القضية المسلمة عند الأصوليين والفقهاء وهي وظيفة النبي في أن يبين الأحكام الشرعية ، وغفلوا عن أن من جملة مناصب النبي أنه كان حاكم دولة ، كان قائد مجتمع ، إنه رب أسرة ، إنه عضو في مجتمع ، وإنه إنسان يتفاعل مع محيطه وحياته ومع معاشريه من الناس ..."[١٦]

وإذا كان الضابط في تصرفات الإمامة والقضاء يقتضي عدم الإقدام إلا بإذن الإمام والقاضي ، فإن الأعمال الاجتماعية مكفولة لجمعيات المجتمع المدني ذات الطابع الخيري والتعاوني . يقول علال الفاسي منتقدا تقسيم مونتسكيو للسلطات الثلاث : " أصبحت حاجة اليوم تستدعي النظر من جديد في شكل آخر للتقسيم . ولعل من أطيب أنواعه ما اختاره [موريسديفرجي] من بناء التوزيع على نسبة النفوذ الحزبي في البلاد لأن ازدهار الأحزاب السياسية غير تغيرا عميقا شكل العلاقات التي كانت بين المنظمات الحكومية وما لها من وسائل العمل المتبادل ..وأصبح للمنظمات السياسية بصفة عامة نفوذ عميق على اختيار أهل الحل والعقد ."[١٧] فما أحوجنا إلى صياغة فقه جديد يراعي المصالح ، وينصف المظلوم ويقضي على الفوارق الاجتماعية ، وقبل ذلك يحيي حس المبادرة بضرورة تقديس الواجب الاجتماعي انطلاقا من هذه الأصول والمقاصد.

---

١٥ الفروق للقرافي ج ١ ص ٢٠٧

١٦ الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي ، المؤسسة الدولية بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ ، ص ٨٦

١٧ النقد الذاتي لعلال الفاسي ، المطبعة العالمية ، الطبعة الأولى بدون تاريخ ، ص ١٤٤

*- قاعدة سد الذرائع وفتحها

هذه قاعدة أصولية مهمة في علم الأصول وخاصة ما يرتبط بمآل أفعال المكلفين ، وقد بسط فيها علماء الأصول القول وربطوها بالعبادات والمعاملات والعادات والجنايات ، غير أن تطبيقها صاحبه جدل عقيم خاصة من طرف بعض المعاصرين الذين رفضوها جملة بدعوى أنها لم يتم تطبيقها في المجال الاجتماعي والسياسي ، والحقيقة أنها قاعدة مهمة في هذا المجال لا سيما إذا فتحت على باب المصالح التي تسير مع الحياة جنبا إلى جنب ، فكل وسيلة تحقق النفع للأمة وجب فتحها ليستفيد منها العموم ، وكل وسيلة إلى المفسدة الظاهرة وجب سدها لتطهير المجتمع من المفاسد والمهالك التي قد لا تظهر آثارها السلبية إلا في المستقبل القريب أو البعيد . يقول القرافي : " اعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها وتكره وتندب وتباح فإن الذريعة هي الوسيلة فكما أن وسيلة المحرم محرمة فوسيلة الواجب واجبة.."[١٨]

ومن أمثلة تطبيقها عند فتحها إفشاء السلام وإطعام الطعام، وحسن الظن بالناس، والتعاون على البر والتقوى، والبعد عن الضغينة والغل والحقد والحسد والغيبة والنميمة وغير ذلك مما جاء في القرآن والسنة لغرس المحبة بين الناس. وكلها أعمال يضطلع بها المجتمع المدني الذي يسعى إلى تحقيق التكافل والتعاون بين الناس ، ودفع الأذى عنهم .خاصة وأن هذا المجتمع اليوم يستعمل مجموعة من الوسائل التي يجب تحقيق مناطها وبيان مشروعيتها ، فإن كانت صالحة للمجتمع الإسلامي فلا بأس بتطبيقها في الساحة الجمعوية ، وأقصد بعض الوسائل الإلكترونية التي تساهم في تجويد العمل الخيري وانتشاره في الأوساط العامة للمجتمع . وقد رأينا وسائل التواصل الاجتماعي كيف يمتد تأثيرها ويمس عمق المجتمعات العربية .وعلى هذا فلابد من الرجوع إلى هذه القاعدة وتطبيقها على نطاق واسع بعد توسيع فروعها لتشمل الأعمال الاجتماعية والسياسية .

*- قاعدة المصلحة المرتبطة بالعمل الخيري

لقد بنيت الشريعة الإسلامية على قاعدة جلب المصالح للعباد في الدارين ، وحيثما وجدت المصالح فتم شرع الله ، ولقد أمر الله تعالى نبيه بمراعاة مصالح الناس ودفع الأذى عنهم ، وذلك من خلال التشريعات التي دعت إلى رفع الحرج عن الناس في التكليف والعمل والمعاملات ..

١٨ الفروق ج ٢ ص ٣٣

وعلى هذا فلا يمكن تصور الشريعة بدون المصلحة ، ولا يمكن أن يستمر الشرع إلا مع وجود المصالح التي بنى عليها أحكامه الدنيوية والأخروية . مما يدل على أهمية الشريعة الإسلامية الخاتمة والتي هيمنت على كل الشرائع بالتوازن والاعتدال والوسطية ورعاية المصالح .

فالأعمال الشرعية كما يقول الشاطبي ليست مقصودة لأنفسها ، وإنما قصد بها أمورا أخر هي معانيها، وهي المصالح التي شرعت لأجلها .[١٩]

وأقوى ما تراعى فيه المصالح هي المجالات السياسية والاجتماعية التي تركت للاجتهاد تبعا للأصول المعتمدة عند العلماء سواء كان الاجتهاد جماعيا أو فرديا ، ولقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الإسلام قد ترك أمور الحكم والسياسة لاجتهاد الأئمة الأعلام حين قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم " [٢٠]

ومعنى الحديث أن مصالح الأفعال التي ترجع إلى الدنيا ترجع إلى عرف الناس ومعهودهم في العيش والمعاملات فهم يدركون مصالحها ، بحسب التجربة والممارسة . ولهذا فقد ترك هذا الجانب من الشريعة لتدبير العلماء والحكام وأهل الخبرة بشرط أن تكون أفعالهم مؤطرة بالشرع غير خارجة عن المقاصد العامة للشريعة . والتي تدور حول الضروريات والحاجيات والتحسينيات مع مراعاة الترتيب عند التعارض ، دفعا للمفاسد التي يمكن أن تلحق بالأحكام ، إذا لم يتم مراعاتها في الأفعال والأقوال . يقول الدكتور أحمد الريسوني : " فأي مصلحة تبقى مرسلة بعد قول الله تعالى: " وافعلوا الخير لعلكم تفلحون" وقوله عز وجل: " إن الله يأمر بالعدل والإحسان" وبعد أن بين سبحانه أنه أرسل رسوله إلى الناس " يأمرهم بالمعروف" وبعد أن جعل شعار المؤمنين هو "وعملوا الصالحات" وبعد أن أمر سبحانه بالتعاون على كل ذلك: "وتعاونوا على البر والتقوى" ، فالناس مأمورون –في هذه الآيات وغيرها– بفعل الخير، وبالعدل والإحسان وبفعل المعروف، وبفعل الصالحات، وبفعل البر، ومأمورون بالتعاون على ذلك كله. وعلى ذلك كله يتوقف فلاحهم "لعلكم تفلحون" ، ولا فلاح لهم –لا في دنيا ولا في آخرة– إلا بهذا: ".[٢١]

*– قاعدة الإباحة الأصلية

١٩ الموافقات ج٣ ، ص ١٢١

٢٠ مسلم كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا رقم ٤٤٦٢

٢١ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي لأحمد الريسوني ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٩٩٢ م ، ص ٢٤٠

وهي قاعدة أصولية ترتبط بالاستصحاب ، وقد ناقشها علماء الأصول دون التوسع فيها ، وناقشوها في مقدمات كتبهم كبقية المباحث التي تدخل في علم الكلام والمنطق ، علما بأنها قاعدة لا يظهر أثرها إلا بتوسيع نطاقها سيرا على منهج القرآن الكريم الذي حث في آيات كثيرة على أن الأصل في الأشياء الإباحة وهو المذهب الموافق لما عليه الحنفية والظاهرية .

وتستند القاعدة على مجموعة من الآيات القرآنية التي تؤيد هذا الأصل قال تعالى : " هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا " البقرة ٢٩ وقال تعالى : " وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه " الجاثية ١٣

ولقد توسع ابن حزم رحمه الله في هذه القاعدة لموافقتها لجوهر الدين من حيث أن لا تكليف قبل ورود الشرع وأن ما في السماوات وما في الأرض مسخر للإنسانية ، وما فيها من ضرر يعد من المستثنيات يقول : " أن كل شيء في الأرض وكل عمل فمباح حلال إلا ما فصل الله تعالى لنا تحريمه نصا عليه في القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم المبلغ عن ربه عز وجل والمبين لما أنزل عليه ، وفي إجماع الأمة كلها المنصوص على اتباعه في القرآن وهو راجع إلى النص ... فإن وجدنا شيئا حرمه النص بالنهي عنه أو الإجماع باسمه حرمناه وإن لم نجد شيئا منصوصا على النهي عنه باسمه ولا مجمعا عليه فهو حلال " [٢٢]

أما في الوقت الراهن فتنزيلها في مجال الحريات أقرب للصواب لاسيما وأن عددا كبيرا من الجمعيات تنشط في مجال الحقوق والحريات المختلفة التي أقرها الدين والفطرة ، ولا بأس بالانفتاح على الأمم التي سبقتنا في هذا المجال.

وعن سوء فهم القاعدة وقلب حقيقتها من طرف علماء الفقه والأصول ، وتأثير ذلك على فقه الأمة يقول الريسوني : " وقد أدى هذا النظر المقلوب إلى حرمان المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مما لا يحصى من فرص الكسب والإنتاج والتطور والتقدم والتأثير والتغيير ، في المجالات الاقتصادية والسياسية والمهنية والتعليمية والفنية ، وسائر مجالات الحياة ..."[٢٣]

وهو نفس الأمر الذي أكده عبد الحميد أبو سليمان الذي انتقد الوضع العام لقواعد الأصول التي لم تستغل في المجالات الاجتماعية والسياسية مما أدى إلى تأخر الأمة في مجالات متعددة يقول : " أما الأصول والمناهج الخاصة بالأحوال والوقائع والطبائع فإنها أهملت ، وأهملت معها حقوق

٢٢ الإحكام لابن حزم ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الأفاق الجديدة بيروت ، بدون طبعة وبدون تاريخ ج ٨ ص ١٣

٢٣ أبحاث في الميدان للريسوني ، دار الكلمة ، الطبعة الأولى ٢٠١٠م ، ص ٥٠

العلم والمعرفة المتعلقة بها ، ولذلك لم تنشأ علوم المجتمع بالمعنى الصحيح وبالمدى الممكن لمنطلقات الإسلام ، وهكذا لم ينشأ علم سياسة إسلامية ، ولا علم تربية إسلامية ، ولا علم اقتصاد إسلامي ، ولا علم إعلام إسلامي ، ولا علم إدارة إسلامية . والعلوم المنهجية المنظمة هي غير التأملات والنظرات التلقائية المبعثرة دون تخطيط ولا منهج ..."[٢٤]

*– قاعدة الواجب الكفائي

وهذه قاعدة مهمة في بابها ، ويمتد أثرها إلى جميع أفراد الأمة ، وتعني الواجب الذي أذا قام به البعض سقط الفعل والإثم عن الباقين ، وهي تقابل قاعدة فرض العين الذي تتكرر مصلحته مع تكرار الفعل كالصلاة والصوم وبقية العبادات ، وضابط تكرار المصلحة هو الذي ميز به القرافي هذا الواجب عن غيره من الواجبات العينينة يقول :" الأفعال قسمان: منها ما تتكرر مصلحته بتكرره ومنها ما لا تتكرر مصلحته بتكرره ، فالقسم الأول شرعه صاحب الشرع على الأعيان تكثيرا للمصلحة بتكرر ذلك الفعل كصلاة الظهر فإن مصلحتها الخضوع لله تعالى وتعظيمه ومناجاته والتذلل له والمثول بين يديه والتفهم لخطابه والتأدب بآدابه وهذه المصالح تتكرر كلما كررت الصلاة والقسم الثاني كإنقاذ الغريق إذا شاله إنسان فالنازل بعد ذلك في البحر لا يحصل شيئا من المصلحة ، فجعله صاحب الشرع على الكفاية نفيا للعبث في الأفعال وكذلك كسوة العريان وإطعام الجيعان ونحوهما فهذا ضابط القاعدتين وبه تعرفان "[٢٥]
إن خيرية الأمة تخضع لسنن الله في الكون وهي بهذا تزداد وتنقص ، فتزداد إذا انخرط المجتمع الإسلامي في أفعال الخير وتحمل أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض بالصلاح ، وتنقص إذا تهاون في هذه الأعمال قياسا على الإيمان الذي يزداد بالطاعات وينقص بالمعاصي على مذهب أهل السنة والجماعة وعموم الأشاعرة .

ولهذا فضل الجويني الواجبات الكفائية على الواجبات العينية لأن أثرها يمتد إلى أعماق المجتمع ، كما يظهر في تفسير سورة البلد التي تتناول تفاصيل العمل الاجتماعي في الإسلام .
فما أحوج المجتمع المدني المعاصر إلى استجلاء هذه القواعد الاجتماعية لتجويد الأعمال و تقريب المنافع للناس ، وحثهم على التعاون والتآزر والتكافل وفق المبادئ الإنسانية العامة التي

٢٤ أزمة العقل المسلم لعبد الحميد أبو سليمان ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الطبعة الأول ١٩٩١ م ، ص ٧٣
٢٥ الفروق للقرافي ص ١١٦

تشترك بين جميع شعوب العالم ، وأخذا بمبدأ تحالف القيم الذي دعا إليه رسول الله صلى الله علية وسلم في حديث حلف الفضول حيث قال : " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت "[٢٦]

على أنه يجب توسيع دائرة اهتمام الناس بهذا الواجب حتى يعم الخير ، ويستمر العمل وتكتمل الجهود كل بحسب طاقته وجهده ، إذ الناس درجات في الإقبال على الخير ، ومن لم يستطع العمل ، شارك في علمية الإحساس بضرورة العمل والمشاركة ، وهنا تدخل أعمل الجمعيات التي لا يتعدى عملها التحسيس والإعلام . يقول الشاطبي رحمه الله : " إنه واجب على الجميع على وجه من التجوز، لأن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة،فهم مطلوبون بسدها على الجملة، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة، وذلك من كان أهلا لها، والباقون –وإن لم يقدروا عليها– قادرون على إقامة القادرين، فمن كان قادرا على الولاية؛ فهو مطلوب بإقامتها، ومن لا يقدر عليها؛ مطلوب بأمر آخر، وهو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها؛ فالقادر إذا مطلوب بإقامة الفرض، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر؛ إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بالإقامة من باب ما لا يتم الواجب إلا به.."[٢٧]

ويمكن تنزيل القاعدة على الجمعيات التي تمارس العمل الخيري بكل الطرق والوسائل المتاحة ، وتعد مؤسسة محمد الخامس للتضامن بالمغرب خير مثال للمؤسسات العاملة في مجال العمل الكفائي ، إذ قسمت أعمالها على لجان مختلفة تعمل في العمل التضامني الموسع ، و حققت نتائج مرضية في مجال التنمية المستدامة في المغرب ، كما حققت وعيا لدى عموم المغاربة بضرورة الانخراط في العمل التنموي الذي ينطلق من الإنسان وفق مبادئ الهوية المغربية والإسلامية المبنية على احترام التعددية والاختلاف .

*- قاعدة العرف و العادة

قال ابن عابدين : والعرف في الشرع له اعتبار *** لذا عليه الحكم قد يدار [٢٨]

---

26 السنن الكبرى للبيهقي ، كتاب قسم الفيء والغنيمة ، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجب ، بابإعطاءالفيءعلىالديوانومنيقعبهالبداية ، حديث رقم ١٢٢٢٩:

٢٧ الموافقات للشاطبي ج ١ ص ١٦٩

٢٨ القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة ،محمد مصطفى الزحيلي. ، دار الفكر – دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ص ٣٠٢

لقد اهتم علماء الأصول بالأعراف واعتبروها مصدرا من مصادر التشريع خاصة إذا كانت موافقة للشريعة وظهر فيها موجب الاعتبار من تحقيق المصالح ودفع المفاسد ، وقد أقر الإسلام كثيرا من الأعراف والتقاليد لمساهمتها في تحقيق المصالح العاجلة والآجلة للناس ، وعلى هذا كانت العادة محكمة في عرف الفقهاء وجمهور علماء القواعد الفقهية لما لها من إمكانيات تشريعية وإصلاحية ، فكان لابد للجمعيات المدنية من رعاية هذه الأعراف والعادات التي لا تتعارض مع الشرع لتحقيق المصلحة العامة والتنمية الشاملة والمحافظة على لحمة المجتمع وتكافله وتعاونه وفي الحديث ما يفيد هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " : " إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية ، فهم مني وأنا منهم "[٢٩]

إن العادات يمكن أن تشكل الأرضية الصلبة للعمل الجمعوي والمدني من خلال إحياء المبادرات الخيرية التي ترمي إلى جمع الكلمة والتخفيف على الضعفاء والفقراء والمساكين ، وتشكل جمعية " تويزة " أو تيويزي باللغة الأمازيغية[٣٠] نموذجا لتطبيق قاعدة الأعراف في المجتمعات المدنية التي يغلب عليها الطابع القبلي ، فتجد القبيلة الواحدة تتعاون تحث إطار الجمعية المعترف بها لخدمة مصلحة التنمية ، تحقيقا للنفع العام الذي يجب أن يشمل الجميع .ويظهر هذا التعاون في مجالات الحرث وبناء المدارس ، وتعبيد الطرق وتقديم المساعدات في حالات الأفراح والأحزان ، فتراهم لا يتوانون عن الخدمة حين يصدر الإعلان ،ويتسارعون إلى المبادرة بالمساعدة وفق هذا المبدأ الذي يتوافق مع التعاليم الإسلامية .

قاعدة الترك

ارتبط الترك عند علماء الأصول بالفعل ، وذلك لأن ترك الأمور التي أمر بها الشرع فعل من الأفعال التي يعاقب عليها الشرع ، وارتباط هذا الترك بهذا الجزاء هو الذي جعل منه فعلا من الأفعال التي يثاب عليها العبد ، وبهذا فمن ترك أمرا مشروعا بمحض الإرادة والقصد فقد فعل الترك .

قال العلوي الشنقيطي :

٢٩ صحيح البخاري كتاب الشركة ، باب الشركة في الطعام والنهد والعروض رقم ٢٣٧٤ ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، بابمنفضائلالأشعريينرضياللهعنهم - حديث:٤٦٦١

٣٠ وتعني باللغة الأمازيغية التعاون الجماعي في المجالات الاجتماعية التي يعود نفعاها على الجميع

فكفنا بالنهي مطلوب النبي *** والكف فعل في صحيح المذهب

ومعنى هذا أن الذي كلفنا به في نهي الشارع المجازي الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم . الكف بمعنى الترك والانتهاء أي انصراف النفس إلى المنهي عنه وذلك فعل يحصل بفعل الضد للمنهي عنه [٣١]

ومن الأدلة الدالة على حجية هذه القاعدة الأصولية قوله تعالى : " وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا " الفرقان ٣٠

قال محمد أمين الشنقيطي:" فإن الأخذ : التناول، والمهجور: المتروك، فصار المعنى تناولوه متروكا، أي: فعلوا تركه "[٣٢]

على أن الدليل القوي المرتبط بالعمل الجمعوي هو ما روي عن الصحابة الذين تركوا العمل في بناء المسجد النبوي ، في وقت كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحمل الحجارة على كتفه مشاركا في هذا العمل الخيري فقال القاعدون من الصحابة : " لئن قعدنا والنبي يعمل لذلك منا العمل المضلل " [٣٣]

وتعد قاعدة الترك أقرب القواعد إلى أعمال الجمعيات الخيرية ، وذلك لارتباطها بتفريعات اجتماعية مختلفة ترتبط كلها بالأعمال الكفائية التي تضطلع بها الفئات النشيطة في المجتمع الإسلامي ، وقد فصل الزقاق فيها القول في كتابه : المنهج المنتخب في قواعد المذهب قال الشنقيطي تضمينا :

له فروع ذكرت في المنهج *** وسدرها من بعد ذا البيت يجي

من شرب أو خيط ذكاة فضل ما *** و عمد رسم شهادة وما

عطل ناظر وذو الرهن كذا *** مفرط في العلف فادر المآخذا

وكالتي ردت بعيب وعدم *** وليها و شبهها مما علم[٣٤]

فالشرب :إشارة إلى من عنده فضل الشراب فلم يعطه مضطرا فإنه يضمن ديته بناء على فعلية الترك ، وينطبق الفرع على الجمعيات التنموية التي تهتم بربط المناطق القروية بالماء الصالح

---

٣١ نشر البنود على مراقي السعود للشنقيطي ج ١ ص ٦٩

٣٢ أضواء البيان دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنانعام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـج ٦ ص ٤٨

٣٣ نشر البنود ص ٧٠

٣٤ نشر البنود ص ٧٢

للشرب ، وغالبا ما تكون عبارة عن فدراليات لصعوبة هذا النوع من المشاريع ، بحيث تشترك الفدرالية مع بعض المنظمات الأجنبية إضافة إلى مساهمة الجماعة القروية في المشروع .

الخيط : إشارة إلى من به جائفة فطلب من شخص أن يخيط به فمنعه حتى مات ، وهو من أخطر التروك في الشرع لارتباط المهج به ، ويرتبط هذا الفرع بالجمعيات التي تعمل في مجال الإغاثة والتبرع بالدم ، وهو عمل خيري ينقد أرواح المعطوبين وضحايا حوادث السير الذين يحتاجون إلى هذا النوع من التبرع .

وذكاة : إشارة إلى الصيد الذي يحتاج إلى التذكية ،ونمثل له جمعويا بجمعيات حماية الحيوان الذي يستهدف في مواسم الصيد ، ولابد من توسيع هذا الفرع ليشمل كل الحيوانات التي تكون هدفا للصيد في مواسمه حماية للبيئة والمحيط .

فضل ماء : إشارة إلى من عنده فضل ماء ولجاره زرع يخاف عليه فلابد من تمكينه من الماء تحرزا من هلاك الزرع ، ويرتبط بالعمل الخيري المرتبط بتنظيم دورات السقي وفق العرف المتبع في القبيلة ، وفي المعيار للونشريسي قوانين اجتماعية دأب عليها المغاربة في السقي ، يرتبط معظمها بالعرف والعادة .

عمد : إشارة إلى ما ترمم به المنازل الآيلة للسقوط ، وخاصة تلك التي تكون في الأحياء التي تشترك فيها الجدران بين كل سكان الحي في المدن العتيقة ، وقد أنشأت جمعيات لهذا الغرض في الأحياء حفاظا على الطابع المعماري للحي من جهة ، ولحماية السكان من الهدم من جهة أخرى .[٣٥]

رسم شهادة : إشارة إلى حفظ وثائق الأملاك العقارية ، ونمثل له بجمعيات السكن التي تحمي العقار من المضاربات والغش والتدليس .

عطل ناظر : إشارة إلى ناظر أملاك اليتيم ، وقد اهتمت جمعيات اجتماعية كثيرة بمال اليتيم ، بل ساعدت حتى في جمع التبرعات وتوزيعها في المواسم ، ويدخل في الباب حماية هذا المال بالتجارة والنماء تحرزا من زواله .

ذو الرهن : إشارة إلى ما عطل المرتهن من كراء الرهن إذا كان مما يستعمل في الكراء ، وأصل المسألة حديث الرسول صلى الله عليه وسيلم : " لا يغلق الرهن ، له غنمه ، وعليه غرمه "[٣٦].

٣٥ اهتمت منظمة اليونسكو ببعض المدن العتيقة التي صنفت ضمن التراث الإنساني ، وساهمت مع الحكومات في الترميم وإعادة البناء

٣٦ صحيح ابن حبان كتاب الحظر والإباحة باب ذكرمايحكمللراهنوالمرتهنفيالرهنإذاكانحيوانا رقم ٦٠١٩

وفي الفرع إشارة إلى ضرورة حفظ أملاك الناس عند الرهن دون التعسف في استعمالها ، وقد تعارف الناس على نوع من الرهن لا يجيزه الشرع لما فيه من السلف الذي جر نفعا ، وعليه فالجمعيات التي تدافع عن هؤلاء إنما تمنع حقوق أصحاب الرهن و تمنع تطبيق قاعدة الغنم والغرم على أملاكهم كما يشير الحديث .

مفرط في العلف : إشارة إلى حقوق الحيوان الذي يستعمل في الركوب كالخيل والبغال والحمير ، فلا يجوز تركها بدون علف أو سقي ، ولابد للجمعيات من رعاية هذا الحق استجابة لنداء الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أوصى برعاية الحيوان والرفق به قال صلى الله عليه وسلم : " بينا رجل يمشي ، فاشتد عليه العطش ، فنزل بئرا ، فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رقي ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له " ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال : " في كل كبد رطبة أجر " [٣٧]

وهكذا يمكن توسيع هذه القاعدة لتشمل مختلف الفروع التي تحتاج إلى التدخل السريع لحماية مقدرات الأمة ،والحفاظ على اللحمة الاجتماعية ، ومجابهة الكوارث التي قد تفتك بإمكانيات الأمة وبنيتها التحتية ، وعلى هذا فلابد من ربطها بالأنشطة الطبية والتربوية والحقوقية والتنموية والسياسية لتحقيق التنمية المستدامة ، ومنع التواكل الاجتماعي .

وبالنظر إلى القوانين الوضعية الخاصة بالجنح والجنايات ، نجد قانونا يتناول جريمة الامتناع عن تقديم العون لشخص في خطر وهي جناية يعاقب عليها القانون الوضعي لما فيها من الترك المتعمد الذي يتعدى على حقوق الغير التي هي حق من حقوق الله .

وقد استشعر المفكر الأمريكي إيفرلي خطورة غياب هذا الضابط في المجتمع وسماه الركود الاجتماعي الذي ميز المجتمع الغربي بعد غياب هذا النوع من المسؤولية قال : " يكمن الضعف الأكبر الأمريكي في المجالات المدنية والثقافية والأخلاقية حيث تظهر عيوب الحلول الحكومية وعدم صلاحياتها ، وقد تحدث دافيد بلانكنهورن من معهد القيم الأمريكي عن ركود اجتماعي وركود ثقافي أمريكي كان له عواقب خطيرة على مستقبل أمريكا ووقع تراجع في الالتزامات المدنية وانخفاض في الثقة بالمؤسسات الاجتماعية ..."[٣٨]

---

٣٧ صحيح البخاري كتاب المساقاة ،بابفضلسقيالماء - حديث:٢٢٥٥

٣٨ مجتمع المواطنين لجون إفرليي ص ١١ - ١٢

على أن القواعد الأصولية التي يمكن ربطها بهذه المجتمعات المدنية لا تقتصر على ما ذكر ، وإنما تعم كل الضوابط التي قعدها علماء الأصول باختلاف مدارسهم الأصولية والفقهية ، وهذه بعض القواعد أذكرها على سبيل الإجمال دون التفصيل فيها مراعاة للاختصار الذي يقتضيه المقام .

*- قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب

*- قاعدة النظر في مآلات الأفعال والأقوال

*- قاعدةالزواجر والجوابر

*- قاعدة التعدي على السبب كالتعدي على المسبب.

المطلب الثالث : المجتمع المدني بين منهجي الأصول والمقاصد

لقد تطور العمل الجمعوي في البلاد العربية والإسلامية ، وأصبح يقدم نفسه بديلا للسلطة السياسية المنتخبة ، بسبب عوامل كثيرة نذكر منها :

*- فساد النخبة السياسية وتهافت الناس على الوظائف دون أن تتوفر فيهم المعايير الشرعية لتحمل المسؤولية .

*- عدم اهتمام السلطات السياسية بالجوانب الاجتماعية ، جعل الجمعيات تتخذ المبادرة لتحقيق التنمية الشاملة بإمكانياتها الذاتية .

*- تنامي الوعي بضرورة توسيع المشاركة في تسيير الشأن العام المحلي والوطني في إطار الجماعات المحلية وجمعيات الإصلاح الاجتماعي .

ولقد تنبهت منظمات العمل الخيري لكثير من المعضلات التي تواجه السلطة السياسية خاصة في جانب البرامج الاجتماعية التي تفتقر إلى الإرادة السياسية والعزيمة القوية والرؤية الواضحة للعلاج ، وذلك بسبب السياسات الفاشلة التي تسلكها بعض الدول في المجال الاجتماعي والاقتصادي .

ولابد من رؤية استراتيجية تعتمد على علم أصول الفقه الذي يمكن الاستعانة به في مجال التنظير للأعمال الخيرية التي تقدمها هذه الجمعيات لعموم المواطنين ، دون إغفال المقاصد والقيم الروحية والإنسانية عند التنزيل ، وبذلك تكتمل الرؤية وتتيسر الأعمال ، وتجود السياسات الاجتماعية والثقافية داخل هذه الإطارات التي أصبحت ضرورية في المجتمعات الإسلامية.

وتتسم الدراسات المقاصدية التي تعالج هذه الموضوعات بالعموم والشمول ، وتحتاج إلى تعمق أكبر في المجتمعات المدنية التي تعمل في عمق المجتمعات المدنية والأهلية على تحقيق التنمية الشاملة ، وعلى هذا فلابد من توسيع دائرة هذا العلم ليشمل العمق الموسع للمجتمعات.

إن اعتماد الفكر المقاصدي المبني على الضروريات والحاجيات والتحسينيات يعلم كوادر المجتمع المدني السعي والعمل وفق نظرية الأولويات التي يحتاجها المجتمع ، إذ لا يجوز الانصراف إلى الأمور التحسينية إذا لم تتحقق الحاجيات والضروريات . وعليه فلا معنى للاستباق نحو تحقيق الرفاهية في غياب الأمور الضرورية التي لابد من قيامها لتحقيق الأمن القومي والغذائي .وعلى المجتمع المدني أن يسعى إلى استكمال البنيات التحتية المرتبطة بالطرق والسكن وموارد العيش الأساسية ، وأن يكون هذا من أولويات نضاله من أجل الالتحاق بالركب الحضاري في مجال المقومات المادية للحضارة الإنسانية ، ولابأس بعد ذلك بالاشتغال ببعض الكماليات التي تحقق التوازن النفسي والاجتماعي .يقول الريسوني في مسألة الفن الذي يجب أن تهتم به الجمعيات التي تنشط في مجال الفن والإبداع الأدبي والتشكيلي : " فهذه الفنون فيها لهو ولعب ، وفيها شهوات وملذات تطلب وتلبى وهي من قبيل الجماليات والتحسينيات ، وهي أيضا في بعض الأحيان مجرد وسائل وأدوات .."[٣٩]

وإذا كان فقه الأولويات من الأسس المعتمدة في المقاصد لكونه يراعي مآل أفعال المكلفين ، تحقيقا للكمال الأخلاقي الذي يحقق مجتمع الواجب ، فإن فقه الواقع يشكل الأرضية الصلبة لعلمي الأصول والمقاصد لتحقيق التنزيل الجيد للقواعد على هذه المجتمعات، تحرزا من سوء التنزيل الذي قد يتسبب في غبش الرؤية المقاصدية عند الأجرأة والتطبيق.

وعندما يتعلق الأمر بمعالجة قضايا التنمية الاجتماعية والثقافية والسياسية للبلد الواحد ، لا يمكن استهداف الشأن المحلي أو الجهوي وصولا إلى المستويات الوطنية من دون فقه واقع هذه

---

٣٩ الأمة هي الأصل للريسوني ص ٧٧

المستويات ، ودائما بأدوات التخصص في كل مجال . والانتقال من الهام المحلي الضيق إلا استهداف الأوطان بجهود التعاون والتشبيك تعظيما للمصالح مؤشر على نضج الوعي بالمسؤوليات [٤٠]

كما يعد تحقيق المناط ضرورة مقاصدية لارتباطه بالاجتهاد التنزيلي الذي يصلح لهذه المجتمعات المدنية التي تعمل في كل مجالات الحياة مما يحتم ضرورة استحضار هذا النوع من الاجتهاد على مستوى الأفراد والجماعات والدول. يقول الشيخ عبد الله بن بيه : " وباختصار فإن تحقيق المناط هو وسيلة تنزيل الأحكام على الوقائع باعتبار أن الأحكام الشرعية معلقة بعد النزول على وجود مشخص هو وجود الواقع ، أو الوجود الخارجي كما يسميه المناطقة . وهذا هو الوجه مركب تركيب الكينونة البشرية في سعتها وضيقها ، ورخائها وقترها، وضروراتها وحاجاتها وتطورات سيروراتها "[٤١]

إنها صرخة منه لتوسيع دائرة المقاصد والأصول لتؤدي وظيفتها الأساسية في الحياة وفق مبدأ التيسير في التكليف والمصلحة التي أراد الشارع تحقيقها للإنسانية تحت غطاء التكليف العام الذي ينطلق من مبدأ الاستخلاف وعمارة الأرض بالصلاح . ولهذا نجده يستنهض همم الاقتصاديين والاجتماعيين والسياسيين لمراعاة هذا النوع من الاجتهاد عند التنزيل والتطبيق ، وعند وضع الخطط والاستراتيجيات المتعلقة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . يقول : " ولهذا فمن الأهمية بمكان أن يبذل الاقتصاديون الوضعيون والأطباء والسياسيون والاجتماعيون وغيرهم من أصحاب الصنائع والتخصصات جهدا لإيصال كل العناصر التي يتوفرون عليها إلى زملائهم الشرعيين ليحقق هؤلاء المناط لتنزيل الحكم على واقع العقد وعلى حقيقة الذات ." [٤٢]

وعلى هذا فالخطة المقترحة للتنظير والتنزيل يمكن استعراضها في مراحل أربعة هي :
المرحلة الأولى : البحث في كتب الأصول على القواعد التي ترتبط بالأعمال الخيرية والتي يمكن تنزيلها على أعمال الجمعيات المدنية بعد تحقيق مناطاتها والتأكد من فعاليتها في المجال الاجتماعي والخيري .

---

٤٠ المجتمع المدني ومقاصد الشريعة إشكالية المرجعية والتنزيل ص ٢٠٣/ ٢٠٤

٤١ الاجتهاد بتحقيق المناط فقه الواقع والتوقع ، عبد الله بن بيه ص ١٣

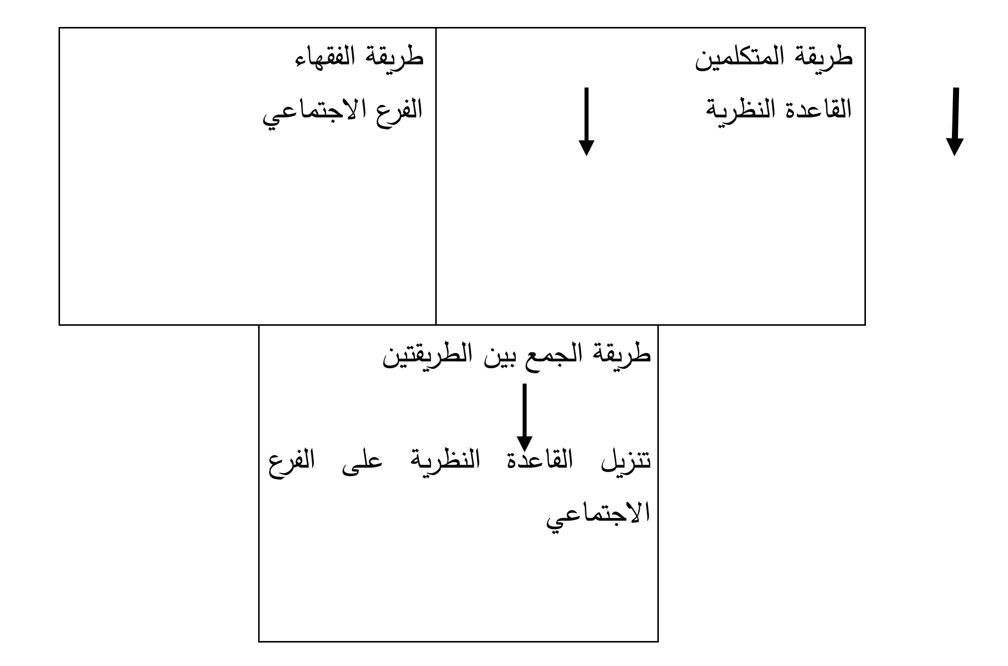
٤٢ نفسه ص ١٣

المرحلة الثانية : البحث في كتب أصول الفقه على نوع خاص من الفروع التي تنتمي إلى الحقل الاجتماعي ، والتي ترتبط أساسا بالعمل الاجتماعي التعاوني كالفروع المرتبطة بفقه الوقف والاحتساب والعطية والهبات والصدقات ، والعمرى والإبراء وجميع العقود التبرعية التي تشكل أرضية العمل الخيري في الشريعة الإسلامية .

المرحلة الثالثة :اعتماد مقاصد الشريعة الإسلامية والكليات العامة التي تدور فلسفتها على جلب المصالح ودفع المفاسد ، و مراعاة ترتيبالضروريات والحاجيات والتحسينات والمكملات المتعلقة بها ،وذلك لأن مصالح العباد الدنيوية والأخروية مرتبطة بهذه المصالح المذكورة .

المرحلة الرابعة: اعتماد طريقة الجمع بين طريقة المتكلمين الأصولية وطريقة الفقهاء وعدم إغفالها عند التنزيل حتى لا يغلب الجانب النظري على الجانب التطبيقي ، ولابد من الجمع بين كتب الأصول والمقاصد للعلاقة القائمة بين العلمين في جهتي التنظير والتنزيل .

خطاطة تبين طريقة التنظير الأصولي



جدول يبين تطبيق القواعد على جمعيات المجتمع المدني المعاصر

القاعدة	المنظمة المدنية	مجال التنزيل	نوع المقصد
قاعدة الاستصحاب	الجمعيات الحقوقية كالجمعية المغربية لحقوق الإنسان	توسيع دائرة الحقوق وحمايتها وإضفاء المشروعية عليها	الحفاظ على مقصد الحرية وهو من الضروريات
العرف والعادة	جمعيات التنمية الاجتماعية كجمعية تويزة	العمل الاجتماعي والتنموي	الضروريات و الحاجيات
قاعدة الواجب الكفائي	جميع الجمعيات التي تعمل في الجانب الإنساني كمؤسسة محمد الخامس للتضامن بالمغرب	محاربة الفقر والتهميش	الضروريات والحاجيات
قاعدة الترك	جميع الجمعيات التي تهتم بمختلف حاجيات الناس كالهلال الأحمر وجمعيات الماء الصالح للشرب وحماية المستهلك ...	مجال الطب وتوفير الماء والكهرباء وترميم البنايات القديمة...	الحاجيات والضروريات والتحسينيات والوسائل
قاعدة المصلحة	الجمعيات التي تهتم بمصالح العباد الدنيوية والأخروية	مجال العلم والمعرفة والاقتصاد والمجتمع والسياسة والعمران	الحاجيات والضروريات
قاعدة سد الذرائع وفتحها	الجمعيات التي تعمل في مجال محاربة الفساد والفقر والجريمة والمخدرات وتعمل على تحقيق السلم الاجتماعي كجمعيات الطفولة والتربية وحماية المستهلك	وسائل النفع يجب فتحها ووسائل الفساد يجب غلقها	المصالح والمفاسد والوسائل التي تفضي إليها إضافة إلى التحسينيات

نتائج البحث

واضح مما سبق أن الضوابط الأصولية والمقاصدية ضرورية لضبط المجتمعات المدنية والأهلية في كل مجالات العمل التطوعي والاجتماعي .

*- أن النهضة العربية في المجال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لا تتم إلا باعتماد المنهج الأصولي المقاصدي والتوسع فيه ليشمل المجالات التي تمس الجوانب الحساسة في المجتمع لتحقيق التنمية المستدامة ونبد التبعية والتقليد .

*- أن الضوابط الأصولية لا تكتمل وظيفتها إلا إذا عضدت بالمقاصد العامة والقيم الروحية والإنسانية

*- أن الممارسة التطوعية الحالية تحتاج إلى إعمال هذه الضوابط لتخليق الحياة الجمعوية والمدنية .

*- أن التقدم الاجتماعي والاقتصادي لهذه الجمعيات لا يتم إلا بالانتقال من المجتمعات الجمعوية إلى المجتمعات المدنية بعد إعمال مبادئ الأصول والمقاصد .

*- أنه لا يمكن الاستفادة من علمي الأصول والمقاصد في هذا المجال إلا بتطبيق المنهج المسطر في المطلب الثالث والذي يعتمد على الجمع بين طريقة الفقهاء وطريقة المتكلمين .

*- أن تنزيل المقاصد لا يتم إلى بعد مراعاة القواعد المقاصدية المهمة في التنزيل كقاعدة مراعاة المآل وتحقيق المناط وفقه الواقع .

*- ضرورة ربط المقاصد بالقيم الإنسانية مع فتح المجال للاستفادة من التجارب الإنسانية في مجال العمل الجمعوي والتطوعي أخذا بمبدأ تحالف القيم المستند إلى حديث حلف الفضول . وفي الأخير يمكن لهذا البحث إن اكتملت مباحثه ، وجمعت مادته العلمية ، وأحسن تنزيله، أن يساعد في تقديم بعض الحلول النظرية والتطبيقية لجمعيات المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية التي تعمل في العمل التطوعي .

*- كما يمكن أن يسهم في بلورة قانون عام يحكم الممارسة التطوعية ، وينظم السير العادي للمؤسسات التي تعمل في المجالات الاجتماعية والسياسية .

*- كما يمكن أن يشكل مرجعا نظريا لجميع جمعيات المجتمع المدني التي تحكم الشريعة الإسلامية والقانون في ممارساتها التطوعية .

*- وأخيرا يمكن لهذا البحث أن يسهم في تحويل المجتمعات العربية الإسلامية من المجتمعات الجمعوية إلى المجتمعات المدنية ، وذلك لأن أغلب الباحثين الاجتماعيين والسياسيين يؤكدون على أن المجتمعات الإسلامية مجتمعات جمعوية فقط ، ولا بد من تحويلها إلى مجتمعات مدنية أسوة بالمجتمع المدني الذي أسسه الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة .
هذا ما استطعنا جمعه وتوثيقه في هذا الموضوع ، ونسأل الله تعالى الإخلاص والصواب في عملنا والسلام عليكم ورحمة الله .

المصادر والمراجع

*- التفسير الوسيط للزحيلي دار الفكر بدمشق الطبعة الأولى ١٤٢٢ه

*- أزمة العقل المسلم عبد الحميد أبو سليمان ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي الطبعة الأولى ١٩٩١

*- الإبهاج في شرح المنهاج للسبكيين دار الكتب العلمية الطبعة الاولى ١٩٩٥

*- الاجتهاد بتحقيق المناط فقه الواقع والتوقع للشيخ عبد الله بن بيه ، مؤسسة طابة بالإمارات العربية المتحدة ، سلسلة ورقات طابة رقم ٨ ، ٢٠١٤

*- الاجتهاد بتحقيق المناط وسلطانه في الفقه الإسلامي لعبد الرحمن الزايدي مركز التراث الثقافي المغربي تاريخ الطبع ٢٠٠٥

*- الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي لمحمد المهدي شمس الدين ، المؤسسة الدولية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٩

*- الإحكام في أصول الأحكام ، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري ، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ، تقديم الأستاذ الدكتور إحسان عباس ، دار الآفاق الجديدة، بيروت بدون تاريخ

*- الأمة هي الأصل مقاربة تأصيلية لقضايا الديمقراطية ، حرية التعبير ، الفن للريسوني ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، الطبعة الأولى ٢٠١٢

*- التعريفات للجرجاني دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٩٨٣

*- القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة ، محمد مصطفى الزحيلي. ، دار الفكر – دمشق ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

*- المجتمع المدني ومقاصد الشريعة إشكاليبة المرجعية والتنزيل محمد الحبيب الدكالي دار الكلمة الطبعة الأولى ٢٠١٩

*- الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، دار ابن عفان ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

*- النقد الذاتي لعلال الفاسي المطبعة العالمية الطبعة الأولى بدون تاريخ

*- أنوار البروق في أنواء الفروق ، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ) عالم الكتب ، بدون طبعة وبدون تاريخ

*- بناء مجتمع من المواطنين المجتمع المدني في القرن الحادي والعشرين جون إيبفرليي ترجمة هشام عبد الله ، الأهلية للنشر والتوزيع بالأردن الطبعة الأولى ٢٠٠٣

*- قضايا التجديد نحو منهج أصولي حسن الترابي معهد البحوث والدراسات الاجتماعية الطبعة الأولة ١٩٩٠

*- معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عبد الحميد عمر ، عالم الكتب الطبعة الأولى ٢٠٠٨

*- معجم مقاييس اللغة لابن فارس دار الفكر الطبعة الأولى ١٩٧٩م

*- نشر البنود على مراقي السعود دار فضالة المحمدية المغرب الطبعة الأولى بدون تاريخ

*- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ، أحمد الريسوني ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي الطبعة: الثانية - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢

ظاهرة الانطلاق الفيزياوية في القرآن الكريم دراسة في الإعجاز القرآني

م.د فردوس هاشم أحمد العلوي/ التدريسية في الجامعة الإسلامية/ كلية العلوم الإسلامية قسم الدراسات القرآنية واللغوية

Dr. Firdous Hashim Ahmed Al Alawi, Professor at the Islamic University / Najaf / College of Islamic Sciences / Department of Quranic and Linguistic Studies.

Frdawsallwy@gmail.com

07802688740

ملخص: يعد هذا البحث (ظاهرة الانطلاق الفيزياوية في القرآن الكريم دراسة في الإعجاز القرآني) من الموضوعات المهمة في علوم القرآن، لذا فإن الدراسة لهذا البحث موضوعيّة، لأنها تحدّثت عن ظاهرة كونية طبيعيّة منطلقة من آيات القرآن الكريم، وتبحث موضوعاً من موضوعاته.

إذ إنّ الإعجاز القرآني تحدّى العلوم التطبيقيّة والعلوم الكونيّة، وتجلّت صور الإعجاز في آياته بما تضمّنت من صور حركيّة، فهو ليس كلاماً جامداً، أو صورة جامدة، بل هو صور حركيّة حيّة تنبض بالحياة، فقد تجلّى الإعجاز العلمي في الانطلاق في القرآن الكريم الذي بيّن الجنبة الإعجازية الفيزيائية المتمثّلة بالحركة والسرعة والطيران والانطلاق بالجسد على حدّ سواء، أضف إلى ذلك الانطلاق بالروح والترقّي إلى أسمى الدرجات بعيداً عن نواميس الطبيعة وقوانين الكون، ولعلّ التواشج بين علوم الطبيعة وعلم النفس هو الذي جعل القرآن لكلّ زمان ومكان، وهذا هو الإعجاز القرآني بعينه.

ولعل مشكلة البحث تكمن في بيان الاعجاز القرآني في استكشاف العلوم التطبيقية وتسخيرها لخدمة العلم والعلماء، فكانت من أسباب اختيار الموضوع أن هذا الكتاب المقدّس قد أُهمل بسبب

طغيان التطور العلمي والتكنلوجي متناسين أن هذا الكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا وقد أحصاها. فكان من الضروري تسليط الضوء على هذا الموضوع.

ومن الملاحظ أنّ عدد الآيات التي تضمّنت معنى الانطلاق في القرآن الكريم (تسع آيات) بين كلمة انطلق، وينطلق، وانطلقا، وفي كل موضع تتضمّن صورة حركية تختلف عن الأخرى في دلالاتها.لذا كان أصل البحث بيّن معنى الظاهرة لغة واصطلاحا، وبيان مدى الارتباط بين معنى الظاهرة وموضوع البحث، فالظاهرة هي الأمر البادي للعيان والمحسوس بإحدى الحواس، وظاهرة الانطلاق من الظواهر الحسيّة والمعنوية في آن واحد، فهي مدركة بالحواس من خلال الإحساس بالحركة والسرعة ومعنوياً من حيث انطلاق الروح وترقّيها، وكذا يبيّن التمهيد معنى الانطلاق لغة واصطلاحا، ودلالات الانطلاق المتعدّدة منها القبول ورفع المحصوريّة وغيرها من المعاني المنبثقة من هذه الكلمة.

وكان المبحث الأول بعنوان: (معايير تحديد الانطلاق)، والذي تضمّن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معيارية الحركة في تحديد الانطلاق. وأن لمعرفة ماهية الانطلاق يجب أن يدرك أنّ أصل الانطلاق يعود الى الحركة، وأن لكلّ حركة زمناً معيّناً، إذ لا يمكن أن نطبق قانون الانطلاق من دون معرفة سرعة الحركة من جهة، ومقدار الزمن المستغرق لها من جهة أخرى.و المطلب الثاني: معيارية السرعة في تحديد الانطلاق. وبيان أنّ هناك معايير للسرعة في تحديد الانطلاق، وأنّ التغيير في السرعة واتجاهاتها يتبعا تغيير في وجهة الانطلاق وكيفيّته، وكذا فالتغيّر في معدّل الانطلاق يتوافق مع الموقف القرآني وبيئة النص، وقوّة الحدث، والظروف التي حدث فيها الانطلاق. والمطلب الثالث: معيارية الزمن في تحديد الانطلاق.وبيان دلالة (حتى) الزمنية في تحديد مدى الانطلاق. أمّا المبحث الثاني فقد كان بعنوان(مصاديق الانطلاق القرآني) والذي تضمّن ثلاثة مطالب:المطلب الأول: الانطلاق المادي .والمطلب الثاني: الانطلاق المعنوي (الترقي).والمطلب الثالث:انطلاق الرياح (تغيير سرعة الرياح بين العصف والرخاء).

الكلمات المفتاحية: الانطلاق– السرعة– الحركة– الزمن–الترقي– الإعجاز القرآني

Abstract: This research (the phenomenon of physical departure in the Koran, a study in the Qur'anic miracle) of the important topics in the science of the Koran, so the study of this research objective, because it talked about the phenomenon of a natural cosmic from the verses of the Koran, and discusses one of its topics.

The Qur'anic miracle has challenged the applied sciences and the cosmological sciences. The physical miracle of movement, speed, flight, and the body, as well as the spirit and promotion to the highest degrees away from the laws of nature and the laws of the universe, and perhaps the interplay between the natural sciences and psychology that made the Koran for all time and place, and this is the miracle of the Quran Ne particular.

It is noteworthy that the number of verses that included the meaning of starting in the Koran (nine verses) between the word go, go, go, and in each place includes a kinetic image is different from the other in its significance.

Therefore, the origin of the research on the preamble between the meaning of the phenomenon of language and terminology, and to show the extent of the link between the meaning of the phenomenon and the subject of research, the phenomenon is the visible thing and perceived sensory, and the phenomenon of starting from the sensory and moral phenomena at the same time, it is aware of the senses through the sense of movement and speed and morally Where the starting and upgrading of the soul, as well as the introduction shows the meaning of the starting language and terminology, and the multiple indications of the starting of acceptance and raising exclusivity and other meanings emanating from this word.

The first topic was entitled (Criteria for determining the starting), which included three points:

.Standard movement in determining starting. And to know what the starting must be aware that the origin of the departure of the movement, and that each movement a certain time, as we cannot apply the law of departure without knowing the speed of movement on the one hand, and the amount of time it takes on the other.

.Standard speed in setting the starting. He explained that there are criteria for speed in determining the starting, and that the change in speed and trends follow a change in the starting point and how to start, as well as the change in the rate of departure is consistent with the Koranic position and the text environment, and the strength of the event, and the circumstances in which the launch.

.Standard time in determining the starting.

The second topic was titled "Certification of Quranic Startup" which included three points:

.Physical starting.

.Moral starting (promotion(Wind starting (changing wind speed between storm and prosperity.(

Keywords: starting, speed, movement, time, promotion, Quranic miracles

المقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين الذي أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد...

إنّ الإعجاز القرآني تحدّى العلوم التطبيقيّة والعلوم الكونيّة، وتجلّت صور الإعجاز في آياته بما تضمّنت من صور حركيّة، فهو ليس كلاماً جامداً، أو صورة جامدة، بل هو صور حركيّة حيّة تنبض بالحياة، فقد تجلّى الإعجاز العلمي في الانطلاق في القرآن الكريم الذي بيّن الجنبة

الإعجازية الفيزيائية المتمثّلة بالحركة والسرعة والطيران والانطلاق بالجسد على حدّ سواء، أضف إلى ذلك الانطلاق بالروح والترقّي إلى أسمى الدرجات بعيداً عن نواميس الطبيعة وقوانين الكون، ولعلّ التواشج بين علوم الطبيعة وعلم النفس هو الذي جعل القرآن لكلّ زمان ومكان، وهذا هو الإعجاز القرآني بعينه.

ومن الملاحظ أنّ عدد الآيات التي تضمّنت معنى الانطلاق في القرآن الكريم (تسع آيات) بين كلمة انطلق، وينطلق، وانطلقا، وفي كل موضع تتضمّن صورة حركية تختلف عن الأخرى في دلالاتها، لذا ارتأت الباحثة أن يكون البحث بعنوان: (ظاهرة الانطلاق الفيزياوية في القرآن الكريم دراسة في الإعجاز القرآني) وقد كان أصل البحث على تعريف بيّن معنى الظاهرة لغة واصطلاحا، وبيان مدى الارتباط بين معنى الظاهرة وموضوع البحث، فالظاهرة هي الأمر البادي للعيان والمحسوس بإحدى الحواس، وظاهرة الانطلاق من الظواهر الحسيّة والمعنوية في آن واحد، فهي مدركة بالحواس من خلال الإحساس بالحركة والسرعة ومعنوياً من حيث انطلاق الروح وترقّيها، وكذا يبيّن معنى الانطلاق لغة واصطلاحا، ودلالات الانطلاق المتعدّدة منها القبول ورفع المحصوريّة وغيرها من المعاني المنبثقة من هذه الكلمة.

وكان المبحث الأول بعنوان: (معايير تحديد الانطلاق)، والذي تضمّن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معيارية الحركة في تحديد الانطلاق. والمطلب الثاني: معيارية السرعة في تحديد الانطلاق.و المطلب الثالث: معيارية الزمن في تحديد الانطلاق.

أمّا المبحث الثاني فقد كان بعنوان(مصاديق الانطلاق القرآني) والذي تضمّن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الانطلاق المادي و المطلب الثاني: الانطلاق المعنوي(الترقي)و المطلب الثالث: انطلاق الرياح (تغيير سرعة الرياح بين العصف والرخاء). وكذا احتوى البحث على قائمة بأهمّ النتائج لتي توصلت اليها الباحثة، وأهم التوصيات، أضف إلى قائمة بأهم المصادر والمراجع التي أغنت البحث. وليس بعيداً أن يكون هذا النوع من البحوث يحمل شيئاً من الصعوبة، كونه يجمع

بين العلوم التطبيقيّة مثل الفيزياء، والعلوم القرآنيّة، لكن ولله الحمد أنّ كتب التفسير كانت غنيّة بهذه المناظرات العلمية والتي ساعدت على إتمام البحث على أكمل وجه، ومنها على سبيل المثال، الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي، والتفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية، وتفسير ابن كثير وتفسير ابن عاشور، ولا يخفى دور معاجم اللغة في تحديد جذور الكلمات وبيان دلالاتها اللغوية مثل معجم لسان العرب لابن منظور، ومعجم العين للفراهيدي، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، ولا يسعني في نهاية المطاف إلّا أن أشكر جميع المكتبات التي ارتدتها أيام كتابة البحث مثل مكتبة الروضة الحيدرية، ومكتبة الإمام الصادق(عليه السلام) ومكتبة الجامعة الإسلامية، وآخر دعوانا أن يتقبّل الله تعالى جهودي بأحسن قبول وأن يكون في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، والحمد لله ربِّ العالمين...... الباحثة

ترى الباحثة ضرورة تعريف مفهوم الظاهرة لغة واصطلاحاً.

فالظاهرة في اللغة من ظهر: الظَّهْر من كل شيء: خِلافُ البَطْن، وظَهَرَ بحاجةِ وظَهَرَّها وأَظْهَرها: جعلها بظَهْرٍ واستخف بها ولم يَخِفَّ لها، ومعنى هذا الكلام أَنه جعل حاجته وراء ظَهْرِهِ تهاوناً بها كأَنه أَزالها ولم يلتفت إِليها[1].

والظاهِرُ : خلاف الباطن؛ ظَهَرَ يَظْهَرُ ظُهُوراً ، فهو ظاهر وظهِير، والظَّواهِرُ : أَشراف الأَرض.[2]والظاهرةُ : العَين الجاحِظَةُ ، وظَهَر الشيءُ بالفتح ، ظُهُوراً : تَبَيَّن ، وأَظْهَرْتُ الشيء: بَيَّنْته، والظُّهور : بُدُوّ الشيء الخفيّ .[3]وفي الاصطلاح: الظهور هو البروز.[4]

وقال ابن فارس: (ظهر) الظاء والهاء والراء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوّةٍ وبروز. من ذلك ظَهَرَ الشيءُ يظهرُ ظهوراً فهو ظاهر، إذا انكشفَ وبرزَ. ولذلك سمِّيَ وقت الظُّهرِ والظَّهيرة،

١ ابن منظور: لسان العرب: ٥٢٢/٤

٢ ابن منظور: لسان العرب: ٥٢٤/٤

٣ المصدر نفسه:٥٢٧

٤ ظ: الأصفهاني: الراغب: معجم مفردات ألفاظ القرآن: ٥٤١

وهو أظهر أوقات النّهار وأَضْوَؤُها. والأصل فيه كلّه ظهر الإنسان، وهو خلافُ بطنه، وهو يجمع البُروزَ والقوّة. ويقال للرِّكاب الظَّهر، لأنَّ الذي يَحمِل منها الشيءَ ظهورُها. ويقال رجلٌ مظهَّر، أي شديد الظَّهْر.[1]

الظاهرة في الاصطلاح: هي كل شيء يدرك الانسان وجوده, ويستطيع وصفه أو الحديث عنه[2].

ولعل ابرز من عرّف الظاهرة اجتماعياً أميل دوركايم، فقد عرفها بأنّها أنواع السلوك المختلفة سواء كانت ثابتة أم متغيرة والتي من شأنها أن تسبب القهر الخارجي للأفراد، أو هي كل سلوك يتشكل بين أفراد المجتمع بأكمله وتكون خصائص هذا السلوك مختلفة في حال تشكله بحالة فردية عنه في الحالة الجماعية.[3]

يبدو من خلال ما تقدّم أنّ أصل الظاهرة هي الشيء المنكشف الواضح للعيان البادي إلى جميع الناس، فهو القيام بفعل يظهر إلى الوجود ويتحرك فيه عبر نظام من الحركة المترابطة التي تتسبب بوجوده .

تعريف الانطلاق لغة واصطلاحاً:

الانطلاق مصدر مأخوذ من الفعل (طلق) يقال : (أَطْلَقْتُ البعيرَ من عقاله، وطَلَّقْتُه، وهو طَالِقٌ وطَلِقٌ بلا قيدٍ، ومنه استعير: طَلَّقْتُ المرأةَ، نحو: خلَّيتها فهي طَالِقٌ).[4] وانْطَلَقَ فلانٌ : (إذا مرّ متخلَّفا، وقيل للحلال :طَلْقٌ ، أي : مُطْلَقٌ لا حَظْرَ عليه، وعدا الفرس طَلْقاً أو طَلْقَيْنِ اعتبارا بتخلية سبيله).[5]و قيل إنّ الانطلاق : (سرعة الذهاب في المحنة).[6]

١ ابن فارس: مقاييس اللغة:٣/٤٧١

٢ ظ: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية, مادة Phenomenon:٥١

٣ ظ: طالب عبد الكريم القريشي ، الظاهرة الاجتماعية عند إميل دوركايم (تحليل اجتماعي) ، ٣٣٢-٣٣١.

٤ الراغب الاصفهاني: مفردات الفاظ القرآن:٥٢٣

٥ المصدر نفسه: ٥٢٣

٦ ظ: الفراهيدي: الخليل بن احمد: العين: ٥/١٠٢

والانطلاق يدلّ على القبول، فيقال أطلقته فانطلق، فهو بمعنى ارتفاع المحصوريّة وأن يكون العمل والحركة بلا مانع، فيستعمل في حركة أو عمل أو مشى أو سير يرتفع فيها المانع والتقيّد والمحدوديّة– أي حين أن يرتفع الحدّ والحصر من جانب العدوّ وتحصّل الانطلاق ممتدّا إلى جهة المغانم.[١] فالانطلاق هو(ارتفاع الحصر، وأمّا الذهاب والسير والحركة وأمثالها، فالنظر في موارد استعمال هذه الكلمة إلى جهة ارتفاع الحصر فقط).[٢]

يتبيّن من خلال التعريفات السابقة أنّ الانطلاق هو رفع القيود والمحصوريّة، سواء كانت هذه القيود مادّيّة ملموسة أم كانت قيوداً معنويّة، الغرض منها التضييق في مساحة حركة المنطلِق.

المبحث الأول: معايير تحديد الانطلاق:

المطلب الأول: معيارية الحركة في تحديد الانطلاق:

للحركة مفهوم واسع مأخوذ من (ح ر ك :الحركة ضد السكون وحرّكه فتحرك، وما به حراك أي حركة).[٣]أوهي:((حصول الجسم في المكان أكثر من زمان واحد)).[٤]

وعرّفها الفلاسفة على أنها(حصول المتحيّز في حيّز بعد أن كان في حيّز آخر، ثمّ المتحرّك هنا يشمل ما كان حركته كميّة، وهي انتقال الجسم من كميّة إلى أخرى، كالنمو والذبول، أو كيفيّة، كانتقال الجسم من البرودة إلى الحرارة على التدريج وبالعكس ، وتسمّى هذه الحركة استحالة أو أينيّة، وهي حركة الجسم من مكان إلى آخر، وتسمّى نقلة).[٥] يبدو من خلال التعريفات أن الحركة تستغرق زمناً معيّناً، وأن احتساب مقدار الزمن يتساوى ومقدار حركة الجسم، أمّا الأجسام الساكنة فلا يمكن احتساب المقدار الزمني لها من دون حركة.

١ حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١١٢/٧

٢ المصدر نفسه: ١١٢/٧

٣ الرازي: محمد بن ابي بكر: مختار الصحاح:٧٧

٤ السدي: علي خان : رياض السالكين : ٢ /٢١٩.

٥ المدني: علي خان: رياض السالكين في شرح صحيفة سيد الساجدين(ع): شرح ص٢٢٠

والحركة : هي تغير موقع الجسم من مكان للآخر. وقد تُقسم الحركة إلى ثلاثة أنواع بشكل عام: حركة دورانية – مثلًا دوران الأرض حول نفسها .

ولمعرفة ماهية الانطلاق يجب أن يدرك أنّ أصل الانطلاق يعود الى الحركة، وأن لكلّ حركة زمناً معيّناً، إذ لا يمكن أن نطبق قانون الانطلاق من دون معرفة سرعة الحركة من جهة، ومقدار الزمن المستغرق لها من جهة أخرى.

وقد بيّن علماء الفيزياء أنّ للحركة اتجاهات متعدّدة تختلف بحسب نوعها، فهي أمّا حركة النمو، أو حركة الارتفاع، أو حركة الانتقال والتحوّل من حالة إلى أخرى، أو الانتقال من مكان إلى آخر.

ويرى الفيروزابادي أن اتجاهات حركة الجسم أربعة(الكم)(والكيف)(والأين)(والوضع)، فحركة الجسم في الكم هي كالأجسام النامية إذا أخذت في النموّ أو الذبول، وحركته في الكيف هي كالماء البارد إذا صار حاراً، أو ورق الشجر الأخضر إذا صار أصفر وهكذا، وحركته في الأين هي انتقال الشيء من مكان إلى مكان، وحركته في الوضع هي كالقائم إذا صار قاعدا أو القاعد إذا صار نائما وهكذا، والحركة في (الوضع) مما تستلزم الحركة في الأين كما صرح به العلامة أعلى الله مقامه .[1]

يبدو من خلال ما تقدّم أنّ نوع الحركة في الانطلاق هي حركة (الوضع)، إذ إنها تبيّن الانتقال من حيّز إلى آخر، و(الأين) إذ إنها تبيّن الانتقال من مكان إلى آخر.

أمّا لتحديد الانطلاق فيستوجب من الحركة قوّة تدفعها إلى الارتفاع بمقدار معيّن، وهذه القوّة الدافعة للحركة والتي تحدّد سرعتها هي معدّل الانطلاق، مع احتساب الزمن المستغرق لهذه العملية، فلا غنى للحركة من دون القوّة (إن الحركة لا تعقل إلا بالقوة، والقوة تشرع في الحركة

---

١ ظ: الفيروزابادي : اليزدي: مرتضى الحسيني: عناية الأصول في شرح كفاية الأصول:١٤٢/٥

بتبع حركة الجسم المزاول لها، فيكون الجسم متحركا بها نحو الكمال المقصود والغاية المطلوبة، فعندئذ يتدرج في الوجود وتفنى وتضمحل آنا فآنا، ويستكمل الجسم المتحرك بها، أو يقرب من الغاية المعينة لها).[١]

نستنتج من خلال ما تقدّم أنّ الانطلاق يشمل الأجسام المتحرّكة دون الساكنة، لأن الانطلاق هو احتساب سرعة حركة الجسم والزمن المستغرق لهذه الحركة.

المطلب الثاني: معيارية السرعة في تحديد الانطلاق.

السرعة ، بالضم : (نقيض البطء ، سرع ، ككرم سرعة ، بالضم ، وسرعا ، كعنب . والله عز وجل ، سريع الحساب ، أي : حسابه واقع لا محالة ، أو لا يشغله حساب عن حساب ، ولا شيء عن شيء ، أو تسرع أفعاله، فلا يبطئ شيء منها عما أراد جل وعز ، لأنه بغير مباشرة ولا علاج).[٢]

وقد وردت (السرعة) في القرآن الكريم ولكن بدلالات متعدّدة منها ما جاء بالدلالة المباشرة للّفظة مثل قوله تعالى: ﴿... أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(الأنعام:٦٢)، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾(يونس:٢١). وفي صيغة الجمع جاءت في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(المؤمنون:٦١).

وهناك دلالات أخرى مباشرة أيضاً للفظة (السرعة) منها لفظة (العجلة)، فقد وردت مصاديق كثيرة في القرآن كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾(مريم:٨٤). وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾(طه:١١٤).

ولعلّ الفرق بين السرعة والعجلة: هو أنّ العجلة : التقدم بالشيء قبل وقته – وهو مذموم – والسرعة : تقديم الشيء في أقرب أوقاته – وهو محمود ، و أن السرعة التقدم فيما ينبغي أن

١ مصطفى الخميني: تفسير القرآن الكريم:٨٢/٥
٢ الفيروزابادي: القاموس المحيط:٣/ ٣٧

يتقدم فيه وهي محمودة ونقيضها مذموم وهو الابطاء ، والعجلة التقدم فيما لا ينبغي أن يتقدم فيه وهي مذمومة، ونقيضها محمود وهو الأناة .[١] وكذا وردت في القرآن الكريم دلالات غير مباشرة للسرعة تُستشفّ من دلالة السياق الذي صيغت فيه مع وجود القرينة الدالّة عليها، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى:﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾(القمر:٥٠) قال مقاتل : (لمح البصر: يعنى رجوع الطرف).[٢]

ويرى السمرقندي أن الساعة تأتي في لمح البصر، ولكنه وصف سرعة القدرة على الإتيان بها.[٣] وقال صاحب التفسير المحيط: (كلمح بالبصر، تشبيه بأعجل ما يحس، وفي أشياء أمر الله تعالى أوحي من ذلك ، والمعنى: أنه إذا أراد تكوين شيء لم يتأخر عن إرادته).[٤]

وقد يكون المراد بلمح البصر اختصار للتدرج الزمني كما يقول الطباطبائي (هذا النوع من التشبيه لنفي التدريج وبه يعلم أن في الأشياء المكونة تدريجا الحاصلة بتوسط الأسباب الكونية المنطبقة على الزمان والمكان جهة معرّاة عن التدريج خارجة عن حيطة الزمان والمكان).[٥]

يبدو من خلال ما تقدّم أنّ الدلالات غير المباشرة للفظة السرعة أعطت معنىً أقوى وأسرع من المعنى الناتج من الدلالات المباشرة، وذلك باختصار المدى الزماني للأحداث. وكذا الأمر في قوله تعالى:﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾(النمل:٤٠).

١ ظ: العسكري: ابو هلال: الفروق اللغوية:٢٧٦
٢ مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٣١/٢
٣ ظ: السمرقندي: ابو الليث: تفسير السمرقندي: ٢٨٤/٢
٤ الاندلسي: ابو حيان: البحر المحيط: ١٨٢/٨
٥ الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن:١٩٧/١٣

يقول الرازي إنّ تفسير هذه الآية على وجهين : (الأول : أنه أراد المبالغة في السرعة ، كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة ، والثاني : أن نجريه على ظاهره ، والطرف تحريك الأجفان عند النظر).[1]

ولا يوجد مقدار ثابت للسرعة في الانطلاق من منظور القرآن الكريم، إلّا إنه يستلزم السرعة وعدم المكوث طويلا، بمعنى أنّ الأحداث تجري متسارعة إلى حدٍّ ما(فالانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث الاعتقال، وهومن الاطلاق خلاف التقييد).[2]

وقد يأتي بمعنى الانتقال من مرحلة إلى أخرى من دون تأخير، قال تعالى: ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾(المرسلات:٢٩).

والانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث، والمعنى يقال لهم: (انتقلوا من المحشر من غير مكث، إلى النار التي كنتم تكذبون به[3]).

وقوله تعالى: ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾(المرسلات:٣٠) ذكروا أن المراد بهذا الظلّ ظلّ دخان نار جهنّم، وذكروا أنّ في ذكر انشعابه إلى ثلاث شُعب إشارة إلى عِظَم الدخان فان الدخان العظيم يتفرق تفرق الذوائب.[4]

ويرى الزركشي أن الانطلاق هو مجرّد الانتقال والمشي من مكان لآخر من دون إسراع، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾(ص:٦)، إذ قال في تفسيرها: (وهو امشوا، أي أكثروا، يقال : أمشى الرجل ومشى، إذا كثرت ماشيته، فهو لا يريد : انطلقوا بالمشي الذي هو انتقال ; إنما يريد : قالوا هذا).[5]

---

١ الرازي: ابو بكر: تفسير الرازي: ١٩٨/٢٤

٢ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن:٢٣٠/١٠

٣ الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن: ١٥٤/٢٠

٤ الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن: ١٥٤/٢٠

٥ ظ: الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٢٢٦/٤

ويرى ابن الجوزي أن(الانطلاق الذهاب بسهولة)[1]، وتابعه الآلوسي في أنّ (الإسراع هو مطلق الانطلاق).[2] إذاً هناك معايير للسرعة في تحديد الانطلاق، وإنّ التغيير في السرعة واتجاهاتها يتبعا تغيير في وجهة الانطلاق وكيفيّته، وكذا فالتغيّر في معدّل الانطلاق يتوافق مع الموقف القرآني وبيئة النص، وقوّة الحدث، والظروف التي حدث فيها الانطلاق.

المطلب الثالث: معيارية الزمن في تحديد الانطلاق: دلالة (حتى) الزمنية:

عند الرجوع إلى مصادر اللغة العربية نجد أنّ (حتى) تفيد انتهاء الغاية، (ومعنى الغاية آخر الشيء)،[3] وهذا يعني أنّ هناك زمناً مستغرقاً منذ بداية الغاية وحتى انتهائها.

وقد ذكر القرآن الكريم دلالات كثيرة لـ(حتى)، منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(القدر:٥). قيل: حتى بمعنى(إلى) : يعني إلى مطلع الفجر،[4] وقال الثعلبي:(حتى حرف غاية، مجازها إلى مطلع الفجر).[5] وقيل : حتى بمعنى (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾(البقرة:٥٥) حتى بمعنى إلى ، وهي الجارة للاسم .[6] وفي موضع آخر من القرآن الكريم اقترنت (حتى) بالانطلاق، في قوله تعالى:﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾(الكهف:٧٠).

ويرى الطباطبائي أنّ المنطلقان هما موسى والخضر وهو ظاهر وأن موسى لم يصحب فتاه في سيره مع الخضر، واللام في قوله(لتغرق أهلها) للغاية فإن الغرق، وإن كان عاقبة للخرق ولم يقصده الخضر البتة، لكن العاقبة الضرورية ربما تؤخذ غاية مقصودة ادعاه لوضوحها كما يقال

[1] ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير :٣٢٠/٦، العز بن عبد السلام: تفسير العز بن عبد السلام: ٧٢/٣
[2] الالوسي: تفسير الآلوسي: ٦٦/٢٩
[3] الانصاري: ابن هشام: شرح قطر الندى وبل الصدى: ٣٠٣
[4] السمرقندي: ابو الليث: تفسير السمرقندي: ٥٧٨/٣
[5] الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٢٥٨/١٠
[6] الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن:٢٢١/١

: أتفعل كذا لتهلك نفسك ؟ والمعنى ظاهر.[١] ولو تدّبرنا في الآية نجد هنا ليست(حتى) هي فقط دلّت على انتهاء الغاية، بل جاءت اللام في (لتغرق) لتؤكّد الغاية.

وأكد الطباطبائي أنّ هناك حذفاً جاء في الكلام للإيجاز والتقدير: (فخرجا من السفينة وانطلقا).[٢]ولعلّ الذي يؤكّد ذلك تسارع أحداث الانطلاق الواحدة تلوَ الأخرى مع تغيير المواقف التي مرّ بها موسى والخضر(عليهما السلام) في الآيات التالية لها: ﴿ فانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾(الكهف:٧٤). وعلى هذا فالآيات مسرودة في صوره قصة واحدة اعترض فيها موسى على الخضر(عليهما السلام) ثلاث مرات واحدة بعد أخرى، لا في صورة ثلاث قصص، اعترض فيها ثلاث اعتراضات كأنه قيل : وقع كذا وكذا فاعترض عليه ثم اعترض ثم اعترض فالقصة قصة اعتراضاته فهي واحدة لا قصة أعمال هذا واعتراضات ذاك حتى تكون ثلاثا.[٣]

فالظاهر من دلالات (الانطلاق) في الآيات السابقة أنّ الأحداث جرت متتالية، بل متسارعة، وليست قصصاً منفصلة عن بعضها، وهذا تبيّن من دلالة (انطلقا) ودلالة(حتى) المرتبطة بالزمن.

المبحث الثالث: مصاديق الانطلاق القرآني:

المطلب الأول: الانطلاق الجسماني: (الإسراء والمعراج)

يتجسّد هذا النوع في قصة الاسراء والمعراج للرسول الأعظم محمد (صلّى الله عليه وآله) اذ انطلق انطلاقتان، الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والثانية من المسجد الأقصى إلى السماء السابعة.

١ ظ: الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٤/١٣

٢ المصدر نفسه:٣٤٤/١٣

٣ ظ: الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٤/١٣

قال تعالى:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾(الإسراء: ١).

و قد سَرَى به وأَسْرَى، والسَّرَّاءُ : الكثِيرُ السُّرى بالليلِ . وقيل : سَرَيْت بالليل وأَسْرَيْت، فجاء باللغتين. قال : معناه سَيَّرَ عَبْدَه، يقال : أَسْرَيْت وسَرَيْت إذا سِرْتَ ليلاً، وقيل: إنما قال سبحانه : سبحان الذي أَسْرى بعبده ليلاً ، لأنّ كان السُّرَى لا يكون إلا بالليل للتأْكيد ، كقولهم : سِرْت أَمسِ نهاراً والبارِحةَ ليلاً.[١]

قال صاحب المجمع: المعنى على ما قيل:(أنه أسرى به في ليلة من جملة الليالي من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وقد عرج إلى السماء من بيت المقدس في تلك الليلة وبلغ البيت المعمور وبلغ سدرة المنتهى).[٢]

ويرى بعض الباحثين أنّ الآية فيها إبانة لحقيقة المعراج الجسماني، وأنه في اليقظة بلا تأويل، تشتمل على مقدمة وأربعة أبواب : الأول في بيان الإمكان، الثاني رد شبهة المنكرين وإزالة استبعاد المستبعدين، الثالث تقرير الوقوع وأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عرج وصعد إلى فوق السماوات السبع بجسمه وبدنه الطاهر، الرابع في أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) رأى ما رأى بالرؤيا الظاهرة وأدرك ما أدرك من الحقائق العقلية بالرؤية الباطنة. [٣]

ويرى بعضهم أنّ الاسراء والمعراج ممّا يتعارض مع قدرة إدراك العقل، فلا يعقل أن يكون الانطلاق جسمانياً وروحيّاً في آن واحد، وفي هذا الوقت من الليل، وبهذا المقدار من السرعة.

وقد علّل الرازي جواز ذلك مؤكداً(إثبات الجواز العقليّ؛ لأنّ الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحدّ ممكنة في نفسها، والله قادر على جميع الممكنات، والدليل على أنّ الحركة الواقعة إلى هذا الحدّ من السرعة ممكنة أنّ الفلك الأعظم يتحرّك من أوّل الليل إلى آخره ما يقرب من نصف

١ ظ: ابن منظور: لسان العرب: ٣٨٢/١٤
٢ فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين:٢١٦/١
٣ مؤسسة أهل البيت: مجلّة تراثنا: ١٢٦/٥٢

الدور، فعلى هذا أن يقال : إنّ رسول اللَّه صلَّى اللَّه عليه وآله ارتفع من مكّة إلى ما فوق الفلك الأعظم فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر ، فلمّا حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور ، فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان فهذا برهان قاطع على أنّ الارتقاء من مكّة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه ، وإذا كان كذلك كان حصوله في كلّ الليل أولى بالإمكان) .[1]

وقد استدلّ مغنية في تفسيره الكاشف بمجموعة أدلّة علميّة تثبت المعراج الروحي والبدني وهي: ١ – ان الاسراء بالبدن ممكن عقلا، وقد دل عليه ظاهر الوحي، حيث قال تعالى : (أسرى بعبده)، ولم يقل بروح عبده ، وكلمة العبد تطلق على مجموع الروح والبدن ، كما قال تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى »(العلق:١٠)، ومن الأصول المقررة في الإسلام ان كل ما دل عليه ظاهر الوحي ، ولم يعارض بحكم العقل وجب الايمان به .

٢ – لو كان الاسراء بالروح فقط لما كان فيه أي شيء من العجب ، ولم يبادر المشركون إلى تكذيبه....

٣ – ان الاسراء بالروح والبدن يرمز إلى أن على الإنسان أن يعمل لحياته المادية والروحية ، لا لإحداهما دون الأخرى .

٤ – اشتهر عن الرسول (صلّى الله عليه وآله) أنه قال : ((أسري بي على دابّة يقال لها البراق . ومن الواضح ان الاسراء بالروح فقط لا يحتاج إلى الدابة ولا إلى غيرها)).[2]

ثم اختلفوا في كيفية الإسراء فقيل : كان اسراؤه (صلّى الله عليه وآله) بروحه وجسده من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ثم منه إلى السماوات وعليه الأكثر وقيل : كان بروحه وجسده من مكة إلى بيت المقدس ثم بروحه من بيت المقدس إلى السماوات وعليه جمع، وقيل : كان بروحه(صلّى الله عليه وآله) وهو رؤيا صادقة أراها الله نبيه ونسب إلى بعضهم .

---

١ الرازي: تفسير الرازي: ١٤٧/٢٠

٢ ظ: مغنية: محمد جواد: التفسير الكاشف: ٩/٥،ظ: القاضي عياض: الشفا في تعريف حقوق المصطفى: ١٨٥/١

وقد اختلف أصحاب الفرق والمذاهب في قضيّة الإسراء والمعراج ، فمنهم من قبله، ومنهم من نكره، فقد كانوا على مذاهب متفرّقة: (فالخوارج ينكرونه، وقالت الجهمية : عرج بروحه دون جسمه على طريق الرؤيا، وقالت الامامية والزيدية والمعتزلة : بل عرج بروحه وبجسمه إلى البيت المقدس لقوله تعالى : (إلى المسجد الأقصى) وقال آخرون : بل عرج بروحه وبجسمه إلى السماوات روى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وجابر وحذيفة وانس وعائشة وأم هاني).[1]

يقول الطباطبائي: (ونحن لا ننكر ذلك إذا قامت الدلالة وقد جعل الله معراج موسى إلى الطور(وما كنت بجانب الطور) ولإبراهيم إلى السماء الدنيا (وكذلك نرى إبراهيم) ولعيسى إلى الرابعة (بل رفعه الله إليه) ولإدريس إلى الجنة (ورفعناه مكانا عليا) ولمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (فكان قاب قوسين) وذلك لعلو همته).[2]

والحق أنّ دلالة الإسراء والمعراج والانتقال من مكان لآخر من خصائص الأنبياء، بل من دلالات الإعجاز التي تثبت قوّة هذا النبي المرسل وقدراته الخارقة على الانطلاق من حيّز لآخر بحسب ما تقتضيه الحالة.

المطلب الثاني: الانطلاق الروحي (الترقي).

أ. الترقي المادي:

(رقى) (من الراء والقاف والحرف المعتل أصول ثلاثة متباينة أحدهما الصعود ،والآخر عوذة يتعوذ بها، والثالث بقعة من الأرض، فالأول قولك رقيت في السلم أرقى رقياً).[3]

---

١ الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن: ٣٢/١٣

٢ المصدر نفسه: ٣٢/١٣

٣ ابن فارس: احمد: مقاييس اللغة: ٤٢٦/٢

ورقى : (رَقِيَ إليه ، كَرضِيَ، يَرْقَى رَقْياً بالفتْح، ورُقِيّاً، كعُتِيَ : صَعِدَ ، وكذلك رَقِيَ فيه، كارْتَقَى وتَرَقَّى، ومنه قوْلُه تعالى:﴿ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾(ص:١٠). والمَرْقاةُ[١] ، بالفتْح ويُكْسَرُ: الدَّرَجَةُ).[٢]

ولعلّ الفرق بين الرقي والصعود : (أن الرقي أعم من الصعود، ألا ترى أنه يقال رقى في الدرجة والسلم كما يقال صعد فيهما، ويقال رقيت في العلم والشرف إلى أبعد غاية، والرقي يستعمل فيه وفي غيره فهو أعم وهو أيضا يفيد التدرج في المعنى شيئا بعد شيء ، ولهذا سمي الدرج مراقي وتقول ما زلت أراقيه حتى بلغت به الغاية أي أعلو به شيئاً شيئاً).[٣]

والظاهر أنّ الارتقاء هو صعود معنوي لكنه يحتاج إلى القوّة الدافعة له، لأنّه من مصاديق الانطلاق(في أن الرقي يحتاج الى قوة وتمكين،.... فالرقي في السماء والتصرف في أمورها كتنزيل كتاب مقرو منها، أي نفوذ البشر في العالم العلوي وتمكنه فيه، ومنه أعجب الخوارق عندهم).[٤] قال تعالى: ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾(الإسراء:٩٣). قال مقاتل في تفسيرها (يعنى أو تضع سلماً فتصعد إلى السماء).[٥]

أمّا الفرق بين الصعود والارتفاع هو (أن الصعود مقصور على الارتفاع في المكان ولا يستعمل في غيره، ويقال صعد في السلم والدرجة ولا يقال صعد أمره ، والارتفاع والعلو يشترط فيهما جميع ذلك ، والصعود أيضا هو الذهاب إلى فوق فقط ، وليس الارتفاع كذلك).[٦]

---

١ الزبيدي: تاج العروس: ٤٧١/١٩

٢ الزبيدي: تاج العروس: ٤٧١/١٩

٣ العسكري: ابو هلال: الفروق اللغوية:٢٦٠

٤ الطباطبائي: محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن: ١٣٦/١٢

٥ مقاتل بن سليمان: تفسير مقاتل بن سليمان: ٨٧/٢

٦ العسكري: ابو هلال: الفروق اللغوية: ٣١٤

ولعلّ قوله تعالى:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾(الإسراء:١). إضافة إلى معانيها الحسّية في الانتقال الحقيقي من مكان إلى آخر، إلّا أن فيها (فيوضات ربانية على الحقيقة المحمدية).[١]

فقد أعطاه الله قدرة خرق الأمور المادية ، كسقف داره عند الاسراء والمعراج ، كما في الروايات ، وخرق الأمور المعنوية كحجب النور التي خرقها دون جبرائيل ، حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، بل هو أدنى . أعطاه الباري عز وجل قدرة العروج إلى الملكوت، وخوض السحاب والتنقل في مدارج السماوات السبع ، ورؤية الأنبياء في عالم الآخرة ، والتكلم معهم، ذلك العالم البعيد عن الزمان والمنزه عن المكان.

ب. الترقي المعنوي:

المقصود بالترقي المعنوي ارتفاع مكانة الفرد معنوياً كأن يتسنّم منصباً معيّناً من المناصب الإلهية، أو يرتقي في نفسه بأن يكون في أعلى درجات الكمال والسموّ.

ولعلّ من أبرز مصاديقه قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾(مريم:٥٧). قيل معناها: (شرف النبوة والزلفى عند الله).[٢]

والعليّ: (هو العظيم العلو . والعلي : العظيم فيما يقدر به على الأمور ، ومنه يوصف الله تعالى بأنه علي).[٣]

١ علي عاشور: الولاية التكوينية لآل محمد(ع): ١٣٩

٢ الفيض الكاشاني: التفسير الأصفى: ٧٤٤/٢

٣ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤٣٠/٦

يقول الطوسي: (والفرق بين العلي والرفيع : إن العلي قد يكون بمعنى الاقتدار، وبمعنى علو المكان، والرفيع : من رفع المكان لا غير؛ ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه رفيع، وأما رفيع الدرجات : فإنه وصف للدرجات بالرفعة).[1]

وكذا قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فاطر:١٠) فهذه استعارة، وليس المراد أن هناك على الحقيقة شيئا يوصف بالصعود ، ويرتقي من سفال إلى علو، وإنما المراد أن القول الطيب والعمل الصالح متقبلان عند الله تعالى ، وأصلان إليه سبحانه).[2]

وقيل إن معنى ذلك صعود الأقوال والأعمال إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلا الله سبحانه كما يقال : ارتفع أمر القوم إلى القاضي . ..ووجه آخر : قيل إن الله سبحانه لما كان موصوفا بالعلو على طريق الجلال والعظمة ، لا على طريق المدى والمسافة ، فكل ما يتقرب به إليه من قول زكى ، وعمل مرضى فالإخبار عنه يقع بلفظ الصعود والارتفاع، على طريق المجاز والاتساع .[3] وقد يكون الأمر معكوساً، إذ تتحوّل الحركة من العليا إلى الدنيا، ومن الكمال إلى النقص كما في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(البقرة:١٧).

يقول أحد المفسّرين: (فإن في ذلك نوعا من الترقي من السافل إلى الأعلى، فإن في الأولى نفى عنهم الإبصار، وفي الثانية أثبت اتحادهم مع العمي ، فلا يلزم تكرار ولا خلاف في أسلوب البلاغة، بل فيه نهاية الدقة في توضيح أحوالهم الفاسدة المترتبة).[4]

والحق أنّ هذه الآية تبيّن حركة التدهور في حال المنافقين الذين عميت بصيرتهم وبدأوا بالتدنّي من الأعلى إلى الأسفل، إذ انتقلوا من حالة الترقّي إلى الانحدار، وهذا النوع يخالف الحركة الفطريّة الطبيعيّة؛ لأن الفطرة تسعى إلى الارتقاء والكمال .

---

١ الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: : ١٣٥/٧

٢ الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٦٩

٣ ظ: الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن: ٢٦٩

٤ مصطفى الخميني: تفسير القرآن الكريم: ١٢٨/٤

وقد عزا أحد المفسّرين هذه الحالة إلى التقديم والتأخير الحاصل في الآية (إن في تقديم الصمّ على البكم، وهو على العمي، نوع شهادة على أن المنافق المتحرك والفطرة الأولية التوحيدية المتدرجة تتحرك إلى الشقاوة التدريجية، فينسلب الكمالات الأولية عنها بفناء القوة المتوسطة بين الروح والمادة أولا ، ثم فناء القوة المتوسطة بين العقل والإحساس ، وفي المرتبة الثالثة يصبح أعمى بحسب القلب والبصيرة، فيضعف فيه الوجود وخيراته والنورانية وبركاتها، وتصير فيه الشقاوة بحكم الطبيعة).[1]

المطلب الثالث: انطلاق الرياح (تغيير سرعة الرياح بين العصف والرخاء).

الريح : (هو الجو يشتد تارة ويضعف تارة، وهي جسم لطيف منعش، يمتنع بلطفه من القبض عليه، ويظهر للحس بحركته، والعصوف : شدة حركة الريح، عصفت تعصف عصفاً وعصوفاً : إذا اشتدت، والعصف: التبن ، لأن الريح تعصفه بتطييرها له). [2]

قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾(ص:٣٦).

يقول الطبرسي: (كانت الريح مطيعة (لسليمان) إذا أراد أن تعصف عصفت، وإذا أراد أن ترخي رخت، وكان هبوبها على حسب ما يريد، فتجري الأشياء على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا).[3] قال أحد المفسرين: (إنّ سليمان (عليه السلام) لما أراد أن يركب الريح أمر بفرش البساط، ووضع عليه سريره، ووضع عليه الكراسي حول السرير، وجلس وزراؤه وقواده على الكراسي حول السرير، وجلس هو فوق البساط ، وأمر الريح بأن تحمل البساط وحمل ما فوقه، وتسير غدوة مسيرة شهر، وترجع رواحا مثله).[4]

والحقّ أنّ الريح المسخّرة لسليمان (عليه السلام) لم تكن على وتيرة واحدة من السرعة والحركة، إذ كانت تتغيّر بين العصف والرّخاء، وبين الاتجاهات المختلفة: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي

---

١ المصدر نفسه: ١٢٨/٤

٢ الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١٠٥/٧

٣ الطبرسي: جوامع الجامع: ٥٣٤/٢

٤ الماحوزي: كتاب الاربعين: ٤٠٦

بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨١) قال القمي:(تجري من كل جانب).[١]

أمّا مسيرها، فقد كان ثابتاً شهر بشهر،﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ..﴾(سبأ:١٢).قال قتادة : (كان مسيرها به الى انتصاف النهار في مقدار مسير شهر، ورواحها شهر من انتصاف النهار الى الليل في مقدار مسير شهر، وقال الحسن : كان يغدو من الشام الى بيت المقدس، فيقيل بإصطخر من ارض أصبهان، ويروح منها فيكون بكابل) .[٢]

وقيل :((الرِّيحَ عاصِفَةً) شديدة الهبوب ، من حيث إنّها مرّت بكرسيّه وأبعدت به في مدّة يسيرة، كما قال تعالى : (غُدُوُّها شَهْرٌ ورَواحُها شَهْرٌ). فكانت عاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان، رخاء في نفسها، طيّبة كالنسيم ، كانت رخاء في وقت، وعاصفة في وقت آخر، حسب إرادته).[٣]

ومعنى رخاء من ((رخا) ورخو يرخو ورخي يرخى رخاء : العيش أتسع ، وتراخى عني فلان : تباطأ).[٤] ولعلّ العلّة في كون الريح عاصفة تارة ، هي تحديد الانطلاق وكيفيّته، فهي عاصفة قادرة على تحريك الهواء وتسييره باتجاهات مختلفة، ورخاء لأنها تحمل سليمان عليها(إنّ اللّه تعالى جعلها عاصفة تارة ورخاء أخرى بحسب ما أراد سليمان، أو الرخاء كانت تحمل سريره لئلّا تضطرب، والعاصفة كانت تجريه على الهواء سريعا).[٥]

وقيل إنّ وصفها عاصفة تارة، ورخاء أخرى (بالنسبة إلى الوقت الذي يريده سليمان عليه السلام فيه ، وقيل وصفها بالرخاء في الذهاب ووصفها بالعصف بالإياب على عادة البشر في الإسراع إلى الوطن فهي عاصفة في وقت رخاء في آخر).[٦] يبدو من خلال ما تقدّم أنّ مصاديق الانطلاق كثيرة منها المادي، ومنها المعنوي.

---

١ القمي: علي بن ابراهيم: تفسير القمي: ٧٤/٢

٢ الحلي: ابن ادريس: المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التبيان:٢٠٦/٢

٥ الكاشاني: فتح الله: زبدة التفاسير: ٣٤٥/٤

٤ الملياني: الأحمدي: موسى بن محمد: معجم الأفعال المتعدّية بحرف: ١٢٣

٥ المصدر نفسه :٣٣/٦

٦ الألوسي: تفسير الألوسي: ٧٧/١٧

الخاتمة ونتائج البحث:

الحمد لله ، والحمد حقّ كما يستحقّه حمداً كثيراً، وأفضل الصلاة والسلام على خير خلق الله محمد (صلّى الله عليه وآله) الطيبين الطاهرين وبعد...

إنّ من النِعم العظيمة التي يمنّ بها الخالق على خلقه هي أن يجعلهم باحثين في كتابه الكريم، لأن فيه خير الدنيا والآخرة، فتنفتح أمامهم أبواباً للعلم والفهم والتدبّر حتى يرتقوا لأعلى الدرجات في الدنيا والآخرة، وهذا ما دعاني إلى البحث في مضامين لكتاب العزيز بالبحث الموسوم(ظاهرة الانطلاق الفيزياوية في القرآن الكريم دراسة في الإعجاز القرآني)، وكانت نتائج البحث كالآتي:

إنّ الانطلاق هو رفع القيود والمحصوريّة، سواء كانت هذه القيود مادّيّة ملموسة أم كانت قيوداً معنويّة، الغرض منها التضييق في مساحة حركة المنطلِق.

هناك معايير للانطلاق ومنها الحركة، وإن الحركة تستغرق زمناً معيّناً، وأن احتساب مقدار الزمن يتساوى ومقدار حركة الجسم، أمّا الأجسام الساكنة فلا يمكن احتساب المقدار الزمني لها من دون حركة.

هناك معايير للسرعة في تحديد الانطلاق، وإنّ التغيير في السرعة واتجاهاتها يتبعا تغيير في وجهة الانطلاق وكيفيّته، وكذا فالتغيّر في معدّل الانطلاق يتوافق مع الموقف القرآني وبيئة النص، وقوّة الحدث، والظروف التي حدث فيها الانطلاق.

هناك مصاديق للانطلاق في القرآن الكريم، منها مادّية مثل الانطلاق الجسماني المتمثّل بالإسراء والمعراج للرسول (صلّى الله عليه وآله) ، ومنها انطلاق الريح المتمثل بتسخير الرياح لسليمان(عليه السلام) ومنها معنوية كترقّي الروح إلى درجات الكمال.

إنّ دلالة الإسراء والمعراج والانتقال من مكان لآخر من خصائص الأنبياء، بل من دلالات الإعجاز التي تثبت قوّة هذا النبي المرسل وقدراته الخارقة على الانطلاق من حيّز لآخر بحسب ما تقتضيه الحالة.

إنّ الارتقاء هو صعود معنوي، لكنه يحتاج إلى القوّة الدافعة له، وهذه القوّة هي قوّة الانطلاق.

إنّ العلّة في كون الريح –لسليمان(ع)–عاصفة تارة ، ورخاء تارة أخرى– هي تحديد الانطلاق وكيفيّته، فهي عاصفة قادرة على تحريك الهواء وتسييره باتجاهات مختلفة، ورخاء لأنها تحمل سليمان عليها.

التوصيات:

١. الأخذ بالموضوعات العلمية والقرآنية والاهتمام بها، فهي منبع الإعجاز العلمي القرآني، ولا تقل أهميّة عن بقية البحوث.

٢. التدبر في الآيات التي تحمل دلالات وإشارات علمية، كونها تبيّن التأصيل إلى العلوم التطبيقية كالفيزياء والكيمياء وغيرها.

٣. الاهتمام بالدراسات الإنسانية والاجتماعية وجعلها بمنزلة الدراسات العلمية فهي لا تقل شأناً عنها.

٤. يجب الدمج بين علوم القرآن والعلوم التطبيقيّة، لأنه يساهم في رفع مستوى الوعي الديني والعلمي لدى الناس وبخاصة الشباب، فيعزّز الثقة بكتابهم العزيز.

المصادر:

خير ما نبتدئ به القرآن الكريم

١. الآلوسي: السيد محمود البغدادي(ت:١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القران الكريم والسبع المثاني، تح: محمد احمد الآمد، وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت_لبنان، ط١/٢٠٠٠م.

٢. الاصفهاني: الراغب(ت: ٤٢٥هـ)،مفردات الفاظ غريب القران، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى: بيروت، ١٩٩٦م.

٣. الاندلسي: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الجياني، البحر المحيط، الطبعة الأولى.

٤. الانصاري: أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام (ت:٧٦١هـ)، شرح قطر النّدى وبل الصّدى ،الطبعة الحادية عشرة.
٥. تراثنا نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، العدد الأول – السنة الأولى – صيف سنة ١٤٠٥ هـ.
٦. الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المكي:(ت:٨٧٥هـ). الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسيرالثعالبي)، تح: علي معوض، عادل عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي،١٤١٨ – ١٩٩٧، ط١.
٧. ابن الجوزي: ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، زاد المسير في علم التفسير، ، دار الفكر، الطبعة الأولى، جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ – كانون الثاني ١٩٨٧ م.
٨. الحائري: الطهراني: مير سيد علي، المفسر، تفسير مقتنيات الدرر، دار الكتاب الإسلامية، مطبعة الحيدري بطهران.
٩. الحلي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ادريس، من أعلام القرن السّادس، المنتخب من تفسير القرآن والنكت المستخرجة من كتاب التّبيان، تحقيق: السيّد مهدي الرّجائي، نشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي العامة قم المقدسة، الطبعة : الأولى.
١٠.الحويزي: عبد علي بن جمعة العروسي، تفسير نور الثقلين، صححه وعلق عليه أشرف على طبعه الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم – إيران.
١١.دروزة: محمد عزة : التّفسير الحديث ترتيب السّور حسب النّزول، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الثانية.
١٢.الرازي: فخر الدين المتوفى:٦٠٦هـ، : تفسير الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثالثة.
١٣.الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر : مختار الصحاح، ضبطه وصححه احمد شمس الدين، جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى– ١٩٩٤ م ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
١٤.الزبيدي: محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي ، تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق : علي شيري دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ.

١٥. الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م، دار أحياء الكتب العربية.
١٦. السّدي عليّ خان الحسيني الحسني المدني الشيرازي، : رياض السّالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين (عليه السّلام)، مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
١٧. الشريف الرضي: تلخيص البيان في مجازات القرآن، حققه وقدم له وصنع فهارسه، محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة – ١٩٥٥، الطبعة الأولى.
١٨. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد (ت: ١٢٥٠هـ) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.
١٩. الشيرازي: ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، طبعة جديدة منقحة مع إضافات.
٢٠. الطباطبائي: محمد حسين، الميزان في تفسير القران، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، في قم المقدسة.
٢١. الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القران، حققه وعلق عليه: للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
٢٢. الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، قدس سره، من أعلام القرن السادس الهجري، جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الأولى.
٢٣. الطريحي: فخر الدين: محمد بن علي بن احمد(ت: ١٠٨٥هـ)، مجمع البحرين، تح: السيد احمد الحسيني.
٢٤. الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي الناشر : مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة : الأولى ١٢٠٩ هـ . ق.
٢٥. العاملي: الحر محمد بن الحسن الحر العاملي، المتوفى سنة ١١٠٤ هـ ، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

٢٦. العاملي: الحر محمد بن الحسن الحر العاملي، المتوفى سنة ١١٠٤ هـ ، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.
٢٧. ابن عبد السلام ، عز الدين عبد العزيز (ت ٦٦٠هـ). الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز : ط١ ، المطبعة العامرة ،الآستانة ، ١٣١٣هـ.
٢٨. العسكري: ابو هلال .(ت:٣٩٥هـ).معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري، تح: مؤسسة النشر الاسلامي، ط١.شوال المكرم ١٤١٢.
٢٩. علي عاشور: الولاية التكوينية لآل محمد (عليهم السلام) في قوسي النزول والصعود، الطبعة الأولى.
٣٠. عيّاض: القاضي، أبو الفضل اليحصبي(ت:٥٤٤هـ) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مذيلا بالحاشية المسماة(مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) أحمد بن محمد بن محمد الشمني، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م دار الفكر، بيروت لبنان.
٣١. ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة: حققه: عبد السلام محمد هارون، الرئيس قسم الدراسات النحوية بكلية دار العلوم سابقا، مركز النشر – مكتب الاعلام الاسلامي.
٣٢. الفراهيدي: الخليل أبو عبد الرحمن بن أحمد (ت:١٧٥هـ) ، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، الطبعة : الثانية في إيران١٤٠٩ هـ .
٣٣. الفيروزابادي: مرتضى الحسيني اليزدي: عناية الاصول في شرح كفاية الاصول.
٣٤. الفيروزابادي: مرتضى الحسيني اليزدي القاموس المحيط، شرح ديباجتها نصر الهوريني.
٣٥. القمي: تفسير القمي: أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي (رحمه الله) ، صححه وعلق عليه وقدم له: حجة الاسلام العلامة: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم – إيران.
٣٦. الكاشاني: المتوفى سنة ١٠٩١ هـ، تفسير الصافي، صححه وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ حسين الأعلمي، منشورات، مكتبه الصدر طهران .

٣٧. الكاشاني: فتح الله (ت:٩٨٨هـ. ق)، زبدة التفاسير، تحقيق ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية.

الكاشاني: محمد محسن المشتهر بالفيض : كتاب الوافي، مكتبة الامام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) العامة، أصفهان، الطبعة الأولى. إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام)، تحقيق: مهدي الرجائي، الطبعة : الأولى.

٣٨. المازندراني: محمد صالح، شرح أصول الكافي المعروف كتاب الكافي في الأصول والروضة لثقة الإسلام أبى جعفر محمد بن يعقوب الكليني مع شرح الكافي الجامع للمولى محمد صالح المازندراني، المتوفى ١٠٨١ ه، دار احياء التراث العربي، بيروت _ لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١ ه _ ٢٠٠٠ م .

٣٩. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الطبعة الثانية المصححة/ ١٤٠٣ ه – ١٩٨٣ م، مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان.

٤٠. محمود عبد الرحمن عبد المنعم ، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، القاهرة .

٤١. المصطفوي: حسن: التحقيق في كلمات القرآن، الطبعة الأولى : ١٤١٧ ه .

٤٢. مصطفى الخميني : تفسير القرآن الكريم ، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (قدس سره) تحقيق ونشر : مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني (قدس سره) سنة الطبع : ١٣٧٦ – جمادى الثاني ١٤١٨ ، الطبعة : الأولى.

٤٣. مغنية: محمد جواد: التّفسير الكاشف، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، شباط (فبراير) ١٩٦٨، الطبعة الثالثة، آذار (مارس) ١٩٨١.

٤٤. الملياني الأحمدي: موسى بن محمد بن نويوات:معجم الأفعال المتعدية بحرف، الطبعة: الأولى.

٤٥. ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم – إيران، ١٤٠٥ ه ١٣٦٣ ق.

نظرة القرآن الكريم للقلة – الناجين أنموذجا، دراسة موضوعية

د. طالب هادي لاحج، جامعة الأنبار، كلية العلوم الإسلامية، قسم التفسير وعلوم القرآن

الملخص: القرآن الكريم كتاب الله الخالد، نزل به الروح الأمين، على أكمل البشر، وخاتم الرسل: سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأن خير ما صرفت له الطاقات، وفنيت لأجله الأيام والساعات؛ هو تدبر في آيات الله تعالى التي جاءت في كتابه العزيز، فالقرآن المجيد هو حبل النجاة لكل من أراد أن ينجو فهو حبل الله الممتد من الأرض إلى السماء، ومن خلال التدبر في الآيات القرآنية, والتي تناولت كلمة القلة التي وردت فيه، فقد برزت الحاجة إلى تناول مثل هكذا موضوع ودراسته, والوقوف على معانيها وربطها بالواقع المُعاش، لأنه قد ينظر إلى مفهوم القلة نظرة خاطئة وخاصة في مجتمعنا اليوم، إذ يتم تقويم حالته بعيداً عن الصواب, فالقلة دائماً في نظر الناس كلمة مذمومة، ولكن بعد البحث في معاني الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة، نجد الحق فيها على عكس تلك النظرة السائدة، فعلى مستوى الإيمان، فأننا نجد أن القلة هم من ينهضون بواجب الدعوة ويقبلونها, وأنهم هم الخلاصة المصطفاة والبقية المنتقاة، وأنهم هم الفئة المؤمنة لأن الذي يتأمل للقلة في ثنايا القرآن الكريم، يجد أنها قاعدة مطردة، وسنة حاكمة، وأن الفئة المؤمنة دائما قلة التي امتدحهم الله تعالى ووصفهم بأنهم عباده الشاكرين له، بل أنه فضلهم على غيرهم، وميزهم وخصهم بخصائص عن غيرهم, فكانوا هم المنصورون المؤيدون من الله تعالى، فكان سبب نجاتهم وكسبهم لمحبة الله تعالى, بأنهم أطاعوه, وأتمروا بأوامره وانتهوا عن ما نهى الله عنه, فكسبوا رضوانه، ولأن القلة المحمودة هي التي ورد التعبير عنها في القرآن الكريم جاءت في مقام المدح لأصحابها، فكانت الفرقة الناجية التي مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم.

ثم إن معظم الناس قد يعتقدون أن الحق دائمًا في الكثرة، لكن القرآن الكريم أثبت لنا عكس ذلك، من خلال آياته التي جاء فيها ذم الكثرة ومدح القلة على جميع المستويات، فيقول تعالى

على مستوى الإيمان (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)، وعلى المستوى العددي (ألهاكم التكاثر) وعلى المستوى الجهادى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئًا)، وقال ايضاً (وأكثرهم للحق كارهون).

وعلى هذا فأن المجتمع الذي يخلو من القلة الخيرة لكي تقوده وترتاد له مواطن الخير، وتحذره من مغبات الشر والفساد، فهو مجتمع على خطر عظيم؛ لأن القلة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي، لكي يحفظ الأمة.

وقد تضمنت خاتمة بحثي النتائج الآتية:

١- لقد جرت سنة الله تعالى في عباده أن يجعل في كل زمان قلة رائدة تدعو الناس إلى الهدى وتردهم عن الردى، وتهديهم إلى صراط الله المستقيم، فهم اهل الصبر والثبات.

٢- إن المتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن السابقين للإيمان والناصرين للدعوة إلى الله تعالى وصيحات الحق هم القلة السابقون من أهل الجنة وإن من صفات القلة التي ذكرها الله تعالى ووصفهم بأنهم من السابقين وانهم من أهل الجنة، فقال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ الواقعة ١٣،١٤ .

٣- وإن القلة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي، والذاكرة الواعية التي تحفظ الأمة، وتحفظ لها، وتعي أسباب عزها ونصرها، وعوامل تحللها وفسادها، وهؤلاء هم أولو البقية التي يعبر عنهم القرآن الكريم.

٤- ثم إن القلة المحمودة هي التي ورد التعبير عنها في القرآن الكريم جاءت في مقام المدح لأصحابها, فكانت الفرقة الناجية التي مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم.

٥- إن الراصد لطبيعة القلة في واقع الحياة والأحياء يجد أن القلة العاملة في كل زمان هم المنصورون، لما يشتملون عليه من سمات وخصائص، تعوض قلة عددهم بكثرة يقينهم واعتمادهم.

المقدمة

إن خير ما صرفت له الطاقات, وفنيت لأجله الأيام والساعات؛ هو تدبر في آيات الله تعالى التي جاءت في كتابه العزيز, فالقرآن المجيد هو حبل النجاة لكل من أراد أن ينجو فهو حبل الله الممتد من الأرض إلى السماء, ومن خلال التدبر والتفكر في السنن الربانية والآيات القرآنية, والتي تناولت كلمة القلة التي وردت فيه, فقد برزت الحاجة إلى تناول مثل هكذا موضوع ودراسته, والوقوف على معانيها وربطها بالواقع المُعاش, لأنه قد ينظر إلى مفهوم القلة نظرة خاطئة وخاصة في مجتمعنا اليوم, إذ يتم تقويم حالته بعيداً عن الصواب, فالقلة دائماً في نظر الناس كلمة مذمومة, ولكن بعد البحث في معاني الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه اللفظة, نجد الحق فيها على عكس تلك النظرة السائدة, فعلى مستوى الإيمان؛ نجد أن أقلاء هم من ينهضون بواجب الدعوة ويقبلونها, وقليل من يتمسك بهدي وسنة النبي صلى الله عليه وسلم والانبياء في كل امة من الامم.

وأما على مستوى متعلقات الإيمان كالشكر والذكر والتفكر والتذكر, فنجد أن قلة هي من تتصف بذلك, وهي الصابرة المرابطة واثقة من نصر الله تعالى, وأن الكثرة تترك ذاك وتعرض عنه, ومن هنا كان موضوع بحثي عن القلة الناجية في القرآن الكريم.

أهمية الموضوع

تكمن اهمية الموضوع من حيث القيمة العلمية البالغة له, إذ يُعنى بألفاظ من القرآن الكريم, ويوضح مدلولاتها, ثم الحاجة لتوضيح مفهوم القلة من منظور قرآني.

سبب اختيار الموضوع

أن سبب اختياري للموضوع كونه لوناً من ألوان التفسير الموضوعي, وإثراء المكتبة الإسلامية بوضع لبنة في بنائها الأشم, فضلاً إبراز سنة من سنن الله الكونية وهي مساندة القلة المؤمنة.

منهج البحث

فيما يخصّ منهج البحث فإنّ طبيعة البحث تقتضي الاستقراء والبحث ودراسة موضوعية لآيتين كريمتين تتعلق بالقلة الناجية في كتب التفسير وغيرها, ثم بعد ذلك حاولت الالتزام بقواعد البحث العلمي في النقل والاقتباس والتوثيق, فقد أخذتُ من المصادر والمراجع الموجودة في المكتبة الشاملة, ومن المكتبات العامة, ثمّ ارتأيتُ أكتب بطاقة الكتاب كاملة في أول وجودها, ثم إن تكررت أكتبها على الشكل الآتي, وهو: أسم الكتاب, واسم المؤلف أو الكنية التي اشتهر بها, والجزء والصفحة, وقد اختصرت بعض المصطلحات بما يشير إليها بما يأتي:

(المتوفى: ت), (تحقيق: تح), (رقم الصفحة: ص), (الطبعة: ط), (الناشر: ن), حيث يذكر اسم المحقق حال وجوده, ثمّ رتّبتُ المصادر والمراجع على حسب حروف الهجائيّة.

وأما عن خطة البحث, فقد اشتملت على مقدمة وتمهيد مبحثين, ثم تليها خاتمة:

المبحث الأول: وقد جاء فيه صفات الناجين وفضلهم عند الله تعالى, وقد اشتمل على ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: صفات الناجين.

المطلب الثاني: القلة هم الفئة المؤمنة .

المطلب الثالث: فضلهم عند الله تعالى .

المبحث الثاني: فقد جاء فيه سبب نجاة القلة ومحبة الله لهم, وقد اشتمل على ثلاثة مطالب.

المطلب الاول: طاعتهم لله تعالى.

المطلب الثاني: نهيهن عن الفساد وابتعادهم عن المعاصي.

المطلب الثالث: محبة الله تعالى لهم.

ثمّ جاءت الخاتمة وقد ذكرت أهم ما جاء في البحث من نتائج, وبعدها ذكرت قائمة المصادر والمراجع وقد رتبتها على حسب الحروف الهجائية.

والله تعالى اسأل أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم, وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ إلا من أتى الله بقلب سليم, والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

اولاً: تعريف القلة لغةً: هي خلاف الكَثْرة, والقُلُّ: خلاف الكُثْر, وقَلّ يَقِلُّ قِلّة وقُلاًّ فهو قليلٌ, ويقال قومٌ قليلون وأقلا وقُلُلٌ وقُلُلُون يكون ذلك في قلةِ العددِ ودقةِ الجُثة, وتَقَّلل الشيء واستقلهُ وتَقاله إذا رآه قليلاً[١].

واصطلاحاً: إن لفظة قليل هو: (وصف يلزم الإفراد والتذكير مثل كثير) [٢], وقيل: (القِلَّةُ والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أنّ العظم والصّغر يستعملان في الأجسام، ثم يستعار كلّ واحد من الكثرة والعظم، ومن القلّة والصّغر للآخر)[٣].

وقيل القلة: (ضد الكثرة وقد يراد بها العدم والنفي كما في قولهم: أقل الرجل يقول كذا، وقليل من الرجال يقول ذلك، وقليلة من النساء) [٤], وجمع القلة: (هو الذي يطلق على عشرة فما دونها من غير قرينة، وعلى ما فوقها بقرينة) [٥].

ثانياً: الناجون لغة: هو الخلاص من الشيء، ويقال: نجا فلانٌ من الشَّرِّ ينجو نَجاةً، ونجا ينجو، في السُّرعة، نجاءً فهو ناجٍ. وناقةٌ ناجِيةٌ: سريعة. ونَجَوته: استنهكته, وقيل: "نجا" من عدوّه نجاةً: إذا سلِم من شرّه. [٦].

(١) ينظر: تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ), تح: محمد عوض مرعب, ن: دار إحياء التراث العربي– بيروت, ط-١- لعام ٢٠٠١م, ٨/ ٢٣٨, ومجمل اللغة لابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ), تح: زهير عبد المحسن سلطان, ن: مؤسسة الرسالة – بيروت, ط-٢- ١٤٠٦ هـ, ٧٢٦/١.

(٢) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) , ن: دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - ١٩٩٧ م, ٨/ ٢٤٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ), تح: صفوان عدنان الداودي, ن: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت, ط-١- ١٤١٢ هـ, ص ٦٨٠.

(٤) الكليات : أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ), تح: عدنان درويش - محمد المصري, ن: مؤسسة الرسالة – بيروت, ص ٧٣٢.

(٥) التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ), ت: جماعة من العلماء بإشراف الناشر, ن: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان, ط-١- لعام ١٤٠٣ه, ص ٧٨.

(٦) العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ), تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي, ن: دار ومكتبة الهلال, ٦/ ١٨٦.

واصطلاحاً: هو (كل من نجا من تهلكة ولقي ما يغتبط به فقد فاز، أي تباعد عن المكروه، ولقي ما يحبه) [١]. وقيل: (الخلاص مما فيه المخافة ونظيرها السلامة، ذكره الحرالي, وقال غيره: النجاة من النجوة وهي الارتفاع) [٢].

المبحث الاول: صفات الناجين وفضلهم عند الله.

إن مميزات القلة وصفاتهم لا تأتي هكذا من فراغ, ولا تكون لكل شخص؛ بل لا بد من تضحيتهم بما لم يضحي به غيرهم وصبرهم على ما لا يصبر عليه سواهم, ففي هذا المبحث لابد من الحديث عن بعض صفاتهم, والاسباب التي أدت إلى نجاتهم, فقد قسمته إلى ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: صفات الناجين.

إن القلة هم الخلاصة المصطفاة والبقية المنتقاة من كل شيء, زماناً، ومكاناً، وأفراداً، ومعادن، هم الرواحل التي تتحمل إذا كَلَّ غيرها، وتصبر إذا مَلَّ سواها، تحمل حملها وكثيرا من حمل غيرها، فهي الرائدة في المتاهة، وهي القائدة في اضطراب الأمور، لك القلة هي التي تقل عند الطمع، وتكثر عند الفزع، فهم بحق خلاصة جنسهم، وبقية نوعهم، ولقد تبين من خلال سَوْق القرآن الكريم لتلك النماذج القليلة ما يؤكد تفردهم وندرتهم، وقلتهم, وكذلك الخواص في كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم, وتلك القلة التي يصطفيها الله تعالى هي الخلاصة التي يقوم عليها بناء الحياة، وتنهض بها الريادة والقيادة، وتتقدم الأمم، وتستعاد القيم[٣].

اولاً: عباد الله الشاكرين: إن القلة القلية امتدحهم الله تعالى ووصفهم بأنهم عباده الشاكرين له, فقد جاء في قوله تعالى:﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [٤], والعبد الشكور وهو (المتوفر على أداء

(١) الكليات: أبو البقاء الحنفي, ص ٦٧٥.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ), ن: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت- القاهرة, ط-٣- لعام، ١٤١٠ه, ص ٣٢٢.

(٣) ينظر: سنن الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم: د. رمضان خميس زكي الغريب, ط-١- ٢٠١٤م, ص ٣٠-٣١.

(٤) سورة سبأ الآية: (١٣).

الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه، لأن توفيقه الشكر نعمة تستدعي شكرا آخر لا إلى نهايته، ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر)[١].

ثانياً: السابقون من أهل الجنة: إن من صفات القلة التي ذكرها الله تعالى ووصفهم بأنهم من السابقين وانهم من أهل الجنة, فقال تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾[٢].

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله ({ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ} أي جماعة من الأمم الماضية. {وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} أي ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم. قال الحسن : ثلة ممن قد مضى قبل هذه الأمة ، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك. وسموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلهم لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم)[٣].

ثالثا: هم المنصورون في كل زمان: إن المتتبع لآيات القلة في القرآن الكريم، والراصد لطبيعة القلة في واقع الحياة والأحياء يجد أن القلة العاملة في كل زمان هم المنصورون، لما يشتملون عليه من سمات وخصائص، تعوض قلة عددهم بكثرة يقينهم واعتمادهم، قال تعالى:﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٤].

قيل أن هذه الآية (نزلت عقب بدر، فقيل خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكة قليلي العدد مقهورين فيها يخافون أن يسلبهم المشركون، قال ابن عباس فآواهم بالمدينة وأيدهم بالنصر يوم بدر والطيبات الغنائم وما فتح به عليهم، وقيل الخطاب للرسول والصحابة وهي حالهم يوم بدر

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ), تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي, ن: دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط-١- لعام ١٤١٨ هـ ٤/ ٢٤٤.

(٢) سورة الواقعة الآية: (١٤-١٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ), تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, ن: دار الكتب المصرية – القاهرة, ط-٢- لعام، ١٣٨٤هـ, ١٧/ ٢٠٠.

(٤) سورة الأنفال الآية: (٢٦).

والطيبات الغنائم والناس عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة والتأييد هو الإمداد بالملائكة والتغلب على العدد) [١].

وهؤلاء يبذلون ما لا يبذله غيرهم والتي تقف عند حدود الشكل والمظهر فتغرهم كثرتهم ويخدعهم عددهم، والراصد لنصر المؤمنين في غزواتهم كلها يجد أنهم لم يبلغوا عدد عدوهم، بل لم يتعدوا ثلث عدوهم، والمعركة الوحيدة التي قالوا: ((لَنْ نُهْزَمَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ فَمَا هُوَ إلاَّ أَنْ لَقِينَا عَدُوَّنَا فَانْهَزَمَ الْقَوْمُ))[٢], وهي المعركة التي سجل القرآن الكريم عليهم فيها الهزيمة، ونسبها إلى هذه الكثرة المعجبة، والعدد الذي اعتمدوا في حسابهم عليه, قال تعالى:﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [٣], فالقليل من ذوى العزائم الصادقة والنفوس التي أشربت حب الإيمان وامتلأت غيرة عليه– يفعل ما لا يفعله الكثير من ذوى الأهواء المختلفة، والنزعات المتضاربة[٤]. ثم إن الإيمان أساس النصر والتأييد، لأن الإيمان بلقاء الله تعالى في الآخرة والاعتصام بالصبر الذي هو من أركان البر وكماله من ثمرات الإيمان سببان من أسباب نصر العدد القليل, وهذا الإيمان هو الذي يحملهم على التمسك بمبدئهم، والتضحية في سبيله، والصبر على مشاقه، لعلمهم إن الله ناصر دينه، ومؤيد أهله[٥].

مطلب الثاني: القلة هم الفئة المؤمنة.

إن الذي يتأمل للقلة في ثنايا القرآن الكريم، يجد أنها قاعدة مطردة، وسنة حاكمة، وأن الفئة المؤمنة دائما قلة، فالذين عبروا النهر مع طالوت قلة، والذين اتبعوا نوحا في دعوته قلة، والذين

(١) البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ), تح: صدقي محمد جميل, ن: دار الفكر – بيروت, ط لعام ١٤٢٠ هـ, ٥/ ٣٠٦.

(٢) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (ت: ٢٩٢هـ), تح: عادل بن سعد, ن: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة, ط-١- ١٩٨٨م, مسند أبي حمزة أنس بن مالك, رقم الحديث (٦٥١٨), ١٢٨/١٣.

(٣) سورة التوبة الآية: (٢٥).

(٤) ينظر: تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (ت: ١٣٧١هـ), ن: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر, ط-١- ١٣٦٥ هـ, ٢/ ٢٢٢٣.

(٥) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ), ن: الهيئة المصرية العامة للكتاب, لعام ١٩٩٠ م, ١/ ١٠٠.

آووا ونصروا قلة، وهكذا في سنية ماضية، وناموس لا يتخلف ولا يتأجل، فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله, لأن القاعدة هي أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين(1).

وإن القلة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي، والذاكرة الواعية التي تحفظ الأمة، وتحفظ لها، وتعي أسباب عزها ونصرها، وعوامل تحللها وفسادها، وهؤلاء هم أولو البقية التي يعبر عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ (2) , أي (هم أولو فضل وخير, وقد سمي الفضل والجود بقية لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار هذا اللفظ مثلا في الجودة يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أي فهلا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى) (3) .

ثم إن النظر إلى الموضوع يبين خطورة أن يبقى في المجتمع أعداد، مهما كانوا قلة، لا يتمتعون بالوعي التام لقضايا المجتمع, وكذلك، خطورة عدم وجود العدد الكافي، أو الحد الأدنى، من الذين يعون الأمور على هذا الأساس من النظر, وإدراك ضرر وجود غير الواعين في الأمة يولد لدى المجتمع شعوراً بالخطر, ولذلك نجد أن الله تعالى قد ذمهم في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (4).

وقد جاء في تفسير هذه الآية (أمن يجيب المضطر إذا دعاه المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجأ إلى الله تعالى من الاضطرار، وهو إفتعال من الضرورة واللام فيه للجنس لا للاستغراق

(١) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥ه), ن: دار الشروق- بيروت, ط-١٧- ١٤١٢ه, ١/ ٢٦٩.

(٢) سورة هود الآية: (١١٦).

(٣) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ), ن: دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط-٣- ١٤٢٠ هـ, ١٨/ ٤٠٩.

(٤) سورة النمل الآية: (٦٢).

فلا يلزم منه إجابة كل مضطر. ويكشف السوء ويدفع عن الإنسان ما يسوءه, ويجعلكم خلفاء الأرض خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم. أإله مع الله الذي خصكم بهذه النعم العامة والخاصة. قليلا ما تذكرون أي تذكرون آلاءه تذكرا قليلا، وما مزيدة والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المزيحة للفائدة)[١].

وهذه القلة وإن كانت في أعين الناس مجموعة قليلة ضعيفة, إلا أنها في الواقع ونفس الامر كثيرة بأفعالها, وكثيرة بأثرها, فهم المؤمنون حقاً لقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢].

المطلب الثالث: فضلهم عند الله تعالى.

إن من مميزات الناجين التي خصهم الله تعالى عن غيرهم وميزهم بها أنهم عصمهم من الشيطان فهؤلاء هم قلة, وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٣], فقد ذكر الإمام البيضاوي في تفسير هذه الآية, (ولولا فضل الله عليكم ورحمته بإرسال الرسول وإنزال الكتاب؛ لاتبعتم الشيطان والكفر والضلال؛ إلا قليلا أي إلا قليلا منكم تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب، وعصمه عن متابعة الشيطان) [٤], فكان ذلك كله بفضل الله تعالى عليهم ورحمته بهم.

ثم بعد ذلك توعد الشيطان عباد الله بأن يغويهم ويضلهم, ولكن جاءت عصمت الله لعباده المخلصين, فقد جاء في كتاب الله العزيز:﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [٥], وأن اللفظة المستخدمة في الوعيد لذرية آدم هي "الاحتناك"؛ ومعناها الاحتواء والاستيلاء أي لاستولين عليهم إلا قليلا، يعني المعصومين منهم, وقد جاء في

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للإمام البيضاوي, ٤/ ١٦٤.

(٢) سورة سبأ الآية: (٢٠).

(٣) سورة النساء الآية: (٨٣).

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للإمام البيضاوي, ٢/ ٨٧.

(٥) سورة الأسراء الآية: (٦٢).

معنى كلمة "الاحتناك" قولان: أحدهما: أنه عبارة عن الأخذ بالكلية أي لاستأصلنهم ولأستميلهم, ويقال: احتنك فلان ما عند فلان أي أخذه كله, والثاني: أنه من قول العرب حنك الدابة يحنكنها إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به, فعلى القول الأول معنى الآية لاستأصلنهم بالإغواء, وعلى القول الثاني: لأقودنهم إلى المعاصي كما تقود الدابة بحبلها(١)

فهناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خُلِق الإنسان، وإلى قيام الساعة, وهذا لأن حقده وعداوته لآدم مُسْبقة فلم ينتظر الجواب, ومعنى: {أَخَّرْتَنِ} أخَّرت أجلي عن موعده، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله، وهذه مبالغة منه في اللدد والعناد، فلم يتوعدهم ويُهدّدهم مدة حياته هو، بل إلى يوم القيامة، فإن كانت البداية مع آدم فلن ينجو ولن تنجو ذريته أيضاً, وأما الاحتناك قد يكون استئصالاً للذات، وقد يكون قهراً لحركتها, فهو سيدخل من هذا الباب وهو إغوائهم, لكنه استثنى عباد الله المؤمنين المخلصين فليس له دخل فيهم وليس له سلطان عليهم, فقوله: {إِلاَّ قَلِيلاً}, لأن هذا القليل المستثنى هم المؤمنون الذين اختارهم الله وهداهم، ولم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً(٢).

وهذا قسم من الشيطان أنه لن ينجو من حبائله وشراكه إلا هؤلاء، فلأستولي عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم, وواقع الحياة يؤكد تلك السنة الماضية، والصفة الحاكمة للقلة المحمودة العاملة(٣).

فإن إبليس كأنه يريد أن يقول: (أما عبادك الذين هديتهم واصطفيتهم فلا دَخْلَ لي بهم، وليس لي عليهم سلطان، لقد تذكر قدرة الله، وأن الله إذا أراد إخلاص عبده لنفسه لا يستطيع الشيطان أنْ يأخذَه) (٤).

وإن القليل المستثنون من هذا "الاحتناك" هم العباد المخلصون الذين جاء استثناؤهم في آية أخرى, وهذه الآية هي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٥).

(١) ينظر: تهذيب اللغة: أبو منصور الهروي, ٤/ ٦٥, ولسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت: ٧١١هـ), ن: دار صادر– بيروت, ط-٣- لعام ١٤١٤ه. ١٠/ ٤١٦.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي - الخواطر: محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ), ن: مطابع أخبار اليوم- مصر, ١٤/ ٨٦١٣-٨٦١٤.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب, ٤/ ٢٢٣٨.

(٤) المصدر السابق: ١٤/ ٨٦٦٤.

(٥) سورة ص الآية: (٨٣).

ثم بعد ذلك جاء ذكر "إلا قليلا " يعني المعصومين، قال ابن عباس: هم أولياء الله الذين عصمهم، وهم الذين استثنى الله فِي قوله:﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [١], أي عبادي الذين خلقتهم للجنة، ليس لك عليهم سلطان أن تضلهم, أو تحملهم على ذنب لا يغفر, ثم إن عبادي الذين أطاعوني وعصوك ليس لك عليهم حجة[٢].

وعلى هذا فيتبن للباحث أن القلة الرائدة لا يتحكم فيها الشيطان؛ فهي تعرف طريقها وتتمسك بمنهاجها، وتقتفي قدوتها، فلا يغريها الشيطان، ولا تلتبس عليها الطرق، ولا تتشعب بها الوديان، منهاجها واضحاً، وقدوتها رائدةٌ، وطريقها مدروسة خطواته معلومة ملامحه، ولقد استثنى العدو الأكبر إبليس هؤلاء من سيطرته وهيمنته.

المبحث الثاني: سبب نجاة القلة ومحبة الله لهم.

لقد جرت سنة الله تعالى في عباده أن يجعل في كل زمان قلة رائدة تؤمن بالله وتدعو الناس إلى الهدى وتنهاهم عن الردى والفساد, وتهديهم إلى صراط الله المستقيم.

المطلب الأول: طاعتهم لله تعالى.

إن سبب نجاة هذه القلة وهذه المجموعة هي طاعة الله تعالى المتمثلة بعبادته, فطاعة الله وعبادته هي الغاية التي خُلق لأجلها الإنس والجن، إذ يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٣], والطاعة هي شكلٌ من أشكال العبادة، وتعني الانقياد والخضوع التام والعبادة الكاملة لله سبحانه وتعالى، وتكون هذه الطاعة نابعة من حب الإنسان لله، وخشيته، والرغبة في جنته، والنجاة من عذابه[٤].

(١) سورة الإسراء الآية: (٦٥).

(٢) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ), تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود, ن: دار الكتب العلمية، بيروت, ط-١- ١٤١٥ هـ, ٣/ ١١٥, وغرائب التفسير وعجائب التأويل: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: ٥٠٥هـ), ن: دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة, ١/ ٦٣٣.

(٣) سورة الذاريات الآية: (٥٦).

(٤) ينظر: الكليات: أبو البقاء الحنفي, ص ٧٢.

فتكون طاعة العبد لربه من خلال الالتزام بأوامره وتطبيقها، والاهتمام بشرع الله؛ فالله سبحانه وتعالى هو الأحق بالطاعة والعبادة، فلا يوجد رب سواه، ولا معبود بحق غيره جلّ في عُلاه، يجب أنْ يحرص كل مسلم على الاستقامة في طاعة الله تعالى والثبات على ذلك؛ فالطاعة والاستقامة هما السبيل الوحيد للفوز بالجنة والصلاح في الدنيا والآخرة, حيث يقول ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه:﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [١].

وعلى هذا فأن الله عز وجل يؤيد عباده المخلصين بجند من الملائكة يثبتونهم ويأمرونهم بالخير ويحضونهم عليه[٢].

ثم إن من اسباب نجاتهم هو طاعة رسول الله صلى الله عليه, إذ قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم, فقال في كتابه العزيز : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [٣], فهذه الآية تأمر المؤمنين بوجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم, فطاعته هي سبب النجاة والفلاح.

ثم إن من اسباب النجاة هو التمسك بكتاب الله تعالى والعمل بكل ما جاء به من احكام وتشريعات, يقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [٤], وحبل الله هو القرآن الكريم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ)) [٥].

وايضاً يمكن القول بأن من أهم سبب نجاتهم هو (مجاهدة الشيطان في دفع الشبهات لا يكون إلا باليقين, وهو قوة الإيمان وصدقه في القلب والوجدان, فباليقين تدفع الشبهات, ودفع الشهوات

---

(١) سورة فصلت الآية: (٣٠).

(٢) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم: عدد من المختصين بإشراف الشيخ: صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي, ن: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة, ط-٤- , المقدمة ص ٧٥.

(٣) سورة محمد الآية: (٣٣).

(٤) سورة آل عمران الآية: (١٠٣).

(٥) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ), تح: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد, ن: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند, ط-١- ١٤٢٣ هـ, رقم الحديث (١٧٨٦), ٣/ ٣٣٣.

يكون بالصبر عن المعاصي والمخالفات والإغراءات وكل ما يفتن به الإنسان في هذه الدنيا، وبهذا الصبر واليقين يتحصل الإنسان على الإمامة في الدين) [١].

المطلب الثاني: نهيهم عن الفساد وابتعادهم عن المعاصي .

لقد مدح الله عز وجل في كتابه العزيز القلة الناجية وهم الذين ينهون عن الفساد, قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [٢].

إن هذه الآية الكريمة تصور لنا حال من سلف وسبقنا من القرون من المؤمنين بأنهم قلة يستقلهم الله من كل قوم, وهذا التصوير مهم للمؤمنين في بداية الدعوة بأنهم وعلى قلتهم موعودون بالنجاة, قوله تعالى: {إلا قليلاً} والسبب في ذلك لأنهم اتبعوا الرسل عليهم الصلاة والسلام, ونهوا عن الفساد في الأرض[٣], أي (فهلا وجد من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض أي بعمل الشرور والمنكرات، فإن لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون إلا قليلا ممن أنجينا منهم استثناء منقطع. أي لكن قليلا ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وسائرهم تاركون للنهي) [٤].

ثم يأخذنا الإمام الرازي, حيث يلفت الأنظار إلى السنن الكونية والتي تتعلق بهذه الآية الكريمة, ألا وهي أن سبب عذاب الاستئصال الذي حاق بالأمم السابقة يعود إلى أمرين: أحدهما: عدم النهي عن الفساد في الأرض, والثاني: بطر المعيشة وكفر النعمة وهذا واضح في الآية الكريمة من خلال قوله تعالى:﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [٥] , ولكن مع الأسف

(١) كلمات مضيئة في الدعوة إلي الله: محمد علي محمد إمام, ن: مطبعة السلام، ميت غمر – مصر, ط-١- ٢٠٠٥ م, ص ٢٢١.

(٢) سورة هود الأية: (١١٦).

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ), تح: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي, ن: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان, ط-١- ١٤٢٢ هـ, ١٢/ ١٣٩.

(٤) محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ), تح: محمد باسل عيون السود, ن: دار الكتب العلمية – بيروت, ط-١- لعام ١٤١٨ هـ, ٦/ ١٣٩.

(٥) سورة هود الأية: (١١٦).

فإن هذين السببين اصبحا من ظواهر العالم اليوم, لأن انهي عن المنكر قد أصبح في مجتمعنا جريمة لا تغتفر, واصبح الملتزم بشرع الله تعالى ودينه الحنيف مخالفاً لكل الاعراف[١].

فإن سبب نجاتهم وكونهم من القلة الذين مدحهم الله تعالى, هو أنهم كانوا ينهون عن الفساد ويبتعدون عن المعاصي, وهنا (في البيان إشارة إلى أن نهيهم عن الفساد هو سبب إنجاء تلك القرون لأن النهي سبب السبب إذ النهي يسبب الإقلاع عن المعاصي الذي هو سبب النجاة) [٢].

ثم إن من سبب نجاة هؤلاء القلة, هو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر, لأنه من الشعائر الهامة في دين الإسلام, وما يحصل من خلاله من حرص أفراده بعضهم على بعض بالابتعاد عن المعاصي والمنكرات، والحث على فعل الطاعات والمأمورات, وقد عده الله عز وجل من الأمور التي تميزت به هذه الأمة الخيرة عن الأمم السابقة, فقد جاء في قوله تعالى:﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٣] .

المطلب الثالث: محبة الله تعالى لهؤلاء القلة.

إننا نفهم في أن القلة المحمودة وقعت مورد المدح الإلهي خاصة في المستوى الإيماني لأنها التعبير الصادق عن رفض الانجرار وراء الأكثرية التي توهمت أن كثرتها تجعلها محقة فيما عليه هي من الاعتقاد أو أنها طريق النصر.

وإن محبة الله تعالى لهؤلاء المجموعة والثلة القليلة؛ جاء نتيجة لما رأى منهم حبهم لله تعالى, وذلك من خلال تنفيذ ما أراده الله منهم, فقد تدفع مغريات الحياة وحب الشهوات فيها الناس أن ينتهزوا فرصة سانحة من لأعداء يخدعونهم فيها ويضربون بعهودهم عرض الحائط ما دام الهدف

(١) ينظر: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ١٨/ ٤٠٩- ٤١٠.

(٢) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور, ١٢/ ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران الآية: (١١٠).

قد يتحقق بأي وسيلة على حين غفلة من الأعداء, والمؤمنون من دون الناس لا يفعلون ذلك ولو كان متاحاً لهم, وهذا دليل تحليهم بالصبر أمام المغريات[1].

فإن القلة المحمودة هي التي ورد التعبير عنها في القرآن الكريم جاءت في مقام المدح لأصحابها, فكانت الفرقة الناجية التي مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم, فقد تفردوا بسمات واتصفوا بصفات يرضاها الله تعالى ويدعو إليها؛ سواء كانت تلك الصفات ريادة وسبقاً في وقت يندر فيه السبق والريادة, أو إيماناً يستحق أن يؤيده الله ويؤوي أهله ويرزقهم من الطيبات لعلهم يشكرون, فقد تناول القرآن الكريم الحديث عن هذه القلة تناولاً واضحاً, إذ بيت خصائصها[2].

ثم إن محبة الله تعالى تتولد عنها النصر والتمكين في الأرض وهذا واضح جلي من خلال ما نقرأه, الناظر في حياة الأنبياء والمرسلين، والدعاة والمصلحين يجد أنهم بدأوا دعواتهم أفراداً، ثم انضم إليهم من حمل فكرتهم، وتبنى رؤيتهم، وبذل في سبيلها، وضحَّى من أجلها، حتى استقرت على النهج المبتغى، والهدف المرتجى، وأفاد منها من يسر الله له سبل الهداية والرشاد، فكل المحاولات التي غيرت مجرى التاريخ أو عدلته وقومته بدأت بأفراد [3].

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بالحديث عن هذه تلك القلة, وأن الفاعلين والمؤثرين في تغيير مجرى الحياة كانوا قلة, وأن النهضات الحضارية والإصلاحية حمل لواءها قلة, حتى إننا لنجد أن الله قد وصفهم بأنهم عباده, فقال في كتابه المجيد: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [4], أي العامل بطاعتي شاكراً لنعمتي.

(١) ينظر: منهج القرآن الكريم في مدح القلة وذم الكثرة: توفيق علي زبادي, ن: دار الكتب العلمية- بيروت, ١٩٧١م, ص ٦٦.

(٢) ينظر: سنن الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم: د. رمضان خميس زكي الغريب, ص ٢١.

(٣) ينظر: منهجية التربية الدعوية: محمد أحمد الراشد, ن: دار المحراب, ط-١- ١٤٢٢ه, ص٢٠.

(٤) سورة سبأ الآية: (١٣).

وعلى هذا فأن المجتمع الذي يخلو من القلة الخيرة لكي تقوده وترتاد له مواطن الخير , وتحذره من مغبات الشر والفساد, فهو مجتمع على خطر عظيم, لأن القلة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي, لكي يحفظ الأمة.

الخاتمة

بعد هذه الجولة المباركة في هذا البحث, عسى أني قد وفقت فيه, ولكن لا بد أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها فقد أوجزتها في النقاط الآتية:

١- جرت سنة الله تعالى في عباده ان يجعل في كل زمان قلة رائدة تدعو الناس إلى الهدى وتردهم عن الردى, وتهديهم إلى صراط الله المستقيم, فهم اهل الصبر والثبات.

٢- إن المتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن السابقين للإيمان والناصرين للدعوات وصيحات الحق هم القلة, فهم الذين تقوم عليهم الدعوة وتبليغ الرسالة.

٣- وإن القلة الرائدة في كل مجتمع بمثابة العقل الواعي، والذاكرة الواعية التي تحفظ الأمة، وتحفظ لها، وتعي أسباب عزها ونصرها، وعوامل تحللها وفسادها، وهؤلاء هم أولو البقية التي يعبر عنهم القرآن الكريم.

٤- ثم إن القلة المحمودة هي التي ورد التعبير عنها في القرآن الكريم جاءت في مقام المدح لأصحابها, فكانت الفرقة الناجية التي مدحهم الله تعالى وأثنى عليهم.

٥- إن محبة الله تعالى لهؤلاء المجموعة والثلة القليلة؛ جاء نتيجة لما رأى منهم حبهم لله تعالى, وذلك من خلال تنفيذ ما أراده الله منهم, فهم مفضلون عنده ومنصورون ومؤيدون بتأييد منه.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ), تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي, ن: دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط-١- لعام ١٤١٨ هـ.

٢- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ), تح: صدقي محمد جميل, ن: دار الفكر – بيروت, ط لعام ١٤٢٠ هـ.

٣- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) , ن: دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م.

٤- تفسير الشعراوي – الخواطر: محمد متولي الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ), ن: مطابع أخبار اليوم– مصر.

٥- التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ), ت: جماعة من العلماء بإشراف الناشر, ن: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان, ط-١- لعام ١٤٠٣هـ.

٦- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ), ن: الهيئة المصرية العامة للكتاب, لعام ١٩٩٠ م.

٧- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ), ن: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر, ط-١- ١٣٦٥ هـ.

٨- تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠هـ), تح: محمد عوض مرعب, ن: دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط-١- ٢٠٠١م.

٩- التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ), ن: عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت– القاهرة, ط-٣- لعام، ١٤١٠هـ.

١٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ), تح: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي, ن: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان, ط-١- ١٤٢٢ هـ.

١١- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ), تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, ن: دار الكتب المصرية – القاهرة, ط-٢- لعام، ١٣٨٤هـ.

١٢- الجامع الصحيح: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت: ٢٥٦هـ) حسب ترقيم فتح الباري, ن: دار الشعب- القاهرة، ط-١- ١٤٠٧هـ.

١٣- حتى يغيروا ما بأنفسهم: جودت سعيد, ط -٣- ١٣٩٧هـ.

١٤- سنن الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم: د. رمضان خميس زكي الغريب, ط-١- ٢٠١٤م.

١٥- شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ), تح: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد, ن: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند, ط-١- ١٤٢٣ هـ.

١٦- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ), تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي, ن: دار ومكتبة الهلال.

١٧- غرائب التفسير وعجائب التأويل: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: ٥٠٥هـ), ن: دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة,

١٨- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ), ن: دار الشروق- بيروت, ط-١٧- ١٤١٢هـ.

١٩- الكليات : أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ), تح: عدنان درويش – محمد المصري, ن: مؤسسة الرسالة – بيروت.

٢٠- كلمات مضيئة في الدعوة إلي الله: محمد علي محمد إمام, ن: مطبعة السلام، ميت غمر – مصر, ط-١- ٢٠٠٥ م.

٢١- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت: ٧١١هـ), ن: دار صادر– بيروت, ط-٣- لعام ١٤١٤هـ.

٢٢- محاسن التأويل: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: ١٣٣٢هـ), تح: محمد باسل عيون السود, ن: دار الكتب العلميه – بيروت, ط-١- لعام ١٤١٨ هـ.

٢٣- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠هـ), ن: المكتبة العلمية – بيروت.

٢٤- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ), ن: دار إحياء التراث العربي – بيروت, ط-٣- ١٤٢٠ هـ.

٢٥- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ), تح: صفوان عدنان الداودي, ن: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت, ط-١- ١٤١٢ هـ.

٢٦- منهج القرآن الكريم في مدح القلة وذم الكثرة: توفيق علي زبادي, ن: دار الكتب العلمية– بيروت, ١٩٧١م.

٢٧- منهجية التربية الدعوية: محمد أحمد الراشد, ن: دار المحراب, ط-١- ١٤٢٢هـ.

٢٨- نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم: عدد من المختصين بإشراف الشيخ: صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي, ن: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة, ط-٤-.

٢٩- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ), تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود, ن: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان, ط-١- ١٤١٥ هـ.

٣٠- مجمل اللغة لابن فارس: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ), تح: زهير عبد المحسن سلطان, ن: مؤسسة الرسالة – بيروت, ط-٢- ١٤٠٦ هـ.

قراءة جديدة لتعزيز منظومة النزاهة في ضوء الآراء التربوية والنفسية للإمام الحارث المحاسبي

أ.د كفاح يحيى صالح العسكري، فلسفة التربية وعلم النفس التربوي

أ.د عمر مجيد عبد صالح العاني، طرائق تدريس العلوم الاسلامية

اولا:التعريف بالبحث

مشكلة البحث:

لقد اضحت ظاهرة الفساد الاداري والمالي بصورة خاصة ظاهرة عالمية ذات انتشار واسع بجذور عميقة تأخذ ابعادا واسعة تتداخل فيها عوامل مختلفة صعب التمييز بينها، وتختلف درجة شموليتها من مجتمع لآخر، فضلا عن موضوع مكافحة الفساد، على امتداد حياة الشعوب أهمية متقدمة .فطرائق المعالجة متعددة، والغايات التي تدفع إليه ، خصوصا حين تمر الشعوب بفترات انتقالية في حياتها ، و حين تكون عند مفترق طرق بين مرحلتين. ومما يؤيد من أهمية التصدي للفساد المالي والاداري، ارتباطه بحياة الشعوب اليومية وبمستقبل اجيالها (المدهون،www dw–world0de الالكتروني) .

ان ظاهرة الفساد الاداري والمالي ليست بظاهرة حديثة، الا انها ما زالت تستأثر باهتمام كبير من قبل المجتمعات النامية والمتقدمة منها أكبر لهذه الظاهرة في العالم عامة والعراق خاصة بتجاوز القوانين والانظمة مشكلة متأصلة ومتعاقبة عبر انظمة الحكم في العراق وتأثيرها وانعكاساتها الخطيرة بالنسبة لمستقبل الدولة في الجوانب (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية و السياسية)، ويتمثل الفساد الاداري بعدم نزاهة الافراد (سلوكياً، وظيفياً، مالياً)، وقد تآثر الاقتصاد العراقي بهذه الظواهر التي بدأت تنخر في هيكلية الدولة. وعجزها عن مواجهة مثل هذه الظواهر، نعم ان ظاهرة الفساد الاداري والمالي متفشية في الدولة العراقية.

ولكن هناك جهات رقابية رادعة لهذه الظاهرة في الدولة من خلال الجهات المسؤولة على مكافحة الفساد ان كانت محليا" أو دوليا" فضلا عن ذلك توجد هنالك معالجات وحلول للحد من ظاهرة الفساد الاداري والمالي في العراق منها على سبيل المثال (المحاسبة، المساءلة، الشفافية، النزاهة... الخ)(داود ،٢٠١٥: ٩٧-٩٨)

إن الفساد في العراق الجديد صارت له بعد الاحتلال الامريكي أسسه القانونية ، حيث منع العراقيين من التصرف بأموالهم حسب قرار مجلس الأمن رقم (١٤٨٣)، والذي تم بموجبه تأسيس (صندوق تنمية العراق). ومن مجموع ما يقارب من (٢٠) مليار دولار تم تحويلها إلى هذا الصندوق، لم يتبق سوى حوالي (٩٠٠) مليون دولار عند استلام الحكومة العراقية المؤقتة للحكم في يونيو الماضي. ولا احد حتى الساعة يعرف إلى أين ذهبت تلك الأموال (وتوت،٢٠٠٦: ١).

ويشير تقرير المفتش العام بالتفصيل الى الفشل الاداري الممنهج وانعدام الاشراف وممارسات الغش والاختلاس من جانب المسؤولين الامريكان الذين كانوا يديرون جهود اعادة الاعمار في العراق, وقد اتهمت ادارة سلطة الائتلاف المؤقتة بالفساد والاستغلال السيء للموارد فمن بين موارد صندوق تنمية العراق فإن نحو ٨.٨ مليار دولار كانت قد تم تسليمها الى الوزارات العراقية ولم يتم الوقوف على ابواب الصرف وكيفية حصوله. قد تم رصد ٥٧ قضية قيد التحقيق منها ١٥ سرقة و١٩ حالة رشوة و٦ حالات غش في التجهيز وهكذا تم هدر المليارات من الدولارات وتخريب القدرات الانتاجية والخدمية واعاقة عملية اعادة الاعمار (محمود ، والساعدي ،٢٠١٧: ١٢) وازاء هذا الفساد المتفشي يحاول الباحثان ايجاد صورة مثالية من الحضارة العربية الاسلامية فكان المحاسبي أنموذجا يحتذى به لكثرة محاسبته لنفسه ومن هنا يمكن علاج المشكلة ويمكن ان نلخص مشكلة البحث بما يأتي : كيف يتم تعزيز منظومة النزاهة في ضوء الآراء التربوية والنفسية للإمام المحاسبي؟

اهمية البحث:

تتبع الاهمية على أساس واحد هو : أن معدلات التنمية مرتبطة عكسياً بمعدلات ومؤشرات الفساد وكمثال على ذلك فقد ذكرت التقارير الدولية جملة من حالات الفساد وبشكل كبير ولافت ((حيث اصدر المفتش العام الامريكي لبرنامج اعادة اعمار العراق تقريرآ بتاريخ ٢٠٠٥/٥/٣٠ يتهم فيه الحاكم المدني للعراق السيد بول بريمر بتبديد (٩) مليار دولار امريكي حيث منحت هذه الاموال العراقية بدون التأكد من كيفية انفاقها, حيث اكتشفت فيما بعد حالات الهدر والفساد ومنها على سبيل المثال لا الحصر ان احدى الوزارات دفعت قوائم رواتب لـ(٨٢٠٦) حارس فيما لم يكن العدد الفعلي سوى (٦٠٢)حارس فقط, كما شمل التقرير كذلك على صفقات اسلحة بمقدار (١,٤) مليار دولار امريكي دفعت من حساب الحكومة العراقية وهي بالأساس من المساعدات الامريكية المقدمة للعراق, يضاف الى ذلك (١١٠) حالة مخالفة لعدم وجود مستندات مؤيدة للصرف ولم تحدد نوع الخدمات المقدمة عن طريقها))(سلمان ،٢٠٠٩ :١٤٨) ، ولا يجاد السبل الكفيلة للحد من ظاهرة الفساد المستشري في العراق يتم ذلك من خلال البدء بمحاسبة النفس وان صلاح المجتمع الإسلامي يعتمد عليها. ان صلحت صلح المجتمع، و ان فسدت فلم نجد سوى الانحطاط الأخلاقي و الفساد الاجتماعي. لهذا، الاهتمام و الاعتناء بهذا العلم من واجبات كل مسلم. لا سيما في عصرنا الراهن الذى ساد الفكر الغربي الدخيل في شتى المجلات، خاصة في ميدان التربية. و نتج عن ذلك تبنى البعض تلك الأفكار دون تمحيص و تفحيص.

وازاء هذا الفساد الضخم بالأرقام يحاول الباحثان أن يجدا آلية تسهم في معالجة هذا الفساد ، ولما كانت ظاهرة الفساد متواجدة في الامم والشعوب والجماعات وعلى مختلف الاديان باختلاف النسب وشيوعها فإن البعد النفسي الذي رصده المحاسبي في كتاباته كانت جديرة بالاهتمام عن طريق كثرة محاسبة نفسه وتركيزه على الناحية التربوية التي تهم البشرية و اصلاحها. و ذلك نتيجة الفساد الاجتماعي السائد في عصره، فحاول ان يجد الحلول المناسبة للمشكلات، فوجدها في اصلاح النفوس و تزكيتها. ونحن الآن في امس الحاجة الى النموذج الحي لتطبيق الفكر

الوسطي، خاصة في ما يتعلق بقضية محاسبة النفس ومن خلال دراسة افكار المحاسبي التربوية والنفسية .

ويعتقد الباحثان أن معالجة الفساد تتم بطريقتين : الاولى : تفعيل دور الرقابة القانونية والثانية : تفعيل دور الرقابة الداخلية وان نبدأ منظومة الرقابة الداخلية وهي محاسبة النفس وهذا مؤشر لأهمية البحث لدراسة افكار المحاسبي .

في القرون الماضية والحاضرة تتهدد العامة موجات من الضياع والضلال ، موجات من الضياع الناتج عن الاهمال ،إذ يتجمع المريدون في كل علم حول أستاذهم ، ولهم من وسائل التحصيل ، والقدرة على الموازنة والمقارنة ما يؤهلهم للانخراط في دوائر كبار العلماء ، ولما كانت تلك الآلات وغيرها من الآت العلم لا تتهيأ لعامة المسلمين فان تلك الدوائر العلمية تلفظهم إلا من فترات قصيرة يفدون إليها سائلين عن حكم ، أو مصححين لعقيدة ، ثم ينصرفون حيث لا يستطيعون التجاوب مع تلك الحلقات الاكاديمية يوما أو بعض يوم، وموجات من الضياع الناتج عن الجهل ، ثم عن فلسفة الجهل التي تأبى الاعتراف بالجهل ، ومن ثم تفسد نفسية جماهير العامة ، وتسدل ستارا كثيفا على الجهل ، وتدع أصحابها إلى التعرض لحظر الاستمساك بالخطأ والكبر عن السؤال ، وكان من نتائج ذلك الاضطراب فقدان النصح من العلماء لعامة المسلمين وخاصتهم ، فاهتزت القيم ، وسادت الدعوى ، واستمسك كل فريق بدوائره ، وأصبح المجتمع الاسلامي أحزاباً متنافرة يهددها الانقسام بالشر ، وموجات من الضياع الناتج من فطنة شيوخ المذاهب الدخيلة الوافدة التي تستهدف أولا هدم أصول العقيدة في أكثر أوساط المجتمع عددا ، وأشدهم شعوراً بالفراغ ، واستعدادا للهجوم ، وليس ذلك الوسط إلا وسط العامة الذين ضلوا بلا راع يحميهم غائلة الغزو الفكري ، والتعقيد النفسي ، والتردي في أوحال الرذيلة العمياء(عطا ،د.ت: ٦-٧).

وكان المحاسبي واسع الأفق : شامل النظرة ، لأنه كان يربط بين منهجه في الاصلاح النفسي والشرعي القائم على الكتاب والسنة وبين استعادة دولة الاسلام مجدها الحق

وتنطلق اهمية البحث ايضا من بروز أفكار دخيلة تغلغلت في جميع ميادين الحياة تشكك بصحة المبادئ الإسلامية الأصيلة وبالرجال الذين حملوا هذه الأفكار، فأقاموا المجتمع الإسلامي العظيم على امتداد قرون طويلة وقد تذرع من تبني هذه الأفكار من أبناء أمتنا مع الأسف، بأن هذه المبادئ الإسلامية الأصيلة إنما هي أفكار عفا عليها الزمن وتوقف اثرها بزوال من يمارسها أو أنه لا يمكن تقديمها للمجتمع المعاصر الآن .وقد طالت تلك الأفكار علماءنا الأجلاء الذين أثروا مناحي الحياة المختلفة بما قدموه من نتاج علومهم وأفكاركم، لذلك لابد من تكاثف جهود علماء المسلمين والباحثين خاصة في ميدان التربية للتصدي لتلك الأفكار الدخيلة بالعمل على إحياء مبادئ الفكر الإسلامي الأصيل الذي يقوم على الكتاب والسنه .والتذكير بالرجال الأفذاذ الذين حملوا مسؤولية العلم على مر القرون ونشر أفكار هؤلاء يتيح للأجيال الإسلامية الناشئة الاطلاع على هذه الأفكار واتباعها والعمل على منهجها.

هدف البحث: "قراءة جديدة لتعزيز منظومة النزاهة في ضوء الآراء التربوية والنفسية للإمام الحارث بن أبي عبد الله المحاسبي".

تحديد المصطلحات:

الآراء التربوية والنفسية : الافكار والتصورات المتكاملة لتنمية الانسان من جميع جوانبه التربوية والنفسية (احمد، ٢٠٠٥: ١٢)

الحارث المحاسبي : الحارث بن أسد العنزي المحاسبي البغدادي البصري مولده ١٦٥هـ ووفاته ٢٤٣هـ اشتهر الحارث المحاسبي ب " المحاسبي" لسبب ذكره التاج السبكي: يقال: انما سمي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه(السبكي ، ١٩٥٦: ٢/٢٧٥).

ثانيا: الاطار النظري

١- حياته (١٦٥ هـ /٧٨١-٢٤٣ هـ /٨٧٥ م) :

ولد الحارث في جو من المنازعات الفكرية الاولى ، في البصرة سنة ١٦٥ هـ /٧٨١م فمن البصرة خرجت المعتزلة ، وكانت نموذجاً بين مختلف الحركات ، القدرية والجبرية حتى ان أبا

الحارث (أسد العنزي) كان قدريا (القشيري، ١٩٦٦: ٧٢) وكانت أم الحارث عدوة القدرية ولذلك التجأ الحارث المحاسبي في تلمذته الى المحدثين عن حلقات القدرية والمعتزلة فتتلمذ على يد المحدث هشيم بن بشير (ابن النديم،١٩٢٩: ٢٢٨) في بغداد وكذلك درس الحارث المحاسبي على يد وكيع بن الجراح (ابن سعد ، ١٩٧٠: ٧٥/٦) ومن أشهر اساتذة المحاسبي ايضا شريح بن يوسف (ابن سعد ، ١٩٧٠ :٧/ ٩٤). ويزيد بن هارون (ابن سعد ، ١٩٧٠: ٧/ ٦٢) . وقد تتلمذ الحارث ايضا على يد الامام الشافعي (ت ٢٠٥ هـ) في رحلته الثانية الى بغداد (١٩٥ هـ) (البغدادي ،١٩٢٨: ٣٠٨) وأخذ المحاسبي علوم اللغة والقران عن علمها الاول في ذلك العصر ابي عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب الاموال (الخطيب البغدادي ،١٩٣٩ :٧/ ٩٣).

وقد لقب بالمحاسبي لكثرة محاسبته نفسه او لا نه له حصى يعدها ويحسبها وقت الذكر (المناوي ،١٩٣٨: ٢١٨/١) وقد اوردت المصادر التاريخية بان المحاسبي سمى لكثرة محاسبة نفسه فيذكر السبكي (المحاسبي علم العارفين في زمانه واستاذ السائرين ، الجامع بين علمي الباطن والظاهر لقب بذلك المحاسبي لكثرة محاسبة نفسه ، كان امام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام وكتبه في هذه العلوم اصول لمن يصف منها واليه ينسب اكثر متكلمي الصفاتية)(السبكي ،١٩٦٤:٢/٣٧) . قد صحبه وتتلمذ على يديه كل من معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) وابن عطاء (ت٢٠٩ هـ) والسرقسطي (ت ٢٥١ هـ) وعمرو بن عثمان المكي (ت٢٩١ هـ) فضلا عن الجنيد البغدادي (ت٢٩٧ هـ) وغيرهم(السلمي ،١٩٦٧ :٥٦).

لقد عاش المحاسبي حياة غنية في بدايتها ، ولكنه أثر الزهد وأصبح زاهداً تقياً ورعاً شديد الخوف من الله تعالى ، حتى إن آثار الجوع كانت ترى على وجهه ، كما يؤكد ذلك تلميذه الجنيد البغدادي (الذهبي، ١٩٨٤: ١٢/١١١).

واسس الحارث المحاسبي مدرسة في بغداد وتخرج منها في القران والفقه والحديث اما عن مؤلفاته فقد ذكر السبكي نقلا عن بعض المؤرخين ان عدوها تبلغ مائتي مصنف(السبكي ، ١٩٦٤: ٣٧/٢) .ولكن اكثرها فقد وقد حققت بعض كتبه وبقى البعض الاخر منه مخطوطا ومنها

: آداب النفوس ، احكام التوبة ،الاخلاق اخلاق الحكيم ، بدء من اناب ، البعث والنشور ، التصوف ، التفكر والاعتبار التنبيه على أعمال القلب والجوارح ، التوحيد ، التوهم ، الخصال العشرة –الخلوة والتنقل ، الدماء ، دواء داء القلوب ، الرد على بعض العلماء الرعاية ، شرح المعرفة ، الصبر والرضا ، العظمة ، العلم ، الغيبة ، فهم الصلاة فهم السنن ، فهم القران – القصد والرجوع ، مائية العقل ، محاسبة النفوس المحبة ، مختصر المعاني المراقبة والمحاسبة ، المسائل في أعمال المحاسبة ، المسائل في الزهد المستشرقين ، معاتبة النفس ، المكاسب ، النصائح او الوصايا ، النصيحة للطالبين ، الوصايا .

اما من الناحية المالية فقد أشارت الروايات الى ان أباه ترك مبلغا هائلا من المال. ذكر القشيري انه ورث من ابيه سبعين الف درهم فلم يأخذ منها شيئا. قيل لأن أباه ممن قال بالقدر، فرأى من الورع ان لا يأخذ من ميراثه شيئا (القشيري ،١٩٦٦: ٧٣).

فنشأ فقيرا الى ان لقي ربه جل شأنه. وقد روى مسروق انه: "مات الحارث المحاسبي وهو محتاج الى درهم، وخلف أبوه ضياعا عقارا فلم يأخذ منه شيئا هذا هو الحارث المحاسبي العالم الصوفي الذي لا يأخذ الا من حلال تورعا ولا يخاف من الفقر(القشيري ،١٩٦٦: ٧٤).

٢- حياته العلمية والفكرية :

كان المحاسبي مستقلا في فكره ، فلم يفرض عليه الالتزام بفكر معين ، وقد انعكس هذا على حياته وسيرته العلمية ، فازداد تعمقا في دراسة أحكام الإسلام ، فأصبح بذلك من كبار العلماء ومن أزهدهم واورعهم واستحوذ بذلك على تقرير العلماء في عصره ومن بعدهم ومن اقوالهم فيه:

قال الامام أحمد :" ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء ولا سمعت في علم الحقائق مثل هذا الكلام" (العسقلاني، ١٩٠٨: ١/٤٣٠).

وقال ابن النديم : "كان فقيها متكلما ، كتب الحديث وتكلم في الزهد والورع" (ابن النديم،١٩٢٩ :٢٦١).

قال ابو محمد الشافعي:" الحارث بن أسد المحاسبي-بضم الميم-عرف بذلك؛ لكثرة محاسبته نفسه، البصري الأصل، الولي الكبير العارف، معدن الأسرار والمعارف، وهو أحد الشيوخ الخمسة الجامعين بين الباطن والظاهر في عصر واحد "(ابو محمد الشافعي، ٢٠٠٨: ٢/٥٢٤).

كان الحارث المحاسبي ناسكا عابدا، و صوفيا زاهدا، وفقيها متكلما، و محدثا راويا له تأثير في الجيل الذى بعده و العلم الذى اعتنى به. فقد عاش وهو يشهد الصراعات الفكرية بين أرباب المذاهب: المعتزلة و الشيعة و القدرية و المحدثين. فهذا له أثره في حياة المحاسبي العلمية. فبدأ يتفكر وينظر للوصول الى الحقيقة بعيدا عن التعصب المذهبي. فرأى من الخير ان يلتمس حكم رسول الله صلي الله عليه وسلم وعلومه حيث اتجه نحو مدرسة اهل الحديث فتعلم منهم الفنون العديدة و العلوم المتنوعة. ولذلك ظهر منهج المحدثين في عدة كتبه فما من قول الا وهو يسرد أسماء الرجال كما سلك المحدثون .

مع ذلك، كان الحارث واعظا مبكيا أوتي بفصاحة اللسان و براعة البيان حتى اذا حدث احدا عن الشيء ترهيبا او ترغيبا جعله كأنه يراه رأي العين و يحس به احساس المباشر ويقنعه بالحجة. كتب الحارث كتابا عن مشاهد القيامة و الحياة الأخروية سماه "التوهم". صور القيامة و الحساب و الميزان و الجنة و النار فريد في نوعه واسلوبه. و هذا إن دل على شيئ فإنه يدل على فصاحته وبلاغته في التعبير و ملكته اللغوية (العباسي ، ٢٠١٨: ٥).

وأراد الحارث المحاسبي ان يبحث في بدء الأمر عن الفرقة الناجية الغريبة بين الفرق العديدة المتصارعة. فاعترف بعسر ذلك في وقت تكلم فيه الناس في أمر لا يعلمه، او تكلم قصدا للشهرة او طلب الجاه من عند السلطان، هذا من جانب. و بجانب آخر، تدبر المحاسبي في أمر الأمة و نظر في مذاهبها و أقاويل علمائها، فرأى ما رأى من الاختلاف كأنه بحر عميق غرق فيه ناس كثيرون، و لم ينج منه الا نفر قليل(المحاسبي ،١٩٨٦: ٥٠). ومن العجيب ان كل صنف منهم يرون ان النجاة لمن سلك مسلكهم، و ان المهالك لمن خالفهم.

في مثل هذا الزمان الصعب رأى المحاسبي ان الرجوع الى هدى المهتدين و الاسترشاد بالعلم و إعمال الفكر من أهم المهمات للوصول الى الحقيقة بعيدا عن الآراء السطحية. فتدبر كلام الرحمن و تأمل أحاديث سيد الأنام و إجماع الأمة فوعى الحارث ان اتباع الهوى يعمي عن الرشد و يضل عن الحق و يطيل المكث في الأعمى(المحاسبي ،١٩٨٦: ٥٠).

وبعد بحث طويل اهتدى المحاسبي الى من يريده مرشدا له في طريق الآخرة ممن يؤثر الخفاء ، والدار الآخرة على الدار الأولى ، ولكنه لم يحدد لنا أسمه ، كما لم يحدد لنا شيوخه في علوم الشريعة الأخرى ، اللهم إلا شيوخه في الاحاديث حيث ذكرهم بأسناد ، لما رواه من الاحاديث.

فهو درس كل العلوم التي لا تحتاج الى السند بنفسه ، دون أن ينتسب إلى شيخ معين ، ولم يلجأ إلى الشيخ إلا في طريق الآخرة ، وهنا تتحدد شخصيته المستقلة في عدة مسائل منها:

١-عني بتدوين (فقه مالم يدونه الفقهاء) في أبواب من كتبه : مثل : من أم قوماً فألزم قلبه الحذر في القراءة ، وباب الشهرة ، والاحتساب في سرور المسلم ، ومذاهب السلف عند غلبة الحرام على المطاعم ، ومذاهب السلف عند غلبة الحرام على المطاعم ، ومذاهب الورع ، وأغاليط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى غير ذلك من الابواب التي أغفلها الفقهاء ، ولايدونها إلا مجتهد مطلق مستقل بعلمه ومذهبه .

٢-أنه نقد بشدة نفس المدرسة التي آثرها وهي المدرسة الروحية (الصوفية) في كثير من آرائهم بالغلطة والجهل بالأخبار فيما يتصل بالمكاسب وبالورع ، وسجل ذلك كله في كتاب المكاسب ، مما يؤكد أنه كان مستقلا.

٣- لا يعتمد على عموميات مشهورة في إصدار أحكامه ، وإنما يعتمد على المشاهدة الشخصية ، ولذلك اهتم بدراسة احوال مجتمعه بنفسه ولم يصدر حكما إلا بعد مشاهدة وسماع شخصي ،وهو اسلوب لم يستعمله الفقهاء من قبل.

٤- لم يغلق فكره على فرع معين من فروع المعرفة

بناء على هذا المنطلق فإن المحاسبي أخذ يؤلف كتابا في أحوال النفس والروح و عيوبها و كيفية تزكيتها. كانت مؤلفاته في هذا الفن تعّد أصولا لكل من صنف فيها بعده مثل أبي طالب المكي في قوت القلوب ثم تابعه الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين.

لقد عاش المحاسبي بين مغريات عصره ، بل ومغريات بيته غريبا ، لا تستهويه نزوة ولا تقهره شهوة ، ولا يتجاوب في أرجاء قلبه شيء غير الحق والعدل مع نفسه ومع غيره ، والبحث عنه بين مناهج العلم وقواعد السلوك ، فهو غني الباطن ، متين الذات ، ليس بمحتاج إلى ما يحتاج إليه فارغ الباطن المهتز الذات من وسائل التكميل لشخصية ممزقة ، بل هو سعيد بالفقر شديد الحبور بالجوع ، عظيم الثقة بالله (عبد الله ، ١٩٩٦ :١/ ٧٩).

وذكر المحاسبي في مقدمة وصايا" لم أزل برهة من عمري انظر اختلاف الأمة والتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء. وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في مذاهبها وأقاويلها فعقلت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا غرق فيه ناس كثير وسلم منه عصابة قليلة، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم وأن المهالك لمن خالفهم" (المحاسبي، ١٩٨٦ :١٩) .

لم يرض الحارث المحاسبي في شبابه عن مناهج التعليم التقليدية التي كانت سائدة في عصره وبدأ يزنها بميزان الحق ليدرك مدى صلاحيتها ، دون أن يمضي فيما مضى فيه الناس وهو مغمض البصيرة والبصر ، وكانت أولى دراساته لمناهج التعليم في عصره مقرونة بحالة من الانطواء والضيق والحيرة تشبه أن يكون أزمة نفسية ، أو شخصية جديدة لا تمارس شيئا ، ولا تسلم بمقولة إلا بعد الفحوص والتدقيق(عبد الله ، ١٩٩٦ :١/ ٧٩).

وقد اتفقت المصادر القديمة والحديثة بان الحارث بن أسد المحاسبي من اكبر علماء الاسلام تفهما للدين وتعمقا في أسرار احكامه ، ومن أكثرهم غوصا في طيات النفس البشرية ، وقد ارسى

أسس الفكر التربوي للمدرسة الصوفية وبحث في المنهاج والتعلم وقوانينه(الكيلاني ،١٩٧٤: ٣٩) .

وكان للحارث المحاسبي أسلوب ومنهج عقلي فهو يثير أسئلة مع تلميذه الجنيد البغدادي يستطيع ان يثير المحاورة ثم بعد ذلك يبدأ بتأليف الكتب فيذكر ابو نعيم الاصبهاني عن الجنيد البغدادي (كان الحارث المحاسبي يجيء الى منزلنا فيقول اخرج معي نصحر فأقول له تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي الى الطرقات والافاق ورؤية الشهوات فيقول أخرج معي ولا خوف عليك فأخرج معه فكان الطريق فارغا من كل شيء لا نرى شيئا نكرهه فاذا حصلت معه في المكان الذي يجلس فيه قال لي سلني فأقول له ما عندي سؤال أسالك فيقول لي سلني عما يقع في نفسك فتنثال علي السؤالات فأساله عنها فيجيبني عليها للوقت ثم يمضي الى منزله فيعملها كتبا) (ابو نعيم الاصفهاني ، د.ت: ١٠/٧٤) .

ثالثا : الآراء التربوية والنفسية للمحاسبي:

أ- آراؤه التربوية: اساس الضلال كله كما قال الامام المحاسبي هو " اتباع الهوى ، فهو يعمي عن الرشد ، ويضل عن الحق ، ويطيل المكث في الغرة" (المحاسبي،١٩٨٦: ١٩) واذا كان الاجماع قد انعقد على أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله ، واداء فرائضه ، والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده ، والاخلاص لله تعالى بطاعته والتأسي برسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل اجتمعت كلمة العلماء على رأي واحد يعصم الناس من المتاهات المردية ؟ ولذلك يجيب المحاسبي قائلا: " فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار فرأيت اجتماعا واختلافا ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره الفقهاء عند الله العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه المتأسين برسوله - صلى الله عليه وسلم - والمؤثرين الآخرة على الدنيا أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين" (المحاسبي،١٩٨٦ : ٣٠).

النجاة إذن هي الغاية ، وأخلاق النبوة والتحقق بها هي الوسيلة وهكذا استقرت بالأمام المحاسبي رحلته الفكرية في التربية هو اسلوب الاقتداء بالرسول الله صلى الله عليه وسلم والعلماء المقتدين

بالرسول فراح المحاسبي يبحث عنهم ليطلب النجاة اي الطريق المستقيم ، لكنه وجد علمهم مندرسا ، ووجدهم أقل من القليل ووصفهم فيذكر:" ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة لا يرجون أبدا في معصيته ولا يقنطون أبدا من رحمته. يرضون أبدا بالصبر على البأساء والضراء والرضا والشكر على النعماء يحببون الله إلى العبد بذكرهم أياديه وإحسانه ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى علماء بعظمته تعالى علماء بعظيم قدرته وعلماء بكتابه وسنته فقهاء في دينه علماء بما يحب ويكره ورعين عن البدع والأهواء تاركين للتعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء متورعين عن الاغتياب والظلم مخالفين لأهوائهم محاسبين لأنفسهم مالكين لجوارحهم ورعين في مطاعمهم ملابسهم وجميع أحوالهم مجانبين للشبهات تاركين للشهوات مجتزئين بالبلغة من الأقوات متقللين من المباح مشفقين من الحساب وجلين من المعاد علماء بأمر الآخرة وأقاويل القيامة راجين من الكريم المنان جزيل الثواب وخائفين من أليم العقاب وذلك أورثهم الخوف الدائم والهم المقيم فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها فتبين لي فضلهم واتضح لي نصحهم وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة والمتأسون بالمرسلين والمصابيح لمن استضاء بهم والهادون لمن استرشد (المحاسبي ، ١٩٨٦: ٣١) .

وهكذا عشق الإمام المحاسبي منهج هذا اللون من العلماء بالله ، الفقهاء عنه ، واكتفى من علم النقل بما يعرف به الحدود ، وعلم أكثر من ذلك ، ولكنه لم يشارك في معركة الانتصار للمذهب ، والرد على المخالفين كما شارك غيره ممن لم يؤثر النجاة .وأعلن الإمام رأيه في القدوة التي اختارها فقال : " فتبين لي فضلهم ، واتضح لي نصحهم ، وايقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصابيح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشد بهم ، فأصبحت راغباً في مذهبهم ، مقتبسا من فرائدهم ، قابلا لآدابهم طلباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم سببا ، ولا أوثر عليهم أحداً ، ففتح الله لي علماً أتضح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن اقتربه وانتحله ، وايقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحده ، ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه ، ورأيت انتحاله

والعمل بخدوده واجبا علي ، فاعتقدته في سريرتي ، وانطويت عليه بضميري وجعلته أساس ديني ، وبينت عليه أعمالي "(المحاسبي ، ١٩٨٦: ٢٨).

ولم يصل الامام المحاسبي لهذا القرار إلا بعد بحث وتدقيق ودراسة عميقة للإنسان بوجه عام ، وللعلماء بوجه خاص فيقول" ثم رأيت الناس أصنافاً ، فمنهم العالم بأمر الأخرة ، لقاؤه عسير ، ووجوده عزيز ، ومنهم الجاهل فالبعد منه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه مؤثر لها. ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا. ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل. ومنهم المتشبه بالنساك متحر للخير لا غناء عنده ولا نفاذ لعلمه ولا معتمد على رأيه. ومنهم المنسوب إلى العقل والدهاء مفقود الورع والتقى. ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون وعلى الدنيا يتكالبون وإلى جمعها يهرعون وفي الاستكثار منها يرغبون. فهم في الدنيا أحياء وفي العرف موتى""(المحاسبي ، ١٩٨٦: ٢٩).

ويتوصل المحاسبي بعد دراساته للنتائج الآتية:

١- لا خير في الخلاف ، ولا نجاة فيما فيه خلاف.

٢- لا جدوى من علوم العقل والنقل إذا لم تستند إلى وجدان روحي يصل الانسان بربه ، ويعرفه قدر نفسه ، ويلزمه حدود الورع والزهد.

٣-رعاية جماهير المسلمين أمر واجب بعد أن فقدوا الرعاية واوشك أن يضل بهم السبيل في متاهات الدنيا.

ولذلك عزم الامام المحاسبي ان يضع اسس لتربية الانسان :

١- التطهير من عمل البر دون تطهير:

وهذا لان الانسان مأمور بترك الشر كله ، وليس مأمور بفعل الخير كله ، فالأولى به أن يتتبع خصال الشر في نفسه بالقمع ، والتخلص من خصلة واحدة من خصال الشر عنده خير من كثير من أعمال البر ؛ وذلك لآن الخير إذا خالطه الشر استحال الى الشر ، فالشر شر كله ، ومنبع الضلال هو إكثار عمل البر مع انكماش القلب على خصال السوء وخداع النفس

٢-الزهد في الحلال :فلا شيء يفسد السلوك البشري قدر ما يفسده عقد القلب على حب مظاهر الوجود والاستمساك بها ، واتخاذها غاية من الحياة. وليس الزهد كما يزعم بعض الناس قاصرا على الحرام في الحلال . فالحرام قد أمر الناس جميعا بتركه ، ولا فضيلة للإنسان في تركه إلا اتباع الأمر ، أما زوائد اليقين والمعرفة والعلم والاصلاح فإنما هي في الزهد في الحلال .

٣-الحب تقليد ، وليس ادعاء وثرثرة : فنحن لا نرى انسانا مسلماً إلا وهو يدعي حب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وحب الصالحين والاولياء ، فاذا ما لاحظنا سلوك هذا الذي يدعي الحب وجدنا مسلكه مباينا لمسالك من يدعي الحب وجدنا مسلكه مباينا لمسالك من يدعي حبهم ، وهذا حب كاذب والدليل على ذلك ما فصله المحاسبي قائلا : " أخي ان الجائع يحب الْخبز وان العطشان يحب المَاء وَلَو جعل الْخبز وَالْمَاء بَين ايديهما على مائدة اَوْ علق فِي اعناقهما مَا نفعهما علمهما بِأَن الْخبز وَالْمَاء مَعَهُمَا وَلَا ينفعهما قربهما مِنْهُمَا دون ان يأكلا من الطَّعَام ويشربا من الشَّرَاب وَهَكَذَا انت لَا ينفعك علمك بِالْخَيرِ وَلَا قربه مِنْك وَلَا حبك لَهُ حَتَّى يكون فِيك وَتَكون من اهله بل لَا ازعم انك تحبه وَلَكِنَّك مخدوع اَوْ مخادع فِي دعواك انك تحبه

يَا أخي هَل رَأَيْت عطشان استمكن من المَاء الْبَارِد فَلم يشربه الا مُدع للعطش لَيْسَ بعطشان أَو هَل رَأَيْت جوعان وجد طَعَاما قد امكنه فَلم يَأْكُلهُ الا مُدع للجوع لَيْسَ بجوعان فَمَا ابين ابطال دعواك فِيمَا تزْعم انك تحب الْخَيْر واهله اذا قست مَا تحب من الدُّنْيَا بِمَا تحب من الْآخِرَة لاني اراك اذا احببت شَيْئا من الدُّنْيَا احببت الا يكون لَهُ مَالك غَيْرك هَذَا هُوَ الْحبّ الصَّادِق بِعَيْنِه فَإِذا احببت شَيْئا من اعمال الصَّالِحين فِيمَا تزْعم فَلَيْسَ شَيْء اثقل عَلَيْك من ان تكون انت صَاحبه وَلَو كنت محبا لَهُ لاحببت الا يكون أُحْدُ سَبَقَك وَلَا يملك مِنْهُ اكثر من الَّذِي تملك(المحاسبي ،١٩٩١: ١٣٢).

٣-تخليص العمل من الآفات في بدايته واوسطه ونهايته: ذكر المحاسبي في معظم كتبه عن آفات الأعمال ، وخداع النفوس فيها ، وابدع في بيانه أدق الدسائس النفسية واخفاها على الخبراء ، ولذلك يعّد من اوائل المؤسسين للدراسات النفسية في التراث العربي.

وقد نبه المحاسبي ان الانسان يعتقد بانه صادق في عمله ، وفي تخليص ارادته لله وحده ، ويعتقد الناس فيه مثل اعتقاده في نفسه ، ولكن براعم الكذب قد تكون كامنة في أعماق النفس ، فلا تظهر إلا بعد عشر سنين أو بعد خمسين سنة فذكر: " ان كل من زعم انه يريد بعمله وجه الله ولا يريد من احد على عمل يعمله من الاعمال الصالحات جزاء ولا شكورا ثم عرفه الناس بعمله وذكر به وصار معروفا عندهم ونال منهم الرفعة فإن كان يعرف من نفسه أنه عرض عليها ان يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة الى غيره ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له عمل من اعمال البر ذكر ولا غيره فكان هذا احب إليه فأمره مرجو وان كره ان يتحول ذكره الذي كان عليه الى غيره ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من اعمال البر فدعواه حينئذ باطلة لأن الذي يقوله انه يريده بعمله ولا يريد غيره فإذا تحول ذكره الى غيره لم يحول الذي عمل له العمل الثواب الى غيره ولم ينقصه من ثوابه شيئا ولعله ان يكون اكثر له عنده واقرب مثوى والذي كان يزعم انه لا يريدهم به كره ان يزول عنه الاسم الذي ثبتت له عندهم به المنزلة وكره ان يبقى عند من زعم انه لا يريدهم بلا ذكر عمل يعرفونه به ومثل هذا ينظر ان كانت له خصلة عند الناس من خصال البر فنسبوه اليها ويظنون انه صاحبها غلطا منهم بها وجهالة فكره ان يعرفوا ذلك او يطلعوا عليه وكره ان يعرفوا انه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة او له عمل من البر وعند الناس ان ما يعمله من البر اكثر فيكره ان يطلع الناس عليه فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من اعمال البر فإنه ممن يحب ان يحمد بما لم يفعل(المحاسبي،١٩٩١: ١٠١)

ب–آراؤه النفسية :هناك في كتب المحاسبي الكثير من المفاهيم النفسية :

يضع المحاسبي نظريته للإصلاح وفق اهداف مرتبة للوصول الى سعادة الانسان وراحته النفسية فيقول :" أصل الطاعة الورع ، واصل الورع التقوى ، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد ، ومعرفة أصل الوعد والوعيد عظم الجزاء ، واصل ذلك الفكرة والعبرة "(ابو نعيم الاصفهاني،د.ت: ٧٦/١٠).

ومن نظريته هذه نستطيع ان نتلمس الطريق لاهم آرائه النفسية:

١-الورع والمحاسبة : عرف المحاسبي الورع بانه" المجانبة لكل ما كره الله عز وجل من مقال ،أو فعل ، بقلب أو جارحة ، والحذر من تضييع ما فرض الله عز وجل عليه في قلب أو جارحة: (المحاسبي ، ١٩٨٧ :٦٨) . وينال الورع بالمحاسبة ويعرفها: " التثبت في جميع الاحوال قبل الفعل والترك ، من العقد بالضمير ، أو الفعل بالجارحة ، حتى يتبين له ما يترك وما يفعل ، فإن تبين له ما كره الله عز وجل جانبه بعقد ضمير قلبه ، وكف جوارحه عما كره الله عز وجل ، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرض ، وسارع إلى أدائه (المحاسبي ، ١٩٨٧ :٦٨) . لقد جمع المحاسبي بين الورع والمحاسبة لان احدهما يعتمد على الآخر.

٢- الخوف والرجاء : يقول المحاسبي" فالذي ينال به الخوف ، معرفة عظيم قدر العذاب ، والذي يعظم به معرفة عظيم قدر العذاب التخويف ، والتخويف ينال بالفكر في المعاد ، والفكر ينال بالذكر ، والذكر بالتيقظ من الغفلة ، لأن الله جلّ وعزّ إنما خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ، ورجّانا لنرجّيها ، والتخويف تكّلف من العبد بمنّة الله وعزّ وجل وبفضله عليه ، والخوف هائج منه لا يملكه ، يكون عن التخويف يهيجه الله من القلب المخوف لنفسه كم أمره الله" (المحاسبي،د.ت.١: ٦٢) .

وبذكر المحاسبي ايضا: " والخوف على قدر الذنوب فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل لكان المحسن والمسيء في الرجاء سواء وقد قال الله تعالى {الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله} وقال {إن رحمة الله قريب من المحسنين}ومعنى الحديث الذي جاء لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا ينبغي ان يكون خاصا بين اهله وهو قبل الحديث الاخر المؤمن كذي قلبين قلب يرجو به وقلب يخاف به فإنما هو اذا احسن رجا واذا اساء خاف مع التوبة والندم والاقلاع فأما من عرف نفسه بكثرة الاساءة فينبغي ان يكون خوفه على قدر ذلك ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الاحسان لان الرجاء على قدر الطلب والخوف على قدر

الهرب" (المحاسبي، ١٩٩١ :٦٩). وجمع المحاسبي بين الخوف والرجاء فهما يجمعان الدنيا والآخرة فالخوف دنيوي والرجاء اخروي.

٣-الوعد والوعيد: يذكر المحاسبي " فإذا كان الوعد والوعيد يوقظان العقل فإن معاني الشوق والحب والانس بالله تستغرقه : فإذا ألف الخلوة بمناجاة حبيبه ، استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يعقل الدنيا وما فيها ، أداة للأيمان ، وتفاوت الناس في تحقيق المثل الدينية ، يرجع إلى تفاوتهم في حساسية عقولهم للوعد والوعيد، وفهم كلام الله" (المحاسبي ،١٩٧١: ١٣٥) وقد جمعهما المحاسبي لان فيهما ترغيب وترهيب وتذكير وبما أن للوعد والوعيد غاية تربوية وتكاملية في الحياة الدنيا، فإن الأمر لم يقتصر على ذلك وحسب، بل تجاوزه إلى ترشيد وهداية الإنسان إلى ما يكون له من مآلات في الآخرة، لأن الإنسان لم يخلق سدىً ولم يترك هملاً، وقد اقتضت الحكمة الإلهية، والعدالة الإلهية أن يكون للإنسان حساب وعقاب على ما يأتيه من أعمال، ويؤديه من التزامات.

٤-الفكرة والعبرة: وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة، فقال: الفكرة أن تجعل الغائب حاضرًا، والعبرة أن تجعل الحاضر غائبًا (الراغب الاصفهاني، ٢٠٠٧: ١٥٠).

وتتضح الفكرة والعبرة عند الامام المحاسبي من خلال دراسته للعقل فان مذهب الحارث المحاسبي يتكون من ثلاثة اشياء الايمان بالله ، والعلم والعقل أي انه اوجد مثلثاً للحكمة يتكون رأسه من الايمان بالله وزاويتاه العلم والعقل اذ يقول (أكل زاهد على قدر معرفته ، ومعرفته على قدر عقله ، وعقله على قدر قوة ايمانه عمودا فقريا يصدر عنه علم وعقل ، فالعلم والعقل هما اللذان يحكمهما الايمان ، فليس العقل مساويا للأيمان ، أنما هو عامل للأيمان يقتضي العلم الذي حصله عن الله .واذا كان فضل العقل بقدر ما في القلب من ايمان فكذا المعرفة اذ يقول المحاسبي (فما عرف الله بالعقل ولا اطع الا بالعلم) (المحاسبي ،١٩٨٦: ٥٦) (المحاسبي ، ١٩٨٢: ٩٨-٩٩) لذا دعا الى اكتساب العقل ليصل الى المعرفة الحقة فيقول : (أن الله عز وجل جعل فيك غرائز ، فجعل فيك غريزة تحب ما وافقك وألذك ، وكراهة ما خالفك وأذاك ، وجعل فيك غريزة

عقل لحبه فقرن مع غريزة الحب للمواقف ، والبعض للمخالف الشيطان ، يزن له الدنيا ويثبطه عن الاخرة ، وقرن مع العقل العلم والكتاب والسنة ، ليزن الاخرة ويكره اليه الدنيا ، والعلم للعقل كالسراج للعين ، أو النور من الشمس وغيرها للعين)(المحاسبي ،د.ت,١: ١٥٤) وقال المحاسبي ايضا (واعلم ان ما يصل العبد اليه من الفهم ، بقدر تقديم عقله ، وموجود علمه بتقواه لله وطاعته ، فممن وهب الله له العقل ، واحياه بالعلم بعد الايمان وبصره باليقين عيوب نفسه ، فقد نظمت له خصال البر فأطلب البر في التقوى ، وخذ العلم من أهل الخشية) (المحاسبي ،١٩٨٢: ٩٤) ويذكر المحاسبي ان العقل عند العلماء ثلاثة معان اذ يقول : "سئلت عن العقل ما هو ؟ ".واني ارجع اليك في اللغة والمعقول من الكتاب والسنة ويراجع العلماء بينهم بالتسمية ثلاثة معان :احدهما هو معناه لامعنى له غيره في الحقيقة ، والاخران اسمان له جوزتهما العرب ، أذ كان عنه فعلا ولا يكون الا به ومنه ، وقد سماها الله تعالى في كتابه ، وسمتهما العلماء عقلا" (المحاسبي ،د.ت ٢: ١٧).

الاول : العقل غريزة : فأما هو في المعنى والحقيقة لا غيره فهو (غريزة) وضعها الله سبحانه في اكثر خلقه ، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ولا اطلعوا عليها من انفسهم برؤية ولا بحس ولا ذوق ولا طعم ، وانما عرفهم الله سبحانه وتعالى وقال بالعقل منهم ، فبذلك العقل عرفوه وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من انفسهم ، بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم(المحاسبي ،د.ت .٢: ١٧). اما الاثنتان اللتان جوزتهما اللغة في الكتاب والسنة ، وتراجع أهل المعرفة بينهما بالتسمية ، فجوزتهما اللغة على حقيقة المعنى بان سمتهما عقلا ، أذ كان عن العقل لاعن غيره (المحاسبي ،د.ت ٢: ٢٣).

ثانيا : العقل مبهم الفهم لإصابة المعنى وهو البيان للكل ما سمع من امور الدنيا والدين ، وكل ما مس ، او ذاق ، او شم ، فسماه الخلق عقلا ، وسموه عاقلا(المحاسبي ،د.ت ٢: ٢٣).

ثالثا : العقل بصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الاشياء النافعة والضارة في الدنيا والاخرة ، ومنه العقل عن الله تعالى فمن ذلك ان تعظم معرفته ، وتصير منه الى تعظيم قدر الله تعالى وتقدر

نعمه واحسانه وتعظم قدر ثوابه وعقابه لتنال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب(المحاسبي ،د.ت ٢: ٢٤-٢٥).

وقد ذكر المحاسبي انه قال العقل انوار وبصائر(القرطبي، ١٩٥٣: ٣٧١/١٠) وقسم المحاسبي العاقلين الى اربع فرق رفض منهما اثنتين وقيل اثنتين .

اما الفرقتان اللتان توجه اليهما بالنقد منهما . الفرقة الاولى التي عقلت البيان ثم جحدت كبرا وعنادا لطلب الدنيا كما وصف الله عز وجل عن ابليس انه تكبر وعاند كبرا وكذلك اليهود فقال الله تعالى عنهم (لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(البقرة: من الآية١٤٦).

والفرقة الثانية : وفرقة طغت واعجبت وقلدت ، فعميت عن الحق ان تتبينه ثم تغربه ، ثم جحدته كبرا وطلب دنيا ، بعد عقلها للبيان فظنت انها على عقل ودين وهي على باطل وشر وضلال(المحاسبي ،د.ت ٢: -٢٩) اما الفرقتان اللتان يقبلهما الحارث المحاسبي .

الاولى : هي الفرقة عقلت عن الله تعالى عظيم قدره وقدرته وما وعد وتوعد ، فأطاعت وخشعت (المحاسبي ،د.ت ٢: ٢٩) .

الثانية :هي الفرقة التي عقلت قدر الله جل وعز في تدبيره وتفرده بالصنع ، وعرفت قدر الايمان في النجاة بالتمسك به وقدر العقاب في ضرره بمجانبة الايمان ، فلم يجحدوا كبرا ولا انفا ، ولا طلب دنيا وعقلت ان عاجل الدنيا يفنى وعذاب الاخرة لا يفنى فأقرت وأمنت ، ولم تعقل عظيم قدر الله في جلاله وهيبته وعظيم قدر ثوابه وعقابه في القيام بفرائضه ، وإتيان معاصيه ، فعصت وصنعت وغفلت ونسيت ، الا أنها علمت قدر الايمان في النجاة ، وعظيم ضرر الكفر ، قد عقلت ذلك عن الله تعالى فهي قائمة به ودائمة عليه) (المحاسبي ،د.ت ٢: ٣٧) ان العقل عند المحاسبي يمر بثلاث مراحل ليتوصل الى معرفة الله وهي .

المرحلة الاولى : الايمان الاستدلالي ، بمعنى ان العقل عندما يتحرك باتجاه الكون من ناحية وباتجاه القران من ناحية أخرى ، لابد ان يؤمن بالله عن طريق الاستدلال عليه بإثارة (المحاسبي ،د.ت ٢: ٣٧) .

المرحلة الثانية : معارضة الشك للعقل ، ذلك ان العقل عندما يؤمن بالله عن طريق اثارة ودلائل صنعته يحاول ان يبحث في الله بحثا عقليا مجردا فاذا بالشك يخالط ايمانه ، واذا بهذه العقول الانسانية كما يذكر المحاسبي (قد عرضها هاجس الشك) الا ان هذه العقول الواعية لذاتها وعيا بأنها عاجزة عن ادراك كنه معرفة الله ، تأبى هذا الشك وتدفعه ، واذا حصل ذلك تكون

المرحلة الثالثة والاخيرة: في معرفة الله قد تحققت ، فإذا باليقين يأتي هذه العقول ، وإذا (بلطف الصبر يهدي هذه العقول واذا بالحقيقة الالهية أمام العقل كرأي العين ، فيصبح العقل مصدقا غير مكذب ولا مرتاب)(المحاسبي ، ١٩٧٨ :١٧٣) لم يخرج المحاسبي في مفهومه للعقل عن القرآن والسنه واقوال العلماء اذ اعتمد الآيات القرآنية التي تدعوا الى التأمل والتفكير والتدبر والاعتناء ، وهي آيات كثيرة تدعو دعوة صريحة لأعمال العقل فيما خلق الله للوصول من خلال ذلك الى معرفة الخالق ، ومتى تحققت معرفة الخالق اصبح الانسان عارفا بأوامر الله ويتبعها ومتفهما لنواهيه فيتجنبها(المحاسبي ، ١٩٧٨ :١١٦) ويتبين ان المحاسبي اهتم بالتربية العقلية وركز عليها واعيا الى البحث والتفكير ، والتأمل ، واعمال العقل ، وذلك من منطلق ان العقل له دور كبير في توجيه الفرد وتربيته ، لأنه عن طريق العقل يكتسب الإنسان العلم والمعرفة.

ولكي تكتمل نظرية الامام المحاسبي كان لابد من البحث عن بعض المفاهيم النفسية في مؤلفاته:

ففي كتابه الرعاية لحقوق الله يتحدث عن العجب والتكبر والحسد والشماتة وسوء الظن والرياء والضمير وهي كلها مفاهيم نفسية " ولقد خشيت أن لو وجد ذلك أن لا يكون سلم مما سوى ذلك مما كره الله عز وجل في ضميره ، من العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن وغيره ، لان عامة قراء زماننا مغترون مخدعون ، نعّد انفسنا المتقشفين المتنسكين ، ولعلنا عند الله من الفاجرين الفاسقين ، وكيف نأمن أن نكون كذلك ، ونحن لا يأتي علينا يوم إلا جددنا فيه ذنوباً لم تكن من قبل نضيفها إلى ما خلا من الذنوب بالأمس ، من ذنوب الجوارح وذنوب الضمير ، من الكبر والحسد والشماتة وسوء الظن والعجب والرياء ، وغير ذلك "(المحاسبي ،د.ت ١: ٤٣).

وبعد ان يعدد هذه الآفات النفسية يوصي بالتفكر فيقول:" تعلم أنك عبد مربوب ، لا نجاة لك إلا بتقوى سيدك جل وعز ومولاك ، ولا هلكة عليك بعدها ، فتذكر وتفكر لأي شيء خلقت ؟ ولم وضعت في هذه الدار الفانية للبلوى والاختبار ، لتطيع الله عز وجل تعالى أو تعصي ، فتنتقل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد" (المحاسبي،د.ت.١: ٤٤).

وبذلك فان علاج كل الآفات النفسية هو المحاسبة فالمحاسبة عند الامام المحاسبي هي التأكد أي الوقوف قبل فعل الشيء وتركه ،ويقول في كتابه " المكاسب" (التثبيت في جميع الاحوال قبل الفعل ، والترك من العقد بالضمير أو الفعل بالجارحة وحتى يتبين له ما يترك وما يفعل ، فإن تبين له ماكره الله عز وجل جانبه بعقد ضمير قلبه ، وكف جوارحه عما يكره عز وجل ، ومنع نفسه من الامساك عن ترك الفرائض ، وسارع إلى أدائها)(المحاسبي ،١٩٨٧: ٦٨).

معنى ذلك أن المحاسبة عنده تعتمد على عدة خطوات وهي: التميز، التثبت، المجانبة، وكف الجوارح، وأداء الفرائض.

والمجانبة عنده بالضمير، والضمير عنده هو: مراجعة النفس، ووقوف الإنسان مع نفسه، ومراجعتها فيما يصدر عنها من أفعال، فإذا رأى الإنسان أمراً محموداً صار فيه، وإذا رأى مكروهاً أدركه بحسن المراجعة(المحاسبي ، ١٩٩١: ٩١).

ويعرف المحاسبة أيضاً بقوله: (قيام العقل على حراسة النفوس من خيانتها، لتتفقد منها زيادتها من نقصانها(المحاسبي ، ١٩٨٦ أ: ٢٢٩). فمحاسبة النفس محاسبة عاقلة ليست محاسبة هواجس ووساوس.

والنفس عند المحاسبي هي: "النفس الأمارة بالسوء، ولكي تتصف تلك الصفات الحسنة لابد من مجاهداتها، ومحاسبتها حيث يعرفها بقوله: أعلم أن النفس أمارة بالسوء، يعني أنها تأمرك نفسك بكل قبيح، وبكل سوء، كما قال تعالى:" وَما أُبَرِئُ نَفسي إِنّ النّفس لأَمارةٌ بالسوء"(سورة يوسف، آية ٥٣) فينبغي منك أن تضعها حيث وضعها الله تعالى، وقم عليها بما أمرك الله فيها، فإن نفسك أغوى لك من إبليس"(المحاسبي د.ت ٣ :٢٧).

فمحاسبة النفس علاج لاستيلاء النفس الأمارة بالسوء علي قلب المؤمن. والنفس الأمارة بالسوء مجمعه على تضييع حقوق الله عز وجل فلابد من مراقبتها، وعدم إهمالها، و مجاهداتها(المحاسبي ، ١٩٨٦: ١٢١).

ويقول المحاسبي: (وبعد فإنك منهي عن تفضيل نفسك وتزكيتها، محرم عليك الإعجاب بها)(المحاسبي، ١٩٩٩: ١٠٢).وذلك لان العجب يؤدي إلى الوقوع في آفات النفس الإنسانية وعلامة معرفة النفس عند المحاسبي: سوء الظن بها(المحاسبي ،١٩٩١: ١٦٧)، وهذا يدل علي اهتمامه بدراسة النفس الإنسانية وتحليلها تحليلاً دقيقًا وبيان أحوالها، وآفاتها، وعيوبها ، وكيفية علاجها. فقدم أراء نفسية تحليلية، وسما بدراسة النفس إلى درجة المحلل النفسي البارع ،درجة تفوق علماء النفس المحدثين. وفى ذلك يقول محمود(١٩٧٣):"إبداع المحاسبي الأصيل إنما يظهر فى تحليله النافذ المتكامل للنفس، وغاية هذا التحليل الوقاية من الشر ومن ارتكاب الذنوب، وعلاجهما والنجاة منهما ، ومع أنه يعتمد أساسا على الدين، وأن هدفه الأوحد مرضاة الله، والتوصل إلى سبيل النجاة، فتحليله هذا للنفس الإنسانية يبلغ مرتبة رفيعة فى الأصالة والابتكار"(محمود ،١٩٧٣: ١٦١).

وأيضا ما يميز المحاسبي استخدامه لمنهج الاستبطان لتحليل النفس والتوغل في أعماق النفس لمعرفة ما بها من مشاعر وأحاسيس. والدليل على ذلك قول تلميذه الجنيد:"كان المحاسبي يخرجني من عزلتي إلى الطريق حتى ينتهى إلى مكان يجلس فيه بحيث لا يرانا أحد ثم يقول: سلني عما يقع في نفسك فتنثال على السؤلات ،فأسأله عنها فيجيبني عليها للوقت، ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتبا" (المحاسبي، ١٩٨٦: ٧).

يرى المحاسبي أن للكائن من اهل السماوات والارضين ثلاث طبائع :

–الملائكة : فطبعهم على العقول والبصائر ،وعراهم عن الهوى والشهوات.... فهم دائبون في طاعة الله تعالى ، وذكره لا يفترون ، إذ لم يجعل فيهم الاضداد التي بها يفترون ، والاهواء

والشهوات التي تصد عن الفكر وتؤثر الدنيا على الطاعات والذكر ، فلم يجعل لهم ثواب نعيم الجنان ،إذ لم يجاهدوا الأهواء ، ولم يتحملوا الآلام والتعب والنصب ، و أجيروا من العذاب وتركوا في طاعتهم (المحاسبي ، د.ت.١: ٢٥١) .

– وطبع الانعام والطير والهوام على الشهوات ، وجعل فيها المعرفة بقدر ما تتغذى وتطلب معاشها ، وتحذر على نفسها واولادها بقدر ما عرفت من المكروه ، ولم يجعل لها من العقول ما تعقل الامر والنهي والعلم للعواقب فرفع عنها العقاب في كل ما أصابته من الشهوات ،التي حرمها على الأنس والجن .فرفع عنها العقاب ولم يؤخذها بما نالت من النكاح وما أصابت من أموال الناس ودمائهم ، واجارها من العقاب ، وجعل آخر مصيرها أن يجعلها ترابا (المحاسبي ، د.ت.١: ٢٥٢)

– وطبع الأنس والجن على العقول التي تحتمل الامر والنهي وتعرف العواقب وذلك إذا بلغوا الحلم ، الا من أزال الله عز وجل عنه العقل كالمعتوه وغيره وجعل فيهم غرائز تحب كل ما وافقهم ، وتبغض كل ما خالفهم وآذاهم ، ثم أمرهم أن يجاهدوا بما أعطاهم من عقول ما دعت إليه النفس من قبل غريزتها ، فجعل لهم الثواب العظيم والعذاب الاليم (المحاسبي ، د.ت.١: ٢٥٢)

ويحدد الامام المحاسبي الفوائد التربوية والنفسية من محاسبة النفس :

١–معرفة الله تعالى: ففي محاسبة النفس رجوع إلى الله عز وجل، ومعرفة، ويقين بالله تعالى أنه تعالى سيحاسب العباد على أفعالهم، وأقوالهم وأن الله عز وجل مطلع على عباده فيذكر المحاسبي في معرفة الله تعالى: "أن تلزم نفسك قربه، وتعترف بيقين أن الله تعالى أقرب إليك من حبل الوريد، كما ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ))(ق: ١٦) وتعرف قيامه عليك، وقدرته عليك، وعلمه بك أنه رقيب حفيظ) (المحاسبي،د.ت.٣ :٢٠) .

٢–صلاح القلب:

وصلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها، والاسترسال منها.يقول المحاسبي: (وأصل فساد القلب ترك المحاسبة للنفس، و الاغترار بطول الأمل، فإذا أردت صلاح قلبك، فقف مع الإرادة، وعند الخواطر، فخذ ما كان لله، ودع ما كان لغيره، واستعن على قصر الأمل بدوام ذكر الموت) (المحاسبي، ١٩٨٢ :٤٩).

٣-محبة الله عز وجل:

بما أن المراقبة عند المحاسبي تستلزم طاعة الله تعالى، فالطاعة توجب محبه الله والالتزام بأوامره، ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول المحاسبي: (ومحبة الله عز وجل في إيثار الطاعة على المعصية، ويقال: ذكر النعمة يورث المحبة)(المحاسبي، ١٩٨٢ :١٧٩).

٤-تحقيق الورع:

وتحقيق مقام الورع حيث ربط المحاسبي بين الورع، والمحاسبة وجعل الورع يحصل بمحاسبة النفس حيث يقول في معنى الورع: (المجانبة لكل ما كره الله عز وجل، من مقال أو بفعل قلب أو جارحة، والحذر من تضييع ما فرض الله عز وجل عليه، في قلب أو جارحة، قلت وبماذا ينال؟ قال: بالمحاسبة(المحاسبي ،١٩٨٧: ٦٩).

٥-معرفة عيوب النفس:

بعد معرفة النفس عند المحاسبي لابد من معرفة عيوب النفس لكي نتجنبها يوضح المحاسبي أن الإنسان يتجاهل عيوب نفسه، ولا يراها ولا يعترف بها، ويركز على عيوب غيره من الناس.ويقول: (إن الإنسان عند معرفة عيب نفسه أبله؟ وعند معرفة عيب غيره جهبذ، فلا يحتقر عيب أهل كل صناعة أهل كل عمل من أعمال الدنيا والآخرة، ويحتقر عيب من هو في مرتبته، ويستعظم ذلك كل من رآه منه، فإذا أتى على عيب نفسه جازه إلى عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره)(المحاسبي ، د.ت.٤: ٩٠).

ويوضح المحاسبي أن الإنسان يطلب العذر لنفسه، ولا يطلبه لغيره، وهو لا يرى عيب نفسه، ينصح الإنسان أن يحب لغيره ما يحب لنفسه، وأن يجعل نفسه مكان الآخر، ويقول: (فإذا

رأيت عيبًا أو زلة، أو عثرة من غيرك، فاجعل نفسك مكانه ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت منه، وأضمر ذلك له في نفسه، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحب منه(المحاسبي ، د.ت.٤: ٩٠).

ويوصي المحاسبي العباد أن يشتغلوا بإصلاح أنفسهم عن عيب غيرهم ، فإنه كان يقال: كفى بالمرء عيبًا أن يستبين له من الناس ما يخفي عليه من نفسه، أو يمقت الناس، فيما يأتي بمثله، أو يؤذي جليسه، أو يقول في الناس ما لا يعنيه(المحاسبي، ١٩٨٧: ٥١)

ويقسم المحاسبي العيوب إلى عيوب ظاهرة، وباطنه ويقول في مجاهدة تلك العيوب: (فقد خفيت عنه هذه العيوب مع قلة ذكر المعاد ونسيان المنتهى. فهو عند نفسه صاحب عبادة وسمت وصلاة وصوم والباطن خراب. يقدم على ربه وفيه هذه العيوب الباطنة غير تائب منها لأنه لم يتنبه لها. فبدا له من الله ما لم يكن يحتسب إذا كان مغرورا بظاهر أمره ولم يصدقه باطنه(المحاسبي ، ١٩٧٥: ٩١).

ويمكن تلخيص موقف المحاسبي من الاعمال الإنسانية فيما يأتي:

١-الله يحض الانسان على الخير: ولولا هذا الفضل من الله لم استطاع الإنسان الى العمل الصالح سبيلا ، بمت يقع عليه من تأثير هوى النفس ودعوة الشيطان.

٢-الهدف من عمل الخير: ان الهدف من عمل الخير لديهم ليس دخول الجنة وتجنب الجحيم أو حسن المقام في الدنيا ، ولكنه تقرب من الله وسعى إلى محبته.. وان كانت هذه الفكرة ليست بالوحيدة المسيطرة عليه ، فهو يقول ويردد ان هدف عمل الخير تجنب العقاب في الآخرة ، والفوز بنعيم الجنان. ومع ذلك ، فحسن المقام في الدنيا جزء مما يهدف إليه الإنسان بعمل الخير فيذكر المحاسبي :" وجعل الله القيام بها مفتاحا لكل خير في الدنيا والآخرة ، وهي التقوى ، ولأهلها جعل الأمن في الآخرة ، ؛ وإياهم وعد قبول الأعمال ، وإياهم سمى بالولاية ، ورفع عنهم الخوف والحزن في يوم المخافة والاحزان ، ولهم جعل النصر في الدنيا والمعونة على طاعته ، ولهم جعل

المخرج من كل ما ضاق على العباد ، ولهم ضمن الرزق من غير الوجوه التي يحتسبونها" (المحاسبي ،د.ت ١: ٤٢).

٣-الاقرار بنعيم الدنيا والآخرة: يقر المحاسبي بفكرة النعيم في الدنيا ولكن الأمر الجوهري عنده هو نعيم الآخرة ، وهو يجمع مختلف الغايات التي يبغيها الناس من عمل الخير فيجدها أربعا: اولا : خيرها وأشرفها : واصحابها يأتون الخير رعاية لحقوق الله وهم يدركون عظمته بقلوبهم فتكون سعادتهم في تقربهم منه بطاعته .

ثانيا: يأتي أصحابها الخير ليسكنوا بجوار ربهم في الجنة ، وينعموا بما وعد به عباده .

ثالثا: اصحابها يخشون العقاب الشديد الذي أعد لمرتكبي الذنوب ، ويمنعهم خوفهم من التفكر في الثواب.

رابعا: أصحابها كل متعفف ،وعلم أن الله يطلع على سائر أعماله ونياته ، فكره ان يريه نفسه وهو يعمل ، أو ينوي على غير ما ارتضاه له (المحاسبي،١٩٩١ :٩٣).

ولذلك يؤكد المحاسبي : إن الأمور التي تؤدي للنجاة أربعة :

اولا: واهمها معرفة الله

وثانيا: أن يكون العمل لوجه الله وليس ارضاء لخلقه

وثالثا: ترك ما نهى الله عنه ، والقيام بما أمر به.

ورابعا: حمد الله على ما أفاض من نعم (المحاسبي ، ١٩٩١ : ٩٤)

الاستنتاجات

وفي الختام يمكننا ايجاد قواعد لوصول الانسان الى درجة رفيعة من الناحية الاخلاقية :

١- الامتناع عن القسم بالله سواء حانثا أو غير حانث

٢- الامتناع عن نقض العهد ، الا عند الضرورة الجابرة ، ولأن يعمل الإنسان خير له من أن يعطي العهود

٣- الامتناع عن القذف والمسبة ، وعن إيذاء أي من المخلوقات.

٤- الامتناع عن الدعاء بالشر على أحد من الناس ، ولو كان ظالماً، والامتناع عن إيذاء الغير مقابلة لأذاهم .

٥- الامتناع عن رمي الغير بالكفر أو الرياء وعن وصف الناس بالكفر لمجرد ارتكابهم ذنبا من الذنوب .

٦- الامتناع عن الالتفات الى شيء أو الرغبة فيه إن كان اتيانه ذنبا ، سواء في ذلك ما يتصل بالقلوب أو الجوارح.

٧- الا يكون اعتماد الإنسان في أمر من الأمور على أحد من الناس، بل يعتمد دائما على الله.

٨- الرجاء بالله.

٩- عدم رمي أعمال الآخرين بالرياء.

١٠-حسن الظن بالآخرين مع اتهام النفس بالتقصير .

التوصيات:

١-تشجيع الباحثين على الكتابة بالتربية الروحية وبيان خصائصها ووسائلها ومرتكزاتها الروحية التي تساعد على تزكية النفس وتطهير الروح .

٢-البحث عن المزيد من الدراسات التي توضح الجانب الروحي ودوره في الاسلام وعلاقته بالله سبحانه وتعالى .

٣-ادخال نهج التربية الروحية في التربية وجعله كتاب يؤخذ به في المدارس من اجل تعميق الصلة بالله سبحانه وتعالى .

٤-اهتمام بدراسة اراء العلماء في مختلف العصور حول موضوع التربية الروحية .

٥-ضرورة تربية الروح تربية صحيحة من اجل ان يعيش الانسان الحياة الصح في الدنيا والآخرة.

المقترحات

١- القيام بدراسة مشابه لهذه الدراسة بشخصيات مختلفة مثل التربية عند السهروردي التربية عند رابعة العدوية التربية عند الحلاج التربية عند ابن قيم الجوزية.

٢-اجراء دراسة مقارنة بين اسلوب المحاسبي في محاسبة النفس وعلماء النفس في العصر الحديث .

المصادر

- ابن سعد، محمد(١٩٧٠): **الطبقات الكبرى**، ، مصر ،دار التحرير.

- ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن اسحاق (١٩٢٩): **الفهرست** ، القاهرة ،المكتبة التجارية .

- أبو محمد الشافعي، الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة، الهِجراني الحضرمي (٢٠٠٨): **قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر** ،تحقيق: بو جمعة مكري / خالد زواري ،ط١ ،جدة ،دار المنهاج .

- ابو نعيم الاصفهاني، أحمد بن عبد الله (د.ت) : **حلية الاولياء** ، القاهرة ، دار السعادة.

- أحمد ، طيبه بنت واجي (٢٠٠٥): نماذج من الآراء التربوية للشيخ محمد بن عثيمين ، **رسالة ماجستير غير منشورة** ، كلية التربية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة.

- البغدادي ، عبد القادر بن طاهر (١٩٢٨): **أصول الدين** ، استنبول، مطبعة الدولة .

-داود ،تغريد سلمان داود(٢٠١٥): الفساد الاداري والمالي في العراق وآثره الاقتصادي والاجتماعي ،اسبابه ، انواعه ، مظاهره ، وسبل معالجته، **مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والادارية** ، السنة الحادية عشر ، المجلد العاشر ، العدد الثالث والثلاثون ، جامعة الكوفة.

- الذهبي ، محمد بن أحمد بن أحمد بن عثمان (١٩٨٤): **سير إعلام النبلاء**، تحقيق: شعب الارناؤوط ، ط٢،بيروت، مؤسسة الرسالة .

- الراغب الاصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد(٢٠٠٧): **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: ابو اليزيد أبو زيد العجمي ،القاهرة ، دار السلام.

– السبكي، تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن على (١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦م) :**طبقات الشافعية الكبرى**، ط ١، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطناحي، ج ٢، القاهرة ،دار إحياء الكتب العربية،.

–سلمان، أحمد عبد الله(٢٠٠٩): الضرورة والركائز الاساسية للانتقال من الاسلوب المخطط الى النمو, العراق حالة دراسية, **اطروحة دكتوراه, غير منشوره**, مقدمة الى كلية الادارة والاقتصاد, جامعة بغداد,

– السلمي ، عبد الرحمن محمد بن حسين النيسابوري (١٩٦٧) : **طبقات الصوفية** ،القاهرة، مكتبة البابي الحلبي واولاده .

–العباسي، شيرين محمد كمال محمد(٢٠٠٨) : محاسبة النفس عند الامام الحارث المحاسبي ، **مجلة البحث في الآداب** ، جامعة عين شمس، العدد التاسع عشر ، الجزء الثامن .

–عبد الله ، معتز سيد (١٩٩٦): المحاسبي (ت٢٤٣هـ) في نجاتي ،محمد عثمان واخرون (١٩٩٦): **علم النفس في التراث الاسلامي**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، سلسلة تيسير التراث . ج١.

– العسقلاني ، ابن حجر ، أحمد بن علي (١٩٠٨): **تهذيب التهذيب** ،بيروت ، دار المعارف.

–القرطبي محمد بن احمد بن ابي بكر فرج (١٩٥٣) : **تفسير القرطبي** ، تحقيق احمد بن عبد العليم البردوني، القاهرة، دار الشعب.

– القشيري ، عبد الكريم بن هوازن (١٩٦٦): **الرسالة القشيرية** ، بغداد، دار الكتب الحديثة .

– الكيلاني ،ماجد عرسان (١٩٧٤): نشأة القادرية ، **رسالة ماجستير** ، بيروت ،مقدمة الى دائرة التأريخ في الجامعة الامريكية.

–المدهون ،لؤي(د.ت): منظمة الشفافية العالمية، يدا" بيد من آجل مكافحة آفة العصر، الموقع **الالكتروني www dw-world0de**

- المحاسبي،ابي عبد الله الحارث (١٩٩١): **آداب النفوس** ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ،بيروت – لبنان، دار الجيل .

- =========(د.ت ،١) : **الرعاية لحقوق الله** ، تحقيق وتقديم: عبد القادرِ أحمد عطا، ط٤، بيروت –لبنان ، دار الكتب العلمية .

-===========(١٩٨٢) : **رسالة المسترشدين**، تحقيق عبد الفتاح ابو غدة ، ط٢ ، حلب، مكتب المطبوعات الاسلامية ، دار السلام .

-===========(د.ت.٣): **شرح المعرفة وبذل النصيحة**، تحقيق:مجدي فتحي السيد، طنطا،مصر.

-=========== (د.ت ٢.): **شرف العقل وماهيته** ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

-===========(١٩٧١): **العقل وفهم القرآن** ،قدم له وحقق نصوصه : حسين القوتلي ،ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

-===========(١٩٨٦) : **القصد والرجوع إلى الله**: تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، المجلد الأول، ط١ ،القاهرة ، دار الكتب العلمية.

- ========= (١٩٧٥):**كتاب العلم** ، تحقيق : محمد العابد مزالي، الجزائر ، الدار التونسية للنشر.

-===========(١٩٩٩): **المسائل في الزهد**: تحقيق: عمران المنصور، بيروت ، دار الكتب العلمية.

-===========(١٩٨٧): **المكاسب والورع والشبهة وبيان مباحها ومحظورها واختلاف الناس في طلبها والرد على الغالطين فيه** ، تحقيق: عبدالقادر أحمد طه، بيروت –لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية .

-============(١٩٨٦): **الوصايا**، تحقيق وتعليق: عبد القادر أحمد عطا ،ط١ ، بيروت ، دار الكتب العلمية .

-=========== (د.ت.٤) : **معاتبة النفس** ، تحقيق: احمد عطا ، دار الاعتصام

-=========== (١٩٨٦) :**الوصايا**، ط ١، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، بيروت ،دار الكتب العلمية.

- محمود ، عبد الحليم (١٩٧٣): **استاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي**، القاهرة ، دار المعارف .

-محمود ، محمد سلمان و هيفاء مزهر الساعدي (٢٠١٧) : الفساد الاداري في العراق الاسباب والمعالجات ، **المؤتمر العلمي الاسنوي الثالث عشر لكلية القانون** ، جامعة أهل البيت .

- المناوي ،محمد عبد الرؤوف (١٩٣٨) : **الكواكب الدرية** ، القاهرة ، مطبعة الازهر.

-وتوت، علي (٢٠٠٦): ظاهرة الفساد ومتغيرات الواقع بعد الاحتلال **، مجلة النبأ** ، العدد ٨٠، ذي الحجة.

-عطا ،عبد القادر أحمد(د.ت): **مقدمة في كتاب الرعاية لحقوق الله للمحاسبي**،ط٤ ،بيروت ،دار الكتب العلمية.

الآخر في رواية المحاكمة لليلى العثمان

أ.م.د. إشراق سامي

الملخص: يناقش البحث علاقة الآخر بالأنا، وأثره في تشكيل وعيها وسردها. وإذ ينهض السرد عموما على التقابلات، فإنه يشكل منها في رواية "المحاكمة" لليلى العثمان، الجانب الجمالي الامتاعي الذي يُشعر القارئ بلذة الكشف والاكتشاف لما في داخل نفس الكاتبة من هواجس ومشاعر، ولما تعيشه من وقائع محاكمتها بتهمة الإساءة إلى الأخلاق العامة في كتاباتها، مثلما يشكل الجانب الدلالي الذي يمنح الرواية معناها ووظيفتها، فعلى صعيد المعنى تعكس الرواية ما يتعرض له المختلف، الكاتب أو المثقف، من ظلم الآخر الديني واضطهاده, وعلى صعيد الوظيفة تجعل الرواية السرد عاملا فعالا، وأساسيا، من عوامل مواجهة العنف الذي يُمارس على المختلف، عبر تشخيص خطره النفسي والمعنوي وإبرازه للقارئ. وذلك كله يُجسد عبر ثنائيات، تابعها البحث، من أبرزها: الأنا– الآخر، والحلم– الواقع، والمثقف– الظلامي.

Abstract: The research discusses the relation of the other to the ego and its effect in the formation of consciousness and narration. The narration is generally based on "Binary diodes". It is part of the novel "Al-Muhakamah" (The Judgment) by Laila Al-Othman, the aesthetic aspect of the comedian who feels the reader's delight in revealing and discovering the inside of the writer's concerns and feelings, and the facts of her trial on charges of insulting public morals in her writings, As the semantic aspect that gives the novel its meaning and function. On the level of meaning, the novel reflects what the different writer or intellectual is exposed to from the injustice and persecution of the other. On the function level, narration makes the narrative an effective and fundamental factor in confronting the violence practiced on the different, By diagnosing his psychological and moral danger and presenting him to the reader. All this is embodied through binary diodes, followed by research, the most prominent of which: the ego-other, dream-reality, and intellectual-dark.

الآخر

يتداخل الآخر مع الأنا؛ لأن الأخيرة تحتاجه في إظهار حدودها، وما تتمتع به ميزات، وما لها من قيم تجعلها ذاتا متفردة عن الآخرين، في عالم متنوع القوميات والهويات والانتماءات، تتعدد فيه الممارسات والتوجهات والقيم، فالآخر ملازم للأنا. ولا وجود لاحدهما من غير الثاني(١). ولذا نجد مفهوم الأنا مرتبطا، فلسفيا، بالآخر. إذ يقول باسكال: ((للأنا خاصيتان فمن جهة هو في ذاته غير عادل من حيث انه يجعل نفسه مركزا لكل شيء، وهو من جهة أخرى مضايق للآخرين من حيث انه يريد استعبادهم، وذلك لأن كل (أنا) هو عدو ويريد أن يكون المسيطر على الكل))(٢). وهو ما يبدو واضحا في التراث العربي القديم، على سبيل المثال، إذ الآخر، في كتب الجاحظ، مجال للذم، ولإسقاطات الأنا على الآخر الذي يتصف بانه كافر وبخيل وجاهل وغيرها من الصفات والسمات التي تعود على الأنا بالتفرد والتميز(٣). وهو ما صارت الدراسات الثقافية اليوم تنبه إليه، فتحاول أن تجعل "الصورولوجيا"، ودراسة الآخر، وسيلة من وسائل التقليل من العداء تجاه الآخر، وفكّ الالتباسات التاريخية، وما لها من أصول دينية وعقدية، للوصول إلى نوع من التفاهم الضروري لعالم هو أحوج ما يكون اليوم إلى التفاهم والسلام والتعايش(٤).

يختلف نوع الآخر وتتعدد مستوياته، فهو الأجنبي بالنسبة لشعب من الشعوب كالإنكليزي بالنسبة للمصري، أو الأمريكي بالنسبة للعراقي. وهو المسيحي بالنسبة للمسلم في المجتمع الواحد، أو الشيعي بالنسبة للسني، وهذا التقسيمات دينية ومذهبية. وهو الآخر العرقي كالأسود بالنسبة للأبيض، أو الكردي بالنسبة للعربي. وهو الآخر الجنسي كالرجل بالنسبة للمرأة. إذ الآخر متعدد المستويات، ومتفَق على أن وجوده قائم، وأبدي يحكم وجود التنوع البشري والاجتماعي. وهو موظف في السرد لغايات سردية تتصل بالبناء السردي، الذي يتطلب الاختلاف؛ إذ يترتب عليه التنقل من حالة إلى حالة، وصولا إلى الاستقرار، وانتهاء البرنامج السردي، وموظف في السرد لغايات سيميائية تتصل بالثقافة ومظاهرها، وما تضمره من تحيّزات ضد المختلف، وما تمارسه عليه من ظلم وقسوة، يسعى السرد إلى كشفها، والتنبيه إليها؛ لتقليل حضورها في حياتنا، وصولا إلى مجتمع أكثر توازنا، وأكثر تسامحا، وأكثر إنسانية.

الفضاء

إذا كان المكان، الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية، والزمن هو الأحداث نفسها وتطورها، كما تقول سيزا قاسم(٥)، فإن الفضاء هو مجموعهما، أي انه الانعكاس الزماني والمكاني في الوعي، وفي إدراك الشخصية، وفي السرد، فليس من مكان حيادي، ولا زمان يمكن أن يكون ويؤشر ويُفهم من غير تطورات تلمسها العين، ويدركها العقل البشري؛ إذ السرد هو ما يثبته الراوي من أزمنة وأمكنة تتأثر بالتغيّرات المحسوسة التي تنعكس على الحياة والسلوك والثقافة والأنا والآخرين الذين يشاركونها الفضاء نفسه، وينتمون إلى الآخر المختلف تبعا للانتماء الفكري أو الديني أو الثقافي، فيحاولون فرض صوتهم على الفضاء وسلطتهم على ساكنيه.

وقد درس بعضهم الفضاء سيميائيا، فهو علامة تتشكل بناء على علاقات اختلاف بين قطبين مكانيين حين يحضر أحدهما، يحضر الآخر. وواحدهما يشكل معناه قياسا إلى الثاني، فالجنة تفهم في سياق علاقة الاختلاف التي تربطها بالنار، إذ الأولى للثواب والأخرى للعقاب، والبر في علاقته بالبحر، إذ الأول للأمن والاستقرار والثاني للخطر والقلق، والأول لعيش القصص والثاني لقصها. وبلاد الإسلام في علاقتها ببلاد الكفر، إذ الأولى للأخيار والأخرى للأشرار، ويعمل أي قطب من الاقطاب السابقة، ويدل، في سياق نوع من التآليف الدينية، أو الوعظية، أو السردية.

وتنتج الكويت الحالية، في نهاية التسعينيات من القرن العشرين، الدلالة في رواية المحاكمة(٦)، في علاقتها بكويت السبعينيات من القرن نفسه، إذ كان يسودها التحرر والانفتاح على الآخر المختلف المحلي والعالمي، فيما هي، الآن، نهب للتشدد الديني. وإذا اقتربنا أكثر من الجزئية التي يختص بها هذا البحث، فالفضاء هو الحلم الذي يشكل مجالا للحرية في مواجهة الواقع الذي تلاحق فيه الساردة محاكمة تنتظرها بدعوى أن قصصها تنطوي على ما يخالف الدين وعادات المجتمع الذي تعيش فيه وتقاليده.

وينطوي الفضاء كما يرى يوري لوتمان في انتظامه الاقليدي وفي علاقاته المكانية والفيزيائية التي تنتظم في شكل تقابلات كالأسفل والأعلى والقريب والبعيد والمحدود واللامحدود والمنقطع والمتصل على تعارضات دلالية ((تحيل على الفضاء الايديولوجي والثقافي المنسحب على المكان، والذي ينتظم هو أيضا في سلسلة من التعارضات بين النماذج الثقافية والدينية والسياسية والاخلاقية))(٧).

يسميها السيميائيون علاقة التقابل ((المصنفة بحسب علاقة الثنائيات المتقابلة (الذي) عادة ما يتحدد [...] انطلاقا من حضور سمة مفردة وغيابها ضمن أخرى))(٨). إذ يظهر الفضاء بالنسبة لبحثنا سمات محددة تتصل بشخصياته أو ملامحه أو ما يوفره للأنا أو يسلبه منها، تقابلها سمات أخرى غير مصرح بها، ولكنها تكمل المعنى أو تتمه، وتشكل دلالة الرواية، وموقفها من المجتمع والحياة والعصر الذي توجد فيه.

الآخر والفضاء

شكّل الفضاء منذ القديم مستقرا للآخر الذي تشكل الأنا تصوراته عنه فتصفه بأوصاف إسقاطية، توهمية، تنم عن خوف منه، وعن رغبة في كسر ذلك الخوف، بالتمكن من الآخر المتصف بالكفر وبالاختلاف في العادات والقيم. وكان تقسيم الفضاء إلى حد بعيد يتشكل من دوائر كبيرة مثل: دار الإسلام ودار الكفر، والبر والبحر، والوطن الغربة(٩)، لا تصل إلى المجتمع الواحد. أما في الرواية الحديثة فقد أخذت الدوائر الكبرى تتجزأ إلى أصغر فأصغر، إذ لم يعد الآخر هو ما يقبع في البعيد والمجهول، وليس هو الخارجي، بقدر ما يقع في الداخل، وبيننا، فهو آخر غير مسلم، أو آخر غير مصري، أو غير كويتي. وهو آخر يعيش بيننا، ويحمل القيم الثقافية الحديثة، أو المعجب بالغرب وثقافته. وبذا صار الفضاء يضيق ويتجزأ، وصار الآخر ملتبسا، فهو الأنا المثقفة الواعية والساردة في الرواية بالنسبة للآخرين، من أغلبية المجتمع، وهو بالنسبة للأنا، الآخر المتشدد دينيا الذي يتبنى قيما تقليدية، ويرى أن المثقف والكاتب يهددها، فيسعى إلى محاكمته.
ويظل الآخر مع تعدد أشكاله بتنوع الفضاءات التي يوجد فيها ويتحرك، محافظا على سمة العدوانية؛ فهو من يحمل التهديد المستمر للأنا، وهو من يسعى إلى الصدام معها، وإن كان الصدام في طبيعته مطلوبا في الرواية سرديا ودلاليا، إذ يزيد خصوبة الدفق الدلالي المنبثق من قسوة الصدام بين طرفي التقابل، وهو ((يستمد أيضا قوته من قدرته على استقطاب الرموز والدلالات والمركبات المعرفية التي تضج بها المرحلة التاريخية، حيث أن هذا التفكير الثنائي يفترض أيضا الكشف عن مكونات البنية الثقافية واللحظة المعرفية والتاريخية التي يتم فيها))(١٠). ومن أكثر الفضاءات المتقابلة في رواية المحاكمة وضوحا فضاءا الحلم والواقع.

الحلم

ترى الساردة في رواية المحاكمة أحلاما كثيرة، فهي قلقة وخائفة من نتيجة المحاكمة، فلا تجد مهربا إلا في الأحلام التي تحقق لها ((أشياء كثيرة وتمنحها الحرية))[١١]. وتجعلها تمارس ما لا تستطيع ممارسته في اليقظة. وفضاء الحلم مساعد في أنه يقدم للساردة مادة لكثير من قصصها[١٢]. وفي أنه يعطيها الحرية التي لا تجدها في الواقع وفي المجتمع الكويتي، ويمنحها حرية الحركة والتنقل، من دون تهديد لحريتها، ومن دون اخضاعها للمحاكمة؛ فهي في الحلم كما تقول: ((لا أكون تلك السجينة المحرومة. أراني وقد اخترقت الجدران خرجت إلى الشارع. أقبض على سندويشة اللبنة والزعتر. أتمشى مع الصبايا أسمع غزل شباب لبنان الحلوين. أجلس فوق نتوء الصخر. أتأمل جمال الطبيعة. أطلق ساقيّ تمران ببيوت الضيعة ذات القرميد أسمع كأكأة الدجاج[...] أتجول برفقة حبيب مجهول[...] أحس بالحب البريء ينبتني في عينيه حقلاً))[١٣].
يقدم فضاء الحلم للأنا الحرية الكاملة في الفعل والحركة والمشاعر والإحساس بجمال الحياة، وما تنطوي عليه من براءة وسعادة غير مقيدة بتقاليد أو موانع تكبح تحرر الجسد وانطلاق الروح. ولكنه، أي فضاء الحلم، يتضمن، في الوقت نفسه، سمات الفضاء الواقعي، مقابله، الذي تعيش فيه الكاتبة، فهو فضاء مُقيّدِ للحرية ومُكبَّل بعادات لا حدود لها ولا نهاية. وهو يضمر صورة للآخر الموجود في الواقع الذي يضيّق على الكاتبة مساحة الحرية والحياة، فاذا كان الآخر الظاهر في الحلم هو الحبيب المجهول المشارِك للأنا في أحلامها، وفي رغباتها وفي إقبالها على جمال الحياة، فان الآخر الضمني الموجود ف يالواقع هو الكاره، وهو الحائل دون الحرية، ودون الاستمتاع بالحياة وجمالها.

وتظل التقابلات ظاهرة في السرد ((فالنفي ليس الغاء لشيء آخر بل هو تأكيد لحضور شيء ما ليس باديا من خلال الطرف المتحقق، فالانطلاق من الخير لإثبات الشر ليس نفيا للخير بقدر ما هو تأكيد لوجود شبكة علائقية يستند اليها الخطاب من أجل تنويع سياقاته أي انتاج مضامينه المتعددة))[١٤]، فنفي السجن عن فضاء الحلم واستبعاد المجتمع التقليدي الكويتي، لا يعني انه

غير موجود في الواقع، ولكنه تأكيد لوجوده ولقسوة الآخر فيه على الأنا، ولوعيها بذلك كله، فقسوة الواقع وظلم الآخر هما اللذان يجعلان الأنا تهرب إلى الحلم، وتحفل به في سردها.

ويظهر التقابل في حلم آخر بالنبي، إذ تقول الساردة: ((رأيت فيما يرى النائم[...] كنت أجلس على طرف سريري[...] دُفع الباب[...] شاهدت رجلاً جميلاً مضيء الوجه دخل وبأثره ناقة بيضاء نظيفة لا أدري كيف اتسع لها الباب[...] ارتعدت فرائصي صرخت: من أنت؟ كيف تدخل على دون استئذان؟ حرك يده يطلب التروي: اهدئي.. أنا رسول الله محمد[...] تحرك رفع كفه اليمنى شع نور عجيب في الغرفة[...] اقشعر جسدي [...] انتصبت[...] أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك محمد رسول[...] ماذا تريد مني؟[...] جئت أبشرك بطفل والاسم نور))[٣٥].

وترد في الحلم سمات لهيأة النبي وشخصيته، فهو رجل جميل، مضيء الوجه، يشع منه نور عجيب وهو رقيق ومُبشِّر. أما الفضاء فمُتسِع، أو قابل للاتساع. وكلاهما، الشخصية والفضاء الذي تتحرك فيه، مختلف عن الشخصيات في الواقع، وعن الفضاء الواقعي؛ إذ تتسم الشخوص الواقعية بالعبوس والقسوة، حتى القريب منها من الكاتبة، مثل ابنها الذي يعاملها بفضاضة. والإسلاميون، جميعا، الذين يدعون انتسابهم للنبي: قساة، عبوسون، عدوانيون، تهجميون، منفرون.

ومثل ذلك الفضاء الواقعي، الذي يضيق حتى يصل ضيقه إلى بيت الكاتبة نفسها. إذ تجد ابنها فيه (آخرا) لا يختلف في قسوته عليها عن المجتمع، ولا في مطالبته لها بالتوبة والاستعداد لآخرتها[١٥].

في حلم ثان تقود خنفساء الساردة، لتنقذها من خطر قادم، كما تقول لها، فتتسع أمامها الفضاءات، تقول:

((والتفتت نحوي

- سأدخل الآن وأنت اتبعيني.

[...] زجت برأسها في الثقب. يا لعجبي توسع الثقب [...] بدأتُ أنسكب داخل الثقب الصغير بيسر. انفتح أمامي مكان كبير))[١٦].

يضمر الحلم فضاء مقابلا هو فضاء الواقع، ضيّقا، يزيد ضيقا، فلا تجد فيه الأنا مجالا للنجاة، مثلما يكون الإنسان فيه مهما كان قريبا (آخرا) عنيدا في عدائه، لا يملك الرحمة التي قد تمتلكها حشرة!

الواقع

يقابل فضاء الحلم فضاء الواقع الذي تنقل منه الساردة حوادث روايتها، وما يتصل منها بالحادثة الرئيسة، وهي المحاكمة التي تمتد عدة أشهر تعيش فيها الساردة قلق انتظار الحكم والخوف من الإدانة. ويحضر، في فضاء الواقع، الآخر سافر العداء، أيا كانت درجة قرابته، أو شكله، سواء أكان الابن، الذي أشرت سابقا إلى موقفه من الكاتبة، أم كان القاضي الذي عامل الكاتبة الواقفة في المحكمة معاملة قاسية، فلم يجلسها حتى، أم كان الجندي العراقي المحتل الذي تصف موقفه معها بالقول:

((أوقفني جندي عراقي سلمته بطاقتي قلبها[...] استفزني بكلمات قبيحة فحنقت عليه:

- أنا كاتبة وأديبة يفترض أن تكلمني بأدب

مد يده وهوس على راسي

تعرفين أنني أقدر أجيب راسك هذا وأدوس عليه ببسطاري))[١٧]!

وسواء أكان ذلك الآخر امرأة مثل تلك التي طلبت منها أن تُنزل زجاج نافذة سيارتها، وكانتا متوقفتين في سيارتيهما في إشارة مرور، لتفرح الساردة إذ ظنت أنها معجبة بأدبها، تريد أن تعبر لها عن اعجابها، ولكن ما إن تنزل زجاج نافذة سيارتها حتى ترفع المرأة نقابها وتقذف الكاتبة ببصقة كبيرة استجمعت فيها ما تستطيع من احتقار وكره وغضب[١٨].

والملاحظ أن الآخر الشبيه للأنا، في الجنس، والمختلف في الهيئة والاعتقاد، يخترق فضاء الأنا، ويتغلغل فيه، مجاهرا بعدوانيته. ويظهر التقابل هنا في شخصية (آخر) تخلع عليها الساردة، سمات متخيلة، مناقضة لتلك التي تتسم بها شخصية الآخر في الواقع، إذ يقابل الآخر العدواني في الحوادث الواقعية آخر متسامح، متخيل، تتوقعه الأنا، وتترقب وجوده ليساعدها في تخطي أزمتها، وليعينها على المواجهة. وهو ذاته الذي توقعته في المحكمة، إذ توقعت (آخرا) يرأف بها

ويقدر أدميتها واسمها الأدبي فيطلب منها الجلوس ويعاملها باحترام. تقول: ((أنا واقفة لم يتكرم عليّ– الحاكم– ويأمرني بأن أعود إلى مكاني. جسدي واهن[...] تعبت قدماي. احتقنتا. بدأت أشعر أن جسدي مثل شجرة بالية تهزها الريح))[١٩].

والآخر المتسامح هو ذاته الذي توقعته في حادثة الجندي العراقي إذ توقعت (آخرا) يقرأ اسمها في بطاقتها الشخصية، فيعرف أنها كاتبة كويتية معروفة، أو يرق حين تخبره أنها كاتبة، فيعاملها، رغم انه محتل، بإنسانية، ولا يوجه لها كلاما قاسيا، أو يتصرف معها تصرفا سيئا. ولكن في الأحوال السابقة كلها لم يكن الآخر المقابل للآخر الواقعي سوى وهم، لا وجود له إلا في مخيلة الكاتبة، ولم يكن له أن يوجد ليخفف محنتها، وإن كان ضروريا لتشكيل دلالة الرواية وموقفها من فضاء الواقع الذي تعيش فيه.

خلاصة

يُظهر التقابل في رواية المحاكمة لليلى العثمان، تلاشي الحدود تقريبا بين فضائي الحلم والواقع، ففضاء الحلم، على الرغم من خصوصيته، يأتي محاصرا بفضاء الواقع، ومُشكّلا بتأثيره. إذ لا يوجد فضاء مستقل عن الآخر، ولا يستطيع الإنسان المختلف أن ينأى بنفسه عما يحيط به، أو أن يقيم له عوالم خاصة به، لا تصل إليها أيدي الآخر. ويشير هذا التصور الذي يتشكل سرديا في الرواية عبر فضائي الحلم والواقع، إلى شدة الواقع المتحكم فيه التطرف والآخر، وإلى مدى قسوته على الكاتب وعلى الثقافة والأدب، ومدى تسلطه على الأنا التي تصير عاجزة عن المواجهة، بل عن تحقيق الاطمئنان الذاتي والسلامة الشخصية في عالم يتسع فيه فضاء الآخر ويمتد ليصل إلى أكثر فضاءات الشخصية خصوصية، وصولا إلى أعماق الأنا، وإلى وعيها، وإلى لا وعيها.

لم يخلُ تمثيل الفضاء في رواية المحاكمة، على اختلافه، من بعد نقدي ظاهر في فضاء الحلم، ومضمر في فضاء الواقع. إذ تنتقد الساردة الواقع التقليدي الكويتي، وتنتقد أفراده الذين يصيرون (آخرا) مكروها، خلافا للواقع اللبناني الآخر الحبيب فيه. وتوجه الساردة النقد الضمني لفضاء الواقع إذ تشير إلى ما يعاني فيه الكاتب والمثقف والمختلف من ازدراء ومن قسوة ومن ظلم وتقييد،

وإذ تجسد الآخر في أبشع صورة وفي خيانته لأدواره المطلوبة منه، فهو الحاكم الظالم، وهو الابن الجاحد، وهو المرأة التي تتخلى عن هويتها وصوتها وعن انتمائها لجنسها لتكون تابعا للإسلاميين، وعونا لهم في الشدة على من يدافع عن حريتها وعن حقوقها وعن اختلافها. وفي الحالتين يشكل التقابل دلالة الرواية التي تتلخص في رفض الأنا لسطوة الآخر وتسلطه عبر إظهار بشاعته وبعده عن الإنسانية والعقلانية، وعن الإسلام في صورته النقية، فهو آخر حاقد ومتعصب وكاره ومؤذ للمختلف. وهو مفتقر لسمات الإنسانية والدين التي يظهرها الحلم بالنبي. وتسعى الرواية إلى إظهار بشاعة التعصب والتشدد، وضررهما على المجتمع والنفس الإنسانية.

يظهر فضاء الحلم معرفة الأنا الساردة بطبيعة الواقع الذي تعيش فيه وإدراكها لإكراهاته وقسوته وسطوته لذا هو يتغلل في الحلم ويوجهه. ويوجه السرد عموما. ويظهر فضاء الواقع جهل الأنا الساردة بما وصل إليه الواقع من عنف فعلي ورمزي، فهي في الواقع تتوقع وتنتظر من الآخر أن يكون غير ما هو عليه. ويعطل الجهل ذاك فعل الأنا الساردة ويعطل قدرتها على المقاومة ويوصلها إلى درجة من اليأس[٢٠]، تتعمد الأنا إظهارها لتبين خطورة مشكلة التطرف التي تواجه الأنا والمجتمع.

ويجعل الجهل الأنا الساردة غير مؤهلة لإحداث التغيير المتوخى منها في الواقع، مكتفية بدور السرد، ومعولة عليه في إحداث الوعي لدى القارئ، وإحداث التغيير الجزئي الذي يتصل بعدد من القرّاء المشابهين للساردة في أنهم يعيشون المأزق نفسه، وأنهم يواجهون تزايد اتساع فضاء الآخر وتسلطه على فضاءاتهم حتى الشخصية والخاصة منها، ويواجهون التهديد المستمر لهم بالمحو بسبب اختلافهم وتميّزهم. وهو تغيير جزئي ويتطلب وقتا، ولكنه يظل تغييرا ممكنا وقابلا للحدوث يوما ما، ويظل مهمة من مهام السرد النبيلة والاساسية. تسعى الرواية الآن إلى اسنادها إليه عوض اسنادها إلى الكاتب أو الى فرد مشخص موجود في الواقع، فزمن البطولات الفردية قد مضى!

هوامش:

١. ينظر: محمد الخباز، صورة الآخر في شعر المتنبي "نقد ثقافي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٩: ٢١.

٢. محمد عابد الجابري، الإسلام والغرب "الأنا والآخر"، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠٠١: ٢٢.

٣. ينظر من بحوث ودراسات كثيرة تتناول الآخر في كتابات الجاحظ: أ.حارث نشيمة، التمثيل الثقافي للآخر في كتابات الجاحظ، مجلة افاق العلوم، الجلفة، ع١٠، جانفي، ٢٠١٨.

٤. ينظر: د. نوافل يونس الحمداني، الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة جامعة ديالي، ع٥٥، ٢٠١٢.

٥. ينظر: د. سيزا قاسم، بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ"، القاهرة، ٢٠٠٤: ١٠٦.

٦. ليلى العثمان، المحاكمة، دار الآداب، بيروت–لبنان، ٢٠٠٩. وفيها تنقل الكاتبة تجربة حقيقة تعرضت لها في أواخر العقد الأخير من القرن العشرين. وكانت بناءً على دعوة تقدّم بها متشددون إسلاميون من نواب مجلس الأمة الكويتي ضدها بزعم أنها في كتبها تثير التحلل الأخلاقي وتشجع عليه وتناقش الموضوعات المحرمة من قبيل الجنس والحب وغيرها. ويستولى هاجس الخوف من نتيجة المحاكمة على الراوية فهل ستُسجن؟ هل سيبرؤها القضاء؟ وبين موعد للمحاكمة وآخر تقضي أيامها قلقة خائفة حائرة إلى أن تنتهي الرواية بحكم ضدها مع وقف التنفيذ وغرامة، فهي ليست البراءة بل تأكيد الذنب الذي لم تجنه.

٧. أبو لعسل كمال، سيميائية الفضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، الجزائر، ٢٠٠٥–٢٠٠٦: ٩٨.

٨. عبد القادر فهيم الشيباني، معالم السيميائيات العامة، الجزائر، ٢٠٠٨: ١٨.

٩. ينظر أبو لعسل كمال، (سابق).

١٠.نفسه، ١٠٣.

١١.العثمان (الرواية)، ١٢٥.

١٢.نفسه.

١٣.نفسه، ١٤٢.

١٤.سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، سوريا، ٢٠١٢: ٥١.

١٥.تنظر: العثمان (الرواية)، سابق.

١٦.نفسه، ١٣٥.

١٧.نفسه، ١٦٣.

١٨. نفسه، ١٧٥-١٧٦.

١٩.نفسه، ٢٢١.

٢٠.بنظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة، الجزائر: ٦٤.

المصادر والمراجع:

- (بنكراد)، سعيد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، سوريا، ٢٠١٢.
- (بن مالك)، رشيد: مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة، الجزائر: ٦٤.
- (الجابري)، محمد عابد: الإسلام والغرب "الأنا والآخر"، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠٠١.
- (الخباز)، محمد: صورة الآخر في شعر المتنبي "نقد ثقافي"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٩.
- (الشيباني)، عبد القادر فهيم: معالم السيميائيات العامة، الجزائر، ٢٠٠٨.
- (العثمان)، ليلى: المحاكمة، دار الآداب، بيروت-لبنان، ٢٠٠٩.
- (قاسم)، د. سيزا: بناء الرواية "دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ"، القاهرة، ٢٠٠٤.

- (كمال)، أبو لعسل: سيميائية الفضاء في رحلة أبي حامد الغرناطي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، الجزائر، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.

الدوريات:

- (الحمداني)، د. نوافل يونس: الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، مجلة جامعة ديالي، ع٥٥، ٢٠١٢.

- (نشيمة)، أ.حارث: التمثيل الثقافي للآخر في كتابات الجاحظ، مجلة آفاق العلوم، الجلفة، ع١٠، جانفي، ٢٠١٨.

المرجعيات اللسانية لتحليل الخطاب الأدبي

أ.م.د. عامر عبد محسن السعد، جامعة البصرة / كلية التربية / القرنة

المقدمة

لقد وقفت اللسانيات عند حركية اللغة بمختلف مكوناتها : الصوتية والتركيبية والدلالية ، وراحت ترصد الحدث اللساني بكلّ علاقاته المتشابكة ، وتشعباته وامتداداته في اطار الزمن ، حتى وضعت نظريتها التي تمتلك عن اللغة مواصفاتٍ يمكنُ نعتها بالتكامل والشمول ، وفي الوقت نفسهِ هيأت أنجع وسائل الاجراء من أجل ان تجد نظريتها مجالها في التطبيق .

وإذا كانت النظرية اللسانية قد صِيغت أساساً لخدمة اللغة وآدابها وأساليبها، فإن تحليلَ الخطاب واحدٌ من تلك الركامات التي حظِيت بتعميق رؤيتها ، وتعبيد سبلها ، وايجاد المسالك الكفيلة بتحقيق أهدافها في الكشف عن السياقات التي يشتغل بها الخطاب ، والانساق المؤسسة لبنيتهِ .

لقد وجدَ تحليلُ الخطاب – وبالاخص الخطاب الادبي – في اللسانياتِ بمختلف اتجاهاتها مرجعياتِهِ التي يهتدي بها المحللون ، لاستكشاف خصائصه ، ونواميسه ، وهذا هو الهدف الاساس من هذا البحث ، إذ لا نرى جدوى للنظرة الاحادية للخطاب الأدبي ، لكون الإبداع ليس بالدائرة المغلقة في لغة قصيدةٍ أو قصة ، أو غير ذلك من فنون الأدب ، ولا هو مخبوءٌ في عباءة منتجه، أو في ناحية من الواقع ، إنما هو متعددُ المشارب ، وعينهُ متجهة حيث النُور في كل مفصل من المفاصل ذات الصلة به .

من هنا فقد تهيكل بحثنا الموسوم بـ (المرجعيات اللسانية لتحليل الخطاب الادبي) في أربعة مباحث هي :

١. الخطاب وتحليل الخطاب
٢. المرجعيات اللسانية في التراث العربي
٣. اللسانيات النصية .
٤. اللسانيات التداولية

آملين أن يؤسس المحلّل في ضوء ما ذُكِرَ من المباحث مجتمعة نظرية تمكّنهُ من مقاربة الخطاب الأدبي ، ودراسته دراسة متكاملة شاملة على وفق منهجية علمية دقيقة ، وهذا هو المنحى المُبتغى من هذا البحث الذي أُبسطُ ما سيتحقق به أمران نافعان : الأول : سعة المجال الثقافي للمحلل والثاني : الكشف عن كل زوايا الخطاب وخباياه .

و الله الموفق.

المبحث الاول

الخطاب وتحليل الخطاب

كثيراً ما يتداخل – عند عدد من الدارسين – مصطلح الخطاب (Discourse) مع مصطلح النص (Text) ، فيرون أنهما يُشيران إلى : (الوحدة اللغوية التي تتجاوز الجملة)، إلا أنّ اتساع مجالات البحث العلمي، وتطور الدرس اللساني،قد حتما وضع الحدود الفاصلة لكل مصطلح منهما ، ويكادُ ((يجمع كلّ المتحدثين عن الخطاب ، وتحليل الخطاب على ريادة (ز. هاريس) (١٩٥٢م) في هذا المضمار من خلال بحثه المعنون بـ (تحليل الخطاب) ، انه أول لساني حاول توسيع موضوع البحث اللساني بجعله يتعدى الجملة إلى الخطاب))[١] .

ولكون (هاريس) توزيعياً ، فقد انصبّ جهدهُ ضمن حدود المجال اللساني، فعرّفَ الخطاب بأنهُ :

((ملفوظ ،او هو متتالية من الجمل تكّون مجموعة مغلقة يمكن من خلالها معاينة سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية ، وبشكل يجعلنا في مجال لساني محض))[٢].

على وفق هذا المفهوم ، فالخطاب– كما أسلفنا – هو الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة ،لكن الكثير من الباحثين ذهبوا إلى ان الخطاب هو الملفوظ الموجه إلى الغير بافهامه قصداً معيّناً ، ومن الواضح أنّ هذا المفهوم يتطابق مع ثنائية : (اللغة والكلام) عند (دوسوسير) بوصف اللغة نظاماً سابقاً للخطاب ، فهي موجودة بالقوة ، والخطاب يوجدُها بالفعل [٣] .

ومن الطبيعي أن تتسع المفاهيم ، فقد نظر (بنفنيست) إلى الخطاب من جهتين :

الاولى لسانية ركزّت على وظائف اللغة ،و الثانية : تواصلية اتجهت الى المتلقي، وذلك في تعريف الخطاب بانه ((كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً و عند الاول هدف التاثير على الثاني بطريقه ما))[٤] .

في هذا السياق حاول (فان دايك) استنطاق مفهوم الخطاب من زاويتين : الاولى دلالية والثانية تداولية فالخطاب بنى كبرى تترابط عناصرها وتنسجم على وفق بنى فوقية مجرّدة هي التي تعطيهِ صيغته وشكله المنظم [٥].

ولا شك في ان الخطاب الادبي لم يكن بعيداً عن تلك الرؤى، وان كان هناك من اعطاه شيئا من الخصوصية فنظر اليه من خلال الربط بين بنيته التركيبية وقدرته على التنميط والخضوع الى نوع الجنس الادبي الذي ينتمي اليه ،وبهذا فهو يخضع لمؤثرات شكلية واخرى ثقافية خارجية وهو بهذا المفهوم :

((مظهر نحوي مركب من وحدات لغوية ملفوظة او مكتوبة ويخضع لقواعد في تشكلهِ، و في تكوينه الداخلي قابلة للتنميط والتعيين ، بما يجعله خاضعاً لشروط الجنس الادبي الذي ينتمي اليه سرديا كان ام شعرياً، و مرتهناً بالخصائص النوعية لجنسه، ونجد فيه صدى واضحاً لآثار الزمن والبنى الثقافية .))[٦]

مع هذا فمصطلح (الخطاب) يواجه تنوعاً وتعدداً في مفهومه بسبب اشتغاله في مجالات معرفية مختلفة ، وعليه فمفهوميته تتحدّد على وفق الاتجاه الذي ينتمي اليه، والمجال الذي يشتغل فيه، لذا يرى بعضهم : ((انّ تأويل ايّ خطاب من ايّ نوع كان يقتضي ربطهُ او مقابلته بخطابات لأنواع خطابية اخرى))[٧] .

إلا انّ المُسلم به هو ان الخطاب نشاط تواصلي يفترض وجود من يتلقاه. وفي ضوء هذه المفاهيم والرؤى بدأ (تحليل الخطاب) يضع اجراءاتِه ويحدّد ادواتهِ منطلقا من مرجعياته التي راحت ترسم مساراته.

ومع انّ تحليل الخطاب لم يكن جديداً في مقاربة الخطابات الا انه في صورته الحديثة بدأ مع تطور الدرس اللساني، و إرساء اسسه العلمية، و على ما يرى الباحثون ان علاقة اللسانيات

بالخطاب علاقة تراتبية : اللسانيات اولاً ، ثم المعارف الاخرى ثانياً، وبما ان الخطاب هو أحد المظاهر اللغوية، فهذا يعني ان تحليله يجب ان يمرَّ عبر اللسانيات .

في هذا الاتجاه ظهرت اللسانيات الخطابية لتُسجلّ خطوة متطورة في اللسانيات تمثل انفتاحها على الخطاب ومحاولتها احتواء القضايا المتصلة به[٨].

بناء على هذا، فإن اللسانيات بما لها من اهمية نظرية ومنهجية فهي جديرة بتزويد اللسانيات الخطابية بما تحتاجه من آليات لتحليل الخطاب [٩] ، وإنْ دلَّ ذلك على شيء فانما يدلُّ على انّ المرجعيات اللسانية تشكل المنطلق الاقوى لمُحلّلي الخطاب ،وهو ما يبدو جلياً في جهود اللساني(بنفنيست) الذي فتح الباب امام اتجاهات جديدة للبحث اللساني قبل ان تعرفَ اللسانيات الخطابية اولى خطواتها.

امّا مقاربة الخطاب ووضع اجراءات تحليله في ضوء النظرية اللسانية فقد ظهرت جلية عند (فان دايك) الذي اخذ منطلقاته من النظرية التوليدية لتشومسكي بكل مفاهيمها وادواتها التحليلية مع ادراكه جيداً ان النحو التحويلي التقليدي لم ينشأ على الاطلاق لدراسة بنية النصوص، لكنه تمكّن استناداً الى ذلك من تقديم وصف واضح للبنى النحوية للنصوص، وكانت المهمة الأكثر وضوحاً من مهام ذلك الوصف هي تفسير علاقات الترابط الدلالي بين الجمل وذلك ضمن جوانب اساسية للخطاب.

لقد اتسعَ (فان دايك) في منهجه التحليلي فبيَّن ان القواعد المتواضع عليها، او شروط الدلالة والمرجع والتأويل ، وكذلك استعمال معرفه العالم، والفعل التداولي ووظائفه، كل تلك الامور قد تُدمَجُ جوازاً في اهتمام تحليل الخطاب اللساني[١٠].

اخيراً فإن تحليل الخطاب الادبي لا يقف بعيداً عن ذلك ، فهو في كل الاحوال يستدعي القراءة الدقيقة الكاشفة لبناه، وربما تجاوزها الى بنى اخرى ، عندها يستلزم الامر الامساك بالمقاصد الابلاغية وغير الابلاغية لمنتجه حتى يتسنى الوقوف عند الدلالات الاكثر عمقا فيه.

المبحث الثاني

المرجعيات اللسانية في التراث العربي

لعل اطلالة تأصيلية على المنجز اللغوي في التراث العربي، كفيلة بالتعرف الى الاطر المشتركة بين علوم العربية واللسانيات الحديثة، فضلا عن الكشف عن صورة الفكر اللساني في ذلك الموروث الذي تشكّلَ على يد علماء العربية ، لاسيما في مجالي : (النحو والبلاغة) وقد وردت الإشارة الى ذلك الجهد عند اللسانيين الغربيين، من ذلك – مثلا إنّ (بلومفيلد) ذكر (العربية) في اثني عشرَ مورداً في كتابه الشهير (اللغة)، وبيّنَ في احد الموارد انّ العرب قد وضعوا (نحواً) للغتهم كما تتجلّى في القرآن الكريم، وعلى اثر هم سار آخرون [١١]. وذكر (سابير) العربية ايضاً في كتابه (اللغة) مقدمة لدراسة الكلام)[١٢].

ومثل هذا الامر نجده عند (تشومسكي) خاصة في كتابهِ عن النحو الكوني الذي اشار فيه الى نظرية العامل ، والربط بالضمير العائد وهما الجانب الأساس في النحو العربي، وقد اخذا موقعاً مركزيا عند (تشومسكي) [١٣].

ان هذه الاشارات وغيرها، تُعطي انطباعاً قوياً في انّ نظرية النحو العربي قد وضعت قوانينها على اسس علمية جعلتها تتبوّأ المكانة اللائقة بين لغات العالم، وكغيرهم من الأمم ادرك العرب انّ هناك نواميسَ تقف وراء ظاهرة الكلام، فاستنبطوا المنظومة الكلية للغتهم، ووضعوا علومها و بوّبوا محاورها، وبفعلهم هذا ترقّوا من مستوى الكلام المستعمل فعلياً الى مستوى اللغة [١٤].

والظاهر ان (النحو) كان له السبقُ ، والنصيب الاكبر في التقنين ، وكان الخطاب الشعري هو الفضاء الاوسع للتحرك فيه من اجل استنباط المعايير التي غدتْ – فيما بعد– مقاييسَ لمستعملي اللغة.

ان اكثر ما انصب عليه جُهد النحاة هو الاهتمام بالمستوى الصوابي للكلام العربي، و عند اكتشافهم نزعة التمرّد في الشعر، جعلوا مسارين لذلك المستوى[١٥]:

١ – المستوى الصوابي للكلام .

٢ – المستوى الصوابي للشعر.

ويلاحظ في اطار منظور النحو العربي إلى الخطاب الشعري ان هناك نظرتين قد سيطرتا عليه : الاولى تجزيئية نظرت الى الخطاب الشعري على انه شاهد لظاهرة نحوية معينة، قد تنحصر في كلمة او جملة، ولا تتجاوز هذه الحدود الى ما هو اوسع منها.

اما الثانية فهي النظرة المعيارية، وهي الغالبة على الدرس النحوي – وكما اسلفنا –انّ البيت الشعري لم يَعُد اكثر من شاهد لتعزيز قاعدة نحوية هي المعيار الذي يقاس عليه الاستعمال السليم .

ومع هذا التحديد الذي ضيقّ على النحاة حركتهم في فضاء الخطاب الشعري فانّ ما وضعوه من قواعد كان لها الفضل في تهيئة المناخ السليم الذي مكّن علماء اللغة من دراسة الشعر دراسةً لغوية اوقفتهم على نواحيه البنائية، والبيانية، والدلالية، فدرسوا الفصيح والغريب ، والحسن والقبيح ، وبيّنوا ما لفصاحة الشاعر، وعلمه بجوهر الكلام من اثر في ذلك[١٦] ، وهم في كل هذا لم ينفكوا عن الاشارة الى ظواهر النحو،إذا دعا الامر اليها كما في قول المبرد (٢٨٦هـ) في معرض تحليلهِ لقول الشاعر:

(تقولُ وضَكَّتْ صدرَها بيمينها   أَبعليَ هذا بالرحى المتقاعسُ)

((قوله المتقاعس انما هو الذي يُخرجُ صدرهُ ، ويُدخِلُ ظهرَهُ ويُقال : عزةُ قَعساءُ إنّما هذا مثلٌ، ايّ لا تضع ظهرها الى الارض، وقوله: بالرحى المتقاعس لو اراد الذي يتقاعسُ لم يجز لان قوله: بالرحى من صلة الذي ،والصلة من تمام الموصول فلو قدمّها قبله لكان لحناً وخطأً فاحشاً، وكان كمن جعل أخر الاسم قبل اوله،ولكنه جعل المتقاعس اسماً على وجهه وجعل قوله بالرحى تبييناً)) [١٧]

والمبرّد في تحليله لهذا الخطاب الشعري وقف عند الناحية الدلالية فَبيـّن المراد من (المتقاعس) واستعان بمَثلٍ شائع عند العرب هو (عزة قعساء) لتعزيز ذلك المعنى ، ثم انتقل الى الناحية التركيبية كاشفاً عن طبيعة العلاقة بين (بالرحى) و (المتقاعس) ليؤكد قصدية الخطاب ومستواه الصوابي، و ليُسقط وهماً قد يردُ في ذهن المتلقي ،هو ان المراد بهذا التركيب : (الذي

يتقاعسُ بالرحى) وهذا لا يجوز لان هذه الصورة الشارحة من التركيب مخالفة لقواعد اللغة التي لا تُجيزُ ان تتقدم الصلة على الموصول، ذلك انَّ (بالرحى) ستكون صلةً، والصلة هي التي تتمّمُ المعنى وترفع الغموض عن الاسم المبهم، ولهذا فقد جعل (المتقاعس) اسماً قائماً بنفسهِ و (بالرحى) تبييناً له وكأنه اراد من محلل الخطاب الشعري ان يكون تحليله سليماً من الناحية القواعدية لان العلاقات النحوية لها تاثير في تغيير وجهة الدلالة.

ومن الواضح انّ هذه الرؤية لا تكاد تتجاوز حدود اللغة لكنها اخذت تتسع فيما بعد لتُصبح كشفاً دلالياً وجماليا نلمسُ جانباً منهُ في كتاب الخصائص لابن جني (ت ٣٩٢ هـ) الذي يحاول تسليط الضوء في اكثر من جانب من الخطاب الشعري ، كذلك عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في كتابيه : (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) ، وفيهما تمكّن من الكشف عن دقائق الأمور ، ومواضع الجمال فيما تناوله من جانب من جوانب الخطاب الشعري .

فضلاً عن هذا فهناك الكثير من الأمثلة والشواهد التي قاربها علماء اللغة من النحاة والبلاغيين ،غير أنّ تحليلاتهم لم ترقَ الى مستوى النص او الخطاب.

لقد وقف النحاة العرب عند مستوى الجملة، و لم يتعدَّ البلاغيون البيت الشعري او البيتين، لان الهدف عندهم جميعا هو المعيار، اذ لم يكن البيت الشعري الا شاهداً على القاعدة سواء اكانت نحوية أم بلاغية، ولعلها تصبُّ كلّها في اطار السلامة والوضوح بعيداً عن التعقيد، وتحقيق القصد من الخطاب، بحيث يجني المتلقي الفائدة بأنجع الطرق وايسرها وفي هذا قال السكاكي (ت ٦٢٦ هـ)في بيان المراد من علم المعاني: ((اعلم انّ علم المعاني هو تتبّع خواص تراكيب الكلام من الافادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره))[١٨].

و في علم البيان قال ابن الأثير(ت ٦٣٧ هـ) انَّ : ((موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبهُ يسأل عن احوالها اللفظية والمعنوية، وهو والنحويُ يشتركان في ان النحوي ينظرُ في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة، وهي دلالة خاصة والمراد بها ان تكون على هيأة مخصوصة من الحسن))[١٩].

اخيراً ما يمكن قوله هنا هو ان العرب قد أسسوا مرجعية لسانية لا يمكن التغافل عنها لتحليل الخطاب الادبي وان بدت متناثرة في كتب النحو والصرف والبلاغة والدلالة.

المبحث الثالث

اللسانيات النصية

لقد سيطرت على الأدب ، ولمدة طويلة قيمٌ أدبية كرّست الرؤية التقليدية التي تقاربُ الخطاب على وفق قراءة سمّاها (تودوروف) بالقراءة الاسقاطية ، وهي القراءة التي لا تركّز على النصّ ، وانّما تمّر من خلاله ،ومن فوقه متجهّة نحو المؤلف والمجتمع ، وتعاملُ النص كأنه وثيقة لإثبات قضية شخصية ، أو اجتماعية ، او تاريخية [٢٠] .

ومن الطبيعي ان تحصل ردّةُ فعل لمقاربة الخطاب الأدبي وتحليله على وفق منهجية جديدة يجري التركيز فيها على النصّ الادبي بذاته بعيداً عن المؤثرات الخارجية والسياقات التاريخية . في هذا السياق ظهرت اللسانيات النصية التي راحت البنيوية تنظّر لها ، وتضع رؤيتها الجديدة لتحليل الادب ، وهي رؤية تقوم اساساً على تجريد العمل الادبي عن سمته الخطابية ليبقى يبث دلالته من بناه التركيبية (الصوت والصرف والنحو

ولا شك في ان اللسانيات البنيوية قد استقت افكارها من روافد كان لها الأثر في تأسيس منهجيتها ، وبلورة ادواتها الاجرائية في القراءة والتحليل، وفي مقدمتها تقف مدرسة جنيف اللغوية التي وضع مبادئها عالم اللغة السويسري (فرديناند دي سوسير) ، والتي كان لها الفضل الكبير في خلق تيار الفكر البنائي الذي نظر إلى اللغة على انها : ((نظام لا يعرف الا نسقهُ الخاص ، ويخضع لقواعد تتحكّم في هيكله وعلاقاته))[٢١].

ويُلاحظ أنّ الكثير مما قاله (سوسير) برسم طبيعة اجرائية لتحليل الخطاب ، فالفهم ضرورة من ضرورات التحليل ((ولكن القولُ : إننا لا نستطيع فهم النظام اللغوي الداخلي من غير دراسة الظواهر الخارجية ، انما هو كلام بعيدٌ عن الحقيقة)). [٢٢]

ان ما يريد (سوسير) تأكيده هو ان عملية الفهم تنبع من داخل التركيب ، بدليل ان استبدال كلمة بأخرى لا تنتمي إلى لغتها سيعوق عملية الفهم ، لأن هذه الكلمة الغريبة لا يمكن أنّ تُقيم

صلات أو علاقات مع غيرها من كلمات التركيب، ولا يمكن الاستعانة في مثل هذه الحال بعنصر خارجي لتحقيق الفهم والتواصل .

إن اللغة – كما يقول سوسير – : ((نظام له ترتيب خاص)) [٢٣].

والظاهر ان اعتبار اللغة بذاتها ومن اجل ذاتها، قد صار موضع اهتمام الكثير من التيارات والحركات التي ظهرت فيما بعد ، ففي عام (١٩٢٠ م) تقريباً سادَ في الساحة الأدبية ، لاسيما في انكلترا والولايات المتحدة الأمريكية اتجاهُ جديد باسم (تيار النقد الجديد) ، واستمر ثلاثة عقود ، محاولاً أن يطرح رؤية جديدة لتفسير النص الأدبي ، على أنه نتاج تسيطر عليه قوانينه الذاتية ، وهو الإطار الذي يجري فيه تحليله [٢٤].

لقد تهيأ بهذا المنحى مرجعٌ لساني لتحليل الخطاب الأدبي وذلك لوقوفه مع السياق اللغوي للنص بوصفه منتجاً للمعنى، وهو الأمر الذي ترك أثره في انبثاق البنيوية ، إلا أنّ الرافد الأقوى كان قد ظهر في روسيا على يد مجموعة من اللسانيين ، كونوا لهم حركة باسم (حلقة موسكو اللسانية) في عام (١٩١٦م) ، وبالتقاء هذا المركز مع مركز أخر أسّس على يد جماعة من مؤرخي الأدب في عام (١٩١٦ م) يحمل اسم (جمعية دراسة اللغة الشعرية – Opoyaz) تكونت الشكلية الروسية ، فكان ما وضعوه من افكار موضع اهتمام من جاء بعدهم من اللسانيين البنيويين .

لقد انشغل الشكليون الروس بالبنية الادبية تحديداً وتميزاً ووصفاً ، وهذا الذي صاغ إجراءاتهم في تحليل الأدب ، ذاهبين إلى انّ ((السمات البنيوية المميزة ستوجد في العمل نفسه وليس في مؤلفه ، في القصيدة وليس في الشاعر ، وبما أنّ أي شيء قد يصلح أن يكون مادة للقصيدة ، فإنّ تحديد السمات يرتبط بالنهاية بالاستعمال المتميز للغة وليس بأي موضوع معين ...فالشعر – كما يصرّ الشكليون مصنوع من كلمات لا من مواضيع شعرية)) [٢٥].

إنّ العمل الأدبي على وفق هذه الرؤية هو نتاج الكلمات المحكومة بقوانين هي نفسها التي تحكم اللغة ، لأنّ منتج الأدب عند الشكليين يعمل في اللغة ، وعلى هذا الاساس فالعمل الادبي هو عمل لساني ، وإنّ أدبيتهُ تنشأ أو تتشكل في ضوء صياغته وأسلوبه وطريقته ووظيفة اللغة فيه .

هكذا وضعت الشكلية الروسية الحقيقة اللسانية للشعر موضع الصدارة في التحليل ،وشرعت في تعبيد طرق جديدة للبحث في اللغة، وقد لوحظ أنّ لغة الشعر مهيأة تماماً لتلك التوجهات ، لأن

القوانين البنيوية ، والحقيقة الخالقة للغة كانت أكثر قرباً من تناول المُلاحظ في الخطاب الشعري منها في الكلام اليومي .

وانطلاقاً من ذلك سجلت البنيوية حضوراً فاعلاً في الساحتين: الثقافية والادبية ، بعد أن نهلتْ من تلك الروافد والافكار – التي سبقت الاشارة إليها – ، لتكشف عن نفسها ، انّها طريقة بحث لا في الاشياء، بل في العلاقات بين الاشياء، [٢٦] وهو المعنى الذي تجلّى بعد أن حاولت نقل النموذج اللغوي إلى حقول معرفية متعددة [٢٧]، فكان ذلك الاساس لظهورها، والمنطلق لنشوء نظرياتها.

وفي مجال تحليل الخطاب سادتْ رؤية – سوسير – التي تؤكد أنّ أية دراسة لغوية لأية ممارسة إنشائية ، لابُدّ من ان تكشف عن وجود نسق كامن يقف وراءها ، انطلاقاً من التفريق بين اللغة بوصفها نظاماً اجتماعياً، والكلام بوصفه جهداً فردياً [٢٨] .

في هذا السياق وضعت اللسانيات امام البنيوية حقيقة إجرائية في التحليل مفادها أنّ قواعد تفسير أية بنية تنبع من داخلها فقط دون أية إشارة خارجية ، ذلك أنّ اللغة انما هي بنية مكتفية بذاتها ومبررة ذاتياً [٢٩] .

هكذا نشأت البنيوية اللغوية ، فتهيأ لعلماء اللسانيات دراسة اللغة من مستويات تحليلية متعددة ،وصولاً إلى صياغة نظرية لسانية تقوم على أسس علمية ، فالأداء اللغوي الذي هو انعكاس للكفاية اللغوية هو الهدف الأول في التحليل اللغوي ، وهو تحليل استقرائي تجريبي يعتمد على التحقق والدقّة والتثّبت اللغوي، واستناداً إلى هذا ، فالمحلل اللغوي البنيوي يبدأ أولاً بالملاحظة، ثم الحدس بماهية البنية اللغوية بالاعتماد على المواد اللغوية وخبرته وقدرته التحليلية، وفي ضوء ذلك يصوغ فرضية معينة معتمداً فيها على نظرية مضبوطة، فإذا انتهى من تلك الصياغة ، عاد إلى المواد اللغوية ليقوم بفحصها والتدقيق في صياغته اللسانية إذا ما كانت شاملة . ولا توجد فيها معايير متناقضة، عندها سيكون تحليله صحيحا [٣٠].

هذه هي الصورة التي وضع بها علماء اللسانيات البنيويون تحليلاتهم للّغة ، وهي صورة بكل ما فيها من رؤى وتوجهات وما تمخضّ عنها من مدارس ونظريات قد خرجت – بلا شك – من عباءة افكار سوسير ، الذي أكدّ مبدأ السير على خطى علمية في اللسانيات ، ليجعل منها علماً مستقلاً لا يتبع أيّةَ معرفة بشرية أخرى .

و اذا كانت اللسانيات قد انشغلت في البداية بدراسة الكلمة ، فقد اخذت تعتني فيما بعد بالعبارة، ومن ثَمّ الانتقال من دائرة التركيب في النحو إلى دائرة التركيب في بناء النصّ، فإذا كانت اللغة نظاماً داخلياً يضبط قواعد الكلام، ويتفحصّ أبنيته، فالنص هو الأخر يقوم على الوحدة والانسجام على وفق نظام خاص يكون موجوداً بالقوة، وعند التحليل سيجري اكتشاف نظامه وبنيته .

وهكذا فالمنظور اللساني الذي هو دراسة العلاقة اللغوية ، لا يكون من حيث هو فرض في ذاته ، ولا من حيث هو جزء بمفرده، ولكن من حيث هو عنصر مكون لنظام دائري [٣١].

على هذا الاساس كونت البنيوية اللغوية نظريتها ، ووضعت اجراءاتها في تحليل اللغة ، فكان ذلك مهاداً لنشوء البنيوية الادبية التي هي الاخرى رسمت الطريق لمقاربة الادب وتحليله، ولعل المنظور الذي قدمّه العالم اللغوي (أندريه مارتينت) عن البنية يمكن أن يكون مفيداً في ابراز طابع البنية الأدبية : إذ قال:

((إذا كانت المعاجم ..تنصّ على أنّ البنية هي كيفية بناء تركيب...فإنّ هذا لا يُشير إلى عملية البناء نفسها، والى المواد التي تتكون منها، ولكنه يتعلق بكيفية تجميع وتركيب وتآلف هذه المواد لتكوين الشيء وخلقه لأغراض ووظائف معنية ...)) [٣٢].

من هذا المنطلق، ومن هذه الرؤية ، نقارب لونين من الخطاب : الاول (عادي)،والثاني (فني)، لنلاحظ تجليات البنيوية اللغوية في الاول والادبية في الثاني ، وعلى النحو الأتي :

قال أحدهم : (أشرقَ القمرُ في سماء العراق)

وقال الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي :[٣٣]

((قمرٌ عراقيٌ على الاشجار يمسحُ خدهُ،

ويدقُ باباً بعد بابْ،

فالأميرة قبل أن يستيقظ الفقراء

رحلتْ ، ولم تقلْ الوداعْ....))

إنّ أول ما يلاحظه المحلّل هو أنّ العناصر البانية لكلا الخطابين قد تآلفت وتعالقت لأداء غرض بعينه ، هو الإخبار في الخطاب الأول ، والامتاع في الثاني ،ولا شك في أن النظامين النحوي والدلالي كانا وراء بناء الجملة الاولى ففاعل فعل الاشراق كان حقيقياً (القمر) ومكان

الاشراق (السماء) جاء على الحقيقة أيضاً ، أما إضافة (سماء) إلى (العراق) فمشعرةٌ أن منتج الخطاب كان وقت حديثه على أرض العراق.

هذه الجملـة خبرية تحتمل الصدق او الكذب بناءً على مطابقتها للواقع ، وهي جملة كونت علاقاتها النحوية ، لتصل بعناصرها إلى دلالة نهائية ،ذات معنى محدّد ، يدركهُ المتلقي من غير عناء ولا تأويل .

أما الجملة الشعرية للبياتي فقد تشكلت تشكيلاً اسطورياً واضعة بينها وبين الواقع مسافة توتر قائمة على الخرق والانتهاك ، فالنعت الموصوف به (القمر) غير مألوف ، ولا وجود له في غير مخيلة الشاعر وكذلك الافعال التي نُسِبتْ له ، فيها من الغرابة والحدّة والابتكار ما يشير إلى انزياح عالٍ عن المألوف ، إذ لا يمكن أن يكون (القمر) فاعلاً للفعل (يمسحُ) ، والفعل (يدق) ، ثم أنّ هناك بحثاً وسعياً يشفّ عن شوق غامر إلى (مفقود) او معشوق كان موجوداً في حياته ثم أرتحل،وقد وقّتَ الشاعر لذلك الرحيل بظرف زماني هو (قيل أن يستيقظ الفقراء) ليوحي بسرية الرحيل وكتمان الأمر بما يضع العاشق في دائرة اليأس ، إذ لا يجد خيطاً للكشف .

هذه هي الصورة التي تبدو أن لها أجزاءً وعناصر متفرقة وقد اجتمعت في وحدة كلية لترسم عشقاً ضائعاً وحُلماً تستيقظ على وقعهِ أوجاع كبيرة في درب يبدو أنه مسدود بعد أن أخذ الأمل ينأى وراء مسافات غير محددة ولا واضحة.

هكذا هي البنيوية الادبية لا تكاد تمسك بخيطٍ دلالي فهي تقف امام أثرٍ مفتوح يُعلن عن لا نهائيته لكن هذه البنيوية أخذت تتطور لتضع امام محلل الأدب الخطوات الإجرائية التي يستند اليها في التحليل ، وهي في هذا لم تبتعد عما وضعه العلماء اللسانيون البنيويون، ولعل أول شيء صار محلل النص الأدبي يضعه نصب عينيه هو الرفض لأي أرتباط بين النظام الداخلي للنص وأية أنظمة أخر خارجية[٣٤] ، وصار محلل الأدب ينطلق من نظرية كلية ترى أنّ الشيء في كليتهِ اكبر وأعظم من مجموع أجزائه[٣٥].

إذن فالحديث عن الأدب يجعلنا نقف أزاء طريقة خاصة مختلفة للحديث عن الاشياء والعالم ، ومع ان الأدب يستعمل اللغة في تعبيره ، فهناك فارق في استعمالها العادي الذي تعبر فيه عن الأشياء تعبيراً حقيقياً . ذلك أن الأدب يدخلُ الكلمة في بنية مركبة خارجة عن حدود اللغة ، وإن كانت خاضعة لها في طرق التعبير [٣٦]، وعليه فإن المحلل البنيوي لا يرى من مهماته

شرح النص والوصول إلى دلالة أخيرة، يمكن اعتبارها حقيقة العمل ، وانما عليه أن يضع في اهنمامه ان تحليل الأدب سيُدخلِهُ في لعبة الدلالة التي ستريه تعدّد وجود النص .

من هنا فالتحليل البنيوي للأدب يضطرنا دائماً للعدول عن المعنى المنفرد إلى المعنى المتعدد ، وعن الأثر المغلق إلى الأثر المنفتح[٣٧].

في هذا السياق راح أقطاب البنيوية امثال رولاند بارت (Roland Barthes) ، وتودروف (Tzvetan Todorov) ، وجوليا كرستينا (Gulia Kristeva) وغيرهم يبحثون عن بنية في كل قراءة لعمل ادبي ما ، لأعتقادهم أنّ اللغة تنتج المعنى ، وليست حاملة له فقط ، لذا فقد شدّدوا على تحليل الانماط الصوتية والانماط التركيبية ، وعلاقاتها من أجل الكشف عن طبيعة النظام اللساني ، ولا يعني هذا أنّ نظرة البنيوية لذلك النظام نظرةَ احترام ، وإنما هي تعمل على تقويضه، ذلك أن الأدب – على ما يرى تودوروف – يعمل على توسيع اللغة وتكييفها ، وتدمير القواعد المتأصلة فيها ، لأن خطاب الأدب إنْ لم يفعل ذلك ، فلن يكون هناك سبب معقول لوجوده ...إنه سلاح مميت تنتحر به اللغة [٣٨] ، وبناء على هذا فالقراءة انما هي مسارٌ في فضاء النصّ ، مسار لا ينحصر في وَصلِ الأحرف بعضها ببعض من اليمين إلى اليسار، ومن أعلى إلى أسفل ،ولهذا فليس للنص معنى مفرد وانما هو يَفصلُ المتلاحم ، ويجمع المتباعد ، وهو على وجه التدقيق يُشكل النص في فضائه لا في خطيتّهِ[٣٩] .

هذا هو الاتجاه الذي عليه البنيويون ، فقد مضى (بارت) في تعزيز سلطة القارئ الذي يرى انه لا يكون اداة استهلاكية ، لأن له ما يؤهله لأن يكون قوة انتاجية[٤٠] .

إنّ الأدب بهذا المفهوم يُعطى القارئ دوراً ووظيفة وإسهاماً لينجزَه ، وهذا اللون من الأدب يسميه (بارت) بالأدب الكتابي ، وهو الأدب الذي تمتلك فيه الدلالات الحرية من غير أن تطلب أية إشارة آلية إلى المدلولات [٤١] .

وانطلاقاً من هذا فقد قوّض (بارت) الفكرة التي ترى ان للنص معنى واحداً يزرقهُ فيه المؤلف ، ولعل هذا التقويض يمثل الهجوم على أوهام الفردية ذات الاساس السياسي والاقتصادي .

إن المؤسسة الأدبية – كما يرى بارت – لا يمكن أن تنتج خطاباً يعرض صورة صادقة لعالم حقيقي ثابت ، ومن ثم يتماهى مع النظم الفردية البرجوازية .

اذن لا سلطة للواقع على المؤسسة الأدبية انتاجاً وقراءة ، فهذه المؤسسة تستطيع أن تصنعه أو تعيد صنعَهُ كما تُحبّ .

ويحاول (بارت) أن يسند دوراً لمحلل الأدب بأن ينبع تحليله من دالات محدّدة ، ويكون بإمكانه أن يخلق منها مدلولات غير محددة تفوق الأصل ابداعاً وجمالاً[٤٢] ، وهكذا فالتحليل النصي عند (بارت) يرفض مبدئياً إغلاق معاني النص وتجميد تواالده الدلالي [٤٣] .

هذه الرؤية – على ما يبدو – تتفق مع ما ذهب إليه (غريماس) من أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة ارتدادية ، وهي التي تولد المعنى ، وليس أي عالم حقيقي خلفها تُشير اليه [٤٤] .

هذه هي النقطة الجوهرية في البنيوية في تحليل الأدب ، وهي ان عناصر العمل الأدبي يجب أن تُفهم من حيث العلاقات التي ترتبط بها مع عناصر أخر في ذلك العمل [٤٥] .

لقد وجّهَ –بارت – محلل الأدب إلى عدم العناية بالناتج ، وإنما تجب العناية بالنظام الذي أنتجه ، وفي هذا يقول :

((إنّ المعنى يتخلّل النص وليس هو ذلك الكشف النهائي الذي لا نحصل عليه إلا إذا انهينا قراءة ذلك النص)) [٤٦].

بهذا فإن المعنى الأدبي – كما يقول كريستينا – : هو (ثورة اللغة الشعرية) [٤٧].

إن ما يهم المحلل البنيوي للأدب هو عملية توليد المعنى وليس المعنى ، وهو ما عبّر عنهُ (بارت) بالقول :

((إنّ أسوأ خطيئة يرتكبها الكاتب هي الزعم بأن اللغة وسط طبيعي شفاف يُمسك من خلاله القارئ حقيقة أو واقعاً ثابتاً وموحداً ، ويُدرك القارئ الحاذق مواطن المكر في الكتابة جميعاً ويمضي للتلاعب بها)) [٤٨].

هذا المنظور يضع النص بعيداً عن منتجه ، لأن وحدة النص لا تتمثل في نوايا المؤلف بل في بنية النص نفسه، وهذا الذي يُعطي للقراء كامل الحرية في ربط النص بأنظمة معنونة مع تجاهلهم لنوايا المؤلف. عندها يأخذ القارئ نصيبه من اللذة وهو يتابع النص طوعاً في ممرات الدال[٤٩] .

أخيراً ، هذه الأفكار ترسم المسار الإجرائي لتحليل العمل الأدبي ، فلابد لمن يقارب ذلك العمل بنيوياً من أن يُدرك أموراً في غاية الأهمية منها .

١. تعدد المعنى بوصف النص الأدبي أثراً مفتوحاً.
٢. موت المؤلف .
٣. الوصول إلى اللذة او النشوة من جرّاء القراءة .

٤. عدم شفافية لغة الأدب لكونها قائمة على الانزياح والمكر والخداع.
٥. رفض الربط بين النظام اللغوي للنص ، وأية أنظمة أخرى خارجية .
٦. على المحلل البنيوي أن يفهم أن جوهر البنيوية الأدبية يقوم على التركيز على أبنية الأدب وليس على وظيفته أو معناه ، ولهذا يجري التركيز على العلاقات ، أي علاقات الوحدات بعضها ببعض داخل النص .

المبحث الرابع

اللسانيات التداولية

لم يكن اهتمام الفلسفة باللغة أمراً جديداً ، فمنذ افلاطون وأرسطو وجوانب كثيرة من البلاغة كانت موضع بحثٍ ، وقد عُرِفَ عن أرسطو أَنّهُ صنّف الاقوال الخطابية إلى ثلاثة أجناس على وفق العلاقة بين الخطاب ومُتقّبلهِ ، وهي [٥٠]:

١- جنس مشاجري يتضمّن احكاماً على الاعمال المنقضية .
٢- جنس منافري يُدين ،أو يرفع من شأن الاعمال الحاضرة .
٣- جنس مشاوري ، يقترحُ حلولاً مستقبلية .

في هذا الاطار نادى أرسطو بمنهج جدلي وضع فيه المبادئ لفكر حواري ، أرسى فيه صناعته الخطابية القائمة على العلاقة بين المقدمات والنتيجة [٥١] .

هذه المبادئ وغيرها صارت منطلقاً لما ظهر حديثاً من توجهات عزّزتْ الصلة والتقارب بين الفلسفة واللغة ، فالتداولية التي هي نتاج عمل الفلاسفة المهتمين باللغة ، والمنظرين لأفعال الكلام قد سجلّتْ تقارباً واضحاً بين الفلسفة واللغة [٥٢] .

ومن المعروف أنّ مصطلح التداولية (pragmatics) يعود في استعماله أول مرّة إلى الفيلسوف الامريكي تشارلز موريس سنة (١٩٣٨م) ، دالاً به على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات ، وهي [٥٣] :

١- علم التراكيب : وهو العلم الذي يدرس العلاقة الشكلية التي تربط الأدلة فيما بينها.
٢- علم الدلالة :وهو العلم الذي يدرس العلاقة التي تربط العناصر اللغوية بمفاهيمها .
٣- التداولية : وتهتم بدراسة العلاقات التي تربط العلامات بمفسريها أو بمستعمليها .

وفي العقد السابع من القرن العشرين تطورت التداولية فصارت مجالاً يُعتدُّ به في الدرس اللغوي ، وذلك بفضل ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد ، وهم : أوستين (J .L .Austin) ، و سيرل (J.R.Searle) وغرايس (H.P.Grice) ، فهولاء الثلاثة من مدرسة فلسفة اللغة الطبيعية او العادية ، وهناك بالمقابل اللغة الشكلية التي يمثلها كارناب (Carnap).

إن الاساس الذي تقوم عليه افكار هولاء جميعاً هو توصيل اللغة ، بمعنى أن هناك مُرسِلاً يُريدُ إبلاغ رسالة إلى مستقبل [٥٤] .

وهكذا فالتداولية التي رضعت اللبان من أثداء الفلسفة ، قد نشأت وترعرعت في أحضان اللسانيات ، ولعل هذا الاتساع في المنطلقات يضع المصطلح أمام إشكالية في تحديد مفهومه ، لكن ما يًرادُ بالتداولية على وجه العموم هو : ((انها الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة)) [٥٥] ، أو هي : ((دراسة تهتمُ باللغة في الخطاب)) [٥٦]، أو هي : ((دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية))[٥٧].

إن هذه المفاهيم تضعنا أمام مرتكزين أساسيين من مرتكزات التداولية ، وهما : (الخطاب والتواصل) ،وإذا كان الخطاب هو مادة اللغة فإنّ تحليله لا يقف عند لغته فحسب ، إذ قد يتضمن الخطاب أكثر مما تقوله كلماته ، لأن المعنى لا يكمن فيها فقط ، وانما هناك جوانب أُخر لابدَّ من ملاحظتها عند التحليل للوصول إلى المراد ، ومن هذه الجوانب : متلقي الخطاب ، والقيود الاجتماعية التي تحكم انتاجه ، الامر الذي يقتضي عند التحليل التحرّك بين مستويات عديدة من المعنى ، وقد جرى تحديدها عند بعضهم بثلاثة مستويات [٥٨] :

١- المعنى اللغوي : وهو المعنى المأخوذ من دلالة الكلمات والضمائم والجمل .

٢- معنى الكلام : وهو المعنى السياقي .

٣- المعنى الكامن : وهو المعنى الموجود بالقوة .

وبالإمكان ملاحظة ذلك بمقاربة الخطاب العادي ، كقول أحدهم لك :

(أهذه سيارتك ؟؟)

هذه الجملة قد قيلت في سياق معين تجب ملاحظته عند تحليلها وصولاً إلى مقصدية المتكلم ، فالمستوى اللغوي في غاية الوضوح ، لأنه يُشير إلى شئ محدد هو (السيارة) ، والضمير

المتصل (الكاف) هنا يُشير إلى المخاطب ولا مشكلة هنا في الفهم ، ولكن هل هذا هو معنى المتكلم ؟؟

ربما هناك معنى كامن من خلف هذه العبارة ،وهو : هل أنّ المتكلم يريد ان يُجابَ عن سؤاله بنعم أو لا :أو أنّ المتكلم أرادَ بسؤاله توجيه اللوم إلى المخاطَب، لأن سيارته قد سدّتْ الطريق على السيارات الاخر ، وقد يكون هذا المعنى الاخير هو معنى المتكلم وهو ما يحدّده السياق الذي قيل فيه الخطاب [٥٩]، وهكذا ((إذا ما أخذنا في اعتبارنا هوية المتكلم ومقصده، والوضعية التي هو عليها ، نرى أن المعنى يتعدّل ويتدقق ويغتني ، من هنا نتجاوز المعنى الحرفي إلى معنى أكثر اكتمالية ، يسمح بإمكانية تحديد الحقيقة)) [٦٠].

إذن من الضروري ملاحظة اللغة في التواصل ، واذا كان التواصل يتحقق عن طريق الكلام ، فانَّ لهذا الكلام أجناساً ، وله غاياتٍ واهدافاً تختلف بإختلاف شكله ، بمعنى أنّ لكل شكل من أشكال الخطاب سماتِهِ المميزة التي ينفرد بها ، فالخطاب السياسي – مثلاً – ينبني على الحجاج ، والخطاب الديني يتوسل بأدوات يتحقق بمقتضاها تواصله ، والخطاب الادبي محكوم ببنيات ومبادئ تمنحهُ هويتهُ[٦١] .

إن المنظور التداولي لتحليل هذه الخطابات وغيرها يؤكد موضوع التواصل في الدرجة الأولى ، فالمعنى ليس متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده ، ولا بالسامع وحدَهُ ،ذلك أن صناعة المعنى تتمثّلُ في التداولِ للغة بين المتكلم والسامع في سياق محدّد وصولاً إلى معنى كامن في الخطاب [٦٢] .

وهكذا ، فتحليل الخطاب بأنواعه لم يَعُدْ معالجة لموضوعه وأدواته الكلامية ، وبهذا تكون اللسانيات التداولية قد تجاوزت حدود اللسانيات البنيوية [٦٣] التي تنظر إلى النص على أنه مركب من جمل ذات بناء هرمي كالجملة التي تُعدُّ بناءً هرمياً من مركبات أسمية أو فعلية ، وغيرها ، وذلك ما استدعى ظهور (نحو النص) بالتوازي مع (نحو الجملة) الذي تطور على يد مدرسة تشومسكي (Chomsky) [٦٤] وفيما بعد ظهرت محاولات لاحقة على يد الفلاسفة التداوليين ، لاسيما عند (سيرل) الذي طوّرَ نظرية افعال الكلام التي نظَّر لها أستاذه (أوستين) ، فالمنطوقات كانت تبدو في التجلي الانجازي مقابل التجلّي المنطقي ، أي : أن النطق بها يقتضي فعل شيء ما ، وهي بهذا المفهوم لم تكن سوى مجرّد قيمة وصفية ، وهذا المستوى هو الذي وقف عنده (

أوستين)، لكن الامر أخذَّ منحىً أخر عند (سيرل) الذي ذهبَ إلى أنّ للمنطوقات قيمة أدائية [٦٥] .

إنّ الوقوف عند الافعال الكلامية غير المباشرة التي تناولها (سيرل) سيضعنا على الطريق المؤدية إلى مرجعية لسانية لتحليل الخطاب الادبي ، فإذا كانت الافعال المباشرة تقوم على اساس مطابقة قوتها الانجازية مراد المتكلم ، فالافعال غير المباشرة تكون قوتها الانجازية مخالفة لمرادَ المتكلم ، أي: إنّ المتكلم فيها لا يقصدُ ما يقول ، بل يتعّدى مقصده إلى ما هو اكثر من القول [٦٦] .

وفي هذا السياق تناول (سيرل) موضوع (الاستعارة) ،ومع أنه قد وقف فيه كثيراً عند جوانب (السخرية) وما تتطلبه من دلالات تلميحية ، فهو – على ما يبدو – قد هيأ للإنطلاق إلى مقاربة الادب .

إن أية عبارة استعارية ، أو بتعبير أخر (شعرية) يمكن أن يكون لها تأويل إذا ما توافرت لها شروط النجاح.

لقد أمدّ (سيرل) محلّل الخطاب الادبي فسحة تأويلية عالية عندما بيّن أنّ الاستعارة لا تقوم بالضرورة على المشابهة – كما هو الحال عند البلاغيين –، كما ليس بالضرورة ان تعمل على تفاعل دلالي مع كلمات أخر لقول يشتغل على مغنى حرفي ، وهنا تساءل : ما الذي يقع اذا تركنا الاستعارة مفتوحة من قبيل : (جوليت هي الشمس)، فهذه العبارة تُترك لتفسيرات متعددة ، مثل : (يبدأ يومي عندما أرى جوليت)، أو (تذكرني جوليت بالربيع) أو غير ذلك .

إنّ للتأويل على وفق هذه الرؤية – مواصفات مشتركة ، منها أن التلفظ أو القول يظلُّ ناقصاً نقصاً ظاهراً إذا أخذته بشكله الحرفي [٦٧] فلو افترضنا أن (س) هي (ص) ، وأن (ص) تختلف عن (ر) ،فإن هناك استراتيجيات مشتركة بين السامع والمتكلم تنبغي معرفتهما منها أنّ كليهما ينطلقان من معرفتهما باللفظ (س) واللفظ (ر) ، وذلك في ضوء القيم الحقيقية والممكنة ، وفي ضوء هذا تكون مواضيع (س) لا تُشبه مواضيع (ر) ، الا أن هناك ترابطاً بينهما ، ومهما وصل التعقيد في بناء محتوى العبارة ، فإن تأويلها يبقى ممكناً في ضوء المشتركات والقيم المحددة ، فمثل قولهم : (جون التهم كتابه) هناك سياقات ليست بعيدة عن طرفي الخطاب يمكن بمقتضاها أن يتحقق التحليل .

ويتسع (سيرل) في ذلك فيرى أن هذه المبادئ صالحة للمجاز المرسل وللكناية أيضاً [٦٨] .

وهي جميعاً مجالات استعارية كما يرى (سيرل) وهذا ما يؤكده (أرفنغ غوفمان) في قوله : ((من المسلم به أن الاقوال تفترض لا فقط نصاً سابقاً واشياء متوافرة في المحيط المباشر ، ومعارف واردة ، ولكن تفترض أيضاً معايير سلوك)) [٦٩].

ان منظور (سيرل) في الافعال الكلامية غير المباشرة تمكن الافادة منه مع شيء من الاتساع في تأسيس مرجعية لسانية لمقاربة الخطابات الادبية ، ومثل ذلك يمكن فعله مع (نظرية الاستلزام الحواري) التي تُعدُّ من أهم النظريات في البحث التداولي ، والتي دعا اليها (غرايس) في محاضراته التي القاها في جامعة هارفارد سنة (١٩٦٧م) ، ونُشرت في بحث له سنة (١٩٧٥م) بعنوان (المنطق والحوار) [٧٠].

لقد بدأ (غرايس) من نقطة كان يرى فيها أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون ، وقد يقصدون أكثر مما يقولون [٧١] ، وقد يقصدون عكس ما يقولون، وهو بهذا يرى ان هناك معنى صريحاً يحمله القول، وهناك معنى يتضمنه ، وبمقدور السامع أن يصل إلى المراد وبوسائل استدلال متاحة ، وعلى وفق هذا المنظور فهناك قوة انجازية مستلزمة يشترك في معرفتها كل من المتكلم والمخاطب وهي خاضعة للمقام الذي استعملت فيه .

إنّ لكل حمولة دلالية في اللغة معنى صريحاً حرفياً و ضمنياً مستلزماً وان منتج الخطاب قد يعدل من الاول إلى الثاني بحسب مقتضيات المقام [٧٢] .

لقد انشغل (غرايس) بالتساؤل :

كيف يكون ممكناً أن يقول المتكلم شيئاً ، ويعني شيئاً أخر ؟ثم كيف يكون ممكناً أن يسمع المخاطب شيئاً ، ويفهم شيئاً آخر؟

في سياق هذه التساؤلات اهتدى إلى مبدئه الحواري الذي أسماهُ بمبدأ التعاون ويشتمل على أربعة مبادئ فرعية [٧٣]:

١. مبدأ الكم : أن يكون الحوار بالقدر المطلوب من غير زيادة ولا نقصان .
٢. مبدأ الكيف : يجب أن يكون القول صحيحاً، ولا يمكن قول ما ليس بصحيح .
٣. مبدأ المناسبة: أن يكون الكلام مناسباً للموضوع .
٤. مبدأ الطريقة : أن يكون الكلام واضحاً ومرتباً وموجزاً .

بهذه المبادئ يكون الحوار مثمراً ويتحقق التواصل بين المتخاطبين.

اما اذا حصل انتهاك أو خرق لواحدٍ من هذه المبادئ فسيتولد ما يسمى بالاستلزام الحواري

ان الخطاب التلميحي لابُد له من أن ينصب في صورة استعارية او مجازية ، ولا يتسنى ذلك لمنتج الخطاب ما لم يمتلك كفاية تداولية تمكنه من اعتماد آليات وادوات تخرجه من المعنى الحرفي إلى صورة اخرى من الصور المتاحة المتعددة [٧٤] .

يستشف من هذا ان الاستلزام يقوم على المعنى الاستعاري الذي يتولد عن الانتهاك والخرق لواحد من مبادئ التعاون : وهذا هو المبدأ الذي يقوم عليه الخطاب الادبي ، فهو خطاب قائم على الانزياح وخرق الواقع .

هنا تجدر الاشارة إلى ان تحليل الخطاب بأنواعه لم يُعَدْ معالجة لموضوعه وأدواته الكلامية ، وبهذا تكون اللسانيات التداولية قد تجاوزت اللسانيات البنيوية .

ولا يختلف الامر عند مقاربة الخطاب الادبي ، إذ ان التداولية بوصفها مرجعية لسانية قد هيأت للمحلّل أدواته الاجرائية ، وهو ما لمسناه فيما اشرنا اليه في نظرية افعال الكلام التي وضعها (أوستين) ، وشروط النجاح التي تحدّث عنها (سيرل)، وقواعد المحادثة التي دعا إليها (غرايس) ، وأليها تضاف قوانين الخطاب التي نَظّرَ لها (ديكرو).

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو :

هل سنجد ضالتنا فيما يُستند اليه عند تحليل الخطاب الادبي ؟

يبدو أن التداولية قد صبّتْ أكثر جهدها في تحليل الخطاب القائم على العُرف اللغوي الواقعي ، لذا فمن الصعب الامساك بمبادئ قارة لدراسة استعمال اللغة بكيفية ادبية .

لقد أحسّ بعض اللسانين التداوليين بتلك الصعوبة :فالخطاب الشعري عند (أوستين) خطاب غير جدّي ولا يرجع إلى افعال الكلام ، وهو يرى أنّ المقال الانجازي سيكون فارغاً أو خالياً إذا أدمجَ في نص شعري [٧٥] .

والظاهر أن (سيرل) قد أدرك أهمية اللغة الأدبية ، وضرورة التعامل معها في إطار مختلف عن اللغة العادية ، فالافعال الكلامية بأنواعها يمكن أن تستعمل استعمالاً حقيقياً في الكلام العادي، ويمكن استعمالها على غير الحقيقة في الخطاب الادبي ، لأن صاحب هذا الخطاب مثلما هو ملزم بالصدق في إخباره العادي لأن خطابه الادبي ما هو الا مجموعة ادعاءات [٧٦].

إنّ من مثل هذه التوجهات لاسيما عند (سيرل) و (غرايس) قد فتحت باباً صوب دراسة وتحليل الخطاب الادبي .

على هذا الاساس يمكن تأسيس ما يسمى بـ (التداولية الأدبية) ، ولعلّ أول شيء تضعه هذه التداولية نُصْبَ عينيها هو نقل العمل الادبي من نصيّته التي تتمحور وتنغلق في (داخل لسانية) إلى خطابيته التي تمتّدُ بالنصّ إلى (خارج لسانية) [٧٧] ، وهذا يعني أن مُحلل الخطاب الأدبي سيرتبط منظوره بمجالات أُخر غير اللغة مثل الفلسفة والاجتماع وعلم النفس ، ونظرية التفاعل ، فلا يتعامل مع الخطاب الادبي على انه بنية لغوية ، وانما سيأخذ بنظر الاعتبار آثاره ، وكيفية انتاجه واستهلاكه على ايدي مستعمليه ، وهذا ما يدخل في أطار التواصل الأدبي [٧٨] .

إنّ جوهر العمل الأدبي يكمن في الطريقة التي يجري فيها حذف الأشياء بدلاً من قولها كاملة ، وهنا يبرز مصطلح (الفاعلية) ليعبرّ عن مفهومهِ الذي يتجلى في التقارب الفاعل بين منتج الخطاب ومتلقيه .

إن الخطاب الأدبي ليس ملكاً للكاتب يفرض سلطته عليه ، وانما هو ابداع مشترك ، ولكي يكون هذا الخطاب فاعلاً ، أي : تنبني عليه علاقة تفاعلية بين كاتبه وقارئه ، فلا بد له من أن تكون فيه (هاديات) لا تنحصر في الاليات اللغوية ، وانما هناك آليات للتعاون .

إن الخطاب الادبي عندما يكون بين يدي القارئ ، فبمعنى ذلك أنّ منتجهُ قد أرسل رسالة اليه، وهذا هو التواصل.

إن الكاتب الناجح هو الذي يمارس عملية الاغراء لقرائه ، فهو يأخذهم من أيديهم ويسير بهم من كدح الحياة اليومية إلى عالم جديد [٧٩]، وما على القارئ الاّ أن يتقبل هذه الخطوة المُغرية ليتبع المؤلف داخل تلك المتاهة التي اختارها حتى يشاركه في تجربته الادبية .

ان القارئ لا يقوم بدور المتفرج على المشهد الشعري أو الخيالي ، وانما هو مشارك فاعل في عملية الابداع .

انّ وعي المؤلف بدوره في بناء خطابه أو بفضائه الخيالي هو أمر مُسلمٌ به ، لكن بالمقابل ، فإنّ وعي القارئ مهم جداً من أجل أن يكون الابداع مشتركاً، وهكذا يكون الخطاب – كما يتصوره باختين – حواراً بين المؤلف والقارئ .

في إطار هذه العملية التفاعلية ، يتحتم على المؤلف أن يحيل قرّاءهُ إلى هاديات طريق ،لتسهيل عملية القراءة [٨٠] ،من ذلك مثلاً الاشارات التي يستخدمها كاتب الرواية كالضمائر وغيرها

للدلالة على شخصيات معينة ، فضلاً عما يُشير إلى المكان والزمان وغير ذلك مما يساعد القارئ على التفاعل مع العالم الروائي ، وهكذا فالرؤية التداولية للخطاب الادبي هي ان يجري تحليله وتفسيره في اطار عملية تفاعلية بين (المؤلف والخطاب والقارئ).
وبهذا يكون الخطاب قد وُضِعَ في سياقه الاجتماعي الواسع .

الخاتمة :

شاع في الساحة الأدبية – فيما سبق – ، مقاربةُ الخطاب الأدبي على وفق انطباعات ذوقية ، قد يكون من الصعب وضعها في اطار منهجية محدّدة ، لكن الدارسين شعروا فيما بعد بأن ذلك التوجه عاجزٌ عن الكشف عن كلّ ما يُخفيه الخطاب ،فبدأت دراستهم تنحى منحىً جديداً بالاستناد إلى منهجية ذات طابع علمي ، مفيدين في ذلك من التوجهات الحديثة للمدارس اللسانية التي صاغت رؤاها ونظرياتها في ضوء منهجية علمية صارت مركز جذب واستقطاب للكثير من الدراسات الانسانية ولعل (تحليل الخطاب) هو الأكثر قرباً وانشداداً إلى اللسانيات ، بعدما وجدَ طرائقها ونظرياتها الاكثر جدوى في تأسيس منهجيته العلمية في التحليل ، ولا يعنيه أن نتعدد وتتنوع تلك النظريات ، فما دامت لا تتقاطعُ فيما بينها فهي جميعاً تمدهُ بالعافية ، وهذا هو المنحى الذي سار عليه بحثنا هذا ، لكونه ينشد ايجادَ مداخل متعدّدة للكشف عن كلّ بنى الخطاب : (السطحية والكامنة ، دون التغافل عن سياقاتهِ المقامية).

إنّ لهذا التوجه والمنهج الذي اعتمده البحث مردودات تعليمية يتمكن فيها الدارس من مقاربة الخطاب على أسس رصينة، والكشف عن أسراره (ايجاباً أو سلباً)، كما إن له مردودات ثقافية لأن مثل هذا النهج في التحليل يُحتّم على المحلّل الإلمام الكامل بكل المرجعيات التي تساعده في التحليل ولا بأس أن يفيد مما هو مفيد في التراث فضلاً عن النظريات اللسانية الحديثة .

الهوامش

[١] – تحليل الخطاب الروائي ، سعيد يقطين ، ١٧

[٢] – المرجع نفسه ، ١٧

[٣] –استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي الشهري، ٣٧

[٤] –تحليل الخطاب الروائي، ١٩

[٥] – ينظر : لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ٢٧

–وينظر : من نحو النص إلى تحليل الخطاب النقدي ،٢١ (مجلة فصول ، ع / ٧٧ –٢٠١٠ م)

[٦] – الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات السردية ، عبد الله ابراهيم ، ١١٦

[٧] – توجهات تحليل الخطاب في الثقافة الغربية ، عمر بلخير ، ١٦ (مجلة فصول ، ع /٩٧ –٢٠١٦ م)

[٨] – ينظر:اللسانيات وتحليل الخطاب ، أية علاقة ؟ تساؤلات منهجية ، مصطفى غلفان ، ٥٨ و٥٩ (مجلة فصول ، ع / ٧٧– ٢٠١٠م)

[٩] – ينظر : المرجع نفسه ، ٦٠

[١٠] – ينظر : نفسه ، ٦٢

[١١] – ينظر : اللغة العربية في مرآة الأخر ، د. نهاد الموسى ،٤٣

[١٢] – ينظر : المرجع نفسه، ٤٩

[١٣] – ينظر :نفسه ، ٧٢

[١٤] – ينظر : التفكير اللساني في الحضارة العربية ، ٢٤

(١٥) و (١٦) الدلالة الوظيفية في بنية الجملة الشعرية ، د . عامر السعد ، ١٥ ،١٦

[١٧] – الكامل للمبرد ،١ : ٢٥ و٢٦

[١٨] – مفتاح العلوم للسكاكي ، ٧٧

[١٩] – المثل السائر لأبن الاثير ، ٣٩ و ٤٠

[٢٠] – ينظر: الخطيئة والتكفير ، عبد الله الغذامي ، ٧٥ و٧٦

[٢١] – ينظر :نظرية البنائية في النقد الادبي ، صلاح فضل، ٣٥

(٢٢) و (٢٣)– علم اللغة العام ٤٠و ٤١

[٢٥] – ينظر : النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال

[٢٦] – ينظر : البنيوية في الأدب ، روبرت شولز، ١٤

[٢٧] – ينظر : معرفة الاخر ، عبد الله ابراهيم ،٤١
[٢٨] – ينظر : النظرية الادبية المعاصرة ، رامان سلدن ،٩٣
[٢٩] – ينظر : المرجع نفسه : ٩٣
[٣٠] – ينظر : قضايا اساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر ، ٧٣ و ٧٤
[٣١] – ينظر : لسانيات النص ، د . نعيمة سعدية ، (١٢-٨)
[٣٢] – ينظر : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، ٢٩٣
[٣٣] – ينظر : سيرة ذاتية لسارق النار ، عبد الوهاب البياتي ، (مجموعة شعرية)
[٣٤] – ينظر: المرايا المحدبة ، د. عبد العزيز حمودة ، ١٧٨
[٣٥] – ينظر : المرجع نفسه ، ١٨١
[٣٦] – ينظر :نظرية البنائية في النقد الأدبي ، ٢٩٧
[٣٧] – ينظر : المرجع نفسه ، ٢٩٨ و ٢٩٩
[٣٨] – ينظر : البنيوية وعلم الاشارة ، ٩٧
[٣٩] – ينظر:الشعرية : تودوروف ، ٢٢
[٤٠] – ينظر: في التحليل النصي لبارت ، ٣٧٧
[٤١] – ينظر : البنيوية وعلم الاشارة ،١١٠
[٤٢] – ينظر : المرجع نفسه ، ١١١
[٤٣] – ينظر :في التحليل النصي لبارت، ٣٧٨
[٤٤] – ينظر البنيوية وعلم الاشارة ، ١١٢
[٤٥] – ينظر : البنيوية وما بعدها ، ٨١ (عالم المعرفة : ٢٠٦ / ١٩٩٦)
[٤٦] – ينظر : المرجع نفسه ، ٨٣
[٤٧] – ينظر : النظرية الادبية المعاصرة ،١٢١
[٤٨] – ينظر :المرجع نفسه ،١١٣
[٤٩] – ينظر :نفسه ، ١١٤
[٥٠] – ينظر التداولية من اوستن إلى غوفمان ،٢١
[٥١] – ينظر : المرجع نفسه، ٢٣
[٥٢] – ينظر : تاريخ التداولية ، برجيش نرليش ، ٩ (ضمن كتاب :آفاق تداولية)
[٥٣] – ينظر : المرجع نفسه ،٩
–وينظر : التداولية واستراتيجية التواصل ، ذهبية حمو الحاج ، ١٢٧

٥٤ – ينظر : تاريخ التداولية ، ٩ و ١٠ (ضمن كتاب آفاق تداولية)

(٥٥) و (٥٦) : – ينظر : التداولية من أوستن إلى غوفمان ، ١٨ و١٩

٥٧ - ينظر : نفسه ،١٨ و١٩

٥٨ ينظر :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ٢٣

٥٩ - ينظر :نفسه ، ١٣ و ١٤

٦٠ – ينظر : المقاربة التداولية ، أرمينكو ،١٩

٦١ – ينظر :عندما نتواصل نتغير ٥٩ و٦٠

٦٢ – ينظر :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،١٤

٦٣ – ينظر :عندما نتواصل نتغير ٦٠

٦٤ – ينظر :التداولية الأدبية ،جاكوب ماي ،١٥٦ (ضمن كتاب آفاق تداولية)

٦٥ – ينظر :نفسه ،١٥٧

٦٦ – ينظر :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، (٨٠– ٨٥)

٦٧ – : ينظر : التداولية من أوستن إلى غوفمان ، ٧٥

٦٨ – ينظر : نفسه ،٧٦ و٧٧

٦٩ – ينظر : نفسه :٧٧

٧٠ – ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،٣٢

٧١ – ينظر :نفسه،٣٣

٧٢ – ينظر :الوظائف التداولية،١٢٥

٧٣ – ينظر : مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، ١٥ /١

٧٤ – ينظر :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،٣٤

٧٥ – ينظر :استراتيجيات الخطاب للشهري ،٣٨٤ و٣٨٥

٧٦ – ينظر : تحليل الخطاب الشعري ، محمد مفتاح ،١٤٤

٧٧ – ينظر : المرجع نفسه ، ١٤٥

٧٨ – ينظر: التداولية الأدبية ،١٥٥

٧٩ – ينظر : نفسه ، ١٥٦

٨٠ – ينظر : نفسه ، ١٦٠

مصادر البحث ومراجعه

- استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي الشهري، دار الكتاب الجديد، بيروت ، ط ١/ ٢٠٠٤م.
- آفاق تداولية ، دراسات وبحوث مختارة ،د. منتصر عبد الرحمن ، (ج : ١) ، دار كنوز المعرفة ،عمّان ، ط ١ / ٢٠١٦ م.
- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، د . محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية، مصر / ٢٠٠٢ م.
- البنيوية وعلم الاشارة ، ترنس هوكز ، ترجمة : مجيد الماشطة ،دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ / ١٩٨٦ م.
- البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا ، ترجمة جون ستروك ، ترجمة : د. محمد عصفور ، (سلسلة عالم المعرفة ، الكويت) ع (٢٠٦) / ١٩٩٦م.
- تحليل الخطـــاب الروائي ،سعيد يقطين ، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ، المغرب ، ط ١ / ١٩٩٧م .
- التداولية من أوستن إلى غوفمان،فيليب بلانشيه ، ترجمة : صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سوريا ، ط ١ / ٢٠٠٧م.
- التداولية واستراتيجية التواصل ، د.ذهبية حمو الحاج ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط١ /٢٠١٥م .
- التفكير اللساني في الحضارة العربية ، أ. د .عبد السلام المعيدي،الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨١م .
- الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة ، تداخل الانسان والمفاهيم ورهانات العولمة ، عبد الله ابراهيم ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط١ / ١٩٩٩م.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية ، د. عبد الله الغذامي ، النادي الثقافي في جدة/ ١٩٨٥م.
- الدلالة الوظيفية في بنية الجملة الشعرية (رؤية لسانية في تحليل الخطاب الشعري)، د . عامر السعد ، دار تموز للطباعة والنشر ، دمشق ، ط / ٢٠١٤م.

- الشعرية ، تزيفتان تودوروف، ترجمة : بكري المبخوت ورجاء سلامة ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، ط٢ / ١٩٩٠ م.
- علم اللغة العام ، فردينا دي سوسير ،ترجمة : يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية ، بغداد / ١٩٨٥م.
- عندما نتواصل نُغير، مقاربة تداولية معرفية لأليات التواصل والحجاج، د. عبد السلام عشير ، دار افريقيا الشرق ، المغرب.
- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ،مازن الوعر، دار طلاس للطباعة والنشر،دمشق ،ط١ / ١٩٨٨م.
- الكامل ، ابو العباس محمد بن يزيد المبّرد، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة، (د.ت)
- لسانيات النص ،مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي ،المغرب ، ط١ / ١٩٩١م.
- لسانيات النص ، المرجعية الفكرية واستراتيجية التلقي ، د. نعيمة سعدية ، عالم الكتب الحديث ، الأردن/ ٢٠١٧م.
- اللغة العربية في مرآة الآخر ،د .نهاد الموسى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ، ط ١ / ٢٠٠٥م .
- المثل السائر ، إبن الاثير ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر/ ١٩٣٩م.
- المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، د. عبد العزيز حمودة ، (سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،ع (٢٣٢) / ١٩٧٨ م)
- مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي ، بادين لهويمل ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط١ / ٢٠١٤م .
- معرفة الأخر ، عبد الله ابراهيم ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط ١ /١٩٩٠م
- مفتاح العلوم، ابو يعقوب السكاكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر / ١٩٣٧م .

- المقاربة التداولية ، فرانسواز ارمنيكو ، ترجمة : د. سعيد علوش، مركز الانماء والقومي ، الرباط / ١٩٨٦م.
- النظرية الادبية المعاصرة ، رامان سلدن ، ترجمة: سعيد الغانمي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١/ ١٩٩٩م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي ،د. صلاح فضل ، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٣ / ١٩٨٧م .
- نظرية المنهج الشكلي ، نصوص الشكلانيين الروس ، ترجمة: ابراهيم الخطيب ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ط١/ ١٩٨٢م.
- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٩م.
- الوظائف التداولية واستراتيجيات التواصل اللغوي في نظرية النحو الوظيفي ، د. يوسف تغزاوي ، عالم الكتب الحديث ، الاردن ، ط ١ / ٢٠١٤م.

<u>المجلات :</u>

١- مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع/ ٧٧ (شتاء - ربيع)٢٠١٠م.
(مجلة النقد الأدبي ، علمية محكمة)
٢- مجلة فصول ، المجلد (٢٥ / ١)ع / ٩٧ ، خريف / ٢٠١٦م.

نظرات من التفسير البياني لسُورَة طه

Looks From the geaphic interetation of Taha

م. د. زهرة علي عباس علوان، اعدادية الرسالة للبنات

أ.م. د سلام عبود حسن، الجامعة العراقية كلية التربية للبنات

الملخص: خيرَ ما تنفق فيه الأموال وتتزين به صدور الرجال وتصلح به الأحوال وتُسَّدُد به الأقوال كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا تقاومه الأدواء ، ولا تزيغ به الأهواء ، ولا تصمد أمام هيبته الجبال ، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، ولما كان شرف العلم من شرف المعلوم ، وعظمُ الكلام من عظمة المتكلم , ثم إن القرآن الكريم هو مناط الوحدة الذوقية والوجدانية لمختلف الشعوب التي اتخذت العربية لساناً لها، ولفت الأنظار إلى ضرورة التدبر المستمر لكتاب الله تعالى فكانت الدراسة اللغوية هي خير ما يصقل الباحث , ويبرز جمال القرآن الكريم وبلاغاته, في بحثي المتواضع (نظرات من التفسير البياني لسورة طه) تناولت فيه ثلاث مباحث , في المبحث الاول ذكرت مفهوم التفسير والبيان والتفسير اللغوي , وفي المبحث الثاني الكلام يدور حول سورة طه واسباب مسمياته ومحور السورة والفنون التي وردت منها فن التلفيف , والتقرير , والمجاز العقلي , وفي المبحث الثالث تطرقت الى نماذج من اللمسات بيانية .

المقدمة

إن للعلم مكانة كبيرة ورفيعة في الاسلام، وارتفعت هذه المكانة منذ نزول أول آية في القران الكريم، الذي قال ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﭼ[١]؛ لأن القران الكريم هو كتاب كل العصور، فلا تنقضي عجائبه، ولا تقل آياته وبراهينه , وتعد الحكمة أعلى درجات العلم، من يؤتها فقد أوتي خيراً كثيراً، لذلك إذا نظرنا الى القران الكريم نجد أنه قد حث المسلمين على التفكر والتدبر والنظر العقلي في

(١) سورة العلق، آية: ١.

الافاق والانفس وتأريخ وأحوال الامم والشعوب والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم إمام الأنبياء ، وقدوة الأولياء وتاج الأصفياء ,علم كتاب الله هو المقصود بالذات وغيره من العلوم كالأدوات, ومهما تتعدد لهجاتها وتختلف أمزجتها وتتابين أساليبها الخاصة في الفن القولي يبق القرآن الكريم، في نقاء أصالته، كتابها القيم الذي تلتقي عنده الشعوب العربية اللسان، على اختلاف لهجاتها وأقطارها(١).

اسباب اختيار هذا الموضوع :

١_اطلاع القارئ على معالم الطريق الموصلة الى مرضاة الله رب العالمين وتحقيق السعادة في الدارين .

٢_الرغبة في التدبر والتفكر والتدبر بآياته والغوص في ثنايا النصوص لاستخراج المكنون منها.

٣_بيان اهداف الآيات يبعث على رسوخ الايمان بالنفس والعناية بالقران والاقبال عليه والتحاكم اليه , اما الصعوبات التي واجهتني فهي قلة المصادر وسوء اوضاع البلد ولله الحمد فقد تغلبت عليها بأذن الله , اقدم شكري واعتزازي لكل من زودني بكتاب اعاني في كتابة بحثي.

اهمية البحث:

فتح افاق جديده امام الباحثين من خلال الموضوعات التي تم طرحها والنتائج التي توصل اليها الباحث وابراز وجوه الاعجاز وحقائقه اثناء الدراسة اللغوية والقرآنية , واثراء المكتبة الاسلامية بهذا النوع من التفسير:

١. بيان ما في سورة طه عامة من دلالات واسعة واستحقاقات هامة.
٢. تعلق الموضوع بأشرف الكتب واجلها وهو القران الكريم .
٣. البحث في سورة طه يظهر عناية الله تعالى وحفظه وتسلية لأوليائه .
٤. التركيز على وحدانية الله , وعرض لمقام النبوة , وعرضت بعض مشاهد يوم القيامة .

منهج البحث:

١_ كتابة الآيات مضبوطة بالحركات .

١) التفسير البياني للقرآن الكريم (١/ ١٥).

٢ _ الرجوع الى المعاجم اللغوية من اجل بيان معاني المفردات الغريبة .

٣ _خدمة البحث بالرجوع الى المراجع الاصلية والمعتمدة من كتب التفسير وغيرها .

خطة البحث:

المبحث الاول : تعريفات (التفسير لغة واصطلاحاً والبيان والتفسير اللغوي).

المبحث الثاني : سورة طه المحور الذي تدور بيه .

اسباب تسمية سورة طه ومسمياتها.

المبحث الثالث : نظرات من التفسير البياني لسورة طه.

الخاتمة والنتائج وملخص البحث.

والمصادر والمراجع, والترجمة .

المبحث الاول

***مفهوم التفسير والتفسير اللغوي والبيان في اللغة والاصطلاح.**

التفسير في اللغة : تفعيلٌ من الفَسْرِ، وأصلُ مادَّتِه اللُّغوية تدلُّ على بيانِ شيءٍ وإيضاحِه ([١])، ولذا قيلَ: الفَسْرُ: كَشفُ المغطَّى ([٢]) , التفسيرُ والتأويلُ والمعنى؛ واحدٌ([٣]).

تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف واظهار المعنى وفعله كضرب ونصر, يقال فسر الشيء يفسر بالكسر ومن باب نصر يفسر بالضم , وفسره أبانه والتفسير والفسر الإبانة وكشف المغطى وجاء في لسان العرب الفسر كشف المغطى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل قال تعالى "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا" قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى "وأحسن تفسيرا" أي تفصيلا وذهب بعض اللغويين إلى أن كلمة فسر مقلوبة من سفر وهذا ما

---

١) مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون (٤:٥٠٤) , وقد زعم قوم أن «فَسَرَ» مقلوب من «سَفَرَ»، يقال: سَفَرَتْ المرأةُ سفوراً؛ إذا ألقت خمارها عن وجهها. (ينظر: مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٣، البرهان في علوم القرآن: ٢:١٤٧، التيسير في قواعد علم التفسير: ١٣٢)، والقلبُ: تَغْيِيرُ ترتيبِ الكلمةِ الواحدةِ، والمعنى واحدٌ؛ مثلُ: جَذَبَ وجَبَذَ , وأَدَقُّ من دعوى القلبِ، ما قالَه الراغبُ الأصفهانيُّ: «الفَسْرُ والسَّفْرُ، يتقاربُ معناهُمَا كتقاربِ لفظيهما». جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني، ت: د. أحمد حسن فرحات (ص:٤٧) التفسير اللغوي للقرآن الكريم (ص: ١٩), البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١:١٣). د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار دار ابن الجوزي , ط١ ,١٤٣٢هـ , الأجزاء: ١.

٢) قاله ابن الأعرابي. ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري (١٢:٤٠٦).

٣) تهذيب اللغة (١٢:٤٠٧).

يعبر عنه النحويين بالقلب المكاني , ومعناه أيضاً الكشف يقال سفرت المرأة سفوراً إذا ألقت خمارها عن وجهها وهي سافرة وأسفر الصبح أضاء ، وإنما بنوه على التفعيل أي التفسير لأنه للتكثير كقوله سبحانه وتعالى "يذبّحون أبنائكم" وقوله جل وعلا "وغلّقت الأبواب "وفي هذين الفعلين "يذبّحون" و "وغلّقت" زيادة معنى وكما قال اللغويون الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى ففي قولنا التفسير كأنه يتبع سورة بعد سورة وآية بعد أخرى يفسرها ويبينها ويوضح معانيها وأوضحتُه, وفَسَّرْتُهُ تفسيراً: كذلك والأشهرُ في الاستعمالِ: فَسَّرَ تفسيراً، بتشديدِ حرفِ السِّينِ في الماضي ([1]).

التفسير اصطلاحاً :

يعرف التفسير بأنه : (علم يعرف به فهم كتاب الله سبحانه المنزل على نبيه محمد ((ﷺ)) وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه)([2]) .

ابن جُزَيّ (ت:٧٤١)([3]) ، قالَ: «معنى التَّفسيرِ: شرحُ القرآنِ، وبيانُ معناه، والإفصاحُ بما يقتضي بنصِّه أو إشارَتِه أو نجواه» ([4]).

وعرَّفه الزَّرْكَشِيُّ (ت:٧٩٤) ([5]) في موضعينِ من كتابِه البرهانِ في علوم القرآن، فقالَ في الموضعِ الأوَّلِ: «علمٌ يُعرفُ به فَهْمُ كتابِ اللهِ المنَزَّلِ على نبيه محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وبيانُ معانيه، واستخراجُ أحكامِه وحِكَمِهِ» ([6]).

كشف معاني القرآن وبيان المراد منه ، وهو أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل ، وبحسب المعنى الظاهر وغيره (٧) وهو بهذا المعنى يشتمل جميع ضروب البيان لمفردات القرآن وتراكيبه سواء أتعلق البيان بشرح لغة أم استنباط حكم أم بتحقيق مناسبة ، أم بيان سبب نزول ، أم بدفع

---

١) جمهرةُ اللغةِ، لابنِ دريدٍ (٢:٧١٨)، وينظر في مادة (فسر) كتابَ العينِ، للخليل (٧:٢٤٦)، والمحيطَ في اللغةِ، لابنِ عبادٍ، تحقيق: محمد حسن آل ياسين (٨:٣١١).

٢) البرهان في علوم القران: ١٣/١.

٣) محمدُ بنُ أحمدَ بنُ جُزَي الكلبي، أبو القاسم، فقيهٌ مالكي، وله فيه كتابُ «التسهيلِ في علومِ التَّنْزيلِ»، ت (٧٤١). ينظر: الديباجَ المذهبَ (ص:٢٩٥)، ومعجمَ المفسرين (٢:٤٨١).

٤) التسهيل لعلوم التَّنْزيل، لابن جُزَي (١:٦).

٥) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، بدر الدين، كان فقيهاً أصولياً أديباً، له مشاركةٌ في الحديثِ والتفسيرِ. قال ابنُ حجر في الدرر الكامنة (٣:١٤٠): «ورأيتُ أنا بخطه من تصنيفه البرهانَ في علوم القرآن، من أعجب الكتب وأبدعها»، ت(٧٩٤). ينظر: إنباء الغمر (٣:١٤٠)، وشذرات الذهب (٦:٣٣٥).

٦) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١:١٣) , التفسير اللغوي للقرآن الكريم (ص: ٢٢).

٧) السابق ص (١٥٤) وينظر: الخولي ، أمين، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير ص /٢٧٢ .

إشكال ورد على النص ، أم بينه وبين نص آخر، أم بغير ذلك من كل ما يحتاج إلى بيان النص الكريم (٥) .

والبيان ((هيئة مخصوصة من الحسن , وذلك امر وراء النحو والاعراب , الا ترى ان النحوي يفهم الكلام المنظوم والنثور , ويعلم مواقع اعرابه , ومع ذلك فانه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة))([١]), والبيان : هو ترتيب المعاني في النفس , والانتظام فيها على قضية العقل , ([٢]) ويقول الجاحظ : ((البيان من نتاج العلم))([٣]).

وان من مهام علم البيان : وضوح الدلالة , وصواب الاشارة , وتصحيح الاقسام , وحسن الترتيب والنظام والابداع في التشبيه والتمثيل والاجمال ثم التفصيل ووضع الفصل والوصل موضعهما , وتوفية الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما ([٤]), فالبيان : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد , بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ([٥]).

التفسيرُ اللغويُ: بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب.

أمَّا الشِقُّ الأولُ مِنَ التعريفِ، وهو بيان معاني القرآن: فإنه عامٌّ يشملُ كُلَّ مصادرِ البيانِ في التَّفسيرِ؛ كالقرآنِ، والسُّنَّةِ، وأسباب النزول، وغيرها.

وأمَّا الشِّقُّ الثاني منه، وهو بما ورد في لغة العرب: فإنه قَيدٌ واصفٌ لنوعِ البيانِ الذي وَقَعَ لتفسيرِ القرآنِ، وهو ما كان طريقُ بيانِه عن لغةِ العربِ([٦]).

المبحث الثاني

اسماء سورة طه وعدد آياتها:

(٥) ينظر : موسوعة المفاهيم الإسلامية ص (١٥٤ - ١٥٥) وينظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان (٤٧٢/١) ، وينظر: الطيار، د. مساعد، مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير , ص (٢٣٣) .

١) ضياء الدين ابن الاثير المثل السائر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة, عبد المتعال الصعيدي (ت:, (ت: ١٣٩١هـ), ط١٧ ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥ ,: ٤١٣٩هـ) , مكتبة الآداب , ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م , الأجزاء: ٤.

٢) اسرار البلاغة : ٤.

٣) البيان والتبيين ط السندوبي : ١/ ٧٨.

٤) دلائل الاعجاز : ٤٠.

٥) القزويني , تلخيص المفتاح , ص٢١٨ : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة , عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ) , مكتبة الآداب , ط١٧, ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م , الأجزاء: ٤.

٦) التفسير اللغوي للقرآن الكريم (ص: ٣٨) .

اسمها سورة طه مثبته في المصحف العثماني , وعدد آياتها قيل مائه وثلاثون واثنتا آية وقيل ١٣٤, وقيل ١٣٥آية وبه قال الطبري (١), جعلت طه تمديداً لأسماء الحروف فهو ابتداء كلام وان جعلتها اسماً للسورة احتملت ان تكون خبراً عنها وهي موضع المبتدأ (٢),سميّت السورة (سورة طه) وهو اسم من أسماء المصطفى الشريفة على بعض الأقوال تطييباً لقلبه وتسلية لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء (طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)(٣) , أصله طأ فقلبت همزته هاء أو قلبت في يطأ ألفا كقوله لا هناك المرتع ثم بنى عليه الأمر وضم إليه هاء السكت وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل { طه } طأها والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية الأرض لكن يرد ذلك كتابتهما على صورة الحرف وكذا التفسير بيا رجل أو اكتفى بشطري الكلمتين وعبر عنهما باسمهما طه(٤) .

وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى وقسم أقسم به وهذا أيضا مروي عن بن عباس رضي الله عنهما وقيل : هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لي عند ربي عشرة أسماء (فذكر أن فيها طه ويس وقيل : هو اسم للسورة ومفتاح لها .

وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه وقيل : إنها حروف مقطعة يدل كل حرف منها على معنى (٥).

محور سورة طه :

ان الذي ينظر بإمعان في سورة طه يجد أنها تدور حول معان رائعة في جوء عام يملأ جنباتها باللطف والمؤانسة والرعاية للعالمين في حقل الدعوة الى الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) حينما انزل عليه القرآن لا ليشقى وإنما ليسعد وتسعد الانسانية كلها متمثلا في قوله تعالى

---

١) الطبري : جامع البيان :١٧٤/٩.

٢) الزمخشري : الكشاف : ٦٣/٤.

٣) سورة طه : ١_٢.

٤) تفسير البيضاوي (٤/ ٣٩).

٥) تفسير القرطبي (١١/ ١٦٦) , الجامع لأحكام القرآن , أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي , تحقيق , دار الشعب , القاهرة , الأجزاء ٨.

(ما انزلنا عليك القرآن لتشقى([١]) كما تجلى ذلك في مؤانسة موسى (عليه السلام) , والتدرج في رعايته منذ اللحظات الاولى التي ولد فيها حتى كانت المواجهة , بينه وبين الطاغية فرعون فايد الله نبيه موسى ومن معه من الموحدين واهلك أهل اهل الشقاء المكذبين وقد أحسن السيوطي (رحمه الله) حين اشار في المعترك الى ان مبنى هذه السورة بجملتها على التلطف والتأنس (٢).
وقت نزولها: نزلت سورة طه بعد سورة مريم وقد نزلت سورة طه فيما بين الهجرة الى الحبشة فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ ايضا : أي بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشر من البعثة (٣)أن يكون متعلقا به وان يكون متعلقا بمحذوف وقع حالا من (قبس) على ما قاله أبو البقاء (او اجد على النار هدى (هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أي ذا هداية أو على أنه إذا وجد الهادي فقد وجد الهدى بشعلة مقتبسة تكون على رأس عود ونحوه ففعل بمعنى مفعول ([٤])
بعض الفنون التي وردت في السور:

٢- فن التلفيف:

في قوله تعالى «وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى» الى آخر ما أجاب به موسى صلوات الله عليه من الاجوبة الاربعة فن طريف لم يرد ذكره حتى الآن وهو فن التلفيف، وحدّه إخراج الكلم مخرج التعليم بحكم أو أدب لم يرد المتكلم ذكره وانما قصد ذكر حكم خاص داخل في عموم الحكم المذكور الذي صرح بتعليمه([٥]).

٣- التقرير:

وفيها أيضا التقرير وهو بالاستفهام فإنه سبحانه عالم بما بيمينه وإنما أراد أن يقر موسى ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بما يمنحه الله([٦])

١) سورة طه : آية ٢.
٢) السيوطي : معترك الأقران : ٧٠/٣.
٣) عبد الله شحاته : تفسير القران الكريم : ٣١٣٦/٨.
٤) روح المعاني ١٥, ١٦/ ١٦٦).
٥) إعراب القرآن وبيانه (٦/ ١٧٧).
٦) المصدر نفسه

المجاز العقلي:

المجاز العقلي: في قوله تعالى «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ» أسند الإلقاء الى اليم وهو لا يعقل ولكنه يمثل مشيئة الله وإرادته التي لا تخطئ ولا يعزب عنها شيء، أسند اليه الإفضاء المقرر في عالم الغيب ودنيا المشيئة كأنه ذو تمييز يطيع الأمر ويمتثل رسمه(١).

وليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه، وينبهه على قدرته الباهرة.(٢)

المبحث الثالث

نماذج من التفسير البياني سورة طه

اللمسة البيانية(١)

في قوله تعالى: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى» إبهام وهو فن عجيب يقول فيه المتكلم كلاما يحتمل معنيين متغايرين لا يتميز أحدهما عن الآخر فكلمة أخفيها أولا تعني أمورا منها:

آ- أي أكاد أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفاءها ولولا ما في الإخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به.

ب- أكاد أخفيها عن نفسي , ثم انه جاء في بعض اللغات أخفاه بمعنى خفاه فهي من الأضداد أي أكاد أظهرها لقرب وقتها(٣).

أن العرب تختار النون للقليل والتاء للكثير، فيقولون: لأربع خلون، وإحدى عشرة خلت(٤) , غرهم منه أن في مصحف أبى: أكاد أخفيها من نفسي. وفي بعض المصاحف: أكاد أُخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير: (أخفيها) بالفتح، من خفاه إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ كائنة لا محالة. أَكادُ أُخْفِيها أريد إخفاء وقتها، أو أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية ولولا ما في الأخبار بإتيانها من اللطف وقطع الأعذار لما أخبرت به، أو أكاد أظهرها من أخفاه إذا

١) المصدر السابق نفسه (٦/ ١٩٣).

٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٠/ ١٥٠).

٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١٠/ ١٥٠).

٤) تفسير القرطبي (١٠/ ١٤٥).

سلب خفاءه، ويؤيده القراءة بالفتح من خفاه إذا أظهره, إذا أظهره، أي: قرب إظهارها([١]) كقوله تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ)([٢]) , قرينة على تعيين المحذوف، والذي دل عليه الكلام الإتيان، فيجبُ أن يُقدر: أكادُ أخفي إتيانها، على حذف المضاف، وقيل: والذي يدل على ذلك المقدر إيجاب أخفيها من متعلقٍ، وهو على من أخفيها، فلا يجوز أن يُقال: (أَكَادُ أُخْفِيهَا) من الخلق , أن معناه: أكاد لشدة الاعتناء بإخفاء وقتها أن أخفى علمها, ووقوعها عن الخلق، وهذا قد أظهره للخلق بقوله: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ) دليل على أن المراد: أكاد أخفى إتيانها([٣]) , أسترها، وأظهرها أيضا، من «أخفيت» وهو من الأضداد([٤]) , وقال القفال: «هناك فرق بين يضل وينسى أي لا يضل عن الأشياء ومعرفتها وما علمه من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول إشارة الى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثاني دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو اشارة الى نفي التغير»([٥]) .

وقال أبو البقاء: (بَيْضَاءَ): حالٌ، و (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) يجوز أن يتعلق بتخرج، وأن يكون صفة لـ (بَيْضَاءَ) أو: حالاً من الضمير في (بَيْضَاءَ)، و (آيَةً): حالٌ أخرى بدلٌ من الأولى، وحالٌ من الضمير في (بَيْضَاءَ) أي: تبيض آية، أو: حالاً من الضمير في الجار مع المجرور.([٦])
أي معجزة اخرى غير العصا وانتصابها على الحالية من ضمير (تخرج) والصحيح جواز تعدد الحال لذى حال واحدا ومن ضمير (بيضاء) أو من الضمير في الجار والمجرور على ما قيل أو على البدلية من (بيضاء) ويرجع إلى الحالية من ضمير (تخرج) ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مضمر([٧]).

اللمسة البيانية ٢:

١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٤).

٢) [القمر: ١] .

٣) كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ٢٥١).

٤) التبيان في تفسير غريب القرآن (ص: ٢٢٦)

٥) إعراب القرآن وبيانه (٦/ ٢٠٣).

٦) المصدر نفسه (١٠/ ١٦١).

٧) العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٦/ ١٨٠), ١٢٧٠هـ تحقيق دار إحياء التراث العربي , بيروت.

في قوله تعالى : ((قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس جميعاً.

أي : مكان موعد ، ويجعل الضمير في) نُخْلِفُهُ (للموعد) مَكَاناً (بدل من المكان المحذوف , فإن قلت : فكيف طابقه قوله :) مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ (ولا بد من أن تجعله زماناً ، والسؤال واقع عن المكان لاعن الزمان ؟ قلت : هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظاً ، لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه([١]),ويوم الزينة : يوم عاشوراء ، ويوم النّيروز, ويوم عيد كان لهم في كل عام ، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ويتزينون ذلك اليوم .([٢])

(يوم الزينة) ويكون بدل البعض من الكل، لأن ضحى اليوم بعضه، وحذف الضمير على هذا للعلم به، كما تقول: ضربت زيدا يوم الجمعة عشية، فيكون مرفوعاً.([٣]) ، فبقى أن يجعل مصدرا بمعنى الوعد، ويقدر مضاف محذوف، أي: مكان موعد، ويجعل الضمير في (نُخْلِفُهُ) للموعد و (مَكاناً) بدل من المكان المحذوف. فإن قلت. فكيف طابقه قوله (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ).

وأن لا يطابق قوله: (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ)؛ لأنه يكون حينئذٍ (فَاجْعَل) طلباً لمكان الوعد، فلا يكون تعيين زمان الوعد مطابقاً للسؤال, واختلف في يوم الزينة فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجتمعون فيه قاله قتادة والسدي وغيرهما.([٤])

قوله: (و (مَكَاناً): بدل من المكان المحذوف)، وجاز الإبدال لتغايرهما بوصف الثاني بـ (سُوًى).

قوله: (فكيف طابقه؟)، أتى بالفاء إنكاراً، يعني: قررت أنه لا يجوز جعلُ الموعد مكاناً، لما يلزمُ منه عدم المطابقة بينه وبين قوله: (مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ)، وحين جعلته مصدراً على تقدير المضاف وقعت فيما فررت منه([٥]).

قصة آدم وحواء : السعادة في المنهج: تعرض الآيات نموذج آدم (عليه السلام) وكيف أن السعادة الحقيقية هي في طاعة الله تعالى فلا شقاء (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا

١) المصدر نفسه(٣/ ٧٢).

٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ٧٣).

٣) أمالي ابن الحاجب (١/ ٢٤٧).

٤) تفسير القرطبي (١١/ ٢١٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي , تحقيق , دار الشعب.

٥) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١٠/ ١٩٠).

مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) (١) , الشقاء بترك المنهج: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ...... قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) (٢), ونلاحظ تكرار كلمة يشقى في السورة كثيراً, فالله تعالى يقول أن (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) وهذا كلام الله أفلا نصدقه؟ يجب أن نصدقه لأنه القول الحق وأنه من يَعرض عن ذكر ربه سيكون شقياً في الدنيا والآخرة, فعلينا أن نتبع هدى الله تعالى لنحظى بسعادة الدارين فالمؤمن في سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة.

*** اللمسة البيانية (٣)**

ما وجه الاختلاف بين (أتاها) في سورة طه و(جاءها) في سورة النمل؟(٣)

المجيء والإتيان معناه أنه وصل للمكان ونرجح ما ذهب الية الراغب الاصفهاني من ان الاتيان مجيء بسهوله والمجي لما هو اصعب واشق مما استعمل له (أتى)(٤)،ويقال (اتيت الماء) أي سهلت سبيله ليخرج الى موضع (٥) ولكن لا بد أن ننظر في السياق (فلما جاءها) في سورة النمل تتناسب مع جو القوة, وتردد الكلمات في القرآن تأتي حسب سياق الآيات قال تعالى في سورة طه:(فلما أتاها نودي يا موسى) تكرر لفظ الإتيان أكثر من ١٥ مرة والمجيء ٤ مرات.

(فلما أتاها نودي) البناء للمجهول هو نوع من التعظيم والتفخيم لله سبحانه وتعالى الذي نادى(٦).

قوله عز وجل (وهل أتاك حديث . . . . . (٧) (٨) .

١) سورة طه : آية ١١٧.

٢) سورة طه : آيات ١٢٣_١٢٦

٣)اللمسات البيانية : د. فاضل السامرائي : ٩٧ , وما بعدها.

٤) ينظر المفردات في غريب القرآن : ٦/ ١٠٢, لمسات بيانية في نصوص التنزيل : ١٠٩

٥) لسان العرب (أتى) ١٤/١٨.

٦) لمسات البيانية :د. فاضل السامرائي :ص ٦.

٧) سورة طه : من الآية ٩.

٨) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١٠/ ١٩٠) شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) , إياد محمد الغوج القسم الدراسي: د. جميل بني عطا , المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء , جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم , ط١، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

قال أهل المعاني : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه أليس قد أتاك([1]). هذا الاستفهام: استعلام ما في ضمير المخاطب.([2]) هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إلى استماع ما يورد عليها (هل) بمعنى (قد)([3]), وقيل : إنه استفهام معناه النفي أي ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى ([4]) , واختلف النُّحاة في (هَلْ) هل تأتي بمعنى (قَدْ) أو لا؟ على عدّة أقوال:

القولُ الأوّل: أنّ (هَلْ) أبدًا بمعنى (قَدْ) ، وأنّ الاستفهام إنّما هو مستفادٌ من همزة مقدَّرة؛ وهو مذهبُ الزّمخشريّ، ونقله في المفصّل عن سيبويه.

القولُ الثّاني: أنّ (هَلْ) بمعنى (قَدْ) دون استفهام مقدّر؛ وهو مذهب الفرّاء، والمبرِّد، والكسائيّ.

القولُ الثّالث: أنّها تتعيّن لمعنى (قَدْ) إنْ دخلتْ عليها همزة الاستفهام، وإن لم تدخُل فقد تكون بمعنى (قد) ، وقد تكون للاستفهام؛ وهو مذهب ابن مالك.

القولُ الرّابع: أنّها لا تأتي بمعنى (قد) وإنّما هي للاستفهام؛ وهو مذهب ابن هشام.([5])

والغاشية: القيامة؛ لأنَّها تغشى العباد، ومعنى (خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) أي: في الدنيا، قيل: يعنى بذلك: الرهبان([6]). وقال الحسن وقتادة: عاملة لم تعملها لله في الدنيا، فأعملها في النار, وهذا كما تبدأ الرجل إذا أردت إخباره بأمر غريب فتقول أعلمت كذا وكذا ثم تبدأ طه : (١٠) إذ رأى نارا . . . .) تخبره والعامل في (إذ) ما تضمنه قوله (حديث) من معنى الفعل وتقديره (وهل أتاك) ما فعل موسى (إذ رأى نارا) أو نحو هذا وكان من قصة موسى عليه السلام أنه رحل من مدين بأهله بنت شعيب وهو يريد أرض مصر وقد طالت مدة جنايته هنالك فرجا خفاء أمره وكان فيما يزعمون رجلا غيورا فكان يسير.([7])

---

١) تفسير القرطبي (١١/ ١٧١) .

٢) التعريفات الفقهية (ص: ٢٦) محمد عميم الإحسان المجددي البركتي , دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) , ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م , الأجزاء: ١.

٣) الكتاب ٣/ ١٨٩, شرح المفصل لابن يعيش (٥/ ١٠١) .

٤) تفسير البحر المحيط (٢١٥/٦) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي , (٦٥٤هـ/ ت٧٤٥هـ).

٥) الكتاب ١٨٩/٣، ومعاني القرآن للفرّاء ٢١٣/٣، والمقتضب ٤٣/١، ٢٨٩/٣، وحروف المعاني ٢، والمفصّل ٣١٩، وشرح المفصّل ١٥٢/٨، والتّسهيل ٢٤٣، والجنى الدّاني ٣٤٤والمغني ٤٦٠والخزانة ٢٦١/١١ - ٢٦٨.

٦) إعراب القرآن للأصبهاني (ص: ٥١٨).

٧) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٨).

لاحظ أن الحكم الخاص لرءوس الآى في الإحدى عشر سور ينطبق عليها سواء وقفت على رءوس الآى أم وصلت , قوله تعالى: ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى , وعن الحسن (طه) وفسر بأنه أمر بالوطء وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطإ الأرض بقدميه معا وأن الأصل طأ فقلبت همزته هاء كما قلبت ألفا في (يطا)([1]).

لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا كقوله تعالى فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ والشقاء يجيء في معنى التعب,([2]) ,السفاهة: الجهل والحمق والخفة, و «طه» في لغة عك، معناه يا هذا، فكأنهم قلبوا الياء طاء وحذفوا ذا, قال الزمخشري: ولا يخفى التصنع في البيت, والخلائق: الطبائع، ودعا عليهم بأن الله لا يطهر أرواحهم، ووضع المظهر موضع المضمر لزيادة الذم والتشنيع, وقيل: للدلالة على سبب الدعاء، أي: فإنهم ملعونون، ولعل معناه: فإنهم مستحقين للعن وفاعلون سببه,([3]), قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى

السؤل: الطلبة، فعل بمعنى مفعول، كقولك: خبز، بمعنى مخبوز, وأكل، بمعنى مأكول([4]).

*** اللمسة البيانية (٤)**

الكلام لموسى (عليه السلام) في سورة طه (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ([5]) ثم قال بعدها (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا([6]) وفي سورة النمل (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ([7]) فما الفرق بينهما؟([8]) إني وإنني، إنني أكد من إني في زيادة النون وحتى يقولون في الساميات القديمة: إنني أكد من إني, (إنني) عبارة عن (إن) مع نون الوقاية مع الياء, (إني) إنّ من دون نون الوقاية والياء, نون الوقاية يمكن حذفها هنا تقول إنني وتقول إني إذن حذفها ممكن فلماذا يؤتى بها؟ قلنا لزيادة التوكيد، إنّ مؤكدة وإنني زيادة في التوكيد حتى الدارسين للغات القديمة يقولون في اللغة السامية

---

١) تفسير القرطبي (١١/ ١٦٧) .

٢) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٥٠) , أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي , دار إحياء التراث العربي – بيروت , الأجزاء / ٤ , تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

٣) المصدر نفسه: (٣/ ٥٠) .

٤) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٦٢) .

٥) سورة طه : آية ١٢.

٦) سورة طه : آية ١٤.

٧) سورة النمل : آية ٩.

٨) اللمسات البيانية : د. فاضل السامرائي : ص١٢٢.

إنني أكد من إن يستعملون نون مؤكدة أخرى لأن النون مؤكدة في الأسماء والأفعال (لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ([1]) وللتوكيد أيضاً, وهي النون تؤكد الأفعال وتؤكد الأسماء ويؤتى بها في آخر الفعل المضارع والأمر للتوكيد ويؤتى بها في أول الأسماء للتوكيد, إذا جيء بها في أول الأسماء هي مثقّلة لا ينطق بها لأن أولها ساكن فيؤتى بالهمزة حتى يُنطق الساكن فصارت إنّ, هي في أصلها نون بدون همزة النون في الفعل ليس فيها همزة تتصل بالفعل مباشرة لا تحتاج إلى همزة وهذه تتصل بالاسم لا يمكن أن ينطق بها أصلاً لأن الأول ساكن والعرب لا تبدأ بالساكن كل مُشدّد أوله ساكن فالعرب لا تبدأ بالساكن فجاءوا بالهمزة لينطق بالساكن فصارت إن وأن وليس هذا فقط وإنما هي مع الأفعال الفعل يبنى على الفتح وفي الأسماء الاسم ينصب معها. إذن إنّ للتوكيد، النون هي توكيد الأسماء والأفعال تقع في آخر الفعل وفي أول الاسم هذا تفتحه وهذا تنصبه إذن النون أكد, يبقى لماذا هنا أكد من ذلك؟ ننظر الآيات (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى([2]) يخلع نعليه لأنه بالواد المقدس, تستمر الآيات (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) ([3]) , (إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ([4]) بِضَمِّ الْهَمْزَةِ ; وَفِيهِ وَجْهَانِ ; أَحَدُهُمَا: أَسْتُرُهَا ; أَيْ مِنْ نَفْسِي ; لِأَنَّهُ لَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهَا مَخْلُوقًا. وَالثَّانِي: أُظْهِرُهَا ; قِيلَ: هُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ.([5])

---

١) سورة يوسف : آية ٣٢.

٢) سورة طه : ١١_١٢.

٣) سورة طه : ١٣_١٤.

٤) سورة طه : آية ١٥.

٥) التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٨٨٧).

وَقِيلَ: الْهَمْزَةُ لِلسَّلْبِ ; أَيْ أُزِيلُ خَفَاءَهَا. المعروف أن كاد من أفعال المقاربة([1]) التي تفيد قرب وقوع الخبر فما دلالة استخدام أكاد أخفيها , أي أسترها من نفسي([2]) بدل أكاد أظهرها بما أنها مخفاة فعلاً؟

أخفي بمعنى خفي أو ظهر أو غاب، ستره وكتمه وأظهره , فإذن إذا كان بهذا المعنى تستقيم وانتفى السؤال. إذن أكاد أخفيها يعني أكاد أظهرها أكاد أسترها أكاد أكتمها ، أكاد أخفيها بمعنى الستر يعني لا أُخبِر بها لولا اللطف بعباده وإنما يكتمها ولا يقول ستأتي الساعة وإنما إرادة ربنا أن يلطف بعباده فحذّرهم منها لشدة خفائه,(إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ) هي آتية لا محالة أكاد أخفيها أبالغ في إخفائها رحمة من الله بعباده وحتى قالوا أكاد أخفيها من نفسي وهي تفيد قرب حدوث الحدث لكنه لم يقع، لماذا لم يقع؟ أكاد أخفيها يعني أظهرها([3]) لأنه ذكر من علاماتها ما يوضح وقوعها فكأنه لم يسترها ولو قرأنا ما ذكره تعالى من علامات وما ذكره الرسول (صلى الله عليه السلام) العلامات يقول (اقتربت) إذن هو أظهرها ولم يخفيها وإنما فقط أخفى وقتها لكن ما ذكر من العلامات وما سيأتي من العلامات بحيث تقول هذه من علامات الساعة، يعني ظهور النار في أرض الحجاز هذه من علامات الساعة، يكثر الهرج([4]) في آخر الزمان (الهرْج هو القتل).

اللمسة البيانية (٥):

ما الفرق بين دلالة كلمة (منسأته) ؟ {منسأته}: عصاه([5]) في آية سورة سبأ و(عصاى) في سورة طه؟

قال تعالى في سورة سبأ (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ([6])،

---

١) اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل (ص: ٢٧)

أفعال المقاربة , من أخوات (كان) أفعالُ المقاربة، وهي ثلاثة أنواع: الأول: ما وضع للدلالة على قرب وقوع الخبر، وهو كاد وأوشك وكرب, الثاني: ما وضع للدلالة على رجاء وقوع الخبر، وهو عسى وحرى واخلولق.

الثالث: هما وضع للدلالة على قرب الشروع فيه.

٢) غريب القرآن لابن قتيبة ت أحمد صقر (ص: ٢٧٧) , راجع تأويل مشكل القرآن ٢٠،٢٩ وتفسير القرطبي ١٨٢/١١-١٨٥ وتفسير الطبري ١١٣/١٦ -١١٦.

٣) معاني القرآن للفراء (٢/ ١٧٦) .

٤) الهرج : الفتنة والاختلاط والقتل، وأصل الهرج الكثرة في الشيء والاتساع , الشريعة للآجري (١/ ٩٤).

٥) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب (ص: ٢٩٠) , معاني القراءات للأزهري (٢/ ٢٩٠).

٦) سورة سبأ : آية ١٤ .

والمِنْسَأَةُ: العَصا، يهمز ولا يهمز ([1])، نسأ في اللغة لها دلالتين نسأ البعير إذا جرّه وساقه المِنْسَأَة– بالكسر: العصا العظيمة التي تكون مع الراعي([2]) تُزجر بها الإبل لتسوقها ونسأ بمعنى أخّر الشيء (النسيء) أي التأخير. فلماذا اذن استعمل كلمة منسأة ولم يستعمل كلمة عصى؟ في قصة سليمان هذه العصى كانت تسوق الجنّ إلى العمل مع أن سليمان كان ميتاً إلى أن سقطت العصى وسقط سليمان فكما أن الراعي يسوق الإبل لتسير فهذه المنسأة كانت تسوق الجنّ, والمنسأة كأنها مدّت حكم سليمان فهي أخّرت حكمه إلى أن سقط , فاستعمالها في قصة سليمان أفاد المعنيين واستعمالها من الجهتين اللغويتين في غاية البيان من جهة السوق ومن جهة التأخير ,أما في قصة موسى فاستعمل كلمة العصى (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى([3]) ليهشّ بها على غنمه وبها رحمة بالحيوان وعكس الأولى ولا يناسب استخدام كلمة منسأة, يقول تعالى ذكره مخبرا عن موسى قال موسى مجيبا لربه هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي يقول أضرب بها الشجر اليابس فيسقط ورقها وترعاه غنمي ([4]), أن المقصود من السؤال أن يذكر حقيقتها وما يرى من منافعها حتى إذا رآها بعد ذلك على خلاف تلك الحقيقة ووجد منها خصائص أخرى خارقة للعادة مثل أن تشتعل شعبتاه بالليل كالشمع وتصيران دلوا عند الاستقاء وتطول بطول البئر وتحارب عنه إذا ظهر عدو وينبع الماء بركزها وينضب بنزعها وتورق وتثمر إذا اشتهى ثمرة([5]).

---

١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٧٦).

٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢١٨٥).

٣) سورة طه : آية ١٨.

٤) تفسير الطبري (١٦/ ١٥٤), جامع البيان عن تأويل آي القرآن , محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر, سنة الولادة ٢٢٤/ سنة الوفاة ٣١٠ , تحقيق , دار الفكر , ١٤٠٥, بيروت , الأجزاء ٣٠

٥) تفسير البيضاوي (٤/ ٤٥), تحقيق , دار الفكر, بيروت ,عدد الأجزاء ٥.

وقوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى)([١]) كقوله تعالى (وهذا بعلي شيخاً)([٢]) , في انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز ان تكون تلك اسماً موصولاً صلته (بيمينك) ([٣]) , وَما تِلْكَ بِيَمِينِكَ: السؤال للتنبيه «[٤]» ليقع المعجز بها بعد التثبت فيها([٥]).

*** اللمسة البيانية (٦):**

ورد في القرآن الكريم ذكر عصى موسى بأوصاف مختلفة مرة جان ومرة ثعبان ومرة حية فما الفرق بينها؟([٦])

المعنى اللغوي للكلمات: الجان هي الحية السريعة الحركة تتلوى بسرعة، الثعبان هو الحية الطويلة الضخمة الذَّكَر، الحية عامة تشمل الصغيرة والكبيرة فالثعبان حية والجان حية, والحية عامة تطلق على الجميع أما الثعبان فهو الذكر الضخم الطويل والجان هو الحية سريعة الحركة, ننظر كيف استعملها؟

كلمة ثعبان لم يستعملها إلا أمام فرعون في مكانين (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ([٧])(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ([٨]) وذلك لإخافة فرعون ثعبان ضخم يُدخل الرهبة في قلبه فذكر الثعبان فقط أمام فرعون , الحركة فان قلت كيف ذكرت بألفاظ مختلفة بالحية والجان والثعبان , ثعبت الماء ثعبا: فجرته: والثَّعَبُ، بالتحريك: مسيلُ الماء في الوادي، وجمعه ثُعْبانٌ. والثعبان أيضاً: ضربٌ من الحيَّاتِ طوالٌ، والجمع ثعابينٌ. والثُعْبَةٌ: ضربٌ من الوَزَغِ. والمثعب، بالفتح: واحد مثاعب الحياض. وانْثَعَبَ الماءُ: جرى في المَثْعَبِ. وانثعب الدم من الانف ([٩]),الثُّعْبان]: الحية العظيمة([١٠]).الثعبان ضرب من الحيات طوال وجمعه ثعابين و ثعبت الماء فجرته و الثعب

١) سورة طه :آية ١٧.

٢) هود :آية ٧٢.

٣) الزمخشري : الكشاف :٧٥/٤.

٤) تفسير الطبري: ١٦/ ١٥٤، وتفسير البغوي: ٣/ ٢١٤، والمحرر الوجيز: ١٠/ ١٧,إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٥٤٦).

٥) إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٥٤٦).

٦) من اسرار التعبير القرآني : د. فاضل السامرائي , ص٤٥.

٧) سورة الاعراف : آية ١٠٧ .

٨) سورة الشعراء : آية ٣٢.

٩) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٩٢).

١٠) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٢/ ٨٤٣).

مسيل الماء في الوادي وجمعه ثعبان([1]) قلت اما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وعلى هذا فكل ثعبان حية وليس كل حية ثعباناً([2]) واما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات والجان دقيق([3]).

كلمة الجان ذكرها في موطن خوف موسى (عليه السلام) في القصص (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ([4]) وفي النمل (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ([5]).

*** اللمسة البيانية (٧) :**

حينما تكلم ربنا تبارك وتعالى على سيدنا موسى قال (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ([6]) ولما تكلم عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال تعالى (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ([7]) فما الفروق الدلالية بين الآيتين؟

الصنع يكون في بداية الأمر، هو الكلام على موسى (عليه السلام) تكلم على ولادته ونشأته (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى , أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ([8]) هذا في مرحلة طفولته (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى , وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي([9]) والرسول (صلى الله وعليه وسلم) بعد الأربعين يحمل همّ الرسالة كيف يقال له تصنع

---

١) محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ,مختار الصحاح (ص: ٣٦) , ت ٧٢١, تحقيق محمود خاطر.

٢) من اسرار البيان القران : د. فاضل السامرائي ص٤٥.

٣) الزمخشري : الكشاف: ٧٥/٤.

٤) سورة القصص : آية ٣١.

٥) سورة النمل : آية ١٠.

٦) سورة طه : آية ٤١.

٧) سورة الطور : آية ٤٨.

٨) سورة طه : الآيات ٣٨ _٣٩.

٩) سورة طه : الآيات ٤٠_٤١.

على عيني؟ وإنما هو يحتاج إلى رعاية الآن للتبليغ. الدلالة العامة لقوله (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) أي ينشئك بالصورة التي يريدها ابتداء ويهيأ المكان الذي يريده ولما قال عن النبي (صلى الله وعليه وسلم) (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) يعني يحفظك، كما قال (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ, تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ([1]) السفينة قال تجري بأعيننا يعني برعايتنا وحفظنا,(وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ([2]) يعني يحفظك أنت تحت رعايتنا وحفظنا نراقب الأمر (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ([3]) نحن نراك ونحفظك ونحميك ونرعاك يعني أنت تحت رعايتنا.

* **اللمسة البيانية** (٨) ما دلالة تقديم السمع على البصر؟

قدم السمع على البصر لأن من يسمعك أقرب إليك ممن يراك، أنت ترى النجوم والكواكب والشمس والقمر وترى رجلاً من بعيد ولا تسمع صوته (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ([4]) يشعر بالقرب والطمأنينة وفي مجال الدعوة والتبليغ السمع أهم من البصر, قالوا لان السمع أفضل وهو أهم في مجال الدعوة والتبليغ لان الاصم أبعد عن الفهم من الاعمى , أو لأسباب اخرى([5]) , فلما كان مقام النصر والدفع قدم ما هو اولى بالتقديم وهو الارجل ثم الايدي ثم البصر ثم السمع ([6]), لذلك كان التصوير القرآني لرؤى هذه المشاهد بالبصر أولًا، ولأن الأمر هنا مختص بالله –عز وجل– لا بالبشر، فسبحانه وتعالى يستوي لديه المسموعات والمبصرات على سبيل الانكشاف التام([7]).

* **اللمسة البيانية (٩):**

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهْتَدَى)([8])

---

١) سورة القمر الأيات ١٣_١٤.

٢) سورة المائدة : آية ٦٧.

٣) سورة طه : آية ٤٦.

٤) سورة طه : آية ٤٦.

٥) ينظر : التعبير القرآن ص ٥٥.

٦) من اسرار البيان القرآني , د. فاضل السامرائي, ص١١٧.

٧) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية (ص: ٧١).

٨) طه : (٨٢).

وإني لغفار لمن . . . . .عن الشرك { وآمن } بما يجب الإيمان به { وعمل صالحا ثم اهتدى } ثم استقام على الهدى المذكور[1] .

الاهتداء : هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح .[2]

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً قَالَ كَذالِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذالِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [3]

ومن أعرض عن . . . . .الضنك : مصدر يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث .[4]

فإن له معيشة ضنكا } ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوي فيه المذكر والمؤنث وقرىء ضنكى ازديادها خائفا على انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع أنه تعالى قد يضيق بشؤم الكفر ويوسع ببركة الإيمان[5].

قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع في قوله عز وجل : (وإني لغفار لمن تاب) أي من الشرك (وآمن) أي بعد الشرك (وعمل صالحا) صلى وصام (ثم اهتدى) مات على ذلك[6].

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بفضله الصالحات، الحمد لله الذي ينجي العبد من السيئات، الحمد الذي بعونه نبلغ أقصى الغايات. ولله الفضل وحده في إكمال مسيرة البحث حتى آخر الورقات في رحاب الآيات القرآنية، والمعاني الإيمانية التربوية العظيمة، ويمكن أن أُسجل أهم مطالع غرس هذا الزرع ما عرضته في هذا البحث المتواضع ليس الا محاولة في التفسير البياني للمعجزة الخالدة , وحرصت فيها ما استطعت على ان أخلص لفهم النص القرآني منهما مستشفيا روح العربية ومزاجها مستأنسة في كل لفظ بل في كل حركة ونبرة بأسلوب القران نفسه, على هدي التتبع

١) تفسير البيضاوي (٤/ ٦٤).

٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ٨١).

٣) طه : (١٢٤).

٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ٩٥) .

٥) تفسير البيضاوي (٤/ ٧٥).

٦) تفسير القرطبي (١١/ ٢٣١).

الدقيق لمعجم الفاظه والتدبر الواعي لدلالة سياقه والإصغاء المتأمل الى ايحاء التعبير القرآني ، وبيان أسراره ومغازيه لجمهرة المسلمين، بعد أن كانت تقوم أمامهم عقبات تلو عقبات فمن مصطلحات للعلوم لا تستسيغها إلا طوائف ممن تخصصوا لدرسها، ومن تفسير لنظريات طبية أو فلكية دلت أبحاث العلماء المحدثين على أن تفسير العلماء القدامى لها كان مجانفا للحقائق التي أثبتها العلم الحديث، ومن قصص دوّن فى كتب التفسير يعوزه الدليل النقلي الصحيح، ولا يوافق على صدقه العقل الرجيح، ولا سيما قصص الأنبياء وأخبار الأمم البائدة، وبدء التكوين، وخلق السموات والأرض(١) , وهكذا كانت تمر الليالي والأيام، فلا أجد مع ذلك الجهد إلا انشراحا وسرورا بمواصلة العمل , بعد رحلة مضنية , صعب فيها على المرء أن يخرج من بيته ليمارس حياته الطبيعية فضلا عن طلب العلم , أتممت بفضل الله تعالى هذه البحث وتوصلت للنتائج الآتية :

١- أن الذي يفسر بيانيا يجب ان يكون عالماً في فنون شتى : كالنحو , والبلاغة , والأدب , والبيان , والتفسير , وعلوم القرآن , والفقه , والعقيدة , وما إلى ذاك .
٢- المفسر اللغوي يبدى اهتماما كبيرا بعلوم اللغة العربية : فيخرج الشواهد الشعرية , ويرجع المفردات إلى جذورها . وأبدى رأيه في المسائل النحوية والبلاغية .
٣- غلب على عبارة الاختصار والإيجاز فصعب فهم المراد منها , لذا لا يفهم الكتاب إلا باقترانه بتفسير اللغوي .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. , أبو القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقري (ت: ٤١٠هـ) الناسخ والمنسوخ للمقري , المحقق: زهير الشاويش , محمد كنعان , المكتب الإسلامي – بيروت , ط١ ١٤٠٤ هـ , عدد الأجزاء: ١.

١) تفسير المراغي (٣٠/ ٢٧٣).

٢. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ), المفردات في غريب القرآن : المحقق: صفوان عدنان الداودي , دار القلم، دمشق بيروت.
٣. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)المفردات في غريب القرآن , ت: صفوان عدنان الداودي, دار القلم، – دمشق , ط١ – ١٤١٢ هـ.
٤. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل, دار إحياء التراث العربي – بيروت الأجزاء / ٤ , تحقيق: عبد الرزاق المهدي.
٥. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت: ٤٧١هـ) أسرار البلاغة , , مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة , الأجزاء: ١ .
٦. أبو بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني , [دلائل الإعجاز – الجرجاني] دار الكتاب العربي – بيروت , ط١ ، ١٩٩٥ , تحقيق : د.محمد التنجي.
٧. أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ,تفسير القرطبي دار الشعب , القاهرة الأجزاء ٨.
٨. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) تأويل مشكل القرآن , المحقق: إبراهيم شمس الدين , دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٩. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ) غريب القرآن , المحقق: أحمد صقر, دار الكتب العلمية السنة: ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م.
١٠. أبي حيان الأندلسي ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م. تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب تأليف : تحقيق : الدكتور جميل عبد الله عويضة .
١١. أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين (ت: ٣٩٥هـ), معجم مقاييس اللغة ت:عبد السلام محمد هارون , دار الفكر ١٣٩٩هـ– ١٩٧٩م الأجزاء: ٦ .
١٢. إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم إعراب القرآن ، (ت٥٣٥هـ) ت:د. فائزة بنت عمر المؤيد.

١٣. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان طبع عيسى البابي الحلبي ، الطيار، د. مساعد، مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير .

١٤. زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: ٦٦٦هـ) مختار الصحاح , المحقق: يوسف الشيخ محمد , المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا , الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م , عدد الأجزاء: ١

١٥. شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣ هـ) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف), التحقيق: إياد محمد الغوج , القسم الدراسي: د. جميل بني عطا , المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب:د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم , ط١، ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣ م.

١٦. الشريعة للآجري, أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (ت : ٣٦٠هـ) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب

١٧. ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد (ت: ٦٣٧هـ)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر , ت: أحمد الحوفي، بدوي, دار نهضة ، القاهرة , الأجزاء: ٤.

١٨. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ) معترك الأقران في إعجاز القرآن, دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨م , الأجزاء: ٣.

١٩. عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي الزجاجي,(ت: ٣٣٧هـ) حروف المعاني والصفات ت: علي توفيق الحمد, مؤسسة الرسالة – بيروت , ط١، ١٩٨٤م الأجزاء: ١

٢٠. عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم بن فهد بن حمد بن جبرين (ت: ١٤٣٠هـ)التعليقات على متن لمعة الاعتقاد , اعتنى به: أبو أنس علي بن حسين أبو لوز , دار الصميعي للنشر والتوزيع ط١، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م , الأجزاء: ١.

٢١. عبد المتعال الصعيدي (ت: ١٣٩١هـ) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة مكتبة الآداب , الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م , عدد الأجزاء: ٤.

٢٢. عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين ابن الحاجب الكردي المالكي (ت: ٦٤٦هـ) , أمالي ابن الحاجب , دراسة وتحقيق: د. فخر صالح سليمان قدارة دار الجيل – بيروت , ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م عدد الأجزاء: ٢.
٢٣. العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ١٢٧٠هـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني , تحقيق دار إحياء التراث العربي بيروت , (٦٥٤هـ/ ت ٧٤٥هـ) , تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض دار الكتب العلمية , ١٤٢٢هـ –٢٠٠١م , لبنان, عدد الأجزاء ٩.
٢٤. عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) البيان والتبيين, دار ومكتبة الهلال، بيروت , ١٤٢٣ هـ , عدد الأجزاء: ٣.
٢٥. محمد إبراهيم محمد سالم (ت: ١٤٣٠هـ) , فريدة الدهر في تأصيل وجمع القراءات دار البيان العربى – القاهرة , ط١، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م , عدد الأجزاء: ٤.
٢٦. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ , الدار التونسية للنشر – تونس , سنة النشر: ١٩٨٤ هـ , عدد الأجزاء : ٣٠.
٢٧. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير, الدار التونسية للنشر – تونس , ١٩٨٤ هـ.
٢٨. محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر, سنة الولادة ٢٢٤/ الوفاة ٣١٠ , جامع البيان عن تأويل آي القرآن , دار الفكر , ١٤٠٥, بيروت , الأجزاء ٣٠.
٢٩. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ) لسان العرب, دار صادر – بيروت , ط٣ – ١٤١٤ هـ عدد الأجزاء: ١٥ .
٣٠. محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المبرد (ت: ٢٨٥هـ) المقتضب , ت: محمد عبد الخالق عظيمة , عالم الكتب. – بيروت , الأجزاء: ٤.
٣١. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي , (٦٥٤هـ/ ت٧٤٥هـ) , البحر المحيط , ت: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض، دار الكتب العلمية.

٣٢.محمد علي السَّراج , اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل , مراجعة: خير الدين شمسي باشا دار الفكر – دمشق , ط١، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م ,عدد الأجزاء: ١

٣٣.محمد قطب: من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر، ، دار الشروق – القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م.

٣٤.مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير الطيار، د. مساعد.

٣٥. ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل, المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي , دار إحياء التراث العربي – بيروت , ط١ – ١٤١٨ هـ .

٣٦.نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت: ٥٧٣هـ) , شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم , المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله , دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، ط١– ١٤١٢ هـ.

٣٧.يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ) شرح المفصل للزمخشري , دار الكتب العلمية،– لبنان , ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م , الأجزاء: ٦

Conclusion

Praise be to Allaah, through whom good works are carried out.

I am able to record the most important insights of planting this transplant. To understand the Koranic text of them hospitalized the spirit of the Arab mood and domesticated in every word, but in every movement and tone in the style of the Koran itself, on the basis of careful tracking the glossary of words and conscious reflection of the significance of the context and listen to reflective intimation of the Koranic expression And the statement of secrets and significance of the Muslim community, after they were before them obstacles after obstacles, it is the terms of the science is not only desirable groups of those who specialize to study, and the

interpretation of medical or astronomical theories of modern scientists have shown that the interpretation of ancient scholars was free of the facts established by modern science, and Stories recorded in the books of interpretation lacks the correct transport evidence, and does not agree with the sincerity of the preponderant mind, especially the stories of the prophets and the news of the defunct nations, the beginning of formation, and the creation of the heavens and the earth.()

Thus, the nights and days were passing, and I find that effort, however, is only a pleasure to continue working.

After a painstaking journey, in which it is difficult to go out of his home to practice his normal life as well as seek knowledge, I have completed this research thanks to God Almighty and reached the following results:

1_That who is interpreted graphically must be a scientist in various arts: Kalmoh, rhetoric, literature, statement, interpretation, science of the Koran, jurisprudence, doctrine, and so on.

2_linguistic interpreter shows great interest in the science of Arabic language: come out poetic evidence, due to the vocabulary to the roots. He expressed his opinion on grammatical and rhetorical matters.

3_beat the phrase abbreviation and brevity is difficult to understand the intended, so the book does not understand only in conjunction with the interpretation of linguistic.

توظيف الإضاءة والمؤثرات الضوئية في مسرح الدمى

أ.م.د. نذير عبد الغني محمد العزاوي، كلية الفنون الجميلة جامعة الموصل – العراق

مشكلة البحث: هناك فجوة بين فن مسرح الدمى، والتقنيات المستخدمة في المسارح الحديثة عامةً، والإضاءة الرقمية خاصةً، ويحاول البحث ردم هذه الفجوة للوصول الى أفضل النتائج وتحقيق التكامل الفني المتسم بالإبداع.

أسئلة البحث:

١- هل للإضاءة والمؤثرات الضوئية دور في مسرح الدمى؟

٢- هل لمسرح الدمى دور فاعل في تقويم سلوك الأطفال؟

٣- هل للإضاءة الرقمية دور في عروض مسرح الدمى؟

٤- ما هي أهم الاستخدامات الفنية لعنصر الإضاءة في مسرح الدمى؟

أهداف البحث: يهدف البحث الى تعريف القارئ بوظيفة الإضاءة والمؤثرات الضوئية في عروض مسرح الدمى كما يسلط الضوء على جانب حيوي وفعّال في نوع من أنواع مسرح الطفل وهو مسرح الدمى، وهذا الجانب الفعّال هو الإضاءة والمؤثرات الضوئية.

أهمية البحث: تفتقر المكتبة العربية للبحوث التي تدور في فلك التقنيات المستخدمة في مسرح الدمى، واقتصرت على العلاقة بين مسرح الدمى والطفل، أو أثر مسرح الدمى على الطفل، واستخدام مسرح الدمى في تقويم سلوك الطفال، وأغفلت عروض مسرح الدمى، والوسائل المستخدمة في هذا المسرح وتقنياته، مما يجعل الحاجة إلى مثل هذه البحوث ملحّة، وذات أهمية بالغة، لرفد فناني مسارح الدمى بدراسات تسبر غور هذه التقنيات ومن بينها الإضاءة.

منهج البحث: اعتمد اباحث على المنهج التحليلي الوصفي.

المقدمة

لا مسرح بدون إضاءة، إلاّ تلك العروض التي تقدّم في وضح النهار باستثمار الشمس، أما العروض المسرحية داخل المسارح، فتحتاج إلى إضاءة صناعية توحي بالشمس والقمر، وتساعد في رؤية الممثلين على خشبة المسرح؛ ومسرح الطفل يحتاج إلى الإضاءة أكثر من مسارح الكبار، لأنّ الإضاءة الفياضة تشدّ الطفل أكثر من الإضاءة الخافتة، ولمّا كانت عروض مسرح الدمى هي من أقرب العروض المسرحية إلى قلب الطفل، فإن عنصر الإضاءة هو من أهم عناصر التقنيات المسرحية المستخدمة في مسرح الدمى، وقد نستغني عن بعض التقنيات، أو نستخدم بدائل عنها، إلاّ الإضاءة فلا يمكن الاستغناء عنها، فلا رؤية من دون إضاءة، ولا مسرح بدون رؤية (لذلك تلعب الإضاءة دوراً أساسياً في إظهار الملامح الأساسية للعمل الدرامي، ومن دونها لا يمكن أن نرى العرض ونستمتع به. وهي أول العناصر في العرض المسرحي التي تؤثر في شبكية عين المتفرج وترتبط بعقله)[١]، فيرى العرض ويستمتع به.

الفصل الأول

<u>أهمية البحث والحاجة إليه</u>: تفتقر المكتبة العربية للبحوث التي تدور في فلك التقنيات المستخدمة في مسرح الدمى، واقتصرت على العلاقة بين مسرح الدمى والطفل، أو أثر مسرح الدمى على الطفل، واستخدام مسرح الدمى في تقويم سلوك الطفال، وأغفلت عروض مسرح الدمى، والوسائل المستخدمة في هذا المسرح وتقنياته، مما يجعل الحاجة إلى مثل هذه البحوث ملحّة، وذات أهمية بالغة، لرفد فناني مسارح الدمى بدراسات تسبر غور هذه التقنيات ومن بينها الإضاءة.

<u>هدف البحث</u>: تسليط الضوء على جانب حيوي وفعّال في نوع من أنواع مسرح الطفل وهو مسرح الدمى، وهذا الجانب الفعّال هو الإضاءة والمؤثرات الضوئية.

<u>الخلاصة</u>

اشتمل البحث على خمسة مباحث:

---

(١) نورة حمد عمران تريم، تأثير استخدام التكنولوجيا الحديثة في فضاء المسرح العربي، ط١ (الشارقة: دائرة الثقافة والاعلام، ٢٠٠٩)، ص ١٤٦.

جاء المبحث الأول عن دور الدمى الفاعل في تقويم سلوك الطفل، بينما تناول المبحث الثاني وظائف الإضاءة والمؤثرات الضوئية في مسرح الدمى، أمّا المبحث الثالث فقد تناول الإضاءة كعنصر من عناصر التقنيات المسرحية، وسلّط المبحث الرابع الضوء على أهم الاستخدامات الفنية لعنصر الإضاءة في مسرح الدمى ، بينما تناول المبحث الخامس دور الإضاءة الرقمية في عروض مسرح الدمى .

الفصل الثاني –الإطار النظري

المبحث الأول

دور الدمى الفاعل في تقويم سلوك الطفل

من خلال تجربة الباحث في مسرح الدمى في دار حضانة جامعة الموصل [*]، وجد أنّ الطفل يتأثر بالدمى تأثراً كبيراً، حتى أنّ أحد الاطفال يعاني من التهاب مزمن في اللوزتين، وقصد والداه إدارة الدار لمعالجة ولع الطفل الشديد بالمثلجات التي تطرحه في الفراش ما لا يقل عن أربعة أيام، فتمّت معالجته عن طريق مسرح الدمى، وأخ وأخت كانا يمتنعان عن شرب الحليب على الرغم من الإغراءات التي قدمها الوالدان لهما، فتمّت معالجة ذلك عن طريق فعاليتين من فعاليات مسرح الدمى، وشربا الحليب في نفس اليوم، وحالات أخرى كثيرة، تؤكد فاعلية مسرح الدمى في تقديم سلوك الأطفال. ولاسيما (أنّ مسرح الدمى يقدّم أبطالاً يتّفقون مع خيال الطفل من خلال إيهام الطفل بأنّ ما يراه حقيقة وليس خيالاً ، عن طريق إتقان كافة خصائص الطفل ذاته. فإن الإعجاب بالشخصيات البطولية يترك تأثيراً على سلوك الطفل من خلال التشبّه بهكذا أبطال من قبل الطفل. لذا فإن باستطاعتنا أن نستثمر هذا الاتفاق القائم بين خصائص مسرح الدمى، وخيال وميول الطفل وتفكيره، في مجالات تربوية وتعليمية عدة)[١]، ونستطيع أن نحقق الأهداف المنشودة من عروض الدمى المسرحية، فنضخّ عبر هذه المسرحيات ما يحتاجه الطفل من معلومات وأفكار وقيم تربوية وسلوك اجتماعي، فضلاً عن الترفيه والتسلية، وتنمية حسّه الفني،

(٭)هناك قناة للباحث على اليوتيوب بعنوان: (Natheer Azzawi) تعرض بعض أعماله في مسرح الدمى الذي أسسه عام ١٩٩٥ في دار حضانة جامعة الموصل.

(١) أمل الغزالي، "مسرح الدمى بنية تربوية للطفل. دراسة نقدية"، صحيفة المثقف، العدد (٢٤١٢)، ١٣ نيسان، ٢٠١٣، ص ٦.

فقد وجد خبراء التربية (أنّ مسرح الدمى خير معلم للطفل ولتنمية قدراته وتربية ذوقه حتى يشبّ على حبّ الفنّ عامة والمسرح خاصة، ومن خلال المسرحيات التي تقدّم له يمكنه تعلّم الكثير لأنّه تعليم من خلال التسلية وبعيد عن قيود حجرة الدراسة وجفاف شرح المدرس ورتابته)[١]، ولذلك حرص الباحث في مسرحه أن يخفي عن الطفل أسلوب تحريك الدمى، لكي تبقى الدمى في ذهن الطفل شخصيات حيّة، وبذلك يكون تأثيرها أكبر بكثير من تأثيرها عليه وهو يعرف أنها مجرد دمية يحركها الممثل من الأسفل. ومن المعروف أنّ الإنسان لديه الاستعداد الفطري لعنصر الإيهام، وهو عندما يجلس في صالة المتفرجين، يستسلم لعنصر الإيهام، ويستمتع بالعرض ويتأثر به، فيحزن أحياناً ويفرح أحياناً وفقاً لما يعرض أمامه من أحداث، وقد يبكي تأثراً بموقف مؤلم أو محزن، على الرغم من معرفته المسبقة بأنّ كل ما يجري أمامه هو مجرد تمثيل. وكذلك الطفل لديه الاستعداد الفطري لعنصر الإيهام ولكنّ خياله أوسع من خيال الكبار (لذلك فإنّه يستطيع أن يندمج مع أحداث المسرحية بسهولة لأنّه لا يستطيع أن يفرّق بسهولة بين الخيال والواقع، لذلك فإن "عوامل الإيهام المسرحي" تتفق مع "خيال الاطفال الإيهامي وخيالهم الحرّ، وهذا الاتفاق يعدّ من الخصائص المهمة التي يمتاز بها النوع من المسارح، إذ أنّه يسهّل عملية إيصال المعلومة إلى ذهن الطفل)[٢].

وعلى الرغم من فعالية مسرح الدمى، إلاّ أنّ هذا لا يعني الاعتماد على مسرح الدمى من دون اللجوء إلى المعزّزات الأخرى في تربية الطفل وتعليمه، و(يجب أن تتكاتف المؤسسات التربوية من مدرسة وكنيسة [ومسجد]، ووسائل اتصال، في عملية تثقيف الطفل وتربيته، ويمكن أن تتوحد الأهداف لهذه المؤسسات وتعتمد على مسرح الدمى كوسيلة اتصال فعالة بالطفل)[٣]. وجميع الخبراء في مجال الطفل وتربيته ينظرون إلى استخدام الدمى وفعاليتها نظرة تقدير، ويوصون باستخدامها على نحوٍ واسع في مختلف المجالات التربوية، وحتى الدينية منها كاستخدام (الدمى في سرد القصص الدينية، حيث يتحلّق الأطفال حول المربي ليسرد عليهم القصص، والدمى تسرد

(١) نبيل راغب، النقد الفني، ط١ (القاهرة: دار نوبار للطباعة، ١٩٩٦)، ص ١١٤.

(٢) أمل الغزالي، مصدر سابق، ص ٥.

(4)Henry Jenkins, The Children's Culture Reader (New York. New York University Press,1998), p.95.

جزءاً من القصة، مع ضرورة استخدام الغناء في ذلك)[1]، وفي المجال الديني يتفق الخبراء على فعالية الدمى في التوعية الدينية، ومؤازرة مسرح الدمى للمسجد في ذلك مع الترفيه والتسلية، قد (لا تستعين العوائل المسلمة في الغالب بجليسة الأطفال مع أطفالهم، وربما تتغير هذه المفاهيم عندهم في المستقبل، إلاّ أنهم يستعينون إلى جانب المسجد بمسارح الدمى، لتعليم أطفالهم القرآن والسنّة النبويّة، فضلاً عن الترفيه والتثقيف للأطفال وتسليتهم)[2]، والمجتمع الأمريكي يجلّ الدمى ويعترف بفاعليتها المؤثرة، وخصوصاً برنامج "شارع سمسم" فتقول سمانثا عنه: (إنّ الفريق يضمّ العديد من البالغين إلى جانب الأطفال، ولكنّ دمى "جيم هانسون" المتميزة تسرق العرض والجمهور معاً. وتدفعك لتكون صديقاً لشخص يختلف عنك تماماً، وتزيل الفوارق بينكما)[3]، وتؤكد في موضع آخر من كتابها قائلة: (إنّك لن تشاهد شارعاً مثل شارع السمسم "sesame street" فكلّ ما يحدث فيه، ستحبّه بكلّ تأكيد)[4]، وهذا توكيد على فاعلية مسرح الدمى في تقويم سلوك الطفل، ولاسيما أنّ (مسرح الدمى يمتلك إمكانيات فنيّة ودرامية غير متاحة للمسرح العادي.. فالفرق الأساس بين مسرح الدمى الكبيرة والمسرح العادي هو أنّ الدمية في الأول تتشكّل طبقاً لمواصفات الدور الذي تلعبه في حيادية كاملة، في حين أنّ الدور في المسرح العادي يتشكل طبقاً لأسلوب الممثل وشكله وحجمه، مهما حاول القيام به في حيادية كاملة، بل إنّ أسلوبه يختلف من عرض إلى آخر طبقاً لحالته النفسية والصحية، لكن العروسة ليست سوى تجسيد لفكرة المؤلف التي تتحرك أمام عيون المتفرجين)[5]. والطفل يفضل الدمى الحيوانية على الدمى البشرية، لأنّ البشر في حياته الخاصة يبدون كعمالقة من وجهة نظر الطفل بينما الحيوانات الأليفة كالأرنب والبطة والقطة والدجاجة أصغر حجماً منه، فيحسّ بأنه أكبر حجماً منها وأنّه هو المسيطر عليها ولا يخشاها، فنراه يتقرّب منها ويتنمّر عليها، وبالتالي يحب الدمى التي تمثل الحيوانات .

(1)Gale Solotar Warshawsky, Creative Puppetry for Jewish Kids (Denver: Alternatives in religious Education. Inc, 1985), P.31.

(2)Don S.Browning and Bonnie J. Miller – Mclemore, Children and Childhood in American Religions (New York: Rutgers, 2009), p. 137.(

(3) Smantha Chogollan, and Erike Milvy, 101 T.V Shows to see before you grow up. (New York: Walter Foster Jr, 2017), p. 7.

Ibid, p.6.)4(

(٥) نبيل راغب، مصدر سابق، ص ص ١٠٩، ١١٠.

المبحث الثاني – وظائف الإضاءة والمؤثرات الضوئية

إن أهم وظائف الإضاءة في المسرح هي:

١– الرؤية

٢– التأكيد

٣– التكوين

٤– الجو النفسي العام

٥– الإيهام بالطبيعة

١. **الرؤية:** إنّ أهم وظيفة من وظائف الإضاءة هي إتاحة الفرصة للمتفرج لرؤية الممثلين على خشبة المسرح، ولذلك تعدّ (الرؤية هذه هي الأساس، والبعض سيقول هي الوظيفة الوحيدة للإضاءة، صحيح أنّ الضوء ضروري من أجل الرؤية، ولكن ليس للضوء هذه الوظيفة فقط، فهناك المسافة، فالممثل الذي يلوّح بيده تكون رؤيته من الشخص الجالس في الصف الأول غير رؤيته من الشخص الجالس في الصف الأخير من قاعة المسرح لذلك من واجب مصمم الإضاءة أن يعرف فيما إذا كانت الرؤية جيدة من الصف الأخير من الجمهور)[١]، والإضاءة من أجل الرؤية لا تختلف كثيراً عن العروض التي كانت تستثمر ضوء النهار في العرض، وقد (استمرت الأعمال المسرحية في العرض أثناء النهار باستخدام ضوء الشمس ...؛ وكان الممثلون يحملون المشاعل للتعبير عن كون المشهد يحدث في الليل، وعندما دخل العرض إلى قاعات المسارح بدأت عملية استخدام الشموع للإضاءة في محاولاتهم العرض المسرحي في المساء)[٢]، وإذا كانّ أدولف آبيا من المهتمين بتطوير الإضاءة، والتفنن في استخدامها إلاّ أنّ الذين سبقوه هم الروّاد وأصحاب الفضل في نقل العرض من العراء إلى داخل قاعات المسرح، (وربما يعود الفضل إلى كلّ من ريتشارد هوسلي، وريشتارد ساوثرن – اللذان صبّا اهتمامهما على مسرح العلبة أو العرض داخل القاعات المغلقة والمسقفة – في البدء بتطوير وسائل الإضاءة بدءاً بالشموع، إذ لولا نقلهما العرض

(1) Jody Briggs, Encyclopedia of Stage Lighting (London: McForland and Company, Inc.,2015), p. 321.

(2)Ward Leonard, Theatre Lighting Past and Present (New York:Elctric Company, No Date), p.9.

إلى الداخل لما تابع المخترعون اهتمامهم بتطوير وسائل الإضاءة وأجهزتهما)[١]، وليس الممثل وحده الذي سيظهر على خشبة المسرح، وليست الدمية التي ستظهر على خشبة المسرح وحدها، فهناك الديكور، والأزياء، والمستلزمات المسرحية "الإكسسوارات"، ولذلك فعلى الرغم من أنّ (السبب الأولي للإضاءة في المسرح هو لإضاءة الممثل، إلاّ أنّ السبب الثاني هو لتكملة الخلفية والجو العام للمنظر المسرحي.

والممثل يؤدي على خشبة المسرح حيث يمكن أن يراه الجمهور، بينما صالة المتفرجين مظلمة، بمعنى أنّ الجمهور يجلس في الظلام، عندها سيرون الممثل أعظم سطوعاً مما نرى فيه الناس في الحياة العادية)[٢]، وللتوازن بين إضاءة الدمية وإضاءة الخلفيات التي وراءها وحتى الزّي الذي ترتديه الدمية، لأنّ (وجوه الممثلين هم أكثر الأشياء إضاءة على خشبة المسرح، والمشكلة عندما ترى الوجوه ضد خلفية بيضاء اللون أو أي لون آخر يكون انعكاس الضوء عليها أفتح من لون البشرة، عندها سيكون انعكاس الإضاءة على الخلفية أكثر بريقاً من الضوء المنعكس على البشرة، وهذا يسبب مشكلة في الإضاءة، وليس المقصود بالخلفية الديكورات فقط، فالقميص الأبيض الذي يرتديه الممثل سيسبب المشكلة ذاتها)[٣]. وهذه الأمور يجب أن ينتبه لها مصممو الإضاءة، ويعرف تفاصيل الأزياء والديكور، لكي يستطيع أن يضع التصميم المناسب للإضاءة.

٢. **التأكيد**، أو التركيز: ويقصد بذلك أنّ الإضاءة تسلّط على جزء معين من خشبة المسرح، أو على ممثل معين دون بقية الممثلين، و(مما لا شك فيه أنّ الإضاءة في عالم المسرح تعدّ من العوامل الأساسية في التكوين المسرحي. فمن خلال تركيز ضوء معين على مجموعة ممثلين أو تشكيلات ديكور والإكسسوار والأثاث تتم عملية إبصار الجمهور لهذه التركيزات المحدّدة، وبالتالي يتمّ التأثير والتأثر الذي هو هدف مهم من الأهداف التي يسعى مخرج العرض المسرحي إلى تحقيقه)[٤]. فنعني من هذه الوظيفة أنها تعتمد على الاتفاق المبرم بين المخرج ومصمم الإضاءة

(3)R.B.Graves, Lighting The Shakespeorean Stage, 1567 – 1642 (London: Southern Illinois university press, 2009), p. 28.

((4)Esmé Crampton , A Handbook of The Theater, 2nd, ed. (Toronto: Gage Educational Publishing Limited, 1972) P. 153.

(3) Jody Briggs, op.cit, P. 326.

(٤) عثمان عبد المعطي عثمان، عناصر الرؤية عن المخرج المسرحي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦)، ص ١٦٨.

في اختيار الأجزاء التي يجب إضاءتها دون غيرها في وقت متفق عليه، وهذا يعني أنّ هناك ضوء وظل على خشبة المسرح لأنّ (الضوء مركز البنيات الشكلية كلّها التي تشارك في العرض المسرحي، ولا وجود لها بدونه لأنّه يحرّك العناصر الداخلة في تأليفها كافة، من خلال كثافته وشدّة سطوعه)[١]، وفقاً لوجهة نظر المخرج، في تحليله للنصّ المسرحي، وأيّ المشاهد هي التي سيركّز عليها بالإضاءة دون غيرها، وأيّ الشخصيات سيتابع حركتها على خشبة المسرح، إذ (أنّ الأهمية القصوى التي يضطلع بها المخرج بصياغة رؤياه على نحوٍ مثيرٍ وفعّالٍ وجمالي أول ما يستند إلى أهمية تأكيد الشخصية المحورية في التشكيل بوصفها بؤرة المشهد، من خلال الوضعية الموحية والمساحة الحركية والخلفية الساندة)[٢]، ولهذا نرى أنّ المخرج يولي اهتماماً كبيراً للإضاءة، أكثر من بقية عناصر السينوغرافيا في المسرح، لأنّ الإضاءة الجيدة (من بين جميع الحرف التي يستخدمها المخرج في تدعيم عمل ممثليه لأنها أكثر مرونة وأقدر على التعبير. ولا يلجأ إليها المخرج لإضاءة المسرح والممثلين فقط، بل أنّ يختار ما يضيئه من أشياء، وبمعنى آخر، الإضاءة المسرحية تساعد في تركيز انتباه المتفرجين، وتوجيه أنظارهم إلى كلّ ما هو هام وجذّاب على خشبة المسرح وإغفال ما عداه)[٣]، وليس موضوع الظل والضوء مقتصراً على المسرح فحسب، بل على الفنون السمعية والمرئية عموماً نحو السينما والتلفزيون، (فالإضاءة تعمل في نطاق الإفصاح عن الأشياء المعروضة على الشاشة وهي لذلك تتناسب مع المكان بعناصره وصفاته وأنواعه، أيّ أنّها تفسّر الأشياء وتصنّفها من خلال التدرج في مستويات الضوء والظل)[٤]، وهذا الإفصاح يعتمد على الرؤيا الخاصة للمخرج، ويقوم مصمم الإضاءة بترجمتها عن طريق الإضاءة، فيشترك المصمم مع المخرج في إبراز الهدف الذي تسلّط عليه الإضاءة، (فإذا ما سلّطت الكشّافات على جزء من البلاتوه دون سواه كان معنى هذا أنّ الجزء المضاء هو المكان الذي تجري فيه الأحداث مؤقتاً، كما أنّ ضوء الكشافات، يمكن أن يعزل أحد الممثلين عن الآخرين، والغرض من هذا ليس تحديد

---

(١) جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام في العرض المسرحي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧)، ص ٢٠١٦.

(٢) حسين علي كاظم التكمه جي، "وسائل المخرج في صياغة العرض المسرحي لتعزيز الاستجابة لدى المتفرج" ،أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة إلى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، ٢٠٠٠)، ص ٥٧.

(٣) فرانك م. هوايتنج، المدخل إلى الفنون المسرحية، تر. كامل يوسف وآخرون (القاهرة: دار المعرفة، ١٩٧١)، ص ٣٧٩.

(٤) طاهر عبد مسلم، عبقرية الصورة والمكان – التعبير – التأويل – النقد، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ص ٧٠.

المكان المادي الذي يشغله الممثل أو الشيء فحسب، وإنما إبرازهما بالنسبة لما يحيط بهما، ومن ثمّ تصبح الإضاءة دلالة لأهمية الممثل والشخصية التي يتقمصها، أو أهمية الشيء سالف الذكر)[١]، فعلى سبيل المثال: إنّ الخاتم الذي يقدمه مرجان(في العمل المسرحي أمّي) هدية لزوجته فلّة أم ديسم وهالة ودبدوب صغير الحجم فكان لابدّ من تركيز انتباه الجمهور لهذا الخاتم الذي يقدّم لفلّة بمناسبة عيد الأم وذلك بأن تخفت الإضاءة وتسطع بقعة ضوء على الخاتم ، فيراه الجمهور لتركّز الإضاءة عليه ،لذلك فإنّ (المشاهدين في المسرح. أمامهم المسرح بأكمله مع زاوية نظرهم على العموم طوال الوقت، ولذلك لا يوجد أمام المخرج المسرحي أو مصمم الإضاءة إلاّ اختيار البقعة التي يتمّ اختيارها لتضاء بينما تغرق بقية خشبة المسرح بالظلام)[٢]، ولكن حتى مع التقريب البؤري في السينما والتلفزيون لابدّ من وجود الإضاءة.

٣. **التكوين**: الوظيفة الثالثة للإضاءة هي التكوين أو الإنشاء، ويتم ذلك بتسليط الضوء على الديكور والممثلين لخلق تجانس في عموم الصورة للسينوغرافيا على خشبة المسرح، (وعندما يظهر ذلك الفضاء بكلّ تلك الأشياء ضمن الصورة المرئية كلغة فنية معبرّة، فإنها تضفي أسلوباً ومنهجاً جديداً يضاف إلى العناصر الأخرى (الممثل والحوار..) والتي تساعد على نمو وتطوّر البناء الدرامي)[٣]، لذلك سيغدو الجانب المرئي من المسرح أو التلفزيون أكثر جمالاً وأشدّ تأثيراً في المتفرج، فتوزيع الكتل من ديكور ومجاميع بشرية أو دمى على خشبة المسرح مع حسن تصميم الإضاءة. و(في أيامنا هذه يمتلك مصمم الإضاءة تشكيلة واسعة من الأدوات والأجهزة الخاصة بالإضاءة، وهي متاحة بين يديه ليستخدمها كيفما يشاء في تصميمه)[٤] للإضاءة، فهو يضيء الديكور ويسلّط أجهزته على الممرّات بين قطع الديكور كما يسلّطها على الممثلين، إلاّ (أنّ نسبة الإضاءة الساقطة على الجدران يجب أن لا تتجاوز ٢٠٪ إلى ٢٥٪، وذلك لئلّا تُشغل الجمهور عن الحدث من جهة، ولكي نستطيع أن نعلّق على الجدران بعض أجهزة الإضاءة المنزلية التي

(١) ثورة يوسف يعقوب،"سيميائية الجسد عند الممثل المسرحي"، رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، ١٩٩٥، ص ٤١.

(1)Francis Reid, The Stage Lighting Handbook, sixth edition (New York: Butler and Tanner Ltd.,2013), pp. 5,6.

(٣) علاء مشذوب عبود الخفاجي، توظيف السينوغرافيا في الدراما التلفزيونية، ط١ (بغداد: دار الشئون الثقافية (العامة،٢٠١٢)، ص ١١٧.

(2)Blain Brown, Motion Picture and Vided Lighting, 2nd, Edition (Amsterdam: Focal Press,2007), p.9.

يفترض وجودها على جدران الديكور الداخلي، وإعطاء الفرصة لامكانية إضاءة خلفيات الديكور)[١]، وكما هو الحال في اللوحة التشكيلية عندما نقوم بتوزيع الكتل اللونية، وتوزيع الشخوص مع المحافظة على التوازن في التكوين، فلا نجعل الممثلين أو الدمى جميعاً في يمين المسرح ويبقى الجانب الأيسر خالياً فهذا سوء في التوزيع، صحيح (أنّ تكوين المناظر المسرحية يتقبلّ جعل جميع الأشكال البصرية تتوزع على نحو يجمعها كوحدة واحدة، ووحدة التكوين تعتمد على التوازن)[٢]، إلاّ أنّ الإضاءة تساهم في دعم التكوين والتوازن على خشبة المسرح، وذلك عن طريق التنويع (فالتنويع في توزيع الإضاءة، والتنويع في الكمية المستخدمة لهذه الإضاءة عاملٌ مهم من عوامل التكوين الجمالي للمنظر المسرحي وبالدرجة الأولى عامل مساعد على توصيل مفهوم المخرج ومجموعة الممثلين للنصّ أو العرض المسرحي)[٣]. بمعنى آخر أنّ الصورة المتكاملة التي يراها المتفرج على خشبة المسرح تتشكل بتظافر جهود مصمم الديكور المسرحي مع مصمم الأزياء مع مصمم المكياج ومع مصمم الإضاءة، وبإشراف المخرج، إلاّ أنّ الإضاءة (هي المحرك الرئيس لتشكيل الصورة المتكاملة للعرض أمام الجمهور، وتتسّيد المشهد من خلال تأثيرها المباشر في ذائقة المتلقي، فهي عملية إبداعية يتمخض عنها نتائج جمالية مبهرة تتولّد من الحركة المتاحة لها عبر التنقلات في فضاء العرض، وينتج عن ذلك متابعة المتلقي لها أكثر من أي عنصر آخر في التشكيل المشهدي، فالديناميكية الخاصة بالضوء تأخذ بالهيمنة على عملية التصميم في المراحل الأخيرة من تصميم الإنتاج أكثر من جميع العناصر البصرية)[٤] الأخرى، وللأسف فإنّ التمرينات التي يفترض أن يجريها الفريق مع الإضاءة قبل العرض بفترة مناسبة، إلاّ أن الغالب هو إجرائها ليلة العرض أو حتى قبل العرض بساعات مما يجعل التشكيل البصري والتكوين ضعيفاً لأنّه لم يأخذ الاهتمام المناسب له. ولأنّ الإضاءة تقوم (على أسس منها: كثافة الضوء، توزيع الإضاءة، حركة الإضاءة. ولكلّ من هذه الأسس معايير معينة، بها يمكن إنجاح العرض، كما أنّ عدم ضبط

---

(١)Hunton D.Sellman, Essentials of stage Lighting, (New York:Merdith Corporation, No Date), p. 165

(٢)R.Graig Wolf, Dick Block, Scene Desgin,and stage Lighting, 10th Edition, (New York: Wads worth,2013),p.32.

(٣) عثمان عبد المعطي عثمان، مصدر سابق، ص ١٦٩.

(٤) جبار جودي،"ديناميكية الإضاءة المسرحية"، جريدة الزمان، العدد (٢٣٣١)، ١٣ آذار، ٢٠١٧، ص ٣.

إضاءة أيّ لحظة درامية، قد يؤدي إلى إفساد العرض المسرحي ككل)[١]، وعدم إجراء التمرينات اللازمة مع الإضاءة يؤدي أحياناً إلى إضاءة الجزء الخالي من المسرح، في حين تكون حركة الممثل أو الدمية في حيز آخر مظلم مما يفسد العرض، وقد يلجأ المخرج المبتدئ إلى إعتماد الإضاءة الفيضية في العرض من دون تغيير بسبب جهله أهمية الإضاءة في العرض أو لفقر فريقه لمصمم إضاءة أو قلة خبرة المصممين الذين يعملون معه، وهذا غير مقبول تماماً لأنّ (الإضاءة الفيضية العامة لعموم المسرحية تؤدي إلى الملل من ثبات الرؤية على نفس المشهد طوال العرض، لذلك لابدّ من تصميم لإضاءة المشاهد المسرحية بطريقةٍ لا تقود إلى الملل فضلاً عن الجمالية المضافة للعرض)[٢]؛ وعليه يجب على مخرج العمل أنّ يهتم بإضاءة عرضه المسرحي اهتماماً بالغاً، فكما يفكر في إخراج الحركة وأسلوب الإلقاء، يجب أن يفكر كيف ستكون الإضاءة لتلك الحركة بغية تحقيق التوازن مع الجمالية، لإنّ (من المهمات الجمالية التي يضطلع بها الضوء والظل في العرض المسرحي هي ما يتعلّق بإسهاماتها في تحقيق التوازن في الرؤية بالنسبة للمشاهد. حيث أنّ الموازنة في شدّة الإضاءة تساهم من خلال حركة الضوء من مكانٍ ما على المسرح إلى الفضاء)[٣].

وهناك من المخرجين من لا يهتم بتحقيق التوازن على خشبة المسرح، فنراه قد حشد قطعاً من الديكور في جهة وترك المكان فارغاً في جهة اخرى، فالإضاءة لا يمكن أنّ تصلح عيوب توزيع الديكور، وإنما يمكنها أنّ تغمر الديكور بالإضاءة وتعتّم على المساحة الفارغة، أما التوازن فسيكون مفقوداً في هذا العمل، لأنّ التوازن من الخصائص الأساسية التي تلعب دوراً هاماً في تقييم العمل الفني، والأساس براحة نفسية حين النظر إليه، ولاسيما إذا كان الجمهور من الأطفال حيث يتوجب علينا الاهتمام بضرورة إمتاع عيونهم جنباً إلى جنب مع التربية والتعليم والترفيه، لأنّ (استخدام الإضاءة في مسرح الدمى يظهر من خلال التفنن في الألوان المتغيرة، والمبهرة التي تدخل السرور إلى ذات الطفل وتجذبه للمتابعة، وتخيل ما قد يحصل بعد كلّ تغيير، حتى يصل إلى حالة الفرح

---

(١) نورة حمد عمران تريم، مصدر سابق، ص ١٤٧.

(٢)Steven Louis Shelley, A Practical Guide to Stage Lighting(London: focal press, 2013),p 338.

(٣) يوسف رشيد، الإنشاء المسرحي وعناصره، ط١ (بغداد: إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، ٢٠١٣)، ص ١٥٢.

المنتشي، ليكون متألقاً في هذا العالم الخاص به، بحيث يصبح مستعداً لتلقي كلّ ما يقدم له على المسرح)[١]، مع الحذر من المبالغة بالألوان التي تصل بالإضاءة إلى حد البهرجة المشتتة للانتباه، والاعتماد على خطة محكمة ترفع العرض إلى حد الكمال.

٤. **الجو النفسي العام:** من المعروف أنّ شقيّ الدراما: المأساة والملهاة يختلفان في موضوع الإضاءة، إذ تحتاج الملهاة إلى إضاءة غامرة والألوان ساطعة، في حين لا تحتاج المأساة إلى ذلك بل يكفي وجود الإضاءة الازمة للرؤيا مع وجود الظلال والألوان الباردة. وقد (برهنت التجارب على وجود الألوان تساعد على الدفء، وألوان أخرى تعطي الإحساس بالبرودة، والألوان الدافئة هي : الحمراء، البرتقالية والصفراء.

أما الألوان الباردة فهي الزرقاء والقريبة من الزرقاء والخضراء. وقد دلّت التجارب على أنّ اللون الغامق، يبعث على الحزن والأسى. وأنّ اللون الوردي الفاتح يشعر الإنسان بالسعادة والبهجة والارتياح)[٢]، لذلك علينا الاعتماد على الألوان الباردة في إضاءة المسرحية ذات الطابع المأساوي، واستخدام الألوان الحارة في الملهاة، لذلك (يسعى المصمم في البدء إلى جعل الفعل مرئياً في الإنتاج المسرحي، ويعمل بعدها بما يعتقده فنانو المسرح الذين يشعرون بأنّ الملهاة تستدعي إضاءة أكثر شدّة من إضاءة المأساة أو الدراما الجادّة)[٣]، وقد أصبح استخدام هذا النمط من الإضاءة معروفاً وبديهياً عند المحترفين من مصممي الإضاءة و (مهما كان الأمر فإنّ لون وشدّة الضوء يجب أن تكون مناسبة لإحساس الأشخاص، ومناسبة للجو النفسي المحرّك للمسرحية، أو مناسبة لبعض المناظر)[٤].

وقد تحتوي المسرحية على مجموعة من الأجواء النفسية المختلفة، فمسرحية مكبث لشكسبير مجموعة متباينة من ذلك، فمشهد الساحرات يحتاج إلى إضاءة من الأسفل لتعميق التشويه في

---

(١) أمل الغزالي، مصدر السابق، ص ٧.

(٢) محمد حامد علي، الإضاءة المسرحية (بغداد: مطبعة الشعب،١٩٧٥)، ص ٢٢٩.

(3)Stephen M. Archer, and Others, Theater, Its Art and Craft, 5th. Edition (Columbia: Collegiate Press, 2003)

(٤) فيليب فان تيجمان، التكنيك المسرحي، تر. يوسف البدري (الإسكندرية: مكتبة الاسكندرية، بلا ت.)، ص ٤٩.

صورة وجوه الساحرات و (يستطيع ايّ شخص أن يرى تأثير التشويه الذي تحدثه الإضاءة من الأسفل إلى الأعلى على الوجه، والتعبير المروّع للظل الضخم على الجدار)[١]، والظلال التي تسببها الإضاءة السفلية على وجه الساحرات يجعل الوجوه تبدو مخيفة، في حين تعطي الإضاءة العلوية مسحة ملائكية وتعطي انطباعاً من البراءة على الوجه الذي تسقط عليه الإضاءة القوية. ومشهد دخول الشبح له إضاءة تختلف عن إضاءة الساحرات، ومشهد المعركة له إضاءة أخرى مختلفة عن سابقاتها. والجو النفسي العام يعتمد على النص الذي وضعه المؤلف وأسلوب الإخراج الذي فصّله المخرج، ومثال ذلك المشهد التالي: (يا لجمال ضوء القمر الذي ينعكس على صفحة الشاطئ، هنا سنجلس، وندع أصوات الموسيقى تناسب إلى مسامعنا، ناعمة نعومة الليل، وتصبح اللمسات الناعمة لجمال التناغم منساقة مع رسم بريق الذهب. هنا استخدم المؤلف الضوء المنعكس والبريق في حوار الشخصية الذي يدفع مصمم الإضاءة إلى أن يستلهم منه تصميمه لإضاءة المشهد والجو النفسي العام له)[٢]، وبإشراف المخرج، لأنّ المخرج الناجح هو الذي يستطيع أن يستثمر تصاميم الإضاءة التي يضعها المصمم ويجري عليها التعديلات التي تنسجم مع الخطّة الإخراجية التي وضعها، لأنّ الإضاءة (تساهم في إثارة العواطف والأحاسيس بما تخلّفه من مؤثرات نفسية في جمهور المتفرجين..كما أنّ لون الإضاءة وتحديد الظلال وتوزيعها لهما تأثير كبير في خلق القيم الجمالية والعاطفية لدى المتفرجين)[٣]، وقد لا يفهم الجمهور التفاصيل المعقدة في تصميم إضاءة مشهدٍ ما ولكنهم يستمتعون بمشاهدة ذلك المشهد بإضاءته المتميزة، لأنّ (للإضاءة قوة تأثير لا محدودة على عقولنا وعواطفنا، فالسطوع الدافئ والواضح يجعل أغلب الناس يشعرون بالراحة)[٤]، فما بالك لو كان الجمهور من الأطفال، فالأطفال أكثر تأثراً من الكبار بالإضاءة، وبالمشهد المسرحي الذي أتقنت إضاءته، وأحسن إخراجه، فنفهم من ذلك أنّ الإضاءة تستطيع (بتركيزها على شخص أو على ركنٍ من الديكور أن تلعب دوراً نفسياً، ويكون ضبط الإضاءة

---

(١) وسام مهدي كاظم ،"الضوء منظومة يكورية في العرض المسرحي الحديث"، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، ٢٠٠٥، ص٣٢.

(2)Richard Pilbrow, Stage Lighting Design: The Art, The Craft, The Live, (London : Nick Hern Books, 1997) , p.9. (٢)

(٣) عثمان عبد المعطي عثمان، مصدر سابق، ص ١٧٠.

(4)Richard Pilbrow, op.cit, p.16.

عندئذٍ من أهم ما يشغل المخرج مادامت تساهم في شرح النصّ المسرحي، وطبيعة الجو النفسي)[١]، فتظافر جهور المخرج مع المصمم تدفع بالعرض قدماً نحو تحقيق الأهداف المرجوّة منه.

٥. **الإيهام بالطبيعة:** إن هذه الوظيفة تعدّ من أكثر الوظائف إمتاعاً للجمهور، لفاعليتها الكبيرة في إيهام المشاهد بأنّ ما يراه على خشبة المسرح هو واقع حقيقي، فحالما (يظهر الممثل على خشبة المسرح فسيكون مطلوباً أن يحسّ الجمهور بالجو الذي سيرتبط مع الزمان والمكان، والفصل من السنة، والطقس، نهاراً أو ليلاً، صيفاً أم شتاءاً، المطر، الصحو، والجمهور يرى ما يجري على المسرح من حدث، وما يحيط به من جوٍ دون أن يدرك أنّ التصميم وراء ذلك، فالإضاءة المسرحية يمكن أن تكون بنظره كشكلٍ من أشكال النماذج وإنمّا هي من أجل العمل المسرحي بأن يسير قدماً دون أن يلاحظ التغييرات أحياناً لأنّها نفذّت بانسيابية متقنة)[٢]، فإتقان التصميم والتنفيذ، يُحكم قوة الأثر الذي يتركه العرض المسرحي على الجمهور ويقع على عاتق المخرج ومصمم الإضاءة استثمار الإضاءة من خلال النوافذ المثبتة في المناظر المسرحية، لأنّ (ما يراه الجمهور من خلال النافذة يكون بالغ الأهمية في تأسس التفاصيل كالطقس، ومكان البيت: أيقع في المدينة أم في الريف، وفيما إذا كانت الغرفة في الطابق الأرضي أو في الطابق العلوي، والوقت في ذلك..إلخ. ومن المعلوم أنّ للإضاءة الطبيعية مصدران كبيران للضوء هما الشمس في النهار، والقمر في الليل، وهذا المصدر الطبيعي يغمر بإضاءته كلّ ما نراه خارج النافذة كأسطح البيوت والأشجار والجدران أو ما شابه ذلك)[٣]. وليس هناك قواعد ثابتة يسير وفقها مصمم الإضاءة أو المخرج، وإنما تعتمد على دراسة مستفيضة، فضلاً عن تراكم الخبرة كنتيجة حتمية للتجارب المتوالية، لذلك فإنّ الكثير (من المؤثرات الضوئية الأشد فاعلية تعتمد على وجود وحداتٍ كالنوافذ أو السماء، أو المدفأة أو الظلال وأخرى تعتمد على الضوء الساطع مثل أشعة الشمس أو ضوء القمر أو إضاءة الستار الخلفي أو الضوء المتخلل بعض التكوينات ليقع على أشياء على المسرح، وهذه كلّها تختلف لتلائم كلّ مسرحية وكلّ مسرح – والسيطرة على هذه العوامل تحتاج إلى دراسة

(١) فيليب فان تيجان، مصدر سابق، ص ١٠٧.

((6)Esmé Crampton. Op. Cit, P. 154.

(1)Francis Reid, Op. cit, p75.

وتجربة. بالإضافة الى الذوق السليم والرغبة الحسّاسة بالقيم الجمالية)(١). والمهم هو اتقان استخدام أجهزة الإضاءة المطلوبة لتنفيذ عنصر الإيهام بالطبيعة، وذلك لاقناع الجمهور بأنّ ما يراه هو قابل للتصديق. ويمكن تنفيذ ذلك بالأجهزة الثابتة، وكذلك نستطيع تنفيذ الحالات الخاصة بأجهزة متحركة، لأنّ (نوعية الضوء يمكن أن تكون في الحركة، التي تتطلب التغييرات في الضوء من لحظة إلى أخرى، والتي يمكن أن نستعرضها بأكثر من طريقة: –

الأولى: هي التغيير في مصدر الضوء، ويمكن أن ترى حركة المصدر من موقع إلى آخر.

الطريقة الثانية: هي حركة الضوء دون تغيير بمصدر الضوء مثل جهاز المتابعة الذي يتبع حركة الممثل من مكان الى آخر)(٢)، وقد تكون المتابعة من أجل العزل والتركيز للشخصية أثناء حركتها، فتركز عليها أو تعزلها عمّا حولها، وفي الثانية تتابع شمعة تحملها الشخصية، فتكون بقعة الإضاءة بمثابة ضوء الشمعة. أما في حالة استخدام مصادر الإضاءة الثابتة فإن الإضاءة تنبئ (ببعض المعلومات، كأوقات النهار، والطقس، وما إذا كانت الحجرات خارج المسرح مسكونة أو غير مسكونة، وما إذا كانت النيران في المدفأة مشتعلة أو خامدة، وبالتالي تنبئ عن فصول السنة، وغير ذلك)(٣). وقد تستخدم إضاءة مدفأة لهدف خاص، ففي مسرحية "ليتوانيا" جعل المخرج الممثلة التي تمثل شخصية الفتاة التي قرّرت قتل الضيف الغني لتستولي على أمواله – تنحني على المدفأة وكأنّها تريد تدفئة يديها، فأصبحت إضاءة وجهها من الأسفل (من المدفأة)؛ فيصبح وجهها وجهاً شريراً، بسبب الإضاءة السفلية، وقد تمّ تنفيذ ذلك بوضع مصباح داخل المدفأة للإيحاء بوجود النار فيها وقامت بوظيفة الإفصاح عن نوايا الشخصية، وفي نفس المسرحية استخدم المخرج في عملية قتل الفتاة للضيف الإضاءة في التعبير عندما جعل الفتاة تحمل فانوساً، وبعد دخولها الغرفة، وضعت الفانوس على منضدة، فسلط إضاءة أحد أجهزة الإضاءة ليضيء النافذة ويظهر ظل الضيف النائم، وظلّ الفتاة وهي تقوم بقتله بالفأس، ومع أول ضربة تحوّل الضوء الأصفر إلى

---

(١) فرانك مز هواتينج، مصدر سابق، ص ٣٩٠.

(3)Richard Dunham, Stage Lighting: The Fundamentals, second edition (London : Focal press book, 2018) , p.31.

(٣) أمين بكير، الإبداع الضوئي في العروض المسرحية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩)، ص ١٣٧.

(*) مسرحية ليتوانيا، تأليف روبرت بروك، تمثيل طلبة قسم اللغة الانكليزية في كلية التربية بجامعة الموصل، وإخراج الباحث. وعرضت المسرحية على خشبة مسرح جامعة الموصل.

الأحمر، للدلالة على القتل والدم[*]. وقد حقّق المخرج أكثر من وظيفة من وظائف الإضاءة في ذلك العرض. والإضاءة المسرحية في تطورٍ مستمر، ويقول أحد المنظّرين في فن الإضاءة عن ذلك: (لاختيار الثورة في عالم تصميم الإضاءة في المسرح المعاصر، بقياس الإجابة عن سؤالين أساسيين، وبإجابة هذين السؤالين معاً يعطينا انعكاساً وتحليلاً فعالاً.

١- ما الذي سبّب الاتجاهات الحديثة في تصميم الإضاءة في المسرح المعاصر.

٢- كيف يمكن لهذه الاتجاهات الجديدة أن تشخّص استخدام الإضاءة في الفترات الماضية)[١].

وإذا كان الفضل في تطوّر فن الإضاءة في المسرح لمن كرّس حياته لهذا الفن فإنّ (التطّور الحاصل في فن مسرح الدمى في بدايات القرن العشرين واجتيازه نمط الهواة إلى الاحتراف، يعود فضله إلى أولئك المحترفين الذين كانت أفكارهم عن شكل مسرح الدمى وأسباب نشوئه وكيف صاغوا الترفيه والتربية في مسرح الأطفال) [٢]، فنهضوا بمسرح الدمى، وانتجوا الأفلام والمسلسلات التي كان أبطالها من الدمى، بل وصل الأمر في الولايات المتحدة أن اكتسحت تلك الأعمال دور العرض السينمائي وحصلت على أعلى الإيرادات، وحازت على أعلى نسبة مشاهدة. وتميّزت الإضاءة المستخدمة فيها بالمهارة العالية والاحترافية المبهرة، لمّا كان من تأثير كبير لتلك الإضاءة، وعلى نحو مباشر للعمل الفني ولتجسيدها القيم التعبيرية له.

المبحث الثالث

الإضاءة كعنصر من عناصر التقنيات المسرحية ودور المصمم

إنّ التقنيات المسرحية تتطوّر في المسارح الحديثة تطوّراً كبيراً ملفتاً للأنظار، على نحوٍ عام، وفي مسرح الدمى على نحو خاص، بل إنّ بعض مسارح الدمى تعتمد اعتماداً رئيسياً على الإضاءة مثل مسرح خيال الظل، والمسرح الاسود الذي يرتدي فيه محركو الدمى الثياب السود مع اغطية سوداء للرأس وباستخدام الإضاءة فوق البنفسجية تظهر الدمى للعيان وحدها وكأنها

(1)Yaron Abulafia, The Art of Light on Stage Lighting in Contemporary Theater , first published (Ney York: Routledge, 2006), p.4.
(2)Nina Malikova , Czech Puppet Theater – Tradition Legend , and Reality (Yorick : Theatrdlio , 2015), p 351.

شخوص يتحركون، بينما تفنّن مصممو الإضاءة في مسارح الدمى الأخرى في مؤازة عناصر التقنيات الأخرى مثل الديكور والأزياء والموسيقة التصويرية وغيرها (وإذا كانت الإضاءة في المسرح التقليدي يقتصر دورها على جانب الزينة أو التجميل، أو خلق جو واقعي للأحداث، فإنّ الضوء في المسرح الحديث، على النقيض من ذلك، يؤدي دوراً يمكن أن نطلق عليه الغُلوّ والمبالغة والتفخيم، فهو يقوم بإبراز بعض المشاهد، والتركيز عليها أشبه في ذلك بالآلات النقر في الموسيقى، وهو جزء لا يتجزأ من النصّ، كالحوار سواءً بسواء، كذلك الإضاءة تزيد من حدة التأثير)(١)، وفي بعض الأحيان يتضاعف دورها حتى تصبح الإضاءة وكأنها شخصية منفردة من شخوص المسرحية، ففي مسرحية "ملك الظلام"* التي استخدم فيها المخرج المزج بين المسرح الأسود والإضاءة العادية لشخصية واحدة، في حين استخدم إضاءة المسرح الأسود مع الدمى، وجعل الشخصية تتعامل مع بقعة ضوء صغيرة يمسك بها ويدحرجها ويقذفها نحو الأعلى ثم يمسك بها ويقوم بتوسيعها والدخول فيها و(كانّ آبيا أول من أوضح ضرورة التعبير البصري عن مزاج المسرحية وجوّها، وأهمية الإيحاء الذي يكتمل في خيال المتفرج، وأهميته في التأثير الذي تحدثه بقعة ضوء تداهم الممثل في وسط معتم)(٢)، وهذه الحالة تنفرد الإضاءة بتوحدها في التأثير البصري على خشبة المسرح على وجه الخصوص إذا تمّ تسليط بقعة الإضاءة على الدمية أو الممثل، ولاسيما إذا كانت البقعة مسلطة على الوجه فقط، عندها لن تسقط الإضاءة على الديكور، ولن يظهر منه شيء.

وعندها سيكون التأثير أعمق في نفس المشاهد، ويكون أكثر استمتاعاً، لأنّ الإضاءة الجيدة الآن قد أصبحت مسألة دقيقة جداً. و(هناك الكثير من الأشياء التي لا يستطيع أن يميّز فيها المشاهد أيّ الأمور أكثر متعة وجودة، ولكنّه يستمتع بالعرض دون أن يفكر بذلك، بينما على مصمم الإضاءة أن يتجاوز العقبات ليصل بالعرض إلى أفضل ما يكون)(٣)، ولكي يرقى مصمم الإضاءة

(١) حمادة إبراهيم، اللغة الدرامية. العناصر غير المنطوقة، والعناصر المنطوقة (القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة،٢٠٠٥)، ص ٧٤.

(*) قامت فرقة جيكية بعرض هذه المسرحية في بغداد عام ١٩٧٩، وحضر الباحث عرض تلك المسرحية عندما كان طالباً في كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد.

(٢) جيمس روز إيفانز، المسرح التجريبي من ستانسلافسكي إلى اليوم، تر. فاروق عبد القادر (القاهرة: دار الفكر المعاصر، ١٩٧٩)، ص ٤٩.

(3) (1)Judith Cook ,Backstage (London : Mackays of chatham Limited, 1987),P.79.

بتصميمه، ويترك بصمته على العرض المسرحي، ينصح سكيب مورت، مصمم الإضاءة ، أن يستمع لنصائحه ويطبقها: (دقّق تصاميمك: تحدّث مع المخرج ومصمم الديكور حول تصاميمك للإضاءة؛ دقّق الألوان المختارة في تصميم الديكور والأزياء؛ تابع التدريبات لتعلم انّه لا يوجد تغييرات رئيسة في حركات الممثلين، ممّا يؤثر على مناطق التمثيل المضاءة؛ أتفقْ مع المخرج حول تسلسل التغييرات في الإضاءة وفقاً للمشاهد؛ ودوّن كلّ تلك التغييرات، وتتّابع المشاهد عندك)[١]، وهي نصائح تعدّ عملية تنفيذها قواعد مهمة لمصمم الإضاءة إنْ اتبعها فسيكون تصميمه متقناً، ولا يعني ذلك الإسراف في شدة الإضاءة فقط (إجعل الإضاءة جميلة، فليست العبرة بزيادة عدد مصابيح الإضاءة، وإنّما بحسن توزيع الإضاءة، فقد ترفع المصابيح الكثيرة درجة الحرارة، وتزيد الضغط على المصدر الكهربائي)[٢]، وقد تضايق شدّة الإضاءة عيون الممثل، وكذلك الحرارة المنبعثة من مصابيح الإضاءة تؤثر سلباً على أدائه التمثيلي، ولذلك يتوجب على مصمم الإضاءة ومنذُ لقاءاته الأولية مع مصمم المناظر المسرحية أن يتأكد من:

أ- هل سيحتاج إلى إضاءة خاصة للديكور؟

ب- إذا كان الأمر كذلك، كيف ستكون؟ هل ستكون الإضاءة من الأمام؟

وإذا كان الأمر كذلك، هل هناك ما يحتاج إلى تعزيز بالإضاءة من زاوية ما؟ وإذا كانت هناك زاوية معينة، هل هناك ضرورة لتتعارض مع أي زاوية إسقاط لأي جهاز في النصّ التنفيذي؟ وما هي شدة الإضاءة؟ وهل الألوان التي أختارها مصمم المناظر المسرحية ملائمة للإضاءة التي خصّصها لقطع الديكور تلك؟ هذه الأسئلة وغيرها من الاسئلة التي يجب أن تكون إجاباتها حاضرة لدى مصمم المناظر المسرحية، وكذا الحال مع مصمم الزياء، أو مصمم المكياج، وكلّ شيء على المسرح مهيأ ليستخدمه الممثل، يجب أن يحسب حسابه. (ويساعد تكامل التركيب مع اللون الفنان على جذب انتباه المتفرج الى النقاط البؤرية لكلّ مشهد من المشاهد مع تقّدم سير

(2)Skip Mort , Stage Lighting, The Technicians Guide, second published (London : Bloomstur , 2014), P86. (١)

(3)Blain Brown, OP. cit, P.15 (٢)

العرض)[1]، وقد حدّد أحد المنظرين لفن الإضاءة المسرحية مجموعة من النقاط التي يمكن ان يستند عليها مصمم الإضاءة في تصميمه نحو (١- انّ الضوء الأمامي هو الأفضل لرؤية الشيء، ٢- انّ الزوايا ما عدا الزاوية الأمامية تكون أكثر أدرامية، ٣- الزاوية الحادة للإضاءة الجانبية تعطي ظهور الشيء درامية أكثر، ٤- إنّ الإضاءة من الأعلى تعطي انطباعاً مختلفاً عن جميع الزوايا الأخرى ما عدا الإضاءة من الأسفل التي توحي بالشر)[2]. وقد يستغرب البعض من سرعة إنجاز بعض فناني إضاءة أحياناً لتصاميمهم لإضاءة العمل المسرحي، إلاّ أنّ الأمر ليس موضوع العجلة في التصميم والتنفيذ، وإنّما يعود إلى تراكم الخبرة عند هؤلاء المصممين المحترفين، فهم يأتون الى المسرح مستحضرين معهم سلسلة من مصادر الحياة الواقعية في رؤوسهم، لذلك تراهم ينظرون، ويفهمون الطريقة التي يعمل الضوء لإنارة المواقف المختلفة، كما أنّ نظرتهم إلى الضوء لن تتوقف حتى تصبح عندهم عادة ومصدر مستمر للأفكار الجديدة، ويضعون لكل حالة تصميم خاص، ولاسيما أنّهم يستنبطون الأفكار من خلال نقاشهم مع المخرج حول أسلوب العرض المسرحي، بعد أن ناقشوا مصمم الديكور والأزياء والمكياج، ووضعوا التصاميم الأولية للإضاءة. ولكن تبقى بعض الملاحظات التي يجب على مصمم الإضاءة ان يتأكد منها ولاسيما في تلك المشاهد التي تحتاج الى تعليق بعض الأجهزة عند استخدام المناظر المعلقة فمع (أي منظر من مناظر الديكور يكون من المهم جداً التأكّد من أنّ جميع أجهزة الإضاءة المعلقة فوق المسرح، والمناظر المسرحية المتدلية قد تمّ تثبيتها بما لا يتعارض بعضها مع الأسلاك الكهربائية التي توصل الكهرباء لأجهزة الإضاءة، ولاسيما أثناء عمليات تغيير المناظر المسرحية، وتقع هذه المهمة على عاتق فريق مدير المسرح بالتنسيق مع مصمم الإضاءة)[3]. فيتمّ ترقيم قطع الديكور، وتسلسل تغييرها، وتسليم مصمم الإضاءة نسخة من ذلك الترقيم والتسلسل لئلا يضع جهازاً خلف شباك أو باب أو قطعة ديكور، وترفع تلك القطعة فيظهر جهاز الإضاءة للعيان، أو يعلق سلك الجهاز بقطعة الديكور فيؤدي الى حادثة على خشبة المسرح تربك العرض

(4)Pamela Howard, What is Scenography/ 1st . published (London :Routledge, 2002), P. 79.

(5)Neil Fraser , Stage Lighting Design, 1st . published (London : The Crwood Press, 2003), P.53.

(1)Daniel Bond, Stage Management, 2nd . edition, (London : A and C Black, 1997), P.80.

المسرحي، وربما تؤدي إلى فشله. و(على مصمم الإضاءة مناقشة احتياجاته الكهربائية مع الكهربائي المختص في المسرح ليتمكن من توفير جميع المستلزمات التي يحتاجها في الإضاءة الخاصة لبعض المشاهد)[٢]، وعلى مصمم الإضاءة ومنفذها أن يتأكدا قبل رفع القضيب المعدني الحامل لأجهزة الإضاءة إلى الأعلى – من الأمور التالية:

١- أنّ الجهاز فيه مصباح، ويعمل على نحو صحيح.
٢- أنّ جميع الغوالق، والألوان والمستلزمات، مثبتة وتعمل بسهولة وعلى نحو سليم.
٣- أنّ الجزء الحامل للجهاز مثبّت على القضيب المعدني بقوّة وبإحكام.
٤- سلسلة الأمان لكلّ جهاز، والسلك المغذي للجهاز مثبت مع جزء إضافي يسمح للجهاز بالحركة في أي اتجاه بيسر وسهولة.
٥- أن تكون نهايات الأسلاك خارج المسرح جميعها مجربة وصالحة مع أرقامها.
٦- جميع المقابس الكهربائية مع أقفالها مثّبتة وتعمل بدقّة.
٧- عدم وجود أسلاك على أرضية المسرح تعيق الدخول والخروج للممثلين.
٨- عدم وجود أسلاك تعيق تغيير الديكور عند الحاجة لذلك.
٩- عدم وجود قطع ديكور تحجب الإضاءة المسلطة على مناطق التمثيل.

كلّ هذه الأمور ستوفر لمصمم الإضاءة الوقت، فضلاً عن أهميتها القصوى في إنجاح عمله ، لأنّه مسؤول عن (إنتاج صورة متوازنة مع معطيات العرض معتمداً على عوالم تدخل في إنتاج التباين على السطوح معتمداً ومركزاً على:

أ- نوع السطح الذي تسقط عليه الإضاءة.
ب- لون السطح.
ج- حجم السطح.
د- طبيعة السطح أملس أم خشن.

(2)Bronislaw J. Sammler and Don Harvey, Technical Design Solutions for Theater, Volume1, (London : Focal Press,2013), P13.

هـ- حجم الفضاء أو المكان[١]، وإذا استطاع مصمم الإضاءة أن يتقن عمله، عندها ستصبح (الإضاءة من العناصر التقنية المهمة في تنفيذ الفضاء المسرحي، وتحديد رقعته أمام المتلقّين. فهي تسهم إسهاماً كبيراً وبشكل أساسي في تشكيل البعد السينوغرافي)[٢]، ولهذا نجد أن عنصر الإضاءة غالباً ما يغفل عنه فرق الهواة، وذلك لأحد سببين إمّا أن تكون غالية جداً على ميزانيتهم أو صعبة جداً على أيديهم غير المدربة لاستخدامها.

المبحث الرابع

أهم الاستخدامات الفنية لعنصر الإضاءة في مسرح الدمى

هناك استخدامات فنية متعددة لعنصر الإضاءة منها:

١- إضاءة الدمى على نحوٍ عام، والدمية المتحدّثة على نحوٍ خاص. ولاسيما عندما تدخل شخصية جديدة، أو أن تكون الدمى مجتمعة في مكان، وهناك دمية في مكانٍ آخر، فتستخدم الإضاءة العامة على المجموعة، وبقعة ضوء على الدمية المنفردة، أو عندما نريد أن نظهر ردّ الفعل لدمية معينة على ما يدور أمامها، لأنّ (الإضاءة هي طريقة مهمة لتركيز الانتباه والشيء أو الشخص الأكثر وضوحاً، أو الذي تتسلّط عليه أضواء خاصة وتتعقبه، قد يكون هو الذي يجذب الانتباه أكثر من غيره من الأشياء والأشخاص، وقد تستخدم الإضاءة كعامل رؤية للمشاهد أو المناظر، كما أنّها تستخدم لتأكيد تعبيرات الممثل)[٣]، وبعبارة أخرى فالاستخدام الأول للإضاءة هو للكشف والرؤية مع التركيز والعزل.

٢- إضاءة قطع الديكور، وهنا تكون الإضاءة وفقاً لموضوع المسرحية، فإمّا أن تكون إضاءة غامرة في المسرحية الهزلية، وإمّا أن تكون خافتة بعض الشيء في المسرحية الجادة، وفي العادة تكون قطع الديكور ثابتة وكذلك أجهزة الإضاءة المستخدمة لإضاءة الديكور. مع التأكيد على عدم قطع الضوء الساقط على الديكور بسبب حركة الشخصيات، ولكن هذه

(١) ينظر: علي محمود السوداني، المنظومة الضوئية وتغيرّ المكان في العرض المسرحي، ط١ (الشارقة: الهيئة العربية للمسرح، ٢٠١٧)، ص ص ٥١، ٥٢.

(٢) علي محمد هادي، "مفهوم الخيال في المسرح المعاصر"، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بابل، ٢٠٠٤، ص ١٢٦.

(٣) علي محمود السوداني، مصدر سابق، ص ٧٤.

الإضاءة قد تطفأ دفعة واحدة أو تضاء دفعة واحدة إذا كان الديكور يمثل غرفة مثلاً وتدخل شخصية إلى الغرفة فتضغط على زر على الحائط، وتضاء الأجهزة وكأن الزر هو الذي قام بتشغيلها، أو تطفأ بالضغط على الزر عند مغادرة الشخصية لتلك الغرفة.

٣- إضاءة المصابيح المعلقة على جدران الغرفة أو الممرات أو المقهى أو المطبخ، فتثبّت مصابيح متنوعة كتلك التي تستخدم في المنازل عادة، وهناك نمطان من الإضاءة، الأول هو ربط تلك المصابيح بمصدر كهربائي فتضاء كما تضاء مصابيح المنازل، والثاني أن تسلّط بقع إضاءة على تلك المصابيح، أو استخدم النمطين معاً. وتتمّ السيطرة على تلك المصابيح المثبتة على الجدران بواسطة مساعد منفّذ الإضاءة، أو مدير المسرح، أمّا البقع المسلطة عليها فتتم السيطرة عليها من منفذ الإضاءة مع بقية أجهزة الإضاءة.

٤- الإضاءة الدوّارة والمتغيرة الألوان، وتستخدم أجهزة إضاءة خاصة لهذا النمط من الإضاءة، وهناك أجهزة حديثة لها القدرة على الدوران والتقلّب باتجاهات مختلفة كتلك الأجهزة المستخدمة في الحفلات الغنائية أو الراقصة، أو أن يستخدم جهاز ثابت يسلط ضوءه على كرة متدلية من السقف وعلى سطح الكرة مرايا صغيرة كالفسيفساء، تعكس ضوء ذلك المصباح باتجاهات مختلفة؛ بسبب دوران تلك الكرة المتدلية.

٥- إضاءة متحركة، وتستخدم في حالة احتياج إحدى الشخصيات لفانوس تحمله، فيقوم منفذ الإضاءة أو مساعده بمتابعة ذلك الفانوس بجهاز إضاءة مخصص للمتابعة، أو مصابيح سيارة تدخل المرأب، أو إضاءة كشافات طائرة مروحية، وغير ذلك من الاستخدامات الخاصة.

٦- إضاءة الإيهام بالطبيعية، وتستخدم مع أجهزة الإضاءة مرشحات ملونة لإعطاء الانطباع بأن الوقت نهاراً أو ليلاً، لأنّ (استخدامنا للمؤثرات الضوئية يتيح لنا توظيفها في زيادة التفاصيل الواقعية، وإضفاء عنصر الإيهام بالطبيعة على العرض المسرحي)[1]، فإذا كان الوقت ليلاً نضع جهازاً خلف النافذة مع مرشح أزرق، للإيحاء بضياء القمر، و(قد نحتاج لإضاءة ما يقع خارج النافذة في وقتين مختلفين، عندها سنحتاج إلى ثلاثة أجهزة،" إثنان

(1)Patrick Keating, Hollywood Lighting from the Silent Era to Film Noir , (NewYork: Columbia University Press, 2010), p. 59.

منهما للنهار وواحد للّيل" وربما نحتاج لجهازين صغيرين للممر، ولكن علينا تثبيت الأجهزة بأعلى ما يمكن لتجنب الظلال، كما يجب علينا أن لا ننسى إضاءة الفضاء الموجود أمام النافذة)(١)، وهناك إضاءة "السايكلوراما" في خلفية المسرح للإيحاء بالسماء.

٧- الإضاءة الخاصة، وهي في جزءٍ منها فيها إيهام بالطبيعة، ولهذا النمط من الإضاءة نحتاج إلى أجهزة خاصة غير تقليدية، فمن تلك الأجهزة، جهاز مولد الدخان أو الضباب، وجهاز الثلج، وهناك جهاز يوحي بحركة الغيوم، وآخر للبرق، فضلاً عن الإيحاء بالانفجارات والمطر وغيرها من احتياجات الإضاءة الخاصة. ولكنّها تُعدّ من أنجح الاستخدامات الفنية للإنارة في امتاع الجمهور، وقدرتها على الإيهام، فالموقف الدرامي الواضح، والفكرة البصرية يمكن أن تنفّذ من خلال عمل المصمم الذي يجب أن يتوافق مع كامل الإنتاج الفني على نحو ممتاز. ففي إحدى أعمال الدمى احتاج العمل إلى شلال ماء، وعلى الرغم من تصميم ديكور يكون فيه الشلال قريب للواقع بوجود ماء يسقط من أعلى الشلال، إلاّ أنّ ذلك كان يحتاج إلى المزيد من التعزيز بالإضاءة، فتمّ تثبيت مجموعة متدلية من الأسلاك ذات المصابيح الصغيرة(Lids) ذات إضاءة متحركة بتعاقب إنارتها وانطفائها على نحو متتابع يوحي بالحركة من الأعلى نحو الأسفل، ومع الماء أصبح الشلال أكثر واقعية وأكثر ايهاماً، ومع صوت الشلال المسجّل زاد في التأثير على الجمهور إلى حدّ الإبهار. وهناك إضاءة اشارة المرور ذات الألوان الثلاثة الأحمر والأصفر والأخضر، إذا اقتضى المشهد المسرحي وجود الاشارة المرورية الضوئية. أمّا الإضاءة السفلية، فعلينا (الحذر من استخدام الإضاءة من الأسفل، إذ أنّها تحدث تأثيراً على ملامح الشخصية، إلاّ إذا كان ذلك مقصوداً من المؤلف والمخرج في مشاهد الرعب، ولكنّ يفضل الابتعاد عن استخدامها في الحالات الإعتيادية ، وربما نحتاج إليها أحياناً عندما تكون هناك شموع على الأرض حول الشخصية، أو أن الشخصية تحمل إناءً يعكس الإضاءة العلوية فتنعكس على ذقن الشخصية)(٢)،

(1) (2)Richard Pilbrow , Op.cit, pp25.

(3) Richard Pilbrow , Op.cit, pp.21, 2.

عند ذاك نعمد إلى استخدام الإضاءة السفلية.

وبمراجعة سريعة لمّا سبق سنجد أنّنا بحاجة إلى توزيع الإضاءة لعموم العمل المسرحي على النحو التالي: –

١. نستخدم أجهزة إضاءة تكون بمثابة مفتاح الإضاءة المسيطرة.

٢. إضاءة مناطق التمثيل بواسطة:

أ– الإضاءة الثانوية.

ب– الإضاءة المؤطرة (إذا تطلب الأمر).

ج– الإضاءة الاضافية(إذا لزم الأمر).

٣. إضاءة منطقة التمثيل التكميلية.

٤. موازنة منطقة التمثيل بالإضاءة واللون والظلال، إذا لم تلغى بالإضاءة الإضافية.

٥. إضاءة المناظر المسرحية (الديكور).

٦. مصادر الإضاءة الغامرة أو الفيضية، والتي تساعد في غسل الظلال غير المرغوب بها.

٧. إضاءة الرؤية الخاصة.

٨. إضاءة المؤثرات الضوئية الخاصة، والأجهزة العارضة.

المبحث الخامس

دور الإضاءة الرقمية في عروض مسرح الدمى

هناك فرق بين الدمى الرقمية، واستخدام التقنيات الرقمية الحديثة في مسرح الدمى، فالدمى الرقمية تعتمد على التصميم التشكيلي الرقمي لخلق شخصيات فرضية، وبواسطة مستشعرات تثبت على جسم الممثل يتمّ تحريك تلك الشخصيات وفقاً لحركة الممثل، ويمكن تسجيلها فيديوياً أو أن يكون العرض حيّاً، فتشاهد الشخصيات على الشاشة بينما يكون الممثل محجوباً عن الجمهور، ولكنهُ يسمع ويرى الجمهور، فيتفاعل معهُ عبر الشخصية. وهناك استخدام للتقنيات الرقمية الحديثة

في عروض مسرح الدمى عبر خلق فضاء افتراضي وفيه الديكورات الرقمية الافتراضية بعد أن يتم تحريك الدمى أمام شاشات خضراء اللون أو جدران مطلية باللّون الأخضر فيتمّ إلغاء اللون الأخضر رقمياً، فتصبح الدمى في وسط شفاف، وتمزج هذه الصورة الناتجة مع الفضاء الافتراضي الذي تمّ خلقه رقمياً، فتكون الصورة النهائية، وكأن الدمى تتحرك في ذلك الفضاء الافتراضي وتتعامل معه، ويعدّ (الكومبيوتر والبرمجيات من أبرز مظاهر الثورة الرقمية التي عملت على توسيع فعالية الخطاب الحسّي للعرض المسرحي والموجّه للمشاهد بزيادة القدرة على مخاطبة جميع حواسه والتأثير بمدركاته العقلية، وبما أنّ الكومبيوتر ومكوناته هو مكون أساسي لوسائط عِدّة، التي كانت على مستوى عالٍ من الجودة والأهمية في تحقيق التكامل بين العلوم والفنون، لذا فإن بنية الكومبيوتر التقنية وسّعت الإمكانيات المتاحة للمسرح التقليدي بإضافة قوة إضافية إلى المخرج ومصمم الإضاءة وكتّاب الدراما والكيفية التي تؤثر على المتلقي) [١] ، فالمخرج الذي يتوفّر عنده التقنيات الرقمية سيلجأ إلى استخدامها في أعماله المسرحية وفقاً لاحتياجات العمل المسرحي، وكلّما كان مصمم الإضاءة بارعاً في استخدام جهاز البديل الضوئي، أصبح العرض أكثر تكاملاً وأكثر إبداعاً، فالجهاز البديل الضوئي يحقق (خلال عموم أي عرض مسرحي، خصائص تقنية اتسمت بالمرونة العالية بالتصميم والقدرة على التعديل في الإنشاء الضوئي وكذلك سرعة إجراءات التنفيذ والتعديل في الإنشاء الضوئي وهو ما انعكس إيجاباً على العلاقة الإبداعية ما بين الرؤى الإبداعية للمصمم والرؤى الإبداعية التي أراد تحقيقها المخرج من أجل تحقيق التكامل الفني ما بين القيم الدرامية والمرجعيات النصّية للعرض)[٢] والى جانب الرؤى الإبداعية التي يحققها البديل الضوئي والتقنيات الرقمية في الإضاءة المسرحية، فهناك أمر هام وسهل التنفيذ مع السرعة في إجراءات التنفيذ، وهو إجراء التعديل في الإنشاء الضوئي، فلو وجد المخرج ضرورة في إجراء تعديل على الخطة الموضوعة للإضاءة المسرحية فسينفذها في الحال؛ في الوقت الذي تحتاج فيه أجهزة الإضاءة التقليدية إلى زمن أطول في إجراء التعديلات المطلوبة. ولذلك فالإتجاه الى

(١) عماد هادي الخفاجي، " التقنية الرقمية والبديل الضوئي في العرض المسرحي" صحيفة التآخي ، العدد (٩٠٩٩)، ١ كانون الثاني ٢٠٢٠

(٢) عماد هادي خفاجي، " البديل الضوئي والابداع الجديد في عرض مسرحية المغفلة" الهيئة العربية للمسرح، ٢٧، ايار، ٢٠١١، ص ٢.

البديل الضوئي والتقنيات الرقمية مطلوب في الإنتاج المسرحي، سعياً وراء التكامل والإبداع. ومعرفة الكاتب الدرامي لهذه التقنيات الرقمية ستدفعه إلى أن ينهل من تلك المعرفة في بناء المشاهد المسرحية بالاعتماد على الإضاءة الرقمية فيعتمدها المخرج ويزيد عليها هو ومصمم الإضاءة، معتمدان في ذلك على الحاسوب (الكومبيوتر) الذي يسهم إسهاماً فعالاً في رسم الخطة المحكمة للمشاهد المسرحية والصورة التي سيشاهدها المتفرج حيث يمكن (للكومبيوتر أن يكون جزءاً من المنظومة التكنولوجية في تطوير الصورة المشهدية للعرض المسرحي، الذي يسهم في بنيتها عبر وسائط تقنية عدّة يصمم أفكارها ويخطط استعمالها اختصاصيون في الموسيقى والإضاءة، والصوت، والخدع البصرية، والملابس، والعمارة، والتشكيل، والرقص، والغناء، ويسبقهم في كلّ ذلك مخرج العرض المسرحي)[١] ، وكلّما كان هناك توافق بين القائمين على العمل الفني، وكان هناك تناغم ما بين التقنيات المستخدمة في العرض المسرحي، أصبح العمل المسرحي أكثر نضجاً، وأكثر تكاملاً، وأكثر أبداعاً، وبالتالي أكثر تأثيراً على المتفرج، وأسرع إيصالاً لفكرة المؤلف التي عالجها المخرج في عرضه المسرحي مع فريقه الفني، بمعنى تحقيق الأهداف المرجوّة من تلك العروض المسرحية عامة والموجّه للطفل سواءً كانت تلك الأهداف اجتماعية أو دينية فشركات (إضاءة المسارح في نيويورك وانكلترا يزجّون الأطفال في المسرح في جوٍ هو مزيج بين الإيمان المسيحي والفن اللذين يسيران جنباً الى جنب ولكن على المستوى الشخصي هو مفتوح للجميع يدخلوه بكلّ ما يعتنقوه من أديان)[٢] . ومسرح الطفل يضمّ أنماطاً عديدة ومتنوعة من أساليب العرض المسرحي و الأكثر فاعلية من بينها جميعا مسرح الدمى، وجميع تلك الأنماط تشهد تطوراً ملحوظاً وأحياناً تشهد قفزات في سلمّ التطوّر وعلى الفنان الذي اختصّ بالأعمال المسرحية الموجّهة للطفل أن يواكب عجلة التطوّر من أجل الارتقاء بمستوى العمل إذ (باستطاعتك رؤية الطريق الواضحة لتطوّر ما تعمل عليه وكيف تعمل في المستقبل أو المقترحات التي يمكن أن تتبعها، وكم يمكن لك أن تحفظ منها أو تطبقه، إنها بمثابة هدية شخصية أخرى يمكن أن تكون جزءً من

---

(١) عماد هادي خفاجي، " الوسائط الرقمية والمسرح" ، الخشبة ، al-khashaba.org ، ٢٨، يونيو، ٢٠١٨، ص١.

(٢) حسين التكمه جي ، الاستثارة والصدى في الإخراج المسرحي، ط١ (بغداد: مكتب الفتح للطباعة والاستنساخ والتحضير الطباعي، ٢٠١٨، ص ص ٩٠، ٩١.

منجزاتك الشخصية)[1] . التي تحمل بصمتك ويشار إليها بالبنان، بل ويمكن أن يحاكي الفنانون أعمالك والصيغة التي أخرجت بها تلك الاعمال ، ولا تطوير من دون استخدام ما استجد على الساحة الفنية من تقنيات تنهض بالعرض المسرحي وتخلقُ انسجاما متميزا وتفاعلا مستمر بين عناصر العرض المسرحي (والتفاعل المستمر بين المساحات والوحدات والخطوط والتضاد والتوازن والانسجام والظل والضوء واللون سينهض بلا ريب بوحدة العمل الفنية التي هي بالأساس وليدة البيئة الدرامية للنصّ بحسب خطة المخرج الفنية وقراءته الخاصة للنصّ)[2]؛ وهذا لا يعني اننا يجب أن نجعل استخدام التقنيات الحديثة هو الهدف الأساس في عملنا الفني وإنما علينا اختيار الأسلوب المناسب لعملنا، ونمط التقنيات التي تعبّر عن الصورة التي سيكون عليها العرض المسرحي بأفضل تعبير وأصدق معالجة. ويمكن المزاوجة بين التقليدي والحديث كخطوة أولى نحو التحوّل الجذري في أسلوب العرض المسرحي و (مما لاشك فيه أنّ هذا التطور أدى بشكل مباشر الى خلق آفاق جديدة أمام المخرجين والمؤلفين والممثلين باكتشاف سبل وأدوات وامكانيات جديدة في التجسيد الإبداعي والخلق الفني، ناهيك عن تحسين ظروف التلقي حيث أصبح بإمكان المتلقي أن يشاهد العرض في ظروف إنسانية أفضل في ظلّ إمكانيات وتجهيزات حديثة على كلّ الأصعدة : الصوت والصورة والمسافة والراحة مما يتناسب وروح العصر)[3] ، وعلى المخرج المبدع أن يستثمر كلّ تلك الآفاق التي أتاحتها كلّ التقنيات الحديثة التي أصبحت بين يديه، وعليه أن يتعامل معها من ناحيتين فنية وعلمية؛ فالإضاءة (المسرحية وعملية التصميم ناتجة عن علم وفن كون مسألة التصميم الضوئي تشتمل على:-

١- نواحي علمية بشكل أساسي على البحوث والتجارب العلمية المتخصصة للوصول الى النتائج المرجوة بالعمل .

٢- نواحي فنية تعمد على الخبرة والدراسة التي تبحث في العلاقات الشكلية للتوصل الى أفضل النتائج التصميمية .

(1) Kelly and Walter Eggers, Children's Theater: A Paradigm, and Resource (Lanham: The Scarecrow press, INC.,2010) , P.54.

(2) David Porter and others, Performing Arts, Level 3, First Published (London: Hodder Education, 2016), P.34.

(٣) فاضل الجاف، "المسرح المعاصر والتقنيات الحديثة"، صحيفة ايلاف الالكترونية، (لندن)، ١٠، مارس، ٢٠٠٩، ص١.

٣- الموازنة بين الاثنين بوصف المصمم والتصميم الضوئي للعرض المسرحي يعتمد الموازنة بين العلم و الفن للوصول الى أفضل النتائج)[١]،

ولا سيما إذا كانت العلاقة بين مصمم الاضاءة والمخرج مبنية على التفاهم والتناغم وصولا الى التكامل الفني بحيث يأتي التصميم منسجما مع الأسلوب الإخراجي الذي اختاره المخرج، فتكون المعالجة فعّالة وتتسم بالإبداع اللامحدود و(بمعالجات جهاز البديل الضوئي يتحوّل الفضاء المسرحي الافتراضي وسيطا تجريبيا لتحقيق الفرضية الابداعية بما تستدعيه من اقترانات وشروط فيزيائية للواقعة المسرحية اذ تحلّ الفرضية الإبداعية في فضاء لا متناهي الاحتمال معه تتصاعد طرديا فعالية التأويل)[٢]، والطفل سيتعلّق بهذا النمط من المسرح لا سيما أن أطفال اليوم هم من عشاق التكنولوجيا الحديثة والهواتف الذكية النقالة والألعاب الالكترونية لذلك فاستخدام الوسائط الرقمية ستشدّ انتباه الطفل للعرض المسرحي لأنّ (المسرح الرقمي هو الذي يوظف في استخدامه تقنية الوسائط المتعددة رقميا في تأليف أو تشكيل خطابه شريطة اكتساب الصفة التفاعلية كما أن المسرح ورواده لهم العديد من الآراء ما بين مؤيد ومعارض فهل يمكن تخيل العرض المسرحي بكليّته عبارة عن دمى تتحرك بتقنية مبرمجة يتحكم بها الجمهور على هواه رقميا ولأجل أن يبقى مثل هذا الشكل المسرحي الرقمي . ومع ذلك ماتزال الأفكار في بيضتها التي خصبتها الرقمية _ علما وفنا _ التي هيمنت على العالم الأنساني برمّته في أولى بدايات الهيمنة الإلكترونية التي ولدت ونسيت كيف تموت)[٣]. والعمل مع التقنيات الرقمية الحديثة يتطلّب مع الخبرة في استخدام الأجهزة ، الى خيال خصب وواسع ، ولذلك على مصمم الإضاءة أن يدرك أن التصميم الرقمي لا حدود لإمكانياته، وكلما كان المصمم أكثر خيالاً جاءت تصاميمه أكثر غزارة في التنويع و الإبداع، والتشكيلات اللونية التي تسهم في رفد العرض المسرحي بجوٍ من سعة الخيال، ومفعم بالإبداع ولذلك (بإمكان المرء أن يقول: إننا وضعناً تقنيات متعدّدة في قالبنا لاختبار أدواتٍ جديدة من أجل غزارة الإنتاج، حيث تقوم التقنيات الرقمية بالتغيير الفاعل لوسائل الفنّان في الخلق

---

(١) عماد هادي الخفاجي، "الإضاءة المسرحية وعملية التصميم"، بيان اليوم ، http://bayanealyaoume.press.ma/html، ص١.

(٢) بلا مؤلف،"التقنية الرقمية والبديل الضوئي في المسرح"،www.motsi.org، ٢ ديسمبر، ٢٠١٩، ص ٢.

(٣) عبد الرزاق الدليمي، آفاق الإعلام في القرن الحادي والعشرين،(عمان : دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٩)، ص ٤٧.

الفني)[١]، وكما هي الحال في الإنتاج المسرحي التقليدي بأن يستشير مصممُ الإضاءة المخرج ومصمم الديكور ومصمم الأزياء ومصمم الماكياج، فلا مناص من اجتماع المخرج مع المصممين الأربع: (إضاءة وديكور، وأزياء ، وماكياج) في المسرح الرقمي – إن جاز لنا التعبير – فيكون معلوماً لمصمم الإضاءة ما سيكون عليه الديكور والأزياء والماكياج، فتكون تصاميمه مُنسجمة مع تصاميمهم، وَتقول ميجان آلرودز: إن (العض الرقمي هو فعل موعود، ليس لأنهُ يستطيع أن يعد بالتغيير المحتمل، وإنماّ لأنّه يقبض على أجزائه – غالباً بالمفاجأة – في تناقض مع الاحتمالات، بالخيال، وماذا يمكن أن يكون، وماذا يجب أن يكون)[٢]. وخلاصة الأمر أن عرض الدمى المسرحي، سيكون ساحراً ومبهراً مع التقنيات الرقمية الحديثة، بل ويمكن أن يكون العرض تفاعلياً بين الممثل والتقنيات الرقمية التي يمكن أن تكون شخصيات إفتراضية يتعامل معها الممثل، ومثال على ذلك (تجربة فرقة مسرح الميدان، التي اعتمدت فكرة العلاقة بين مسرح الطفل والتكنولوجيا الرقمية. فقد قرّر مدير الفرقة "دافيدي فينتوريني" على تحديث قصص الطفل التقليدية: ذات الرداء الأحمر، النعجات السبعة، وهي تشترك في العدوّ المشترك الذئب. ممثل وحيد على خشبة المسرح، وهو يمثل الذئب: خلفه توجد شاشة عيضة تحل محلّ اللوحات المتحركة التقليدية: في حين يقوم تقني الحاسوب بإدارة المفروض من الصور والكليبات وكذا النسيج الصوتي للعرض" صوت الممثل وأصوات أخرى، وموسيقى مرافقة" ، هكذا يشكّل الممثل والتقني والشاشة نسيجاً من الحركات والأصوات والصور الرقمية)[٣].

فنفهم من كلّ ذلك أنّ فن الإضاءة الخلاّق يكون في خلق الفكرة عبر المسرحية، وعبر فكرة المخرج ومصمم الديكور. هذه الفكرة تكون بالضوء والظل والفضاء الذي يطوّق الشخصية ويساعدها في عرض قصتها على مشاهديها. ويكون العرض المسرحي فعّالاً ومؤثراً، ويحقق جميع أهدافه، لأنّ (التوزيع العلمي للإضاءة يسهم في رفع القيمة الفنيّة للشكل البصري وخلق

(1) Heidi Wiley and Serage Rangoni, Digital Theatre , (London : the Urpean Theatre Convention, 2017), P.36.

(2) Megan Alrutz, Digital Storytelling, Applied Theatre and Youth Performing Possibilitys, First Puplished (London : Routledge, 2015), P.22.

(٣) السيد نجم،" التقنية الرقمية تبدع مسرحها..المسرح الرقمي"، الحوار المتمدّن، ٢٩/أيار/٢٠١٧.

الجو النفسي من خلال خطوط ومساقط ضوئية والتي هي ذات تأثير مباشر من خلال استقامة مساقطها لإيصال الدلالة المطلوبة)[١].

ويساهم في ذلك التحكم بشدّة الإضاءة، وألوان المرشحات المستخدمة، وصولاً إلى التعبير الجمالي بما تحقّقهُ الإضاءة (ولا يأتي هذا التعبير بالإضاءة بمفردها وإنما بتكامل وتتضافر العناصر الفنية بمجموعها التي تنجز الصياغة الجمالية لشكل العرض ومضمونه، فالعناصر الاسلوبية تتظافر لتخلق الجمال، لا مجرد أداء المعنى وحده، بل صياغة الشكل الأروع)[٢]، بيد أنّ الإضاءة هي العنصر الذي لا يمكن الاستغناء عنه في المسرح، فقد نستطيع انّ نستغني عن الديكور كما هو الحال في المسرح الفقير للفنان كروتوفسكي، ولاكن لا يمكن الاستغناء عن الإضاءة مطلقاً فهي التي ستتيح لنا الرؤية، فضلاً عن استخداماتها الفعالة في العرض المسرحي، وقد (سمحت التقنية الحديثة لمصمم الإضاءة المسرحية لتغيّير الأجهزة المستخدمة لتسليط الضوء والظل والزوايا لأجهزة الإضاءة الفيضية ولاقتراح المؤثرات الضوئية)[٣] المطلوبة للعرض المسرحي، لتحقق التأثير الأمثل على الجمهور، وإنجاز الهدف المرجو من العرض الذي وضعه المؤلف في النص، وترجمه المخرج في العرض.

النتائج

خلص البحث إلى مجموعة النتائج أهمها:

١- لعنصر الإضاءة دور فاعل ومؤثر في مسرح الدمى، ولا يمكن الاستغناء عن الإضاءة.

٢- لعنصر الإضاءة القدرة على الإيهام بالطبيعة، وبذلك يزيد هذا الإيهام قوة تأثير العمل الفني على الجمهور.

٣- تساعد الإضاءة الجمهور في تركيز انتباهه على النقاط المهمة في العرض المسرحي وتشدّه لمتابعة العرض.

---

(١) علي محمود السوداني، مصدر سابق، ص ١٠٧.

(٢) جبار جودي جبار العبودي، جماليات السينوغرافيا في العرض المسرحي، ط٢ (بغداد للتصميم والطباعة، ٢٠١١) ، ص ٥٩.

(3)Arnold Aronson , Looking into The Abyss , (Michigan: The University of Michigan Press, 2008), P.30.

٤- تؤدي الألوان المستخدمة في الإضاءة أغراضاً درامية، وأهدافاً يحدّدها المخرج ومصمم الإضاءة.

٥- يعتمد نجاح تصميم الإضاءة على تراكم الخبرة عند مصمم الإضاءة، وقدرته على تحليل النص المسرحي، واستنباط الخطط الملائمة لتصميم الإضاءة.

٦- للإضاءة دور فاعل في إنارة المناظر المسرحية والمساهمة في تكوين الصورة التشكيلية الجمالية مع هذه المناظر.

٧- تؤدي الإضاءة مجموعة من المهام في مسرح الدمى كالرؤية، والتركيز أو العزل، والتكوين أو الإنشاد، وخلق الجو النفسي العام، والإيهام بالطبيعة، وغيرها من المهام.

٨- وصولاً إلى التصميم الاحترافي لابدّ للمصمم من مشاورة المخرج ومصمم الديكور، ومصمم الأزياء، والإطلاع على تصاميمهم لوضع التصميم الملائم للعمل المسرحي.

التوصيات

يوصي الباحث مصمم الإضاءة المسرحية بمتابعة كل المستجدات في مجال الإضاءة، وما ظهر من أجهزة بغية الاستفادة منها في التصاميم القادمة، مع الاهتمام الجدّي بمشاورة المخرج، ومصمم الديكور، ومصمم الأزياء، ومصمم الماكياج، من أجل إحكام التصميم.

كما يوصي الباحث بالمزيد من الدراسات التي تتناول التقنيات المستخدمة في مسرح الدمى، وفي مسرح الطفل من أجل النهوض بمستوى العروض المسرحية.

المصادر

الكتب العربية:

١- إبراهيم ، حمادة . اللغة الدرامية. العناصر غير المنطوقة، والعناصر المنطوقة .القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة،٢٠٠٥.

٢- إيفانز، جيمس روز. المسرح التجريبي من ستانسلافسكي إلى اليوم. تر. فاروق عبد القادر .القاهرة: دار الفكر المعاصر، ١٩٧٩.

٣- بكير، أمين .الإبداع الضوئي في العروض المسرحية .القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩.

٤- تريم، نورة حمد عمران. تأثير استخدام التكنلوجيا الحديثة في فضاء المسرح العربي. ط١ .الشارقة: دائرة الثقافة والاعلام، ٢٠٠٩.

٥- التكمه جي ، حسين. الاستثارة والصدى في الإخراج المسرحي. ط١ .بغداد: مكتب الفتح للطباعة والاستنساخ والتحضير الطباعي، ٢٠١٨.

٦- تيجمان، فيليب فان. التكنيك المسرحي. تر. يوسف البدري .الإسكندرية: مكتبة الاسكندرية، بلا ت.

٧- الخفاجي، علاء مشذوب عبود. توظيف السينوغرافيا في الدراما التلفزيونية. ط١ .بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة،٢٠١٢.

٨- الدليمي، عبد الرزاق. آفاق الإعلام في القرن الحادي والعشرين.عمان : دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع. ٢٠١٩.

٩- راغب، نبيل. النقد الفني. ط١ .القاهرة: دار نوبار للطباعة، ١٩٩٦.

١٠-رشيد، يوسف. الإنشاء المسرحي وعناصره. ط١ .بغداد: إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، ٢٠١٣.

١١-السوداني، علي محمود. المنظومة الضوئية وتغيّر المكان في العرض المسرحي. ط١ .الشارقة: الهيئة العربية للمسرح، ٢٠١٧.

١٢-جودي، جبار. "ديناميكية الإضاءة المسرحية". جريدة الزمان. العدد ٢٣٣١، ١٣ آذار، ٢٠١٧.

١٣-عثمان، عثمان عبد المعطي. عناصر الرؤية عن المخرج المسرحي القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.

١٤-علي، محمد حامد. الإضاءة المسرحية .بغداد: مطبعة الشعب،١٩٧٥.

١٥-محمد ، جلال جميل . مفهوم الضوء والظلام في العرض المسرحي .القاهرة: الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ٢٠٠٧.

١٦-مسلم، طاهر عبد. عبقرية الصورة والمكان – التعبير – التأويل – النقد . عمان: دار الشروق للنشر
والتوزيع، ٢٠٠٠.

١٧-هادي، علي محمد. "مفهوم الخيال في المسرح المعاصر". أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى
مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بابل، ٢٠٠٤.

١٨-هوايتنج، فرانك م. المدخل إلى الفنون المسرحية. تر. كامل يوسف وآخرون .القاهرة : دار المعرفة ، ١٩٧١.

الكتب الأجنبية :

1- Abulafia, Yaron. The Art of Light on Stage Lighting in Contemporary Theater , first published .New York: Routledge, 2006.
2- Alrutz, Megan. Digital Storytelling.Applied Theatre and Youth Performing Possibilitys. First Puplished .London : Routledge, 2015.
3- Archer Stephen M.. and Others, Theater, Its Art and Craft, 5th. Edition .Columbia: Collegiate Press, 2003.
4- Aronson,Arnold. Looking into The Abyss .Michigan: The University of Michigan Press, 2008.
5- Bond,Daniel. Stage Management, 2nd . edition. London : A and C Black, 1997.

6- Briggs, Jody. Encyclopedia of Stage Lighting .London: MeForland and Company Inc.,2015.
7- Brown, Blain. Motion Picture and Vided Lighting, 2nd. Edition .Amsterdam: Focal Press,2007..
8- Browning , Don S. and Bonnie J. Miller – Mclemore, Children and Childhood in American Religions .New York: Rutgers, 2009.
9- Cook , Judith. Backstage .London : Mackays of chatham Limited, 1987.
10- Crampton, Esme. A Handbook of Theatre, second edition .Toronto : Gage Educational Publishing Limits , 1972.
11- Dunham,_Richard. Stage Lighting: The Fundamentals, second edition .London : Focal press book, 2018 .
12- Eggers, Kelly and Walter. Children's Theater: A Paradigm, and Resource .Lanham: The Scarecrow press. INC.,2010.
13- Fraser , Neil. Stage Lighting Design, 1st . published .London : The Crwood Press, 2003.
14- Graves, R.B. Lighting The Shakespeorean stage, 1567 – 1642 .London: Southern Gllinois press, 2009.
15- Howard, Pamela. What is Scenography. 1st . published .London :Routledge, 2002.
16- Jenkins, Henry. The Children's Culture Reader .New York: New York University Press,1998.).
17- Keating, Patrick. Hollywood Lighting from the Silent Era to Film Noir .NewYork: Columbia University Press, 2010.
18- Leonard, Ward. Theatre Lighting Past and Present .New York :Elctric Company, No Date.
19- Malikova, Nina. Czech Puppet Theater – Tradition Legend , and Reality .Yorick : Theatrdlio , 2015).
20- Mort , Skip. Stage Lighting, The Technicians Guide, second published (London : Bloomstur , 2014.
21- Porter, David and others. Performing Arts. Level 3. First Published .London: Hodder Education, 2016.

22- Pilbrow, Richard. Stage Lighting Design: The Art, The Craft, The Live .London : Nick Hern Books, 1997.
23- Reid, Francis .The Stage Lighting Handbook, sixth edition .New York: Butler and Tanner Ltd.,2013.
24- Sammler , Bronislaw J. and Don Harvey, Technical Design Solutions for Theater, Volume1, .London : Focal Press,2013,
25- Sellman, Hunton D. Essentials of stage Lighting, .New York:Merdith Corporation, No Date.
26- Steven Louis Shelley, A Practical Guide to Stage Lighting .London: focal press, 2013.
27- Warshawsky, Gale Solotar. Creative Puppetry for Jewish Kids Denver: C.
28- Wiley , Heidi and Rangoni, Serage .Digital Theatre .London : the Urpean Theatre Convention, 2017.
29- Wolf, R.Graig .Dick Block, Scene Desgin,and stage Lighting, 10th Edition. New York: Wads worth,2013.

الرسائل والأطاريح:

١- التكمه جي، حسين علي كاظم ."وسائل المخرج في صياغة العرض المسرحي لتعزيز الاستجابة لدى المتفرج" .أطروحة دكتوراه غير منشورة. مقدمة إلى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، ٢٠٠٠.
٢- كاظم، وسام مهدي ."الضوء منظومة ديكورية في العرض المسرحي الحديث". رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، ٢٠٠٥.
٣- يعقوب، ثورة يوسف ."سيميائية الجسد عند الممثل المسرحي". رسالة ماجستير غير منشورة، مقدمة إلى مجلس كلية الفنون الجميلة بجامعة بغداد، ١٩٩٥.

الصحف والمجلات وشبكة المعلومات:

١- بلا مؤلف،"التقنية الرقمية والبديل الضوئي في المسرح".www.motsi.org، ٢ ديسمبر، ٢٠١٩.

٢- الجاف، فاضل "المسرح المعاصر والتقنيات الحديثة". صحيفة ايلاف الالكترونية. (لندن)، ١٠، مارس، ٢٠٠١.

٣- الخفاجي، عماد هادي "الإضاءة المسرحية وعملية التصميم"،بيان اليوم.. http://bayanealyaoume.press.ma/html

٤- خفاجي، عماد هادي " البديل الضوئي والابداع الجديد في عرض مسرحية المغفلة" الهيئة العربية للمسرح، ٢٧، ايار، ٢٠١١.

٥- الخفاجي،عماد هادي " التقنية الرقمية والبديل الضوئي في العرض المسرحي" صحيفة التآخي . العدد (٩٠٩٩) ١ كانون الثاني ٢٠٢٠.

٦- خفاجي، عماد هادي " الوسائط الرقمية والمسرح" . الخشبة . al-khashaba.org ، ٢٨، يونيو، ٢٠١٨.

٧- العبودي، جبار جودي جبار. جماليات السينوغرافيا في العرض المسرحي. ط٢ .بغداد للتصميم والطباعة، ٢٠١١.

٨- الغزالي، أمل ."مسرح الدمى بنية تربوية للطفل. دراسة نقدية". صحيفة المثقف. العدد (٢٤١٢)، ١٣ نيسان، ٢٠١٣.

٩- نجم، السيد. " التقنية الرقمية تبدع مسرحها..المسرح الرقمي". الحوار المتمدّن، ٢٩/أيار/٢٠١٧.

التمويل المالي واثاره على القطاع الزراعي – دراسة اقتصادية في محافظة ديالى– العراق

Government Financial Financing for Agricultural Projects and its Effects - Study of Agricultural Initiative in Diyala Governorate / Iraq

عباس عبد احمد حميد التميمي، كلية الزراعة –جامعة ديالى –العراق

Altimimiabab8@gmail.com

الملخص: انطلق عام 2008 تنفيذ برنامج تمويل القطاع الزراعي أطلقت عليه الدولة (المبادرة الزراعية) وهو أحد اساليب التمويل المالي المقنن لدعم مشاريع القطاع الزراعي والفلاحين وتم تنفيذه عن طريق فروع المصرف الزراعي التعاوني في العراق بتقديم القروض للفلاحين واستمر التمويل حتى عام 2015. تضمن البحث دراسة برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) في محافظة ديالى– العراق على شكل مبحثين احتوى المبحث الاول على هيكلية المبادرة الزراعية وابواب التمويل في صناديق القروض,اما المبحث الثاني تضمن دراسة آثار برنامج المبادرة الزراعية على بعض المحاصيل الزراعية ونسبة البطالة في محافظة ديالى, حيث تم تمويل الفلاحين عن طريق المصرف الزراعي التعاوني بواسطة صناديق القروض التي شملت (صندوق دعم الثروة الحيوانية – صندوق دعم المكننة ووسائل الري الحديثة – صندوق دعم صغار الفلاحين – صندوق دعم المشاريع الكبرى – صندوق دعم بساتين النخيل), اوضحت الدراسة ان عدد المشاريع الزراعية الجديدة المنفذة من خلال برنامج المبادرة الزراعية بلغ (7679) مشروع زراعي تضمن شراء جرارات وحاصدات زراعية ومشاريع الزراعة المحمية و انشاء مخازن التمور ومكابس التمور وانشاء مزارع الدواجن ومناحل انتاج العسل وحقول تسمين الماشية وحفر الابار وشراء منظومات الري بالرش و انشاء مكاتب بيع المستلزمات الزراعية وعيادات للأطباء البيطريين ,

بينما بلغ عدد المشاريع التي تم اعادة تأهيلها (1880) مشروع زراعي في محافظة ديالى تضمنت صيانة جرارات زراعية وخدمة وتطوير البساتين وتأهيل حقول الدواجن , ساهم برنامج التمويل المالي بإحداث فرق بالكميات المنتجة من محصول الحنطة بزيادة قدرها(107727.102 طن) ومحصول الشعير (12006 طن),كما ساعد على تدنية نسبة البطالة (14.62- 8.04 %) خلال فترة برنامج المبادرة الزراعية (2008 – 2015), حيث ادى هذا البرنامج الى تنويع دخل الفلاح وتقليل نسبة البطالة وتحسين المستوى المعاشي للفلاحين وزيادة الغلة لمحاصيل الحنطة والشعير , وتمت التوصية بضرورة متابعة تنفيذ المشاريع ومتابعة تسديد القروض كما تمت التوصية بأن يخصص برنامج التمويل صندوق قروض البحث العلمي الزراعي حيث يقوم بدراسة المشكلات الزراعية وبرامج تدريب الفلاحين على الادارة المثلى لرأس المال المزرعي بكفاءة.

الكلمات المفتاحية: التمويل المالي. القطاع الزراعي. البطالة. المحاصيل الزراعية.

Abstract: The agricultural initiative in the province of Diyala / Iraq is one of the methods of g overnment financing the budget to support the projects of the agricultural sector and its farmers, which was implemented through the branches of the Agricultural Cooperative Bank to provide loans to farmers, provided that the projects implemented for which the borrowing and according to a specific legal mechanism. The research included the first structures of the agricultural initiative and the second study the reality of the agricultural initiative in Diyala Governorate\ Iraq, which financed the farmers through the specialized lending funds to support the agricultural production projects (the fund for livestock support, the support fund for mechanization and the modern means of irrigation, Support for large projects , Palm orchards support fund), which included the agricultural sector in its entirety, both vegetative and animal, and the extent of the impact of this funding in increasing the number of agricultural projects completed, which reached (7679) agricultural projects diversified among the purchase of Agricultural machines, harvesters, construction of protected farm farms, establishment of cold storage stores, cold storage warehouses, honey production apples, livestock fattening fields, poultry fields, drilling wells,

construction of agricultural offices, clinics for non-appointed veterinarians, The projects that have been rehabilitated have reached their number(1880) agricultural projects in Diyala governorate during the agricultural initiative period, and varied between maintenance of agricultural machines, service and development of orchards and rehabilitation of poultry fields ,The study also discussed the impact of this initiative on reducing the unemployment rate as it decreased from (14.62 - 8.04) during the agricultural initiative years (2008-2015) and achieved an increase in the quantities produced from the strategic grain crops in Diyala governorate (wheat and barley),Where the difference in production of wheat crop between 2008 and 2015 increase in production estimated (107727.102) tons and barley crop (12006) tons, It also played a role in diversifying the income of farmers and improving the living standards of the agricultural family, which in turn contributes to raising the efficiency of agricultural production in Diyala governorate in quantity and quantity. It was recommended to form a higher committee to follow up the implementation of completed projects and pay their loans according to their terms and work to ease the routine of applying for loans as incentive For the development of agricultural capital. It was also recommended to allocate part of the agricultural initiative for agricultural scientific research, which adopts the study and solutions of agricultural problems and training of agricultural cadres on the optimal management of agricultural capital efficiently.

Keywords: Agricultural Project Finance. Agricultural Initiative. The unemployment . Quantities produced.

المقدمـــــة:

يعد التمويل الزراعي أحد السياسات الائتمانية التي تمكن المقتصد الزراعي من الحصول على القروض التي يحتاجها لسد احتياجاته الانتاجية لتنفيذ خططه الزراعية، لقد ظهرت فكرة التمويل الزراعي بوصفها فرعا مهما من فروع علم الاقتصاد الزراعي ساعية لحل مشكلة ندرة رأس المال

الذي يحتاجه المزارع باستمرار وكيفية استخدامه استخداما أمثل يهدف الى زيادة الانتاجية في القطاع الزراعي وكذلك يسعى لخفض حجم التكاليف وتحقيق ارباح عالية. يعرف (المكصوصي.2007.ص140) التمويل الزراعي بأنه فرع من فروع الاقتصاد الزراعي يهدف الى حل مشكلة ندرة رأس المال الذي تواجهه المزرعة وكيفية استخدامه استخداماً أمثل سعياً لزيادة الانتاج ورفع الانتاجية في القطاع الزراعي وتقليل التكاليف الانتاجية وزيادة الارباح التي تعود على المقتصد الزراعي. ان القطاع الزراعي في العراق من اهم ركائز الاقتصاد الوطني بعد القطاع النفطي ما جعل الجهات المعنية امام واجب تنمية هذا القطاع والنهوض به عن طريق تقديم الدعم المالي اللازم للمنتج الزراعي وتم ذلك عن طريق المصرف الزراعي التعاوني بفروعه كافة, وتعد محافظة ديالى احدى المحافظات الزراعية في العراق حيث الخزين المائي الوافر والاراض الزراعية الجيدة والظروف المناخية الملائمة للزراعة ما جعل برنامج تمويل المشاريع الزراعية فيها يحقق نجاحاً جعل الفلاح ينمي رأس المال الزراعي المستثمر لديه, حيث يذكر(الحسناوي.2011. ص128) ان رأس المال يقسم الى قسمين وهما رأس المال الثابت ويشمل الآلات والمنشآت والمباني الخاصة بالمزرعة ورأس المال العامل (المتداول) ويشمل المواد الخام والمستلزمات الزراعية.

مشكلة الدراسة:

يعد القطاع الزراعي في العراق من القطاعات المهمة والتي عانت من معوقات كثيرة منها قلة التمويل المقدم للفلاح والمشاريع الزراعية، ما جعل هذا القطاع يفقد جزء كبير من العاملين به وتذبذب رأس المال الزراعي، وبعد انطلاق برنامج التمويل (المبادرة الزراعية) لم تحقق نتائج توازي حجم التمويل المقدم ومازالت المشاريع الزراعية تعاني ارتفاع التكاليف وتدني الانتاج لذلك سيتم دراسة واقع تنفيذ برنامج التمويل لمعرفة اسباب عدم تحقيق الاهداف.

هدف الدراسة :

معرفة اثر التمويل المالي لبرنامج المبادرة الزراعية على المحاصيل الاستراتيجية في محافظة ديالى من خلال مقارنة الخطة السنوية الزراعية للمحافظة مع سابقاتها من حيث المساحات المزروعة والكميات المنتجة واثر هذا التمويل على نسبة البطالة .

فرضية الدراسة :

تستند الدراسة الى فرضية مفادها ان خطة برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) ادت الى تنمية القطاع الانتاج الزراعي وخاصة محاصيل الحبوب الاستراتيجية وحدت من نسبة البطالة عن طري التوسع العمودي للانتاج الزراعي .

مواد وطرائق العمـــل:

1 – تم الحصول على البيانات الخاصة ببرنامج التمويل المالي من مديرية زراعة ديالى– قسم التخطيط والمتابعة وقسم الانتاج النباتي و كذلك من المصرف الزراعي التعاوني/ فرع ديالى.

2 – اجريت زيارات ميدانية متعددة للمشاريع التي تم تنفيذها بواسطة برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) لضمان دقة البيانات.

3 – تم تجميع البيانات وتبويبها في جداول خاصة.

منهجية الدراسة :

اتبع البحث منهج الاسلوب الوصفي مستندًا بذلك على بيانات تم الحصول عليها من دوائر القطاع الزراعي ذات التنسيق المشترك في تنفيذ برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) كما يتم تشخيص نقاط الضعف في هذا البرنامج وتحديد المعوقات التي واجهت التنفيذ ومدى الفائدة المتحققة منها في القطاع المستهدف.

المبحـــث الاول: الاطار النظري :

اولا: مفهوم المبادرة الزراعية :

المبادرة الزراعية عبارة عن قروض هدفها دعم القطاع الزراعي بصورة عامة وتوفير السيولة النقدية لتمكين المنتجين الزراعيين من تغطية تكاليف المشاريع الزراعية ونفذت من خلال تخصيص مبالغ وايداعها في صناديق سميت (صناديق الاقراض التخصصية)، وتهدف لدعم مشاريع وزارة الزراعة بتوفير السيولة النقدية بشكل قروض. (جياش وشياع.2013)

مفهوم صناديق الاقراض التخصصية:

ان صناديق المبادرة الزراعية عبارة عن مجموعة من الاموال المخصصة التي تستثمرها الحكومة العراقية لتنمية القطاع الزراعي بشقيه النباتي والحيواني وعلى شكل قروض تمنح للفلاحين من اجل النهوض بالواقع الزراعي العراقي. تم استحداث وحدة صناديق الاقراض التخصصية الزراعية ضمن الهيكل التنظيمي للمصرف الزراعي التعاوني في العراق وتتولى هذه الصناديق تقديم القروض لدعم القطاع الزراعي.

الهدف من برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية):

(عيدان,2010) (موقع المصرف الزراعي التعاوني على الانترنيت (www.agbank.gov.iq))

1 – تحريك عجلة الاقتصاد الزراعي والحد من البطالة وتوفير البذور المحسنة والاسمدة للمزارعين.

2 –ضمان شراء المنتجات الزراعية من المزارعين بأسعار السوق وتحديد حصص الاستيراد والتصدير بما يحقق استقرار الاسعار الزراعية ويخدم القطاع الزراعي العراقي.

3 – فسح المجال لصغار الفلاحين على اقامة مشاريع زراعية من خلال صناديق الاقراض التخصصية تشجيعا لتحسين معيشتهم وتنويع دخل الفلاح.

4 – تشجيع اقامة الجمعيات الفلاحية والتي تقوم بعملية التنسيق بين الفلاحين من جهة وبين القطاع العام.

5 – تشكيل هيئة عليا من خبراء عراقيين وذات صلاحيات لمتابعة تنفيذ هذه المبادرة.

هيكلية صناديق الاقراض التخصصية التابعة لبرنامج المبادرة الزراعية:

اولاً: صندوق اقراض تنمية الثروة الحيوانية:

جدول (1) يمثل انواع القروض الخاصة بصندوق اقراض الثروة الحيوانية

ت	نوع القرض	مبلغ القرض المقرر / بالدولار	فترة الامهال	الية التسديد	الملاحظات
1	انشاء مزرعة اسماك	(3072 $)	سنة واحدة	قسط خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
2	مشاريع المجترات				
	آ – تسمين ذكور جاموس محلي	(1120 $) بعمر (4 – 6) شهور	سنة واحدة	قسط خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	ب –شراء ابقار حليب مستورد	(4000 $) للبقرة الواحدة (1600 $) للأعلاف	سنتين متتاليتين	تسدد خلال ستة سنوات	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ

	جـ -تسمين عجول محلية	(960 $) لكل رأس بعمر (4- 6) شهور	سنة واحدة	قسط خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	د – تسمين حملان	(100 $) للرأس بعمر (4-6) شهور	سنة واحدة	قسط خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	هـ - تسمين اغنام وماعز محلية	($160) للرأس بعمر (4 – 6) شهور	سنة واحدة	قسط خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
3	مشاريع الدواجن وتشمل				
	آ – مشاريع فروج اللحم	(3.4 $) للفرخة الواحدة	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	ب – تربية دجاج بيض المائدة	(5.6 $) للفرخة بعمر (20) اسبوع	سنة ونصف	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	جـ - تربية امهات بيض المائدة	(11.84 $) للفرخة بعمر (26) اسبوع	سنة ونصف	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	هـ - تشغيل مفاقس	(100 $) للصندوق	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ

	و – تشغيل المجازر	(64.000 $) لطاقة الف طن/ساعة	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
4	تشغيل معامل العلف بأنواعها				
	آ – الدواجن	(16.000 $)	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	ب – المجترات	(8.800 $)	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
	جـ – الاسماك	(11.600 $)	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
5	تأهيل مشاريع الثروة الحيوانية المختلفة	التكاليف تعتمد على تقرير اللجنة الفنية التابعة للمصرف وجدواها الاقتصادية	سنتين	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
6	انشاء وتأهيل مخازن تبريد	التكاليف تعتمد على تقرير اللجنة الفنية التابعة للمصرف وجدواها الاقتصادية	سنتين	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ

7	فتح عيادات اطباء بيطرين	($ 32.000)	سنة واحدة	قسطين خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ
8	تطوير عيادة بيطرية لأطباء بيطريين	($ 12.000)	سنة واحدة	اربعة اقساط متساوية خلال السنة	تحسب فترة الامهال من تاريخ صرف المبلغ

متوسط سعر صرف العملات حسب السعر السائد في السوق المحلية لتلك السنة.

يوضح الجدول(1) ان التمويل المالي شمل اغلب مشاريع الانتاج الحيواني وتطويرها عن طريق رفد المنتج الزراعي بقروض مادية ميسرة او ادوات الانتاج شملت الماشية و الآلات التي تحتاجها المشاريع ,لكن الواضح ايضًا ان هذا البرنامج يفتقر للتخطيط الدقيق الشامل كونه اهمل موضوع التسويق والطلب والعرض حيث ان مشاريع التسمين وانتاج اللحوم تحتاج لسوق يسودها الطلب بشكل متزايد وان هذا البرنامج عند اطلاقه تم فتح الاستيراد الخارجي مايعني توجه المنتج للمستورد بسبب تدني اسعاره كذلك حال انتاج بيض المائدة , كما ينقصها انشاء مصانع الانتاج الحيواني لانتاج مشتقات الحليب واللحوم المعلبة والصناعات الاخرى المرتبطة بالمنتجات الزراعية الحيوانية والتي يمكن للمنتج الزراعي تصريف سلعته فيها بسهولة .

ثانياً : صندوق اقراض صغار الفلاحين والمزارعين

جدول (2) يمثل انواع القروض الخاصة بصندوق اقراض صغار الفلاحين

ت	نوع القرض	مبلغ القرض المقرر / بالدولار	فترة الامهال	الية التسديد

1	البيوت البلاستيكية	($ 6.800) للبيت الواحد المكيف ($ 3.600) للبيت الواحد غير المكيف	سنة واحدة	ثمان اقساط متساوية خلال السنة
2	مناحل العسل	($ 20.000)	سنة واحدة	اربعة اقساط متساوية خلال السنة
3	المحاصيل الحقلية	(160 $)/ لكل 0.25 هكتار للحنطة والشعير	سنة واحدة	يسترد خلال سنة من تاريخ صرف الدفعة الاولى
		($ 100) لكل 0.25 هكتار لمحصول الرز (الشلب)		
		($ 200) لكل 0.25 هكتار للذرة الصفراء والبيضاء		
		($ 93.6) لكل 0.25 هكتار لمحصول الجت		
		($ 77.6) لكل 0.25 هكتار لمحصول البرسيم		
		($ 84) لكل 0.25 هكتار		

		لمحصول القطن		
4	**محاصيل الخضر الصيفية**	**(400 $) لكل 0.25 هكتار لمحصول البصل**	**سنة واحدة**	**يسترد خلال سنة من تاريخ صرف الدفعة الاولى**
		(560 $) لكل 0.25 هكتار لمحصول البطاطا الربيعية		
		(360 $) لكل 0.25 هكتار لمحصول البطاطا الخريفية		
5	**الطماطم المحمية**	**(800 $) لكل 0.25 هكتار**	**سنة واحدة**	**يسترد خلال سنة من تاريخ صرف الدفعة الاولى**
6	**انشاء بساتين زيتون حديثة و تشمل**			
	آ – بناء حوض كونكريت	**($12.400) لكل(2.5)هكتار و(20.800 $) لكل(5) هكتار**	**اربعة سنوات**	**ثلاثة اقساط خلال السنة**
	بـ –منظومة ري تنقيط مع مضخة	**(29.200 $) لكل (7.5) هكتار و(43.200 $) لكل (15) هكتار**		

	جـ –اجور حراثة وتنعيم وتسوية وحفر وشراء الشتلات	(52.400 $) لكل (12.5) هكتار		
7	خدمة بساتين الزيتون	(1000 – 1600 $) لكل 0.25 هكتار	سنة واحدة	خمسة اقساط خلال السنة
8	مكتب زراعي	(16.000 $) مكتب استشاري (32.000 $) مكتب بيع التجهيزات الزراعية	سنة واحدة	ستة اقساط خلال السنة

متوسط سعر صرف العملات حسب السعر السائد في السوق المحلية لتلك السنة.

الجدول (2) يختص بمحاصيل الخضر وهذه المحاصيل تحضى بطلب يومي متزايد واستهلاك مستمر وهي تعتبر اساسية بالنسبة للمنتج والمستهلك ألا ان برنامج التمويل هذا اهمل مجموعة اساسيات يفتر لها المنتج وهي متلازمة مع التنمية والتطوير الزراعي مثلًا تحتاج مشاريع البيوت البلاستيكية لمنتج ذو خبرة عالية بهذا المجال بينما لم يخصص برنامج التمويل صندوقًا لتنمية قدرات الفلاحين من خلال اجراء الدورات التدريبية كذلك الحال مع محاصيل الخضر الاخرى ومنظومات الري الحديثة التي تحتاج لمزارع لديه معرفة تقنية باستخدامها ,كما اهتم الجدول اعلاه بإنشاء بساتين الزيتون رغم ان المخزون المائي في تنازل مستمر وبشكل سنوي بسبب السياسات المتبعة بإدارة الموارد في تلك السنوات ومع تنمية زراعة محصول الزيتون لم يتم التطرق لمسألة اين سيتم تسويقه وكيف, رغم ان هذا المحصول يعتبر اساسي ومهم ويوفر منتجات عديدة كالزيوت وصناعة المخللات والصناعات الاخرى اضافة لمقاومته للضروف البيئية وان رفد هكذا مشاريع برأس المال سيحد بشكل سريع من البطالة فيما لو طبق بالشكل الامثل .

ثالثاً: صندوق اقراض المكننة ووسائل الري الحديثة:

جدول (3) يمثل انواع القروض الخاصة بصندوق اقراض المكننة ووسائل الري الحديثة

ت	نوع القرض	مبلغ القرض المقرر /بالدولار	فترة الامهال	الية التسديد
1	**شراء الساحبات والحاصدات الزراعية**	**● توفير 100%من مبلغ الشراء في حالة شرائها من القطاع العام**	**سنة واحدة**	**خمسة اقساط متساوية للساحبات /سنة عشرةاقساط متساوية للحاصدات/سنة**
2	**شراء المرشات المحورية والثابتة ومنظومات الري بالتنقيط**	**● توفير 100%من مبلغ الشراء في حالة شرائها من القطاع العام ● توفير ٨٠٪ من المبلغ في حالة شرائها من القطاع الخاص على ان لا يتجاوز المبلغ (144.000 $) في حالة عدم توفرها بالقطاع العام**	**سنة واحدة**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**
3	**حفر الآبار السطحية والارتوازية**	**آ –البئر السطحي مع طاقم الضخ (6.400 $) قطاع عام.**	**سنة واحدة**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**

		($14.400) قطاع خاص. **ب –البئر الارتوازي مع طاقم الضخ (16.800 $)**		
4	**شراء طاقم ضخ**	**توفير 100% من مبلغ الشراء**	**سنة واحدة**	**خمسة اقساط متساوية بالسنة**
5	**صيانة ساحبات وحاصدات**	• **(2.400 $) للساحبات كحد اعلى** • **(4.800 $) حاصدات كحد اعلى**	**سنة واحدة**	**قسطين متساويين بالسنة**

متوسط سعر صرف العملات حسب السعر السائد في السوق المحلية لتلك السنة.

وتعتبر مفردات الجدول(3) اكثر مستلزمات الانتاج التي تحتاجها المنتج حيث ان وسائل الري الحديثة تساعد على تقنين استخدام مياه الري وتقليل الهدر بالموارد كما ان تنظيم عملية الري تساعد على زيادة الغلة لكافة انواع المحاصيل الزراعية وهي عنصر مهم من عناصر برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) إلا ان هذا البرنامج كان ضعيف بالتركيز على كيفية التنفيذ حيث اهملت بنود الإقراض احكام السيطرة على المنتج لتنفيذ المشروع الذي اقترض من اجله ماسبب هدر برأس المال الزراعي على قطاعات اخرى بعيدة عن اهداف البرنامج بسبب ضعف تنظيم واداء الجهات المعنية بذلك وان المبادرة هذه لم توقفت كونها تعتمد اسًا بتمويلها على الميزانية الاتحادية للدولة رغم انها حاولت معالجة مشكلات قطاع اساسي من قطاعات الاقتصاد الوطني.

رابعاً: صندوق اقراض تنمية النخيل:

جدول (4) يمثل انواع القروض الخاصة بصندوق اقراض تنمية بساتين النخيل

ت	نوع القرض	مبلغ القرض المقرر بالدولار	فترة الامهال	الية التسديد
1	انشاء بساتين نخيل ويشمل			
	آ – كلفة انشاء البساتين الجديدة بطريقة الري الحديثة (التنقيط)	(13.700 $) لكل(1.25 هكتار) (158.000 $) لكل (25 هكتار)	سبعة سنوات	خمسة اقساط متساوية بالسنة
	بـ –خدمة وتطوير البساتين	(900 – 1.600 $) خدمة وتطوير بساتين وحسب المساحة	سنة واحدة	اربعة اقساط متساوية بالسنة
	جـ –تأهيل مخازن التمور	توفير 90% من القيمة التي تقدرها اللجنة الفنية التابعة للمصرف	سنتين متتاليتين	ستة اقساط متساوية بالسنة
	د – انشاء وتأهيل مكبس تمور	توفير 90% من القيمة التي تقدرها اللجنة الفنية التابعة للمصرف	سنتين متتاليتين	ستة اقساط متساوية بالسنة
2	انشاء بساتين الفاكهة ويشمل :			
	آ – المشمش	12.100 $ لكل (1.25 هكتار)	ثلاثة سنوات	خمسة اقساط متساوية /سنة

	بـ -خوخ -تفاح	**12.700 $ لكل (1.25 هكتار)**	**ثلاثة سنوات**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**
	جـ -تين	**12.300 $ لكل (1.25 هكتار)**	**ثلاثة سنوات**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**
	د – رمان	**12.956 $ لكل (1.25 هكتار)**	**ثلاثة سنوات**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**
	هـ – عنب	**14.372 $ لكل (1.25 هكتار)**	**ثلاثة سنوات**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**
	و – حمضيات	**14.900 $ لكل (1.25 هكتار)**	**سبعة سنوات**	**خمسة اقساط متساوية /سنة**

متوسط سعر صرف العملات حسب السعر السائد في السوق المحلية لتلك السنة.

الجدول (4) يوضح ان برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) خصص صندوقًا لتمويل اصحاب البساتين برأس المال اللازم لتنمية هذا القطاع الذي يشغل عدد كبير من العائلات الفلاحية وهذا بند اساسي من بنود البرنامج لكن لم ينفذ بشكل يحقق اهدافه بسبب ضعف عمل الدوائر المعنية بالتفيذ حيث يفتقر القطاع الزراعي العراقي الى عنصر الادارة المزرعية الجيدة واتضح ذلك من خلال المقابلة الشخصية مع اللجان المعنية في دوائر الزراعة كما ان التنسيق ضعيف بين دوائر القطاع الزراعي ماسبب حدوث تعثر في تنفيذ برامج التنمية وتظهر هذه النتيجة السلبية اخيرًا في عدم تطور قطاع البساتين المستهدف وهدر بالموارد الانتاجية المتاحة وبالوقت.

خامساً: صندوق قروض تنمية المشاريع الكبرى:

جدول (5) يمثل القروض الخاصة بصندوق اقراض المشاريع الكبرى

ت	نوع القرض	المبلغ	فترة الامهال

1	كافة الاغراض الزراعية	• (200.000 $) صلاحية مجلس ادارة صناديق الاقراض التخصصية بالحدود العليا البالغة (800.000 $) • أكثر من (800.000 $) صلاحية اللجنة العليا للمبادرة الزراعية على اساس الجدوى الاقتصادية	تحسب على اساس اغراض صناديق القروض

متوسط سعر صرف العملات حسب السعر السائد في السوق المحلية لتلك السنة.

ان الاقبال على المشروعات الزراعية الكبرى جدول(5) لم يستطيع تحقيق رقمًا كبيرًا مقارنة بالمشاريع الاخرى من جانب اقتراض الفلاح وذلك لعدم توفر المعرفة الكافية بإنشاء هكذا مشاريع اضافة لسيادة عنصري المخاطرة برأس المال الزراعي واللايقين بالاسعار الزراعية التي تعاني تقلبات مستمرة خاصة وان الاستقرار الزراعي يرتبط مباشرة بالاستقرار السياسي الذي كان هشًا آنذاك لا يتحمل التأسيس لمشاريع كبيرة بعيدة المدى من قبل الفلاح ,وحيث لايمكن التخلي عن المشاريع الزراعية الكبيرة التي تساهم بتطوير القطاع الزراعي وتنمية الاقتصاد الوطني فعلى الدولة ان تتبنى هكذا مشاريع وتقوم بتطويرها عن طريق كوادر وزارة الزراعة خاصة وان القوانين تلزمها بالتنفيذ و الانتاج حيث ستحقق اهدافها بسلاسة اكبر.

صناديق القروض التخصصية	المبالغ المصروفة بالدولار	عدد المستفيدين	نسبة مساهمة كل صندوق%	الملاحظات

صندوق قروض الانتاج الحيواني	6.717.232.800	299	7.4	خلال سنوات المبادة الزراعية (2008 – 2015)
صندوق قروض صغار الفلاحين	11.055.347.076	1243	12.18	
صندوق قروض المكننة ووسائل الري الحديثة	58.263.420.187	4707	64.16	
صندوق قروض المشاريع الكبرى	8.893.067.198	31	9.79	
صندوق قروض تنمية بساتين النخيل	5.873.060.809	1162	6.47	
المجموع الكلي	90.802.128.112	7442	100 %	

المبحث الثاني: دراسة واقع تنفيذ برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) في محافظة ديالى:

جدول (6) اجمالي المبالغ المصروفة وعدد المستفيدين ونسب المساهمة لمحافظة ديالى لسنوات المبادرة الزراعية

المرجع: الباحث اعتماداً على مخرجات الحاسبة الالكترونية – مديرية زراعة محافظة ديالى– قسم التخطيط والمتابعة.

الجدول (6) يوضح ان اكبر نسبة مساهمة كانت لصندوق قروض المكننة ووسائل الري الحديثة حيث بلغت (63.25 %) ما يعني رغبة الفلاح بتطوير الانتاج الزراعي وتنويع الدخل الزراعي باستخدام المكننة الحديثة وتقنين استهلاك المياه باستخدام وسائل الري الحديثة المتاحة معتمداً على تمويل برنامج المبادرة الزراعية , تليها نسبة مساهمة صندوق قروض صغار الفلاحين حيث بلغت نسبته (16.7 %) والذي تضمن الزراعة المحمية ومحاصيل الخضر الصيفية ومناحل انتاج العسل والمشاريع الاخرى التي تعتبر سريعة دوران رأس المال ولإن محاصيل الخضر هذه

لا غنى عنها توجه الفلاح للاستفادة من تمويل برنامج المبادرة الزراعية لتوفيرها على مدار السنة , بعد ذلك نسب صندوق قروض المشاريع الكبرى وصندوق قروض الانتاج الحيواني وصندوق قروض تنمية بساتين النخيل بنسب المساهمة على التوالي (9.79) (7.4) (6.47) .استنتج (العبدلي والبولاني.2017) وجود تفاوت بالأموال المخصصة لصناديق الاقراض بسبب عدم وجود خطة ائتمانية لسياسة التمويل المالي وانها اعتمدت على ايرادات الموازنة العامة للدولة في توفير الاموال.

جدول (7) يوضح عدد المشاريع المنجزة والمعاد تأهيلها خلال فترة المبادرة الزراعية في محافظة ديالى

السنوات	المبالغ المصروفة / دولار	عدد المشاريع الزراعية		الملاحظات
		انشاء	تأهيل	
2008	4.021.502.320	338	126	جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2008
2009	12.894.317.332	1137	351	جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2009
2010	10.469.825.853	993	306	جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2010
2011	18.607.288.712	2056	579	جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2011
2012	21.524.749.461	2489	394	جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2012
2013	11.540.730.478	328	62	جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2013

2014	**7.604.747.779**	**190**	**35**	**جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2014**
2015	**4.138.966.177**	**148**	**27**	**جميع صناديق الاقراض التخصصية لسنة 2015**
المجموع	**90.802.128.112**	**7679**	**1880**	**لجميع سنوات المبادرة الزراعية**

المرجع: الباحث اعتماداً على مخرجات الحاسبة الالكترونية – مديرية زراعة محافظة ديالى– قسم التخطيط والمتابعة.

من الجدول (7) يتضح ان دعم القطاع الزراعي في تزايد على مدى سنوات برنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) حيث وصل عدد المشاريع المنجزة (2489) مشروع زراعي خلال عام 2011 تضمن حفر آبار و شراء منظومات ري محورية وثابتة و شراء جرارات زراعية و حاصدات وشراء ملحقات زراعية كالباذرات المسمدة ما يعني توجه المنتج الزراعي الى استخدام المكننة الزراعية وتخصيص العمل المزرعي واختصار الوقت والجهد وتقنين استخدام مياه الري , كما شمل التمويل المشاريع الاخرى فتضمن انشاء مكاتب استشارية زراعية ومكاتب بيع المستلزمات الزراعية وانشاء مناحل انتاج العسل والعيادات البيطرية للأطباء البيطريين واقامة مشاريع كبرى كمخازن التبريد ومخازن التمور ومكابس التمور وحقول تسمين المواشي . كما تضمن محور الصيانة والتأهيل صيانة جرارات زراعية وخدمة وتطوير البساتين وتأهيل حقول الدواجن المنشأة قديماً. بلغ مجموع المشاريع المنجزة حديثاً في محافظة ديالى (7679) مشروع زراعي وبلغ مجموع المشاريع المؤهلة (1880) مشروع خلال فترة برنامج التمويل المالي. ان برنامج التمويل هذا لم يأخذ بعين الاعتبار تدريب الكوادر الفلاحية على استخدام المكننة الحديثة والكميات النموذجية من البذور المحسنة والاسمدة والمكافحة الحشرية بأنواعها وكيفية تدنية تكاليف الانتاج وبرامج ادارة رأس المال الزراعي بكفاءة. ذكر (السامرائي. 2008. ص248) ان تدنية تكاليف استعمال الآلات والمعدات الزراعية وحسابات رأس المال في المزرعة مهم في تحقيق الكفاءة الانتاجية, وان الغرض من احتساب التكاليف الثابتة والمتغيرة هو الحصول على معلومات تمكن مدير المزرعة من اتخاذ القرارات

حول استخدام رأس المال الزراعي. ان برنامج التمويل المالي اهمل دور البرامج الارشادية التوعوية ودور الاعلام في ايصال التحديثات العلمية والاسعار للفلاح، حيث ذكر (Debertin. 2012. P. 317) ان خدمات الارشاد الزراعي ومصادر الاعلام الاخبارية هي مورد المعلومة للفلاحين فيما يتعلق بالأسعار لتلافي مسألة اللايقين والمخاطرة برأس المال الزراعي. كما أهمل دور البحث العلمي في التنمية الزراعية. حيث يذكر (الاشرم .2007. ص58 –٣٧٨) ان تحقيق التنمية الزراعية واستدامة تأمين الغذاء للسكان لن يتم إلا بزيادة الانتاج من خلال زيادة الغلال الزراعية في وحدة المساحة وهذا لن يتم إلا من خلال تطوير البحوث العلمية التي بنتائجها حققت دول متطورة امنها الغذائي.

أثر المبادرة الزراعية على البطالة في محافظة ديالى:

جدول (8) معدلات البطالة في محافظة ديالى خلال سنوات المبادرة الزراعية

السنة	2008	2010	2011	2013	2015	خلال الفترة
معدلات البطالة	14.62	13.85	13.78	12.03	8.04	2008–2015

المرجع: الباحث اعتماداً على بيانات الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات – وزارة التخطيط العراقية.

يتضح من الجدول (8) ان معدلات البطالة تنخفض خلال سنوات المبادرة الزراعية ما يدل على توفر فرص عمل لذوي المهن الزراعية والمهندسين الزراعيين عن طريق الاقتراض من المصرف الزراعي التعاوني، حيث ذكر (ابو شاور واخرون.2011.ص234) ان السياسة الزراعية مجموعة إجراءات تتخذها الدولة تهدف الى زيادة استمرار الدخل الحقيقي للمزارعين ومن اهم الوسائل التي تساعد على زيادة دخول المزارعين هي زيادة القدرة الانتاجية للفرد الزراعي عن طريق زيادة المساحات المزروعة. كما ان هذه المبادرة قللت من نسب البطالة الموسمية التي يعرفها (الزيود.2010.ص24) هي زيادة عرض العمالة خلال مواسم معينة من السنة كانتهاء مواسم

جني المحاصيل الزراعية. حيث تنوع المشاريع الزراعية يساعد على تقليل البطالة الموسمية وتنويع الدخل الزراعي. كما استنتج (الشيباوي والسعيدي.2017) ان برنامج التمويل المالي هذا أسهم برفع الانتاج الزراعي عن طريق القروض الممنوحة من المصرف الزراعي التعاوني خلال فترة التمويل (المبادرة الزراعية) عما كانت عليه قبل تلك الفترة.

أثر التمويل على الكمية المنتجة من المحاصيل الاستراتيجية في محافظة ديالى:

جدول (9) أثر التمويل على كميات الانتاج من محصولي الحنطة والشعير في محافظة ديالى

السنوات	**الكميات المنتجة خلال فترة برنامج التمويل المالي (ألف طن)**			
	حنطة	**فارق الكمية المنتجة من الحنطة بين سنتي (٢٠٠٨-2015) / الف طن**	**شعير**	**فراق الكمية المنتجة من الشعير بين سنتي (2008 -2015) / ألف طن**
2008	**32.672.078**	**107727.102 / طن**	**2874**	**12006 / طن**
2009	**34.411.130**		**8256.700**	
2010	**169.446**		**24.700**	
2011	**99.066.342**		**5541.400**	

2012	109.848.780		908.480	
2013	345942		23929	
2014	396827		31900	
2015	140399.180		14880	

المرجع: الباحث اعتماداً على مخرجات الحاسبة الالكترونية –مديرية زراعة محافظة ديالى – قسم التخطيط والمتابعة.

يوضح الجدول (9) ان كميات الانتاج تأخذ بالزيادة مع تطور برنامج التمويل المالي حيث كان فرق الكمية المنتجة بين السنة الاولى للتمويل 2008 وسنة 2015 (107727 طن) حنطة و (12006 طن) من محصول الشعير, الزيادة بالكمية المنتجة هي نتيجة لبرنامج التمويل المالي (المبادرة الزراعية) التي نفذت خلال تلك السنوات فيما لو استمرت ستحقق الاكتفاء الذاتي للمحافظة خاصة وان جزء كبير من التمويل يذهب للمشاريع الصغيرة مثل إنشاء مناحل انتاج العسل وفتح مكاتب بيع المستلزمات الزراعية ومكاتب استشارية وعيادات بيطرية وشراء معدات زراعية واستصلاح اراضي وحقول تسمين المواشي. يذكر (الزيود. 2010. ص43) ان قطاع المشروعات الصغيرة يشكل جزءاً هاماً من الاقتصاد الوطني خاصة في البلدان التي تعتمد على الزراعة كما انها تعتبر مصدر اساسي للفقراء و العاطلين عن العمل لتوليد الدخل وخلق فرص العمل. كما يذكر (طشطوش. 2012.ص74- 75) تشكل المشاريع الصغيرة مصدراً للأمن` الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي, كما انها تساهم في تطوير المهارات وتعد مصدراً للنمو الاقتصادي وتساهم في الاستغلال الامثل للمورد البشري.

الاستنتاجـــــات:

1- اثر التمويل المالي ايجابياً بزيادة عدد المشاريع الزراعية والتي ساعدت على تحسين الانتاج الزراعي وتطبيق الاساليب الحديثة في الزراعة مثل وسائل الري الحديث وشراء ساحبات و حاصدات ما يساعد على تحسين انتاج المحاصيل كماً ونوعاً وبالتالي زيادة دخل الفلاح.

2 – جزء كبير من التمويل يذهب للمشاريع الصغيرة مثل الزراعة المحمية وفتح مكاتب بيع المستلزمات الزراعية ومكاتب استشارية وعيادات بيطرية وشراء معدات زراعية واستصلاح اراضي بمساحات محدودة وحقول تسمين المواشي والطيور الداجنة وهي اساس تنمية قطاع صغار الفلاحين.

3 – تشغيل الايدي العاملة والحد من البطالة الموسمية التي تصيب القطاع الزراعي خلال فترات ما بعد الحصاد والجني ما ساعد على تنويع دخل الفلاح خلال السنة.

4- من خلال ما تقدم يتضح ان التمويل المالي المقدم للفلاح يتصف بأنه حالة طارئة لإنقاذ الواقع الزراعي حيث لم تكن هناك استراتيجية واضحة لتنفيذ المشاريع الممولة ويمكن تشخيص نقاط الضعف التالية خلال فترة تنفيذ برنامج التمويل المالي:

آ – صرف قسم من الاموال المقدمة للفلاح بقيود ضعيفة ما يدل على سوء اداء الجهات المسؤولة عن متابعة التنفيذ وبالتالي هدر رأس المال الزراعي.

بـ –لم يهتم برنامج التمويل المالي بتدريب الفلاحين على استخدام المكننة الحديثة والكميات النموذجية من البذور المحسنة والاسمدة والمكافحة الحشرية بكافة انواعها.

جـ –لم تخصص المبادرة الزراعية جانب للبحث العلمي الزراعي كما اهملت انشاء مختبرات تطوير اصناف البذور ومختبرات الزراعة النسيجية التي تعتبر ركن اساس لتطوير القطاع الزراعي.

د – اعتمد تمويل المشروعات الزراعية على الميزانية الاتحادية للدولة التي هي اساساً معتمدة على النفط.

هـ – فترة امهال المقترضين تراوحت بين سنة بالنسبة لمشاريع الخضر والدواجن والمكائن والآلات ومعدات الري وسبعة سنوات بالنسبة للبساتين وهي فترات لا تكفي لاسترداد رأس المال المستثمر تحت ظروف تذبذب الاسعار وفتح الاستيراد.

التوصيــات:

1– ضرورة متابعة تنفيذ المشاريع التي تم البدء بها ومتابعة تسديد القروض لضمان تحقيق اهداف برنامج التمويل المالي.

2– تخصيص صندوق قروض البحث العلمي الزراعي حيث يقوم بدراسة المشكلات الزراعية وبرامج تدريب المزارعون على ادارة رأس المال الزراعي بكفاءة لتحقيق الامثلية في استخدام المدخلات الانتاجية.

3 – المشاريع الزراعية كبيرة الحجم تتبنى الدولة تنفيذها خاصة وان الفلاح لايستطيع التغلب على عنصر المخاطرة واللايقين ويمكن تجاوز هذا العنصر بالنسبة للدولة.

4 – تقليل حجم الانفاق بما يتناسب وقدرات الدوائر الزراعية المعنية بالتنفيذ للحفاظ على رأس المال الثابتو المتداول من الهدر .

5 – اعداد الفلاح إعدادًا جيدًا قبل اطلاق هكذا برامج وذلك من خلال الدورات التدريبية والارشادية التي تساعد على تنيمة قدرات الفلاح المعرفية وزيادة الوعي لغرض ادارة رأس المال الزراعي بالشكل الامثل الذي يحقق اهداف التمويل .

المراجـــــع:

1 – ابوشاور,منير اسماعيل و مساعدة,عبد المهدي وعقله, محمود يوسف. 2011. مقدمة في الاقتصاد الزراعي. مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع .ط 1.عمان – الاردن.ص234. الاردن.

2 – الاشرم,محمد .2007. التنمية الزراعية المستدامة العوامل الفاعلة. مركز دراسات الوحدة العربية. ط1. بيروت– لبنان .ص58 – 378. لبنان.

3 – جياش, محمد عبدالواحد و شياع,عبد الامير عبد الحسين.2013. تأثير المبادرة الزراعية في نشاط الاقراض المصرفي والارباح بحث تطبيقي في المصرف الزراعي التعاوني. مجلة دراسات مالية ومحاسبية(8): 22.

4 – الحسناوي, كريم مهدي .2011. مبادئ علم الاقتصاد. جامعة بغداد. المكتبة القانونية. بغداد .ص128. العراق.

5 – الزيود,اسماعيل محمد.2010. دور المشروعات الائتمانية الصغيرة في التنمية الريفية. الاردن.جامعة البتراء. دار جليس الزمان للنشر والتوزيع. ط1. ص24 –43. الاردن.

6 – السامرائي,هاشم علوان.2008. ادارة الاعمال المزرعية. هيئة التعليم التقني. عمان.مطبعة اليازوري. ص248. الاردن.

7 – الشيباوي, نعمة عبدالهادي كناوي و السعيدي,عبدالله كاظم حسن .2017. دور استراتيجية التمويل في تنمية القطاع الزراعي – دراسة حالة المبادرة الزراعية في محافظة الديوانية– بحث دبلوم عالي مقدم الى جامعة القادسية – كلية الادارة والاقتصاد. العراق.

8 – طشطوش, هايل عبد المولى .2012. المشروعات الصغيرة ودورها في التنمية. دار الحامد للنشر والتوزيع. عمان. ط1.ص74 – 75. الاردن.

9 – العبدلي,سعد عبد نجم عبدالله و البولاني, اياد كاظم عيدان.2017. سياسة تمويل المبادرة الزراعية في العراق عام 2008 الجهات التنفيذية وصناديق الاقراض التخصصية. مجلة الادارة والاقتصاد.(110):40.جامعة بغداد – كلية الادارة والاقتصاد. العراق.

10 – عيدان, اياد كاظم. 2010. البيئة الاستثمارية الزراعية ودورها في جذب الاستثمارات في العراق. رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد.العراق.

11 – المنظمة العربية للتنمية الزراعية– جامعة الدول العربية .2008.دراسة تطوير اساليب تنمية المشروعات الصغيرة لاستخدام التقانات المتطورة في الوطن العربي. الخرطوم– المكتبة الوطنية.السودان.

12 – المكصوصي, رحمن حسن علي.2007. الاقتصاد الزراعي. وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جمهورية العراق– جامعة واسط .ص104. العراق.

13 – موقع المصرف الزراعي التعاوني العراقي على شبكة الانترنيت
(**www.agbank.gov.iq**).

14– وزارة التخطيط العراقية – الجهاز المركزي للإحصاء وتكنولوجيا المعلومات.2017. المجموعات الاحصائية لسنوات مختلفة. باب الارقام القياسية وصرف العملات. العراق.

15 – وزارة الزراعة العراقية – مديرية زراعة ديالى .قسم التخطيط والمتابعة. 2018. الجرد الخاص بالمشاريع المنفذة للمبادرة الزراعية. مخرجات الحاسبة الالكترونية. العراق.

16 - Debertin, Davidl .2012. Agricultural production economics, Macmillan publishing pany, London. P. 317.

فاعلية السياسة المالية في معالجة مشكلة البطالة في العراق للمدة ٢٠٠٣-٢٠١٧

أ.م.د. عبير محمد جاسم، كلية الادارة والاقتصاد/الجامعة المستنصرية

م.د. اسراء سعيد صالح، كلية الادارة والاقتصاد/الجامعة المستنصرية

المقدمة

تعد السياسة المالية المرآة العاكسة لتدخل الحكومة في النشاط الاقتصادي، وتهدف بالأساس إلى تحديد أولويات الإنفاق الحكومي واثرها على مستويات التوظيف والنمو الاقتصادي ، وهي برنامج عمل متفق عليه تقدر فيه النفقات العامة والموارد المالية لمدة زمنية محددة تلتزم الحكومة بتنفيذها، لذا فالموازنة أداة مهمة جداً لرقابة السلطة التشريعية على السلطة التنفيذية.

تتسم السياسة المالية في العراق بالاعتماد على ايرادات النفط كمصدر رئيس لتمويل الموازنة العامة ،ولقد أسهمت الزيادة الكبيرة في الايرادات النفطية بعد عام ٢٠٠٣ بعد انتهاء العقوبات الاقتصادية التي كانت مفروضة على العراق وزيادة الصادرات النفطية ،في زيادة معدلات الانفاق العام بشكل كبير ولاسيما في التخصيصات التشغيلية على حساب التخصيصات الاستثمارية ، وبالتالي عدم قدرة السياسة الاقتصادية على بناء استثمارات اقتصادية حقيقية ،بالاضافة الى تعظيم الاجر الحقيقي (بسبب التحسن في قيمة الدينار العراقي والاستقرار النسبي في المستوى العام للأسعار)على حساب تدني الانتاجية , واصبح متوسط ذلك الاجر يفوق بكثير متوسط دخل الفرد من الناتج المحلي الاجمالي , مما خلق زيادة في كل من الاستهلاك والادخار ومع فقدان حلقة القدرة على تحويل هذا الادخار الى استثمارات محلية مرغوبة قادرة على توفير المتطلبات السلعية للسوق المحلية اتجهت الزيادة في الاستهلاك الى الخارج وباتجاه السلع الاجنبية المستوردة

, على حساب النشاط الاقتصادي الوطني الذي اخذ يدخل في مرحلة الركود المستمر خصوصاً في القطاع الحقيقي غير النفطي ذلك بفعل اغراق البلاد بالسلع الاستهلاكية المستوردة على حساب ركود وبطالة القطاعات المنتجة وتحويل قوة العمل الى ممارسة سلوك منغمس في المضاربة والعيش على هوامش قطاع التجارة الخارجية الاستهلاكية.

وفي هذه الورقة سنسلط الضوء على دور السياسة المالية في تعميق مشكلة البطالة في الاقتصاد العراقي من خلال تحليل ادوات السياسة المالية الانفاقية والايرادية ومن ثم توضيح العلاقة مابين الاختلال في الجانب الانفاقي والذي انعكس سلباًعلى تعميق مشكلة البطالة.

الكلمات المفتاحية/السياسة المالية ،النفقات العامة ،الايرادات العامة، البطالة

Introduction

Fiscal policy is the mirror of government intervention in economic activity, and aims primarily to identify priorities of government spending and its impact on levels of employment and economic growth. Legislative authority on the executive. Fiscal policy in Iraq is characterized by reliance on oil revenues as a main source of financing the public budget, and the significant increase in oil revenues after 2003 after the end of the economic sanctions imposed on Iraq and the increase in oil exports, contributed to the increase in public spending rates significantly, especially in the operational allocations to Calculate investment allocations, and thus the inability of economic policy to build real economic investments, in addition to maximizing real wage (due to the improvement in the value of the Iraqi dinar and the relative stability in the general level of prices) at the expense of low The average wage has far exceeded the per capita GDP, creating an increase in both consumption and savings. With the loss of the ability to convert this savings into desirable domestic investments capable of providing commodity requirements for the domestic market, the increase in consumption has been directed towards abroad. Imported foreign goods, at the expense of

national economic activity, which is entering the stage of continuous recession, especially in the real non-oil sector, due to the dumping of the country with imported consumer goods at the expense of stagnation and unemployment of productive sectors and the conversion of the labor force to practice Behaving indulging in speculation and living on the margins of the consumer foreign trade sector. In this paper we will highlight the role of fiscal policy in the deepening of the problem of unemployment in the Iraqi economy by analyzing the tools of fiscal policy spending and revenue and then clarify the relationship between the imbalance in the spending side, which reflected negatively on the deepening of the problem of unemployment.

Keywords / fiscal policy, public expenditure, public revenue, unemployment

مشكلة البحث:

تتلخص مشكلة البحث،في ان السياسة المالية في العراق قد اتخذت مسار توسعي بعد عام ٢٠٠٣ ولاسيما في مجال الانفاق الجاري ،الامر الذي اسفر عن عجز في الموازنة في السنوات التي اعقبت انهيار اسعار النفط مما اثر سلباً على نمو القطاع الانتاجي الحقيقي القادر على استيعاب الايدي العاملة وبالتالي ارتفعت معدلات البطالة بشكل غير مقبول .

فرضية البحث:

أستند البحث على فرضية مفادها ان السياسة المالية في العراق قد اسهمت بترسيخ الظاهرة الريعية للاقتصاد طيلة مدة البحث (٢٠١٧-٢٠٠٣)، وتمكنت من رفع مستوى الانفاق الاستهلاكي عبر زيادة الانفاق الجاري على حساب الانفاق الاستثماري ، الامر الذي ترك جملة من التداعيات السلبية اثقلت كاهل الاقتصاد الوطني تمثل اهمها بتزايد حجم البطالة.

هيكل البحث:

لتحقيق فرضية البحث تم تقسيمه الى مبحثين، تناول الاول الاطار النظري لمفهوم السياس المالية وادواتها وعلاقتها بالبطالة، في حين ركز المبحث الثاني على واقع السياسة المالية في العراق بعد عام

٢٠٠٣ وفاعلية تلك الساسة في الحد من مشكلة البطالة، واختتم البحث بمجموعة من الاستنتاجات والتوصيات .

المبحث الاول

الاطار النظري والمفاهيمي للسياسة المالية ودورها في تخفيض معدلات البطالة

أن دور السياسة المالية، في تحقيق التنمية المستدامة يكون من خلال دورها في تحقيق استقرار الاقتصاد الكلي، أي أن استقرار الاقتصاد الكلي ينظر إليه كشرطين ضروريين وكافيين للنمو والتنمية. ويتلخص دور السياسة المالية في استقرار الاقتصاد الكلي في البلدان النامية هي من خلال العمل على الحد من العجز في الميزانية وارتفاع مستويات الدين العام، وهذه هي عناصر أساسية للنمو الاقتصادي .وقبل الخوض في توضيح العلاقة مابين السياسة المالية والتنمية المستدامة،لابد من تأطير نظري يبرز ماهية هذه المفاهيم.

اولا: السياسة المالية، المفهوم، الانواع، الادوات

١-مفهوم السياسة المالية

لايوجد تعريف محدد للسياسة المالية يتفق عليه المختصون ، وذلك لاختلاف دورها من بلد لآخر بحسب درجة تقدمه والنظام الاقتصادي السائد فيه ، اذ تعد السياسة المالية بأدواتها جزءاً رئيسياً من السياسة الاقتصادية والتي تسعى من خلالها إلى توجيه مسار النشاط الاقتصادي، ومعالجة ما يتعرض له من صدمات وأزمات ، فضلا عن ما لها من اثر في التنمية الاقتصادية وخاصة في الدول النامية والأخذة في النمو، حيث لزاماً على الدولة أن تتدخل في توجيه الاقتصاد القومي في كافة نواحيه،لذلك تسمى السياسة المالية احيانا" بالسياسة الحكومية (Government Policy) ،ويمكن تحديد مفهوم السياسة المالية بأنها" السياسة التي تهتم في تحديد المصادر المختلفة للايرادات العامة للدولة وكذلك تحديد ألاهمية النسبية لها ،بالاضافة الى أنها معنية في تحديد الكيفية التي تستخدم بها هذه الايرادات لتمويل الانفاق الحكومي وبالشكل الذي يحقق الاهداف الاقتصادية والاجتماعية للدولة " (عريقات, ٢٠٠٦: ١٧٥). كماوتعرف السياسة المالية

(استخدام الإنفاق الحكومي والضرائب والاقتراض للتأثير على النشاط الاقتصادي وأيضا على مستوى الطلب الكلي، الناتج ، الاستخدام ، وتنطوي السياسة المالية على إدارة الحكومة للاقتصاد من خلال التأثير في الدخل والقدرة الشرائية لتحقيق مستوى النشاط الاقتصادي المطلوب

وعليه خلص الباحثون إلى وضـــع تعريف يجمع مابين أدوات وأهداف الســياســة المالية ليحدد مفهومها" بأنه الدور الذي تقوم به الدولة ومن خلال السياسة الإنفاقية والإيرادية والموازنة العامة في توجيه حركة النشاط الاقتصادي لتحقيق الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية "، أي هي نوع من التدخل تتمكن الدولة من خلاله الســـيطرة على اتجاه المتغيرات الاقتصـــادية بما ويتلائم مع أهداف السياسة الاقتصادية.

٢-انواع السياسة المالية

تنبع اهمية ادوات السياسة المالية لدورها المهم في ضمان استقرار النشاط الاقتصادي والقضاء على الفجوات سواء انكماشية كانت ام تضخمية الناجمة عن الدورات الاقتصادية ، ففي حالة حصول فجوة انكماشية فان الحكومة تقوم بزيادة النفقات الحكومية او تخفيض الضرائب وبالتالي سوف تحفز الطلب الكلي ، والفائدة من تطبيق هذه السياسة التوسعية قدرتها على الحد وبشكل جوهري ما كان يمكن ان يدخل الاقتصاد في فترة كساد مطولة ، اما في حالة حصول فجوة تضخمية فان الحكومة ومن خلال زيادة معدلات الضرائب او تخفيض الانفاق،وعليه فان السياسة المالية تقسم الى نوعين:

أ- السياسة المالية المضادة للدورة الاقتصادية.

يشير مفهوم السياسة المضادة للدورة الاقتصادية، للسياسة القائمة على ادارة العجوزات اثناء فترات الركود الاقتصادي وادارة الفوائض اثناء فترات الازدهار ، بمعنى اخر كبح النشاط الاقتصادي مع تخفيض العجوزات الحكومية اثناء فترات الازدهار، وتعزيز النشاط الاقتصادي وزيادة العجوزات الحكومية اثناء فترات الركود.(Tejan Pettinger,2012: 28)

ب- السياسة المالية المسايرة للدورة الاقتصادية

وهي السياسة التي تأتي منسجمة مع اتجاه الدورة الاقتصادية ، اي بمعنى ان الزيادات الدورية المتحققة في الدخل الحقيقي تكون حتماً مصحوبة بزيادة الانفاق العام أو تخفيض معدلات الضريبة ، ان اتباع مثل هذه السياسة يشكل تهديداً للاستقرار الاقتصادي لما تتضمنه من تقلبات مهمة في الطلب الكلي تدخل الاقتصاد في فترات ركود طويلة لاسيما خلال الاوقات الحرجة المصاحبة لانخفاض الدخل الحقيقي والتي تستوجب سياسة مالية انكماشية قائمة على تخفيض معدلات الانفاق العام وزيادة المعدلات الضريبية، ومواجهة الاقتصاد الكلي للضغوط

التضخمية التي تسفر عن السياسة المالية التوسعية* خلال اوقات الازدهار الاقتصادي. (Anderson & Nielsen, 2010: 2).

٣: ادوات السياسة المالية.

ان المختصين في علم المالية وعن طريق تقسيمهم لأدوات السياسة المالية الى ثلاث أدوات رئيستية هي النفقات العامة،الايرادات العامة،والموازنة العامة ، يشيرون الى تعلق تلك الادوات بالكميات المالية اللازمة لأداء الوظيفة المالية للدولة، وتعد الايرادات العامة والنفقات العامة وسائل عمل مالية تستخدمها الدولة لتحقيق أهدافها، وادناه توضيح لماهية هذه الأدوات (Felix J.Bierbrauer, 2014: 57-58).:

أ-النفقات العامة.

يشير مفهوم النفقات العامة الى "مبلغ من النقود يقوم بانفاقه شخص معنوي عام تحقيقاً للنفع العام"في حين يشير مفهوم السياسة الانفاقية إلى مجموعة من القواعد والإجراءات والتدابير التي تتخذها الحكومة في تخطيط الإنفاق العام وتوفير وسائل تمويله كما تظهر بالميزانية العامة، وبالتالي فإنها تمثل آلية استخدام الحكومة للإنفاق العام كأداة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي وتسريع التنمية وتوسيع العدالة الاجتماعية.

[- الايرادات العامة Public Revenues

تعد الايرادات العامة الشق الثاني من أدوات السياسة المالية والتي تمثل(مجموعة الدخول التي تحصل عليها الدولة من المصادر المختلفة من أجل تغطية نفقاتها العامة و تحقيق التوازن الاقتصادي و الاجتماعي) وتمّكن هذه الايرادات الحكومة من القيام بمهامها إتجاه الاقتصاد القومي، اذ ان قيام الدولة بوظائفها يتطلب موارداً مالية كافية لتمويل نشاطها الانفاقي، ويمثل الدخل القومي الوعاء الذي تحصل منه على الموارد المالية خلال مدة زمنية (سنة في الغالب) ونظراً للتوسع والتطور الذي سببته زيادة النفقات العامة وتعقدها فقد أنعكس ذلك على التطور الذي حصل في الايرادات العامة عن طريق زيادتها وتعدد انواعها وأغراضها[١].

٣- الموازنة العامة

تعد الموازنة العامة من أهم أدوات السياسة المالية التي تعتمدها الحكومات لتنفيذ سياساتها الاقتصادية والمالية ،كما تحدد ألية الحصول على الإيرادات العامة وقنوات استخدامها بما يضمن تنظيم الإنفاق العام وتحقيق الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة، وقد تطور مفهوم الموازنة العامة مع تطور دور الدولة في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والمالية ،وتبين الموازنة العامة الطريقة التي يتم فيها تخصيص وتوزيع موارد الدولة على الأنشطة والخدمات العامة لإفراد المجتمع وحسب أولوياتها. كما تعتبر الموازنة العامة بيان تفصيلي يوضح تقديرات نفقات الدولة وإيراداتها ،معبرا عن ذلك في صورة وحدات نقدية ،تعكس في مضمونها خطة الدولة لسنة مالية مقبلة.

ثانياً: البطالة، مفهومها وأنواعها

١- المفهوم

١ *السياسة المالية التوسعيةExpansionary fiscal policy وتعني زيادة الإنفاق العام وتخفيض الضرائب، واللجوء إلى العجز المنظم في الميزانية وهو الاسلوب الذي يطلق عليه "حافز العجز"، واستخدام الضرائب استخداما يشجع الطلب الخاص على الاستهلاك و الاستثمار بما يضمن زيادة التشغيل والإنتاج مما يؤدي إلى زيادة الطلب الكلي.

لقد انبرى العديد من الباحثين في دراســـة ظاهرة البطالة، وقد اختلفت وجهات نظرهم تبعاً للهدف الذي يسعى إلى تحقيقه سوى كان اقتصـادياً أم اجتماعياً أم سياسياً. ولكن الواقع يشير إلى أن البطالة لا يوجد لها من الناحية الاقتصــادية والاجتماعية والســياســية أبعادا" واضــحة المعالم من ناحية المفهوم، لأنها في الأغلب تعني عدم التشـــغيل ، أي تعني البطالة بصــــورة عامة.

تعد مشكلة البطالة من أهم المشكلات وأخطرها التي تعاني منها معظم النظم الاقتصادية في العالم وتؤدي إلى نتائج ســلبية في المجال الاقتصــادي والاجتماعي وتعمل الحكومات على خفض معدلاتها والتخفيف من أثارها ، وأصــبحت مجال لاختبار قدرة النظام الاقتصــادي على النمو بالســرعة الممكنة لتوفير فرص العمل وإعادة تشــغيل الوحدات العاطلة في أقل قدر ممكن من الزمن(٣). (ألقريشي،٢٠٠٧: ٥٤)

والبطالة ظاهرة عالمية ذات أثار اقتصــادية واجتماعية وسـياسـية، إذ تعمل الدول المتقدمة والنامية على مواجهتها، وهي تحدث في الدول النامية لأســباب قصــور النمو الاقتصــادي عن ملاحقة النمو الســكاني ونتيجة عجز المدخرات المحلية عن تمويل الاســتثمارات اللازمة لتوفير فرص العمل.

ولا ريب فإنّ البطالة أسـبابها متباينة و الظروف التي تمر بها المجتمعات مختلفة مما أدى إلى بروز مفاهيم وتعاريف متعددة لهذه الظاهرة.(طاقة ، وعجلان،٢٠٠٨: ٤٧)

أن البطالة هي الفرق ما بين مستوى العمل المعروض عند مستويات الأجور السائدة وحجم العمل المستخدم عند تلك المستويات، وذلك خلال مدة زمنية محددة.

أما التعريف الذي أوصـــت به منظمة العمل العربية عن (البطالة) هو على أن جميع الأفراد الذين هم أكبر من عمر معين* ، وكانوا في يوم محدد أو خلال أسبوع محدد يتحقق فيهم شرطان عدم العمل والبحث عن العمل.

أو تعني جميع الإفراد ذكورا وإناثا في سـن العمل ولا يعملون في أي عمل سـواء بأجر أم لحسابهم الخاص، وكانوا مستعدين للعمل، ويستخدمون إجراءات أو خطوات محددة للبحث عن عمل. وعليه فان قوة العمل ترتبط بعلاقة مباشـرة في تحديد البطالة حيث عرفت قوة العمل (Labor force) بأنّها جميع الناس المستخدمون خارج القوات المسلحة زائدا جميع الأشخاص الذين يقعون في المجموعة العمرية ما بين (٦٥-١٥) سـنة والذين يبحثون فعلا عن العمل بالأجر السائد ولكنهم غير مستخدمين .

ويقاس معدل البطالة على النحو الآتي:

$$\text{معدل البطالة} = \frac{\text{عدد العاطلين}}{\text{قوة العمل الكلية}} \times ١٠٠$$

ونعني بقوة العمل الكلية عدد الفئات من السكان الذين تقع أعمارهم ضمن سن الدخول إلى العمل (قانون العمل) ، أي ما بين سن (١٥ – ١٦) هو العمر الذي يفصل سن العمل عن سن التقاعد (٦٤ سنة) فما فوق.(حسن ، عيسى ، ٢٠١١ : ٥٢)

ثانياً:أنواع البطالة .(طاقة،وعجلان، المصدر السابق:٥٦)

١- البطالة الاحتكاكية

يشير هذا المصطلح إلى أن الطلب على العمل لا يتوافق مع عرض العمل والسبب في عدم التناسب، إمّا بسبب المكان وأمّا نوع المهارات أو نتيجة نقص المعلومات الكاملة لكل من الباحثين عن فرص العمل، وأصحاب الأعمال، لذا فهي بطالة ناشئة عن تغييرات ثابتة في الاقتصاد تمنع العمال المؤهلين العاطلين في الالتحاق بفرص العمل المتاحة.

ولا ريب أن هذا النوع من البطالة يحدث نتيجة الحركة المتواصلة للأفراد فيما بين الولايات والأقاليم والوظائف، أو من خلال المراحل المختلفة لدورة الحياة، إذ أنّ عادة ما ينتقل العمال من فئة غير الموظفين بشكل احتكاكي بين الوظائف أو يتحولون للبحث عن وظائف

أفضـــــل،فعادة" ما يتم اعتبارهم غير موظفين بصـــــفة اختيارية كما ويتميز هذا النوع من البطالة أنّه قصــــير الأمد، ويكون لمدة زمنية محدودة ، فهي تُعدَّ بطالة مؤقتة أو احتكاكية أو انتقالية، ويتفق الاقتصـاديون على أن هذا النوع من البطالة مؤقت ولآماده قصـيرة، تتراوح عادة في حدود (٣- ٤ %).

ولا شــكَّ أنّ قصـــر مدة البطالة يتوقف على توفير المعلومات الصــحيحة والدقيقة عن سوق العمل (العرض والطلب في الإعمال المختلفة وشرط التوظيف ونوعية المهارات المتطلبة في كل منها) فكلما كانت هذه المعلومات متوفرة وفي متناول جميع العمال ، كلما وفق العامل للعمل الذي يريده أسرع فتنخفض البطالة الاحتكاكية.

٢- البطالة البنيوية Structural Unemployment

تظهر البطالـة البنيويـة عندما تؤدي التغييرات في أنمـاط الطلب على العمـال نتيجـة تغير أذواق المستهلكين أو منافسة البدائل المستوردة من الخارج، أو يصاحبه حالة من عدم توافق بين المهارات المطلوبة والمعروضة في منطقة معينة.

وكذلك تظهر البطـالـة البنيويـة كنتيجـة لبعض التغييرات الهيكلية التي تحدث في الاقتصــــاد كاكتشــاف موارد جديدة كالبترول مثلا ونضــوب مورد قديم كالفحم ، مما يؤدي إلى الاســتغناء عن العمـال في المنـاجم لان المهـارات التي لـديهم لا تتلاءم مع متطلبـات العمـل في أنتـاج البترول، أو وسائل للإنتاج أكثر كفاءة ، وظهور سلع جديدة تحل محل السع القديمة.

وعليه فإنّ البطالة البنيوية تشــير إلى عدم توازن بين العرض والطلب على العمل في مختلف الأسواق الفرعية (Sub markets) حتى لو كان أجمالي الكمية المعروضة مساوياً لأجمالي الكمية المطلوبة.ومن حيث الأســاس هي بطالة طويلة الأمد ، وتتطلب نفقات كبيرة لمواجهتها، إذ يتم أعادة تأهيل العمال العاطلين وتدريبهم لإكسابهم المهارات التي تتطلبها الوظائف الشاغرة والجديدة إلى استحدثتها التغييرات البنيوية. (عرب، ٢٠٠٦ :٢٣)

٣- البطالة الدورية Cyclical Unemployment

تحدث هذه البطالة أثناء الركود الاقتصـــادي، وقبل بلوغ الناتج الحقيقي مســـتوى الطاقة الإنتاجية الكامنة أي مستوى التشغيل الكامن. إذ إنّ هناك قوى تؤثر في تحديد مستوى التشغيل والإنتاج وتفقد هذه القوى تأثيرها في الاتجاه الصـــاعد وفي نقطة معينة تحل محلها قوى أخرى تعمل في الاتجاه المعاكس والذي هو الاتجاه النازل.

كما وإنها تحدث نتيجة لانخفاض الطلب الكلي أو الإنفاق الكلي وبالتالي كلما انخفضـــت الدورة الاقتصـــادية كلما أنخفض الناتج الكلي وازدادت معدلات البطالة ، وارتفعت الأســـعار في حالة الركود وينخفض في حالة الكســـاد ، وذلك مثل ما حدث في مدة الركود في الاقتصـــاد العالمي في المدة من (١٩٢٤ – ١٩٢٧) وعندما وصل إلى الكساد العظيم في عام (١٩٣٣) والذي قوض الأنشطة الاقتصادية وأدى إلى ظهور نسب بطالة مرتفعة.(عرب، المصدر السابق: ٢٥)

٤-البطالة الاجبارية :

وتعرف بالبطالة الاضطرارية وتحدث عندما يضطر او يجبر العامل على ترك عمله لسبب او اخر , كأن يعلن مشروع عن افلاسه او يغلق احد المصانع ابوابه ويستغني عن العاملين فيه بدون ارادتهم ورغبتهم .

ان هذا النوع من البطالة يحدث عند تسريح العاملين . اي الاستغناء عن خدماتهم بشكل قسري رغم ان العامل يكون راغبا في العمل وقادراً عليه وقابلا بمستوى الاجر السائد .

٥- البطالة الاختيارية :

وهو ما يعرف بالبطالة الارادية اي امتناع الشخص عن العمل وفق اختياره رغم قدرته على اداءه ووجود فرصة متاحة امامه دون ان يكون له مورد ثابت او وسيلة مشروعة للعيش وقد تسمى ايضا بالبطالة الطوعية التي تعني قيام العامل بتقديم استقالته من العمل الذي كان يعمل فيه بمحض ارادته اما لعزوفه عن العمل وتفضيله لوقت الفراغ (مع وجود مصدر اخر للدخل) او لأنه يبحث عن عمل افضل يوفر له اجراً اعلى وظروف عمل افضل .

٦ ـ البطالة المقنعة :

ان البطالة المقنعة التي تكون في حالة تعطل غير ملموس كمياً يستمر خلاله الناتج الحقيقي الحدي بالانخفاض عند مستوى الصفر او ربما تحت الصفر مع استمرار دخول العاطلين بسبب هذا النوع من البطالة وينتشر هذا النوع من البطالة في البلدان النامية وبشكل خاص في الزراعة وعندما يسود المجتمع الريفي الكفاف والاستهلاك الذاتي للمحصول ويرتفع معدل نمو السكان وينخفض الوقت المخصص للعمل الانتاجي خاصة عندما يعاني النشاط الزراعي من انخفاض خصوبة الارض وقلة مياه الري وقلة المكائن الحديثة كما قد يسود هذا النوع عندما تعمل الادارة الحكومية على استيعاب اكبر عدد من خريجي المدارس والمعاهد والكليات وبغض النظر عن مؤهلاتهم العلمية ومدى تناسبهم مع مواصفات الوظائف المعروضة (ايرنبرج ، سميث ، ١٩٩٤: ٥٨٧)

ثالثاً: العلاقة بين السياسة المالية ومعدلات البطالة.

تعد ادوات السياسة المالية من اكثر الادوات التي تستخدمها الدول في التاثير بالنشاط الاقتصادي سواء كانت الدول راسمالية ام نامية وهذا التاثير سواء كان على مستوى تحقيق التوازن العام او تخفيض نسب البطالة او التضخم يختلف بطبيعة الحال ما بين هذه الدول تبعاُ للتطور الاقتصادي فيها .

لقد ادت حالة التطور الاقتصادي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وامتدادها الى ثلاثينات القرن العشرين الى خروج الدولة من حيادها التقليدي في زمن الكلاسيك الى التدخل الحكومي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لتحقيق التشغيل الكامل للموارد الاقتصادية خاصة بعد الازمة الاقتصادية الكبرى كما اشرنا وتطبيق افكار الاقتصادي الانكليزي كينز والسماح للدولة بالتدخل في الحياة الاقتصادية عن طريق التاثير بمكونات الطلب الفعال (الاستهلاكي والاستثماري) من خلال استخدام السياسة المالية وادواتها والذي فرضته مقتضيات التطور الاقتصادي والاجتماعي بحيث ادى الى ظهور النهج المتضمن الاسس التالية.

١. ان الهدف من التدخل الحكومي هو تحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي من خلال رفع او خفض الطلب الفعلي لتحقيق التشغيل الكامل والاستقرار الاقتصادي عبر اللجوء الى سياسة الموازنة ، ففي اوقات الكساد يتم التوسع في الانفاق العام في حين يتم تقليل هذا الانفاق عند حدوث موجات تضخمية في اوقات الرواج ، وهنا فأن الدولة اصبحت مسؤولة عن التوازن الاقتصادي على حساب التوازن المالي .
٢. السياسة المالية سمحت للدولة باعادة توزيع الدخل القومي لصالح الطبقات الفقيرة (اصحاب الميل المرتفع للاستهلاك) ضد مصالح الطبقات الغنية (اصحاب الميل المنخفض للاستهلاك) وما لهذه الاجراءات من مبررات اقتصادية واجتماعية وسياسية.

يتضح مما سبق اعلاه ان الدولة باستخدامها السياسة المالية وادواتها انما تهدف الى تحقيق اهداف اقتصادية واجتماعية الى جانب الهدف المالي ، بمعنى اخر لم تعد السياسة المالية تبحث عن تحديد الاعباء العامة وكيفية توزيعها على الافراد بل اضيفت الى ذلك الكيفية باستخدام هذا العبء المالي والاثار المترتبة عليه من الجانبين الاقتصادي والاجتماعي (عايب، ٢٠١٠: ٥٥)

يضاف الى ما سبق في الدول النامية فان السياسة المالية تساهم في تكوين راس المال من خلال زيادة معدلة عبر الاستثمارات العامة التي تقوم بها والتي تؤدي الى تنمية الاقتصاد الوطني وتاخذ اشكال متعددة كمشروعات الطرق والري ومشروعات الطاقة من اجل توفير فرص العمل خاصة وان القطاع الخاص في هذه المراحل يحجب عن المساهمة في مثل هذه المشاريع ، ولكن السياسة المالية تحفز القطاع الخاص بالتنسيق مع القطاع العام في بداية التنمية الاقتصادية من خلال التاثير على معدل الاستثمار الخاص عبر تاثيرها بمعدل الادخار الخاص وتبرز اهمية السياسة المالية بشكل واضح من خلال استخدامها للتاثير في تقسيم الانتاج بين الاستهلاك وتكوين راس المال ويمتد تاثيرها نتيجة لذلك الى معدل النمو الاقتصادي.

المبحث الثاني

السياسة المالية في العراق وانعكاسها على البطالة للمدة ٢٠٠٣-٢٠١٧

ان السياسات الأقتصادية التي انتهجتها الحكومة العراقية بعد عام ٢٠٠٣ ، والتي كانت تهدف الى معالجة المشاكل الأقتصادية واهمها البطالة عبر الأفصاح بدعم القطاع العام واتباع سياسة مالية توسعية داخل الأقتصاد ربما لم تؤد الغرض المنشود في معالجة البطالة لوجود تحديات كتيرة واجهت العملية السياسية وانعكست تأثيرها غلى الواقع الأقتصادي.

اولا: تحليل واقع السياسة المالية للمدة ٢٠٠٣-٢٠١٧

من اجل الوقوف على مفاصل السياسة المالية في العراق لا بد من تحليل ادواتها الانفاقية والايرادية، اذ اتسمت السياسة الانفاقية بعد عام ٢٠٠٣ بالتوسعية بسبب الزيادة الكبيرة للإيرادات النفطية إثر انتهاء العقوبات الاقتصادية والتي تزامنت مع ارتفاع اسعار النفط ،في الوقت الذي ينظر فيه إلى توسيع الانفاق العام على انه الدعامة الاساسية لسياسات الاصلاح الاقتصادي الرامية الى اعادة هيكلة الاقتصاد العراقي ، وانه مطلب وطني كفيل بالنهوض بالمستوى المعيشي للمواطنين عبر زيادة الاجور والرواتب وتعديل رواتب المتقاعدين وتوسيع مظلة الرعاية الاجتماعية، وتوسيع قاعدة دعم السلع الاساسية، ومواجهة ما تبقى من تداعيات الحرب الاخيرة وما رافقها من اعمال تخريب وتجاوزات على الاملاك العامة والخاصة وانعكاس ذلك على الامن الاقتصادي والتنموي في البلاد (القريشي , ٢٠١٢:٤٠٢)

وبالاطلاع على بيانات الجدول رقم (١) التي تعبر عن تطور الانفاق العام بشقيه الجاري والاستثماري خلال المدة ٢٠٠٣ – ٢٠١٧ , حيث شهدت هذه المرحلة تحولا في الاقتصاد العراقي , ومن خلال تتبع مسار الانفاق العام نلاحظ انه اتجه نحو الزيادة بسبب :-

- الزيادة في صادرات العراق النفطية وارتفاع اسعار النفط .

- اختلال هيكلية الانفاق العام وزيادة حجم الانفاق التشغيلي (الجاري) ويعد هذا السبب الثاني في حدوث العجز في الموازنة العامة كما يلاحظ في الجدول (١) اذ سجلت النفقات الحكومية ارتفاعا مستمراً خلال المدة ٢٠٠٣ – ٢٠٠٨ لتصل الى ٥٩٤٠٣٣٧٥ مليون دينار في عام ٢٠٠٨ , وكذلك ارتفعت الايرادات الحكومية لتصل الى ٨٠٢٥٢١٨٢ مليون دينار خلال المدة نفسها وحققت الموازنة العامة فائضا مقداره ٢٠٨٤٨٨٠٧ مليون دينار في نهايةعام ٢٠٠٨.

اما في عام ٢٠٠٩ انخفض فائض الموازنة العامة بسبب تأثر الاقتصاد العراقي بالأزمة المالية العالمية ٢٠٠٨– ٢٠٠٩ , وبهذا لم تستطع موازنة العام ٢٠٠٩ ان تسمى بالموازنة المرنة Budget Flexible من حيث القدرة على تحريك نفقات الموازنة وايراداتها خلال السنة المالية طبقا للتبدلات الحاصلة في الناتج المحلي الاجمالي للبلاد . اما خلال المدة ٢٠١٠ –٢٠١٢ حققت الموازنة فائضا ليصل الى اعلى نسبة له اذ بلغ ٣٠٣٥٩٢٥٣ مليون دينار في عام ٢٠١١ عما كان عليه في عام ٢٠٠٩ والذي بلغ ٢٦٤٢٣٢٨ مليون دينار , وبلغت نسبة نمو العجز والفائض الى GDP ١١,٤٤٪ في عام ٢٠١١, وهي نسبة مرتفعة مقارنة في عام ٢٠٠٩ والذي بلغت ٢,٠٢ % .

اما خلال المدة ٢٠١٣ – ٢٠١٦ سجلت الموازنة العامة عجزاً حقيقياًاذ بلغ في عام ٢٠١٦ (١٢٧٣٩٤٧١) مليون دينار عراقي , مقارنة في عام ٢٠١٣ والذي بلغ (٥٢٨٧٤٨٠) , وارتفع الدين المحلي الاجمالي الى ٤٧٤٦٢٢٥١ مليون دينار في عام ٢٠١٦ عما كان عليه في عام ٢٠١٣ الذي بلغ ٤٢٥٥٥٤٩ مليون دينار , و خلال المدة ٢٠٠٤– ٢٠١٢ حققت الموازنة فائضا , لكن استخدم في المجال الاستهلاكي الذي اصبح عبئا فيما بعد ظهرت نتائجه خلال المدة ٢٠١٣ – ٢٠١٦ اذ عانت الموازنة عجزا كبيرا جراء انخفاض اسعار النفط , وبالتالي ظهرت المشكلة من جديد وهي ارتفاع العجز من جهة وارتفاع الدين العام من جهة اخرى .

الجدول (١)

الايرادات العامة وهيكل النفقات العامة في العراق للمدة (٢٠٠٣ – ٢٠١٧) (مليون دينار)

السنوات	النفقات Expenditures	الايرادات Revenues	الانفاق الجاري	الانفاق الاستثماري
٢٠٠٣	١٩٨٢٥٤٨	٢١٤٦٣٤٦	٤٦١٤٠٨٠	٢٨٧٨٨١
٢٠٠٤	٣٢١١٧٤٩١	٣٢٩٨٢٧٣٩	٢٧٥٩٧١٦٧	٣٩٢٤٢٦٠
٢٠٠٥	٢٦٣٧٥١٧٥	٤٠٥٠٢٨٩٠	٢٧٠٦٦١٢٤	٣٧٩٥٠١٨
٢٠٠٦	٣٨٨٠٦٦٧٩	٤٩٠٥٥٥٤٥	٣٢٢١٧٦٠٨	٥٢٧٦٨٥١
٢٠٠٧	٣٩٠٣١٢٣٢	٥٤٥٩٩٤٥١	٣٢٧١٩٨٣٧	٦٥٨٨٥١٢
٢٠٠٨	٦٧٢٧٧١٩٧	٨٠٢٥٢١٨٢	٥٢٣٠١١٨١	١٤٩٧٦٠١٦
٢٠٠٩	٥٥٥٨٩٧٢١	٥٥٢٠٩٣٥٣	٤٥٩٤١٠٦٢	٩٦٤٨٦٥٩
٢٠١٠	٧٠١٣٤٢٠١	٦٩٥٢١١١٧	٥٤٥٨٠٨٦٠	١٥٥٥٣٤١
٢٠١١	٧٨٧٥٧٦٦٦	٩٩٩٩٨٧٧٦	٦٠٩٢٥٥٥٣	١٧٨٣٢١١٣
٢٠١٢	١٠٢١٣٩٥٧٥	١١٩٨١٧٢٢٤	٧٥٧٨٨٦٢٢	٢٩٣٥٠٩٥٤
٢٠١٣	١١٩١٢٧٥٥٦	١١٣٨٤٠٠٧٦	٧٨٧٤٦٨٠٦	٤٠٣٨٠٧٥٠
٢٠١٤	١٢٥٣٢١٠٧٥	١٠٥٦٠٩٨٤٦	٨٦٥٦٨٣٧٤	٣٨٧٥٢٧٠٠
٢٠١٥	٨٤٦٩٣٥٢٤	٦٦٤٧٠٢٥٢	٥٦٩١٦٤٧٦	٢٧٧٧٧٠٤٨
٢٠١٦	٧٣٥٧١٠٠٢	٧٤٣٢٧٩٦٦	٥٥١٦٢٧٦٧	١٨٤٠٨٢٣٥
٢٠١٧	٧٥٤٩٠١١٥	٧١٢٣٥٤٨٦	٥٩٠٢٥٦٥٤	١٦٤٦٤٤٦١

المصدر :- الجدول من عمل الباحثتين بالاعتماد على بيانات البنك المركزي العراقي , المديرية العامة للاحصاء والابحاث , نشرات مختلفة .

نلاحظ من خلال الجدول (٢) استمرار معدل نمو النفقات التشغيلية بالارتفاع حتى بلغ معدل نموها الى ٢٧٤.٧٤٪ وبلغت كنسبة من الناتج المحلي الاجمالي ٢٥.٥٦٪ في عام ٢٠٠٤ .

واستمر معدل نمو النفقات التشغيلية بالتذبذب حتى عام ٢٠١٤ والتي انخفضت الى -٠.٤٠٪ بسب تأثرها بانخفاض الايرادات العامة وكذلك سجلت معدل نمو سالب في عام ٢٠١٦ حتى بلغ معدل نموها -٤.٧٣٪ وبلغت كنسبة من الناتج المحلي الاجمالي ٢٣.٨٨٪ للعام نفسه.

جدول (٢)

النفقات الجارية ونسبتها الى الناتج المحلي الاجمالي للمدة ٢٠٠٣-٢٠١٧(مليون دينار)

السنوات	النفقات الجارية ١	النفاقات الاستثمارية ٢	الناتج المحلي الاجمالي ٣	نسبة ١ الى ٣ ٤
٢٠٠٣	٣٦٣١٥٩٤.٩	٢٨٧٨٨١	٢٩٥٨٥٧٨٨	١٢.٢٧
٢٠٠٤	٣٢٢٦٠٨٩٤٧.٣	٣٩٢٤٢٦٠	٥٣٢٣٥٣٥٨	٢٥.٥٦
٢٠٠٥	١٤٦٨٣٣٩٠.٣	٣٧٦٥٠١٨	٧٣٥٣٣٥٩٨	١٩.٩٦
٢٠٠٦	١٤٩٨٤٤٥٤.١	٢٥٧٦٨٥٢	٩٥٥٨٨٩٥٤	١٥.٦٧
٢٠٠٧	٢٠٨٧١٤٨٤	٦٥٨٨٥١١	١١١٤٥٥٨١٣	١٨.٧٢
٢٠٠٨	٢٦١٣٩١٦٦	١٤٩٧٦٠١٦	١٥٧٠٢٦٠٦١	١٦.٦٤
٢٠٠٩	٢٧٥١٧٧٥٩.٧	٩٦٤٨٦٥٨	١٣٠٦٤٢١٨٧	٢١.٠٦
٢٠١٠	٣٠٦٦٠٧٤٣.٧	١٥٥٥٣٣٤١	١٦٢٠٦٤٥٦٥	١٨.٩١
٢٠١١	٣٦٩٩٩٥٦٢.٩	١٧٨٣٢١١٤	٢١٧٣٢٧١٠٧	١٧.٠٢
٢٠١٢	٤٢١٥٨٦٣٤.٣	٢٠٧٥٥٨٢٣	٢٥٤٢٢٥٤٩٠	١٦.٥٨
٢٠١٣	٤٧٧٥٥٧٤٢.٧	٢٣٢٦٥٥٨٧	٢٦٧٣٩٥٦١٤	١٧.٨٥
٢٠١٤	٤٧٩٤٦٩٠٠.١	١٩٢٦٥٨٨٤	٢٥٨٩٠٠٦٣٣	١٨.٥١
٢٠١٥	٤٩٢٧٨٢٦٠.٥	١٨٥٦٤٤٤.٦٧	١٩١٧١٥٧٩١	٢٥.٧٠
٢٠١٦	٤٦٩٤٧٢٠٥.٩	١٥٨٩٤١٢٣	١٩٦٥٣٦٣٥٠	٢٣.٨٨

المصدر : :- الجدول من عمل الباحثتين بالاعتماد على بيانات وزارة التخطيط الجهاز المركزي للاحصاء , مديرية الحسابات القومية .

وتأسياً على ما تقدم نجد ان استجابة السياسة الانفاقية كانت بشكل مساير لاتجاهات الدورة الاقتصادية اذ نراها تقوم بزيادة انفاقها عند حصول صدمة ايجابية في الايرادات ، كما تقوم عند حصول صدمة سالبة في الايرادات، باعادة هيكلة الانفاق العام بما يؤمن الانفاق الجاري والتضحية بكل تأكيد بالانفاق الاستثماري في كل من قطاع الزراعة والصناعة وقطاع البناء والانشاءات وهما في الواقع اكبر القطاعات امتصاصا للبطالة في الاقتصاد العراقي.

ثانياً:تحليل واقع البطالة في العراق

يعد الاستخدام مؤشر يعكس الزيادات في الناتج المحلي، وان نقص الاستخدام وتعطل قوة العمل يعكس بالضـرورة زوال الغطاء السـلعي الانتاجي كمكون للناتج لمحلي ,وتعد البطالة في العراق من اخطر المشـكلات الاقتصــادية وتعود جذورها الى مايزيد عن ربع قرن , واختلفت اشـكالها بأختلاف الظروف السياسية والاقتصادية شهدها العراق , اذ ان الاسباب الحقيقية لظاهرة نقص الاستخدام تعود الى تحويل الاقتصاد العراقي من اقتصاد تنمية في السبعينات الى اقتصاد حرب في الثمانينات والى اقتصــاد مضــاربة مالية في التسـعينات والى اقتصــاد القطاع العام الطارد للقطاع الخاص والمعزز لظاهرة البطالة المقنعة والاســـتخدام الناقص في الالفية الثالثة. من الواضــح ان الاختلالات الهيكلية للاقتصــاد العراقي عمقت من مشـكلة نقص الاسـتخدام والذي انعكست في تدهور مستويات الناتج المحلي الاجمالي وبلوغه معدلات نمو سالبة على الرغم من المسـاهمة الكبيرة للقطاع للقطاع النفطي في تكوين الناتج اضـافة الى القطاع الخدمي الهامشـي في تكوين هذا الناتج. وإنّ أهم أســـباب البطالة في العراق هو دخول العراق في حروب دمرت اقتصاده والبنية التحتية لكنّ هناك عوامل أخرى أدت إلى زيادة البطالة أهمها (حسن، ٢٠٠٨: ١٤-١٥):-

١- الركود الاقتصــادي: وهو عامل مؤثر وخطير في العملية الاقتصــادية بحيث ينحسـر الطلب على الأيدي العاملة نتيجة لهذا الركود وبالتالي فأنه يؤثر مباشــرة على العملية الاقتصـــادية للفرد من خلال قلة الطلب على العمالة.

٢- تعرض الشركات والمعامل الإنتاجية إلى الخسائر بسبب العامل الأول (الركود الاقتصادي) مما سبب تسريح العاملين في هذه القطاعات ولاسيما (الأهلية).

٣- سوء الإدارة: وهو من العوامل الأساسية في سعة مستوى البطالة وازدياد أعدادها إذ أن سوء تقسيم الملاك البشري المؤهل للقيام بالتشغيل على مدد زمنية مدروسة ومبرمجة تلائم الظروف التي يمر بها البلد فهناك الخطط القصيرة والمتوسطة والبعيدة الأمد وهي تحتاج إلى أيدي غير ماهرة وأخرى متوسطة المهارة والملاك المتقدم كالمهندس والطبيب والمدرس.. الخ.

٤- إنَّ تفاقم البطالة في العراق ناتجة عن زيادة السكان في ظل سوء التخطيط الاقتصادي وبالتحديد سوء تخطيط القوى البشرية ،وضعف مستوى التأهيل لمن هم في سن العمل وسوء التخطيط التعليمي وعدم ربط المؤسسات التعليمية بسوق العمل وعدم قدرة القطاع الخاص على استيعاب القوى العاملة.

٥- نقص المعلومات في سوق العمل بحيث ان العاملين الباحثين عن فرص عمل لا يعلمون بوجودها في الوقت المناسب ،وبالمقابل فإنّ أرباب العمل يجهلون أولا يملكون المعلومات الكافية عن قوة العمل المتاحة من حيث عددها او مؤهلاتها وأماكن تواجدها.

٦- نقص برامج التأهيل والتدريب مما يؤدي الى عدم القدرة على أيجاد أطر مؤهلة ومدربة وفق احتياجات قطاعات العمل .

٧- إضافة الى ذلك الاختلالات الهيكلية المتأصلة في الاقتصاد العراقي بات واضحا من خلال هيمنة قطاع النفط على مجمل القطاعات السلعية الأخرى .التي أدت الى ان يكون الاقتصاد العراقي اقتصاداً ريعيا يعتمد على استخراج وتصدير سلعة طبيعية إستراتيجية واحدة (النفط)التي تتعرض باستمرار الى تقلبات أسواق النفط العالمية .

٨- التحولات الاقتصادية التي شهدها العراق نتيجة التغير السياسي الذي حدث بعد ٢٠٠٣ والذي أنتج أزمة بناء للاقتصاد العراقي بسبب ضعف جهاز الإنتاج وعدم الاهتمام بالصناعات الإستراتيجية المدنية التي كانت تعتمد على مؤسسات لا يمكن التوسع فيها لأنها

تتطلب استثمارات ضخمة لا يمكن توفيرها بسبب مشكلة المديونية مما أدى إلى حل أغلبيتها وزاد هذا الأمر من تفاقم ظاهرة البطالة.

٩- سيادة ظاهرة البطالة المقنعة بسب سياسات التشغيل في القطاع العام .

ان الاسباب المذكورة قد ادت الى ارتفاع نسب البطالة صاحبها تعطيل اعمال القطاع العام وعدم قدرة القطاع الخاص للقيام بالعملية التنموية لوحده ولم يبقى سوى القطاع النفطي كمصدر لتمويل النفقات العامة في الموازنة وضمن الفترة الممتدة بعد نيسان ٢٠٠٣ فقد كانت نسبة ماهو مخصص للانفاق التشغيلي من الانفاق العام ضمن موازنات عام ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦ مع نسب اكبر لكل من موازنات عام ٢٠٠٨ وعام ٢٠٠٩ من تخصيص الانفاق الاستثماري كما موضح في الجدول (٢) يعود بالاساس الى حجم الدعم لكل من المشتقات النفطية والبطاقة التموينية الذي صاحب هذا الدعم ظهور الفساد المالي والاداري في تلك الفترة لكون اغلب الدعم لم يصل الى مستحقيه بالاضافة الى الاستنزاف في الموارد المالية نتيجة الوضع الامني وفي محصلة هذه الامور فان ذلك قد انعكس على نمو نسب البطالة في الاقتصاد العراقي (سعيد، ٢٠١٢ : ١٦). والجدول رقم (٣) يوضح معدلات البطالة في العراق للمدة ٢٠٠٣-٢٠١٦

جدول (٣)

معدلات البطالة في الاقتصاد العراقي للمدة ٢٠٠٣-٢٠١٦

السنوات	معدل البطالة
٢٠٠٣	٢٨.١
٢٠٠٤	٢٦.٨
٢٠٠٥	١٨
٢٠٠٦	١٧.٥

٢٠٠٧	١١.٧
٢٠٠٨	١٥.٣
٢٠٠٩	١٥.٢
٢٠١٠	١٥
٢٠١١	١٥.٣
٢٠١٢	١١
٢٠١٣	١٢.٣
٢٠١٤	١٢.٨
٢٠١٥	١٥.٠١
٢٠١٦	١١.٠٩

المصـــدر : البنك المركزي العراقي ،المديرية العامة للاحصـــاء والابحاث، مجموعة نشـــرات احصائية متفرقة .

ان اجمالي النفقات التشغيلية تحتل ما نسبته (٨١,١ %) من اجمالي الانفاق العام خلال ٢٠٠٣ – ٢٠١٦ وهذا بالتاكيد يكون على حساب اجمالي الانفاق الاستثماري الذي شكل نسبة (١٨,٩ %) خلال نفس الفترة والذي من المفترض ان يكون له دور في المساهمة في امتصاص نسبة البطالة خلال الفترة المذكورة الامر الذي يجعل الموازنة العامة للدولة غير قادرة على خلق ديناميكية ذات فاعلية مناسبة على مستوى النمو الاقتصادي الحقيقي .

الاستنتاجات

١- تؤدي السياسة المالية في العراق دورا حاسماً بإعتبارها الاداة الرئيسية التي يتم من خلالها تحويل الثروة النفطية للبلاد إلى نتائج اقتصادية وتوزيعها لتعود بالنفع على سكانها ،غير أن تقلب الايرادات النفطية يشكل تحدياً أمام السياسة المالية في منع تحول تقلبات الايراد إلى تقلبات في الانفاق العام يمكن ان تزعزع استقرار الاقتصاد وتقلل من كفاءة الانفاق الحكومي

٢-منح الأولوية النسبية للإنفاق الجاري. عند الرجوع إلى تركيب تخصيصات الموازنات العامة للفترة التي أعقبت التغيير السياسي والاقتصادي الذي شهده العراق في عام ٢٠٠٣ نجد ارتفاع نسبة الإنفاق الجاري على حساب الإنفاق الاستثماري وذلك تماشيا مع التوجه المعلن للحكومات المتعاقبة في مجال تحقيق التوازن الاجتماعي وتقويم الأوضاع الاجتماعية الناشئة عن التفاوت في توزيع الدخول كيف ما اتفق وبغض النظر عن النتائج الاقتصادية والاجتماعية وبعيداً عن تحقيق متطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية المنشودة، مما يعني حرمان النشاط الاستثماري من المزايا المالية والاقتصادية بما يكفل النهوض به.

٣-سجلت الموازنة العامة عجزاً مخططاً خلال المدة ٢٠٠٣-٢٠١٣ وفائضا متحققاً خلال المدة نفسها بسبب عدم استثمار الفائض المتحقق في الموازنة العامة , اذ ظهرت نتائجه خلال المدة ٢٠١٣ – ٢٠١٦ اذ عانت الموازنة عجزا كبيرا جراء انخفاض اسعار النفط , وبالتالي ظهرت المشكلة من جديد وهي ارتفاع العجز من جهة وارتفاع الدين العام من جهة اخرى.

٤- إن للبطالة تأثير خطير في الاقتصاد العراقي بدرجة كبيرة إذ إنَّ الاقتصاد يعمل دون ناتجه الكامن والذي يعني ضعف الجهاز الإنتاجي وبطاقات إنتاجية عاطلة وغير كفؤة.

٥- هيمنة القطاع الحكومي على النشاط الاقتصادي وجعل القطاع الخاص تابعا له طيلة العقود الأربعة الماضية الأمر الذي جعل القطاع الخاص محصورا في مشاريع إنتاجية صغيرة أو خدمية محدودة وغير قادرة على استيعاب اعداد كبيرة من القوى العاملة.

التوصيات

١- **تغيير مسار النفقات العامة،** عن طريق تغيير بنية الموازنة العامة لصالح الانفاق الاستثماري الموجه لتوسيع الطاقات الانتاجية والبنى الارتكازية بما يكفل توفير حاجة السوق من المنتجات السلعية والخدمية ، واعادة هيكلة الانفاق الاستهلاكي بما يضمن الترشيد والتخصيص الامثل ،

بالإضافة الى اهمية الحد من سياسة التشغيل غير المنتج (المقنع) وغيرها من السياسات الانفاقية غير الرصينة.

٢- وضــــع ألية لمعالجة العجز الحقيقي والفائض الظاهري في الموازنـة العامـة العراقيـة، بالاســتعانة بالايرادات النفطية وتوضــيفها في تنفيذ المشــاريع التنموية الاقتصــادية والاجتماعية التي تشـكل مصــادر للايراد اكثر اسـتقراراً واسـتمراراً، وزيادة الانفاق على البنية التحتية والتعليم ،وإتخاذ خطوات متوازية نحو تحســــين مناخ الاعمال وزيادة امكانات الحصــــول على تمويل وخاصة للمشاريع الصغيرة والمتوسطة.

٣- **حل مشكلة البطالة،** وهذا يتطلب اصلاحات عديدة منها ما يتعلق بالسياسات السكانية, وعلى مستوى المنظومة التعليمية لتتماشى والمتطلبات العصرية لسوق العمل, والتي تعتمد على تنفيذ ما يسمى ببرامج التشغيل لتعزيز فرص التشغيل وتخفيض معدلات البطالة المرتفعة, وبشكل خاص فئة الشباب المتعلم، ولعل اهم الإجراءات المطلوبة لتحقيق هذا على مستوى الإقتصاد العراقي للحد من أو معالجة البطالة:

أ- التأكيد على عملية اعادة الإعمار للقطاعات الإقتصادية والبنى التحتية التي دمرتها الحرب بشكل سريع، لان ذلك يخلق فرص عمل جديدة تساهم في تشغيل العاطلين عن العمل وخاصة الشاب في سن العمل وهذا يعمل على تخفيض البطالة بشكل جوهري.

ب- توفير المناخ الملائم للاستثمار المحلي والأجنبي بما يزيد من فرص الإستثمار والتشغيل، وخاصة توجيه الإستثمار إلى الصناعات التي توفر فرص عمل حقيقية (كثيفة العمال) والقادرة على استيعاب جزء كبير من القوى العاملة وبالتالي تخفيض معدلات البطالة.

٤- تخطيط التعليم على وفق لاحتياجات السوق ،إذ إنَّ سوء التخطيط في هذا الجانب جعل بعض التخصصات تعاني من فائض في عرض الايدي العاملة فيما تعاني تخصصات اخرى من عجز كبير لذلك أصبح ارتباط النشاطات التعليمية البحثية ببرامج التنمية والإنتاج ضعيفا إجمالا ان لم يكن هامشيا وعليه فمن الضروري اعادة النظر بسياسات التعليم في المرحلة الحالية بالشكل الذي يخفض حدة البطالة بين خريجي الجامعات والمعاهد العليا فضلا عن زيادة فرص العمل أمام

الأيدي العاملة الجديدة أيضا كما يؤدي إلى ترشيد النفقات الحكومية في كثير من التخصصات التعليمية غير المطلوبة وبالتالي برمجة القبول وفق الحاجة الفعلية لكل تخصص.

٥- تشجيع مشاركة أو مساهمة القطاع الخاص في توفير فرص العمل من خلال تقديم الدعم الحكومي له بمختلف اشكاله من قروض ميسرة وقوانين شفافة مما يعني انشاء وتوزيع المشاريع القائمة وبالتالي خلق فرص عمل جديدة تساهم في حل مشكلة البطالة.

المصادر..

١-عريقات ، **حربي مبادئ الاقتصاد (التحليل الكلي)** ،دار وائل للطباعة والنشر والتزيع ، عمان ٢٠٠٦

٢-ألقريشي، مدحت، إقتصاديات العمل، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عمان، ٢٠٠٧.

٣-طاقة، محمد، وعجلان، حسين، إقتصاديات العمل، الطبعة الاولى، دار إثراء للنشر والتوزيع، عمان-الاردن، ٢٠٠٨.

٤-عرب، عاصم بن طاهر، إقتصاديات العمل، الطبعة الثانية، جامعة الملك سعود للنشر العلمي والمطابع، الرياض، ٢٠٠٦.

٥-عايب، وليد عبد الحميد، الأثار الإقتصادية الكلية لسياسة الإنفاق الحكومي، مكتبة حسن العصرية، بيروت، ٢٠١٠.

٦- جمال حسن أحمد عيسى السراحنه ، مشكلة البطالة وعلاجها ، الطبعة الأولى ، (بيروت ، اليمامة للطباعة والنشر ، ٢٠١١) ، ص ٥٢.

٧-رونالد ايرنبرج ، روبرت سميث ، اقتصاديات العمل ، ترجمة فريد بشير طاهر ، مراجعة سلطان محمود السلطان (الرياض دار المريخ للنشر ، ١٩٩٤) ، ص ٥٨٧.

٨- هناء علي القريشي , دراسة لأسباب عجز الموازنة العامة في العراق , مجلة الادارة والاقتصاد , المجلد ٢ , العدد ٩٣ , ٢٠١٢ , ص:٤٠٢.

٩- باسم عبد الهادي حسن،البطالة في الاقتصاد العراقي الاسباب وحلول الممكنة،البنك المركزي العراقي ، المديرية العامة للإحصاء والأبحاث ،٢٠٠٨ .

١٠-حسين، عيادة سعيد، البطالة في الاقتصاد العراقي أسبابها وسبل معالجتها، مجلة جامعة الانبار للعلوم الاقتصادية والادارية، مجلد (٤)، عدد (٨)، ٢٠١٢ .

1- Tejan pettinger, **Fiscal policy**, economic helping, 2012.

2- Asger Lan Anderson , Lasse Holboll Westh Nielsen , **Fiscal Transparency and procyclical Fiscal Policy** , Working Paper Series , Economic Policy Research unit (EPRU) , university of Copenhagen , 2010 .

3- Felix J.Bierbrauer, **optimal Tax and expenditure policy with aggregate uncertainty**, American economic journal, 2014.

آلية تدخل الدولة ودورها في رعاية مصالح المنتج والمستهلك – مقاربة شرعية– "

د. مصطفى داحسو من المملكة المغربية.

المقدمـــــــــــة

الحمد لله مجري شرعه على مقتضى المصالح، وأصلي وأسلم على من أوتي جوامع الكلم، فقال: " لا ضرر ولا ضرار"، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان.

وبعد.

فإن الإنسان بطبعه كائن أقرب ما يكون إلى الاجتماع منه إلى الانفراد، لذلك فهو في حاجة ماسة إلى تنظيم علاقته بغيره اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، خصوصا في ظل النوازع المصلحية التي تتجاذبه، وسعيه الحثيث إلى نفي الضرر عن نفسه، وهو ما ينتج عنه التدافع والمزاحمة خصوصا إذا تعلق الأمر بالاقتصاد والسياسة. وفي سياق تراكمي، واستجابة لتلك الحاجة التنظيمية، أوجد الإنسان كيان الدولة وعده مرجعا ذا سلطة عليا ينفرد بالسلطة ويحفظ له نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الذي ارتضاه لنفسه.

وقد صارت الحاجة إلى هذا الكيان أوكد مع بروز رسالة الإسلام التي بشرت بتصور مميز للحياة، متضمن لرؤية شاملة ومتكاملة منظمة لمختلف مناحي الحياة، رؤية تكتسي فيها القيم والمبادئ قيمة معيارية تأسيسية يرجع إليها لبث روح التجديد والمواكبة في عملية الاجتهاد على اختلاف مجالاته. ويعد مجال الشأن العام أحد هذه المجالات الحيوية الذي أحاطته الشريعة الإسلامية وشيدت صرحه على مجموعة من القيم الكلية ذات الأبعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية كالعدل، والأمانة، والمصلحة، والشورى، والإحسان...، وقد كان من نتائج تلك الرؤية الشاملة أن شرع الإسلام من المقاصد والوسائل ما يحميه ويضمن استمراره، وعلى رأس تلك الوسائل "الدولة" التي يناط بها في الفكر السياسي الإسلامي حفظ الضروريات الخمس التي تتصدرها ضرورة: "الدين".

ولما كان الحديث في هذا البحث لا يستهدف البرهنة على وجود وضرورة الدولة في الإسلام، . لكون ذلك مسلم به . على الأقل . في حده الأدنى وهو وجود سلطة نافدة منبثقة عن أمة، في

رقعة جغرافية، وذات سيادة. بل الحديث عن تدخلها من حيث مشروعيته وطبيعته، وحدوده، وآثار ذلك في تحقيق مصالح المنتج والمستهلك. وهو ما يحتم علينا قصر الكلام على المفاهيم الأساسية المكونة للعنوان، وما يتناسل عنها من إشكالات كلية وجزئية ناتجة عن تحليل ومناقشة العلائق الرابطة بين مفاهيم: "تدخل الدولة"، و"المصلحة"، و"المنتج" و"المستهلك". وانطلاقا من هذا الطابع المفاهيمي المستشكل والمترامي الأطراف المعرفية، يكتسي هذا الموضوع أهمية بالغة، خصوصا وأننا سنلتزم فيه المقاربة الشرعية التي تندر في مثل هذه المواضيع، حيث ألفيت أغلب ما كتب فيه يعتمد مقاربات: قانونية، واقتصادية، وأحيانا فلسفية لما يتعلق الأمر بنقاش جدلية السياسي والاقتصادي وعلاقته بالقيم والأخلاق. ينضاف إلى هذا كثير من الجوانب التي تجلي تلك **الأهمية**، ألخصها فيما يلي:

. كونه يتناول جزئية بحثية مهمة جدا في الفكر الاقتصادي المعاصر، وهي إشكالية حدود تدخل الدولة وطبيعته في النشاط الاقتصادي، هذه الإشكالية القديمة. الجديدة التي عرفت نقاشا مستفيضا، خصوصا بعد الاختلالات التي شهدها النظام الرأسمالي والتي كان آخرها الأزمة المالية لسنة ٢٠٠٨م.

. استشرافه لآفاق علمية معرفية تزودنا بالنظر السديد والتصور السليم لكثير من قضايا الاقتصاد الإسلامي المعاصر عامة، والمالية الإسلامية، خصوصا في علاقتها بالمنتج والمستهلك، وذلك بالوقوف عند التوازنات الشرعية في الموضوع.

. معالجة الموضوع لإشكالات ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية آنية معاشة، كإشكال حماية المستهلك وما يحيط به من تحديات في ظل العولمة، واتجاه الدولة المعاصرة. خصوصا في دول العالم الثالث. نحو الخوصصة والتخلي عن وظائفها الاجتماعية.

ما يجلي كذلك هذه الأهمية هو السياق الفكري الاقتصادي الحالي الذي عرف تطورا في الرؤى الخاصة بتدخل الدولة، ففي الوقت الذي يقرر فيه الكثير من الاقتصاديين ضرورة تدخل الدولة ودورها التكاملي مع أصحاب المبادرات الفردية المتمثلة في القطاع الخاص، نجد البعض الآخر يتحدث عن تغول الدولة، وانطباعها بطابع التحكم. وفي ظل هذا السياق متعدد الرؤى أحببنا أن ندلي بدلونا في الموضوع لكن ليس من باب السبق الذي ليس قبله جهد مجتهد أو إسهام مسهم، ولكن من باب الإسهام في خلق التراكم اللازم للفهم والاجتهاد في موضوع متجدد يصير ما كتب فيه حديثا متجاوزا وقاصرا لكثرة مستجداته، وتعقد إشكالاته، خصوصا في المقاربات

الشرعية التي لم ترق بعد . في مجملها . إلى المطلوب في التصدي للتحديات النظرية والتطبيقية لبعض القضايا الكلية ك"مفهوم الدولة". واستحضارا لهذا السياق ومعه تحدياته المختلفة جاءت **مشكلة البحث** مركبة، شق منها معرفي يتعلق بالغموض الذي يلف العلاقة بين مفاهيم "الدولة"، و"المصلحة"، و"المنتج والمستهلك" من المنظور الشرعي. أما الشق الثاني فمرتبط بطبيعة العلاقة بين المنتج والمستهلك، وما تكشف عنه من جدوى المقاربة الشرعية من عدمها، في ضبط العلاقة بينهما من خلال التصور الإسلامي لتدخل الدولة. وعليه، يكون الغرض من هذا الموضوع هو الكشف عن الأوجه المصلحية للشريعة الإسلامية، وما يستتبع ذلك من استبيان التصور الإسلامي لتدخل الدولة من حيث طبيعته، وخصائصه، وحدوده.

ونظرا لطبيعة الموضوع وأبعاده المعرفية المختلفة سأعمد إلى اعتماد **المنهج** التحليلي الاستنباطي، لمناسبته الغرض من الموضوع الذي أفصحت عنه قبلا.

أما **الخطة** التي ارتأيتها لمعالجة الموضوع والتي انتهى إليها معالجة المادة العلمية وتصريفها، فجعلتها في مطلبين، الأول خصصته لمفاهيم ومصطلحات البحث، والثاني لتدخل الدولة ودوره في رعاية مصالح المنتج والمستهلك، وينشطر هذا المطلب إلى ثلاث فقرات، تناولت في الأولى التأصيل الشرعي لتدخل الدولة، وعرجت في الثانية على التدخل التأهيلي للدولة، أما الثالثة فأفردتها لنوع آخر من التدخل هو التدخل الرقابي. وفي الختام ختمت بخاتمة ضمنتها أهم الخلاصات والنتائج والآفاق التي يستشرفها هذا البحث.

المطلب الأول: مفاهيم ومصطلحات: الدولة والمصلحة، والمنتج والمستهلك

اولا: مفهوما: الدولة والمصلحة.

١). مفهوم الدولة

أ). في اللغة

تدور المعاني اللغوية لمادة "دول" على معاني أهمها: "العاقبة"، و" الغلبة"[١]، بالإضافة إلى معنى الفعل والانتقال من حال إلى حال، وهو ما عبر عنه الفيروزآبادي بقوله: " انقلاب الزمان والدهر من حال إلى حال"[٢]

١ـ ابن منظور، لسان العرب ـ نشر: دار صادر – بيروت ـ الطبعة: الثالثة ـ ١٤١٤هـ. مادة " دول"، فصل الدال المهملة ـ الشنقيطي محمد أمين، تتمة عطية سالم، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٣ هـ. ج ٨ – ٥٣-٥٤.

٢ ـ الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (المتوفى: ٨١٧هـ) ، القاموس المحيط، فصل الدال ـ تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي ـ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ـ الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م، فصل الدال.

ب). في الاصطلاح:

يظهر بعد استقصاء بعض المصادر المختصة بالسياسة الشرعية عند فقهاء الإسلام أن معظمهم لم يوظف مصطلح " الدولة" كمفهوم، ولم يشتهر به حسب علمي إلا ابن خلدون في مقدمته[٣]، أما غيره، خصوصا ممن كتبوا في السياسة الشرعية قبله فأطلقوا عليها إطلاقات، منها: الخلافة[٤]، والإمامة[٥]، والولاية العامة [٦]، والسلطان[٧]، والملك[٨]، وهي كلها مصطلحات ذات حمولات سياسية تنم عن أشكال سياسية . ربما – اتخذتها الدولة لبوسا في حقب تاريخية مختلفة، بناء على التغييرات السياسية التي عرفها المسلمون منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[٩]

وإن كان الكتبة القدماء محصوري التنظير في نظام الخلافة باعتباره الصورة المثالية الجامعة لما هو ديني ودنيوي، فقد نحى . في المقابل . كثير من الباحثين المعاصرين بموضوع نظام الحكم في الإسلام منحى التخصيص، خصوصا مع الطابع المعقد الذي صارت تكتسيه إشكالية "الدولة" في العالم الإسلامي بعد الاستعمار، وما خلفه من تأثيرات عميقة في الجغرافيا والتاريخ، وما أذكاه

٣ـ من أقواله الدالة على ذلك : " واختلّ باختلاله حال الدّولة والسّلطان لما أنّها صورة للعمران تفسد بفساد مادّتها ضرورة" (ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المقدمة)، ص: ٣٥٤ ـ المحقق: خليل شحادة ـ الناشر: دار الفكر، بيروت ـ الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.، ص:٣٥٤

٤ـ الطرسوسي نجم الدين الحنفي(المتوفى: ٧٥٨هـ)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي ـ الطبعة: الثانية، ص: ٤ ـ ٥. ـ ينظر كذلك: الطرطوشي أبو بكر المالكي (ت: ٥٢٠هـ)، سراج الملوك ـ من أوائل المطبوعات العربية – مصر ـ ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م. ص:٣١

٥ـ الماوردي أبو الحسن البصري البغدادي(ت: ٤٥٠هـ) ، الأحكام السلطانية. الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط: بدون، وبدون تاريخ، ص : ١٥ ـ ينظر ابن جماعة الكناني الحموي الشافعي بدر الدين (ت٧٣٣ هـ)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، قدم له الشيخ عبد الله بن فريد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق فؤاد عبد المنعم أحمد – دار الثقافة قطر – ط : الثالثة : ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م ـ ص: ٤٩

٦ـ ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، شرح العمدة في الفقه، ج ٣ ص: ٢١١ ـ مكتبة العبيكان – الرياض ـ الطبعة الأولى ، ١٤١٣ ـ تحقيق : د. سعود صالح العطيشان، ج ٣ ص: ٢١١.

٧ـ تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، لابن جماعة الكناني الحموي الشافعي، ص: ٤٩.

٨ـ مقدمة ابن خلدون، ص:٤.

٩ـ والملفت للنظر أن هذه الاصطلاحات في معظمها وظفه ابن خلدون في مقدمته كألفاظ دالة على مفهوم الدولة، كما يظهر ذلك في الاقتباسات التالية:

-" ..فلابد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك" (ص:٤٢٧)، " ..إن الدولة إنما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب" ، "..والدولة هنا تبدو سابقة على الملك" ، وقال أيضا فيما يفيد الترادف بين الدولة والسلطان: " ..وعلا كعبهم في الدولة والسلطان" (ص:٢٨٥)، لكنه يعود فيميز بين السلطان بمعنى صاحب السلطة، والدولة بمعنى النظام السياسي فتجده يعقد فصلا بعنوان: " إن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة". ولعل ما يسوغ لابن خلدون هذا الخلط، هو نظرته الشمولية والواقعية التي حاول من خلالها مقاربة الدولة بجميع تجلياتها وأشكالها، حيث إن تاريخ الإسلام السياسي عرف عدة دول تختلف من حيث طبيعة نظامها السياسي.

من الوعي بالذات وبالآخر، خصوصا في المجال السياسي. وقد نتج عن ذلك . في مجال التنظير للدولة . تعاريف كثيرة للدولة في التصور الإسلامي[١٠]،انتخبت منها تعريفين:

أولهما: أن الدولة الإسلامية "مؤسسة دائمة تعمل على تنفيذ أحكام الشرع..، وهي بذلك قوة مقيدة التصرف بالشرع، ووسيلة ضرورية دائمة تقيمها الأمة لتنفيذ أحكام الشرع في المجتمع الذي حكمه أفرادا وجماعات، ولتحمل الدعوة الإسلامية للعالم.[١١]

والثاني: أنها "البنية السلطوية للأمة التي توجه الفعل السياسي وتحدده وفق منظومة المبادئ السياسية الإسلامية"[١٢]

وبيانا للتعريفين أقول إن بينهما بعض الاختلاف لا من حيث الشكل فقط، بل من حيث المضمون والمحتوى المعبر عنه، ومن حيث الخلفية التي انبثقا عنها. فالأول نتيجة منهج وصفي لم يخرج عن المعهود في تعاريف القدماء لنظام الخلافة، المعرف لديهم بالنظر إلى وظيفته، لدى فالتعريف يشي بنظرة اختزالية للدولة الإسلامية . من حيث البنية .، حيث حصرها في المؤسسة التنفيذية، أو مؤسسة الرئاسة. وقد أسند لهذه المؤسسة وظائف كثيرة على رأسها تنفيذ أحكام الشرع في المجتمع، ونشر الدعوة الإسلامية. ولا يخفى ما في هذا التصور من الطابع الشمولي المحتكر للسلطة، خصوصا وأنها مؤطرة بالشرع في جميع حيثياتها ولو كانت جزئية، وبالتالي فهي من الشرع، وبالشرع، ومن أجل الشرع.

ويبدو لي أن هذا الربط بمفهوم الشرع يشوبه بعض الغموض، يجعلنا نتساءل هل المقصود بالشرع هنا مجموع الأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية، وبالتالي فالتصرف أو التدبير السياسي المبني على المصلحة والتقدير العقلي ليس من الشرع، خصوصا إذا استحضرنا

---

١٠ ـ يجدر التنبيه هنا ومن باب الاستئناس إلى أن مصطلح "الدولة" عرف بتعاريف عدة في مجال القانون الوضعي، وسأعمد هنا إلى ذكر بعضها نظرا للأهمية المنهجية والتنظيمية التي يكتسبها هذا المجال المعرفي في هذا المضمار، ومن بين هذه التعاريف التي بدت لي مناسبة وصالحة لإغناء التعريف الشرعي :

ـ " أنها جماعة مستقلة من الأفراد يعيشون بصفة مستمرة على أرض معينة، بينهم طبقة حاكمة، وأخرى محكومة"

ـ أنها: " شعب مستقر على إقليم معين، وخاضع لسلطة سياسة معينة"

فالدولة وفق هذين التعريفين عبارة عن تداخل عناصر ثلاثة تشكل عند اجتماعها قوة وكيانا ذا شخصية اعتبارية ومادية تتبدى في مختلف أجهزتها المادية كالإدارة، والأمن، والإعلام، والقضاء..، إلا أن هذه الدولة بهذا المعنى تصطبغ بنعوت وأوصاف متنوعة حسب فلسفتها في التشريع، وطبيعة القوانين الحاكمة فيها، لذلك يمكن وسمها بالدولة الإسلامية إذا كان مصدر تشريعاتها ـ المنظمة لها – هو الشريعة الإسلامية، وسعت إلى تطبيق منهج الله المتكامل وفق مقتضيات كل عصر، وتنعت بغير ذلك إذا اتخذت مصدرا آخر غير الإسلام في التشريع.

١١ـ النبهاني تقي الدين، نظام الحكم في الإسلام، ص : ١٠ بتصرف، القدس (مكان النشر غير معروف) ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م، ص : ١٠ بتصرف.

١٢ ـ صافي لؤي،العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، ط: الثالثة ٢٠٠١، منشورات الفرقان الدار البيضاء، ص: ١٢١

محدودية الأحكام الشرعية العملية، في مقابل سعة مجال الشأن العام وكثرة نوازله وتطورها؟، وبصيغة أخرى، هل السلوك السياسي للدولة يخضع لثنائية الحلال والحرام؟، وهذا الإشكال على أهميته ليس إشكالا جديدا، بل كان محط نقاش علمي بين الفقهاء قديما، فقد نقل ابن القيم عن ابن عقيل قوله .ردا على أحد الشافعية ."السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة"[١٣]

فالضابط إذا في السلوك التدبيري السياسي هو المصلحة، وعدم مصادمة الحكم الشرعي الثابت بالدليل القطعي ثبوتا ودلالة، أما ضابط عدم خروجه على ما تقرر وثبت شرعا من الأحكام المنصوص عليها ففيه حجر في موطن السعة. ولذلك أعجبني التعريف الثاني الذي جعل المعيار الموجه للفعل السياسي هو منظومة المبادئ السياسية الإسلامية، وهي مبادئ ذات طابع كلي ووظيفة توجيهية تطفي المرونة على عمل المجتهد في الشأن السياسي، كما تطفيها على المتصدي للشأن العام واقعيا.

ومن النواقص التي نراها في كلا التعريفين غياب الإشارة الواضحة إلى عنصر "السيادة "، الذي يشكل الأساس في كينونة الدولة، ورمز سلطتها المعنوية والمادية، حيث يربط بين بقية العناصر الأخرى المذكورة بالضمن في التعريفين السابقين وهما "الشعب" و"الإقليم". ومن مظاهر السلطوية في هذه الفكرة (السيادة) أنها تحدد علاقة الدولة المعاصرة بمواطنيها من ناحية، وحدود سيادتها الإقليمية من ناحية أخرى، مما يعني أن الدولة في ظل سيادتها تتمتع بالسلطة العليا والمطلقة لفرض القوانين وإلزام تطبيقها على شعبها في داخل إقليمها الوطني، وفي نفس الوقت صيانة استقلال الوطن من التدخل الخارجي[١٤].

ويتبين من هذا، أن " الدولة " على أهميتها في منظومة الإسلام، تبقى وسيلة لم ترد حيثياتها بالتفصيل الذي ما بعده اجتهاد، وإنما جاءت مؤطرة من قبل الشريعة الإسلامية بمبادئ

١٣ ـ الجوزية بن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، طبع على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر، بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ، ص: ١٢ ـ ١٣.

١٤ ـ انظر البيلاوي حازم، دور الدولة في الاقتصاد للدكتور ، دار الشروق، ط الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص: ٢٠ ـ ٢١.

عامة تسمح عموميتها ومرونتها بالتطبيق في صور وأساليب مختلفة حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان[١٥].

وبناء على هذه المرونة، واستبصارا بما خلصت إليه من مناقشة اصطلاحات فقهاء السياسة الشرعية، وتعاريف بعض المعاصرين يمكن القول: إن الدولة الإسلامية هي : " كيان ذو سيادة تتولى فئة مختارة من الأمة – تمثل الدولة – تنفيذ مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات . التي تقبلتها الأمة – الآيلة إلى جلب المصالح ودفع المضار "

فالدولة بهذا المفهوم تنطلق من المجتمع وتنتهي إليه من خلال ما تسعى إليه من جلب المنافع ودرء المفاسد لمواطنيها، مسخرة في ذلك مجموعة من الأجهزة والآليات الخاصة، كالحسبة وغيرها.

وهذا السعي إلى جلب المنافع ودرء المفاسد، يمكن أن أميز فيه بين مستويين، أحدهما عام ودائم؛ لأن الدولة من أجله وجدت، ويتجلى في التسيير العام ومراعاة الصالح العام[١٦]، ومستوى ثان أخص تبرز فيه الدولة في مؤسسة من مؤسساتها التشريعية أو الرقابية.. آلية مباشرة لخدمة المصلحة المباشرة لكل من المنتج والمستهلك خاصة، والفرد عامة، وعلى هذا التدخل من قبل الدولة في مستواه الثاني سيرد الكلام في المطلب الموالي.

ولتوضيح هذا الغرض المحدد للدولة في جانبه النظري لابد من الوقوف عند إحدى المفاهيم الأساسية في البحث والذي خصته الشريعة الإسلامية بنظرة متميزة عن غيرها من التصورات، ويتعلق الأمر هنا بمصطلح "المصلحة". وهو ما سيكون مدار حديثي في الفقرة الموالية.

٢). مفهوم المصلحة .

أ). من الناحية اللغوية .

المصلحة على وزن مفعلة، وهي مصدر بمعنى الصلاح، وهو ضد الفساد، وهي واحدة المصالح، والاستصلاح نقيض الاستفساد[١٧]. وصياغة المصلحة على وزن مفعلة تكسبها قوة في المعنى، إذ

١٥ـ ينظر: متولى عبد الحميد، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، ص : ٣٤ ـ، الإسكندرية مصر: ١٩٧٨ م، ص:٣٤.ـ العربي محمد عبد الله، نظام الحكم في الإسلام ، ص: ٢٣.ـ دار الفكر- بيروت- ١٩٦٨ م، ص: ٢٣.

١٦ـ يقول الدريني: والصالح العام هو أساس ولاية الحكم، وسلطة الدولة ، بل وشرعية التصرف على الأمة (الدريني فتحي، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم ،ص: ١٠١)، مؤسسة الرسالة،ط الثانية: 1434 هـ - ٢٠١٣م،

ص: ١٠١)

١٧ ـ ابن منظور، لسان العرب، مادة (صلح)ـ ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (صلح).

أنها تستعمل لمكان ما كثر فيه الشيء المشتقة منه، وعلى هذا، فالمصلحة شيء فيه صلاح قوي[١٨]

ب). من الناحية الاصطلاحية.

يمكن أن نلخص هذا المفهوم من هذه الناحية في مستويين:

مستوى الإطلاق، ترادف فيه المصلحة لفظة المنفعة، وتكتسي بذلك بعدا مفتوحا على الإدراك العقلي، حيث تناط بمجال العادات بتعبير الإمام الشاطبي، ويندرج ضمن هذا المستوى كثير من تعريفات وإيماءات علماء اللغة والأصول[١٩].

أما المستوى الثاني فترد فيه مقيدة بالشرع ومقاصده[٢٠].

وتنقسم المصلحة إلى أنواع وفق اعتبارات معينة أذكر منها اعتبارا واحدا سيرد توظيفه في رصد العلاقة بين المصلحة والدولة، ويتعلق الأمر باعتبار شهادة الشرع لها من عدمه، وتنقسم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام: قسم شهد الشرع لاعتباره (المصلحة المعتبرة)، وقسم شهد ببطلانه (المصلحة الملغاة)، وقسم لم يشهد الشرع لا ببطلانه ولا لاعتباره(المصلحة المرسلة)[٢١]

وباعتبار المصلحة مراتب متفاوتة من المنافع، كما أن المفاسد مراتب ودرجات من الأضرار، فقد أثير في الأدبيات الأصولية إشكال المصالح والمفاسد الخالصة. ومجمل القول فيه أن المصلحة والمفسدة إذا نظرنا إليهما من مواقع الوجود فمن العزيز تصور إحداهما خالصة، بل

١٨ـ ابن عاشور محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، نشر مكتبة الاستقامة ـ ط: الأولى، ١٣٦٦ه ص: ٦٦.

١٩ـ ومن الأقوال الدالة على ذلك: قول الإمام الغزالي:" أما المصلحة فهي عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ولسنا نعني به ذلك، فإن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم"(الغزالي أبو حامد، المستصفى في علم الأصول ـ تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي ـ الناشر: دار الكتب العلمية ـ الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ص: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.)، وقول العز بن عبد السلام:" المصالح أربعة أنواع: اللذات وأسبابها، والأفراح وأسبابها، والمفاسد أربعة أنواع: الآلام وأسبابها والغموم وأسبابها، وهي منقسمة إلى دنيوية وأخروية، فأما لذات الدنيا وأسبابها وأفراحها وآلامها وأسبابها وغمومها وأسبابها، فمعلومة بالعادات،..، وأما لذات الآخرة وأسبابها وأفراحها وأسبابها، وآلامها وأسبابها وغمومها وأسبابها فقد دل عليه الوعد والوعيد (العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد ـ الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة ـ (دار الكتب العلمية ـ بيروت، ودار أم القرى ـ القاهرة) ـ طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩١ م. ج٢ ص: ١٠.) ، ويقول الإمام الشاطبي حول المصلحة، ففي أحد أقواله في كتاب الموافقات يقول:" وأعني بالمصالح ما يرجع إلى قيام حياة الإنسان وتمام عيشه، ونيل ما تقتضيه أوصافه الشهوانية والعقلية على الإطلاق، حتى يكون منعما"(الشاطبي إبراهيم بن موسى ـ الموافقات، ج٢ ص: ٢٠. المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ـ الناشر: دار ابن عفان ـ الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٢ ص: ٢٠.)، ينظر كذلك (الطوفي نجم الدين، رسالة في رعاية المصلحة، ص: ٢٥. تحقيق وتعليق الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، الدار المصرية اللبنانية، ط: الأولى ١٤١٣هـ ـ١٩٩٣م. ص: ٢٥)

٢٠ ـ من التعريفات المندرجة في هذا المستوى: قول الإمام الغزالي :" لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكل ما يتضمن هذه الأصول فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعه مصلحة.(المستصفى للإمام الغزالي، ص: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.)، ويقول الشاطبي: رحمه الله:" المصالح المجتلبة شرعا والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية، أو درء مفاسدها العادية" الموافقات للإمام الشاطبي، ج٢ ص: ٢٠.)

٢١ ـ المستصفى للغزالي، ج٢ص ٤٧٩ ـ ينظر كذلك ابن جزي المالكي في تقريب الوصول إلى علم الأصول، ص: ٤٠٧، والرازي أبو عبد الله، المحصول في علم الأصول، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني ـ الناشر: مؤسسة الرسالة ـ الطبعة: الثالثة، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧، ج٦ص: ١٦٢ ـ ١٦٣ ـ ١٦٤.

لابد من التمازج الذي قد يكون ضروريا، لأننا لا نتصور وجود مصلحة ما إلا بمقدمات هي في حقيقتها مفاسد، كما ان معيار الوصف الغالب والراجح هو المعيار الذي نميز فيه بينهما. هذا المعيار الذي يزداد أهمية إذا ما نظرنا إلى المصلحة أو المفسدة من جانبها الشرعي، حيث تكون الجهة الغالبة في الفعل هي مقصود الشارع ومن ثم الوصف الخالص في الفعل[٢٢].

وإذا نظرنا إلى هذا الإشكال نظرة عميقة، نجده يشكل أساسا للقول بتراتبية المصالح والمفاسد وأنها ليست في درجة واحدة، هذه التراتبية التي تتجلى أكثر كلما نظرنا إلى آثار تلك الأفعال الموسومة بالمصلحة أو المفسدة، وهو ما أوضحه الشيخ الطاهر بن عاشور بقوله:" ويجب التنبيه إلى أن المفسدة الراجحة على جانب المصلحة أو الخالصة، نجدها متفاوتة في جنسها تفاوتا بينا تنبئ عنه آثار الأفعال المشتملة على المفاسد في خرم المقاصد الشرعية.."[٢٣]

ج). علاقة الدولة بالمصلحة

إن الدولة في ذاتها، وباعتبارها سلطة عليا تسهر على التنظيم وحماية النظام العام وقناعاته التي يقوم عليها، وتنفي الأضرار الحاصلة والمتوقعة على من ينضوي تحتها . مصلحة من المصالح الواجب على الأمة حمايتها والعمل على استمراريتها لتعلق كثير من المصالح الدينية والدنيوية بها. والدولة بهذا التوصيف المصلحي توصيف حقيقي بمعنى المنفعة، وهي في ذات الوقت يمكن أن توصف بالمصلحة مجازا من باب إطلاق المسبب على السبب، وهي الحالة التي تكون فيها وسيلة وسببا مؤديا إلى المصلحة.

وتتبدى أوجه العلاقة بينهما بشكل جلي وعلى صورة ذات أبعاد ممتدة لما نعمل على رصدها من خلال التقسيمات الكبرى للمصلحة. فبتقسيم المصلحة باعتبار قوتها، نجد "الدولة" مصلحة أولية، يلزم من وجودها الوجود، ومن عدمها العدم، فنظام الحياة وسلامته . في مستوياته الثلاثة (الضروري والحاجي والتحسيني) . من التبتر والهرج قمين بوجود الدولة وسلامتها. يقول الجويني . رحمه الله . :"..ولو ترك الناس فوضى لا يجمعهم على الحق جامع ولا يزعهم وازع ولا يردعهم عن اتباع الشيطان رادع، مع تفنن الآراء وتفرق الأهواء لتبتر النظام وهلك الأنام وتوثب الطغام والعوام وتحزبت الآراء المتناقضة وتفرقت الإرادات المتعارضة..، وفضت المجامع واتسع

٢٢ ـ ينظر العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ج٢ص:٥ ـ والشاطبي، الموافقات، ج٢ص:٢٠ ـ ٢١ـ ٢٢.

٢٣ ـ ابن عاشور،مقاصد الشريعة الإسلامية، ص:١٣ ـ ٧٤ـ ينظر أيضا: العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام، ج٢ص: ٢٤.

الخرق على الخارق..، واستحوذ على أهل الدين ذوو العرامات وتبددت الجماعات..، وما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن"[٢٤]

ومن حيث تقسيم المصلحة باعتبار العموم والإفراد، فالدولة مصلحة عامة وجدت لتخدم مصالح جميع مصالح الأفراد والفئات وفق القوانين التي سطرها منشئوها، ومتى صارت مصلحة خاصة تخدم مصالح فئوية فردانية فهي ناكبة عن وظيفتها الأساس لتتحول إلى أداة للاستقواء والاغتناء والاستبداد في يد فرد، أو عائلة، أو فئة معينة. وبحكم القيمة الاعتبارية والمادية للدولة ومرجعيتها المعيارية المجسدة في مختلف مؤسساتها التشريعية والاستشارية، والقضائية، والرقابية..، فهي الجهة المخولة للموازنة بين المصالح المختلفة من خلال العمل على تحديد مواصفات ومعايير المصلحة من حيث العموم والإفراد بعد الوقوف على نتائج الدراسات والإحصائيات الميدانية ذات الطابع التقني والفني المبني على الخبرة.

أما من حيث تقسيم المصلحة إلى معتبرة وملغاة فتتداخل مع الدولة في مستويين اثنين: الأول اتخاذ العقل المشرع ـ المنطلق من الوحي ـ في الدولة لهذا التقسيم الذي يقسم المصلحة إلى معتبرة وملغاة ومرسلة وجعله نصب عينيه لتصنيف المصالح، ثم العمل على ربط المعتبرة منها بمظانها من النصوص الشرعية، ثم السعي إلى تنزيلها وتفعيلها، في مقابل بيان الملغاة، والعمل على طرحها، وبين هذه وتلك يستفرغ وسعه في إدراك المرسلة منها التي لم يشهد لها الدليل بالاعتبار ولا بالإلغاء، مع العمل على توظيف هذا الأصل (المصلحة المرسلة) في عملية الاجتهاد الخاصة بالمستجدات المتنوعة في مجالاتها، خصوصا وأن معظم التدابير التي تتخذها الدولة تكون مبنية على هذا الأصل. وعليه يكون التصرف السياسي الصادر من الدولة معترى بأحد الأوصاف الثلاثة: معتبر أو ملغى، أو مرسل.

أما المستوى الثاني، فسأعمد فيه إلى بيان العلاقة بينهما من خلال توظيف أوصاف القسمة الثلاثية للمصلحة (المعتبرة والملغاة والمرسلة) في بيان الأحوال السياسية التي يمكن أن تكون عليها الدولة. فهي مصلحة معتبرة لما تكون ذات شرعية ومشروعية، بمعنى أن تكون السلطة فيها مبنية على القيم السياسية الإسلامية كالشورى، والإرادة الحرة، والعدل، والأمانة..، فيمنح فيها الفرد حق الاختيار، ويحترم فيها القانون، وتضمن فيها الحقوق..

٢٤ ـ الجويني أبو المعالي، غياث الأمم والتياث الظلم، تحقيق فؤاد عبد المنعم، والدكتور مصطفى حلمي، نشر دار الدعوة سنة ١٩٧٩م، الإسكندرية، ص: ١٦ – ١٧ بتصرف.

وفي المقابل تكون مصلحة ملغاة، أي ملغاة في شرعيتها وبالتالي سلطتها، لما يكون ممسكي زمام السلطة فيها فاقدين لشرعية سلطتهم لما يخلون إخلالا ظاهرا بتلك القيم التي تربطهم بالأمة الموكلة لهم في تدبير شؤونها، فيكونون مخلين بمبدأ العدل لما يفتئتون على القانون، ومخلين بمبدأ الشورى لما يستمسكون بالسلطة رغم سقوط أهليتهم، أو انتهاء مدة الصلاحية الممنوحة لهم قانونا، ومخلين بمبدأ الحرية في الاختيار لما يغتصبوا السلطة بغير وجه حق، فينزعون بها منزع الاستبداد..

أما وسمها بالمصلحة المرسلة ففي تلك الحالة المتوسطة من حالات السلطة التي لا يستند فيها الطرف الحاكم إلى السواد الأعظم، والركن الوثيق الذي يمنحه الشرعية في السلطة، وفي هذه الحالة يكون ممثلا لجزء لا بأس به من الأمة مع معارضة الباقين له، وبذلك تكون سلطة الحاكم أقرب من نقطة الحياد، فتستحق أن توصف – تجوزا – بالسلطة التي لم تشهد لها الأمة بالاعتبار ولا بالإلغاء.

ومن جهة تعذر المصالح الخالصة، والمفاسد الخالصة يمكن القول إن وسم الدولة .باعتبارها مؤسسة اعتبارية . بالمصلحة يخرج مخرج الغالب، أي أن الغالب عليها هو إسداء النفع إلى من هو تحت جناحها، وإلا فالدولة من خلال مؤسساتها التشريعية والتنفيذية قد تخطئ في التقدير المصلحي لبعض القضايا السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية مما يعود بالضرر على عموم الأمة. ومن وجه ثان، نلحظ أن السياسات التي تتخذها الدولة تستبطن مبدأ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهو ما يعني لحوق الضرر والمفسدة ببعض أحاد الأمة، أو بغالبيتها، خصوصا لما تتمادى الدولة في إبراز سلطها بشكل يمس الأفراد في كرامتهم وحقوقهم الأساسية تحت مسميات من قبيل رعاية المصلحة العامة، وحفظ الأمن القومي المؤدي إلى الاعتداء على الغير.

وبنفس المنطق، يمكن القول، إنه ليس ثمة دولة توصف بالفساد والإضرار الخالص، مهما بلغت من درجات المنكر السياسي والاقتصادي، لأن الناظر إليها نظرة تقويم لا يعدم وجها من أوجه المصلحة والنفع في كينونتها وتدبيرها...

وعليه، لا يمكن التسليم بوصف الدولة بالمصلحة الخالصة أو المفسدة الخالصة، خصوصا إذا استحضرنا طبيعة المحل أو المجال الذي تسوسه المتمثل في الإنسان الذي يعرف اختلافا

يصل أحيانا إلى حد التناقض في حاجياته، وقناعاته الفكرية وتوجهاته السياسية. وإذا استحضرنا كذلك طبيعة الواقع السياسي والاقتصادي المحلي والإقليمي والدولي المحيط بالدولة المعاصرة والذي يفرض عدة تحديات مؤرقة للساسة، ومشوشة لعقول العامة. إلى درجة يمكن أن تصور معها المصلحة مفسدة والعكس.

ثانيا: مفهوما: "المنتج" و"المستهلك"

١) . مفهوم المنتج

أ)- في اللغة

تدور المعاني اللغوية لمادة "نتج" على معاني الوضع والحمل، والتكثير والتوليد[٢٥]. وقد استعملت هذه المعاني في سياق تداولي خاص بالبهائم، ثم انتقل بعد ذلك إلى مجال الاقتصاد لمناسبة معانيه لثمرات الفعل الإنتاجي في الاقتصاد.

ب)- المنتج في الاصطلاح

لم يرد مصطلح "المنتج" في الفقه الإسلامي باعتباره مفهوما معرفا، بل ورد ضمنا وتحت مسميات أخرى، وقد ألفيت نصا للإمام علي رضي الله عنه يعبر عن ذلك، يقول رضي الله عنه في كتاب موجه إلى واليه في مصر (مالك الأشتر) : " ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوصي بهم خيرا، المقيم منهم والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترون عليها " [٢٦].

فالمنتج حسب هذا النص، يشمل ذوي الصناعات كما يشمل التجار، وهذا يكسبه معنا غير منضبط، حيث يختلط فيه المنتج حقيقة (الصانع) والوسيط (التاجر) الذي يتوسط المنتج والمستهلك. كما أن النص يبين بأن هاتين الفئتين مما تستجلب به المصالح وتدرؤ به المفاسد نظرا لامتلاكهم للأموال، وقدرتهم على تداولها. وعليه، فالمنتج والإنتاج عامة مما يجب أن يسترعي اهتمام السلطان ومعه أفراد الأمة لأنه مادة تطورها وازدهارها. وإذا ما أضيفت هذه

٢٥ - ابن منظور، لسان العرب، فصل النون، ٣٧٣/٢ - والزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٦ ص:٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢.

٢٦ - الصدر باقر، اقتصادنا لباقر،ص: ٦٤٦-٦٤٧

المعاني إلى حصيلة التعريف اللغوي، فلا شك أكون قد أحرزت تصورا أوليا لمفهوم المنتج أخطوا به الخطوة الأولى في الطريق إلى صياغة تعريف جامع. ولتقديم الصورة المتكاملة لهذا التعريف أرى أنه من اللازم استحضار ما جاء به الفقه القانوني الوضعي خصوصا مع وجود فراغ فقهي شرعي في هذا المضمار– الذي قدم مجموعة من التعاريف الصادرة من جهات متخصصة ومتعددة[٢٧]. وبناء على ما سبق، يمكن أن أعرف المنتج بأنه: "كل شخص يوجد أو يولد منفعة أو سلعة جزئية أو نهائية".

١). مفهوم المستهلك.

أ)– مفهوم الاستهلاك، والمستهلك في اللغة

ترجع لفظة الاستهلاك في أصلها اللغوي إلى مادة "هلك"، وقد استقصيت معانيها فوجدتها دالة على معاني منها: معنى الموت والفناء، ومعنى الإنفاق، والبيع، وإبلاغ الجهد، ومعنى الشره..، [٢٨]

ب)– مفهوم المستهلك اصطلاحا.

فيما يخص المجال المعرفي الفقهي وجد معنى هذا المصطلح بشكل ضمني في المصادر الفقهية الإسلامية لكن تحت مسميات أخرى أهمها: المشتري [٢٩] والعاقد.

---

٢٧ ـ مفهومه في اتفاقية المجلس الأوربي ـ (الاتفاقية المنعقدة في ١٩٧٦/٠٩/٠٩) ـ، التي عرفته في المادة: ٢/٢ بأنه: " صانع السلعة في شكلها النهائي، وصانع المادة الأولية والأجزاء التي يتكون منها، وكل شخص يقدم نفسه كصانع بأن يضع اسمه أو علامته التجارية، أو أية علامة أخرى مميزة له على السلعة. وجاء في اتفاقية المجموعة الأوربية ـ (التوجيه الأوربي الصادر في ٢٥ يوليو بخصوص مسؤولية المنتج عن فعل المنتجات المعيبة) ـ، في المادة الثالثة من الاتفاقية أن المنتج هو:" صانع السلعة في شكلها النهائي، وصانع المادة الأولية والأجزاء التي يتكون منها، وكل شخص يقدم نفسه كصانع بأن يضع اسمه أو علامته التجارية أو أية علامة أخرى مميزة له على السلعة.

إن هذين التعريفين ينطلقان من واقع التصنيع والإنتاج الذي بلغته الحضارة الأوربية، حيث لم تقتصر الجهة المنتجة على فرد بعينه، بل أصبحنا نرى مجموعة منتجين أسهموا بشكل أو بآخر في إنتاج السلعة، بأن يعد كل واحد منهم جزءا منها إلى أن تنتهي إلى آخر منتج يطبعها ـ في الغالب ـ بعلامته التجارية. ويعتبر هذا الأخير الطرف المباشر المتعامل مع المستهلك.

والتعريفان ـ في نظري ـ يجسدان علاقتين اثنتين هما:

ـ علاقة المنتج بالمنتج، وتتمثل في العلاقة بين منتج المواد الأولية أو منتج أجزاء السلعة، والمنتج النهائي للسلعة. وعلاقة أخرى تظهر شخص المنتج في تموضعه طرفا مباشرا في التعامل مع المستهلك. وعليه، يمكن القول: إن ثمة فهما أعم للمنتج وهو الذي يشمل هذه العلاقات كلها، وفهما أخص هو الذي يقتصر على المنتج النهائي للسلعة، ولعل هذه التعاريف التي قدمتها تلك الاتفاقيات المشار إليها آنفا تجد عمقها النظري في تعاريف فقهاء القانون الذين صاغوا مجموعة من التعاريف يمكن التمييز فيها بين ما هو عام وبين ما هو خاص.

٢٨ ـ ينظر: الزبيدي، تاج العروس، مادة (هلك) ـ ابن منظور،لسان العرب. فصل الهاء، ج ١٠ ص: ٥٠٧ ـ الزمخشري أبو القاسم، أساس البلاغة ـ تحقيق: محمد باسل عيون السود ـ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ـ الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.. مادة (هلك)

٢٩ ـ مما يدل على هذا ما ذكره الونشريسي في المعيار جوابا على سؤال أحد السائلين حول: من اشترى طعاما ليس في السوق غيره هل يجبر على اشتراك غيره فيه؟. فقال:" الشركة في مثل هذا على مجموع مسائل المذهب ومقتضاه، وعلى طريق العلم لمن فهم معناه، إنما تجب بأحد أربعة شروط، إما بين أهل السوق الواحدة لتعاونهم على معاشهم، أو في معظم إبان الشيء ليغنم رخصه، أو بعادة جارية بين الناس تقوم مقام الشرط، أو بتواطئ مع المشتري على ذلك. فهذا الرجل .. إن كان واحدا من هؤلاء فله الشركة وإلا فلا شركة له وبالله التوفيق ".(الونشريسي أبو العباس أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب. تخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي. نشر وزارة الأوقاف، المملكة المغربية ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م، ج٨ ص: ٧٣).

وعلى وفق لفظ المشتري صاغ الدكتور رمضان الشرنباصي من المعاصرين تعريفه له بقوله: " المستهلك هو كل من يؤول إليه الشيء بطريق الشراء بقصد الاستهلاك أو الاستعمال"[٣٠].

أما في العرف القانوني الاقتصادي فهو الذي يستعمل السلع والخدمات ليفي بحاجاته ورغباته، وليس بهدف تصنيع السلع الأخرى التي اشتراها، وهو الفرد الذي يمارس حق التملك والاستخدام للسلع والخدمات المعروضة للبيع في المؤسسات التسويقية[٣١].

وعلى جهة الإجمال، فالتعريفان على اختلاف مجاليهما المعرفيين متقاربان، حيت يتفقان في كون المستهلك شخصا مستعملا للسلع و الخدمات قصد الوفاء برغباته وحاجياته، وذلك احترازا من الشخص الذي يشتري قصد الإنتاج. أما اختلافهما، ففي بعض أوجه التفصيل والإجمال في العبارات المستثمرة في كل تعريف على حدة.

لكن بالرغم من هذا التقارب بينهما فإن الأجدر بالأخذ – في رأيي – هو تعريف الشرنباصي نظرا لشرعية منطلقاته، و قلة عبارته، و لتحديده الدقيق الذي يجلي لنا مفهوم المستهلك و يميزه عن المنتج.

المطلب الثاني: تدخل الدولة ودوره في رعاية مصالح المنتج والمستهلك.

اولا: التأصيل الشرعي لتدخلها.

جسد النبي . صلى الله عليه وسلم . من خلال مقام إمامته للأمة وقيادتها أسمى الأمثلة الدالة على حضور الدولة في مثل تلك الأحوال التي تورث الضرر والعنت والمشقة للمنتج أو المستهلك، ومن بين هذه النصوص الصريحة ما روي عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: " تحملت حمالة[٣٢] فأتيت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أسأله فيها، فقال: " أقم حتى تأتينا الصدقة[٣٣] فنأمر لك بها، قال: ثم قال: يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له

---

٣٠ - الشرنباصي رمضان علي السيد، حماية المستهلك في الفقه الاسلامي، ص: ٢٥. حماية المستهلك في الفقه الاسلامي ـ دراسة مقارنة ـ ط: الأولى ١٤٠٤هـ ، مطبعة الأمانة. ص:٢٥.

٣١ـ بودالي محمد حماية المستهلك ص: ٢١ حماية المستهلك في القانون المقارن ـ دراسة مقارنة مع القانون الفرنسي، دار الكتاب الحديث، ط: بدون، وبدون تاريخ، ص: ٢١

٣٢ـ قال الإمام النووي: " تحملت حمالة" هي بفتح الحاء، وهي المال الذي يتحمله الإنسان، أي يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين كالإصلاح بين قبيلتين ، ونحو ذلك (النووي أبو زكريا محيي الدين، المنهاج شرح صحيح مسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. ـ الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ه.، ج ٧ ص: ١٣٣).

٣٣ـ المراد ب "الصدقة" هنا: الزكاة (المصدر السابق)

المسألة حتى يصيب قواما من عيش[٣٤] (أو قال سدادا من عيش)، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجى[٣٥] من قومه: لقد أصابت فلانا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش (أو قال سدادا من عيش)، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا"[٣٦].

يتمحور هذا الحديث النبوي عن بعض أوجه تدخل الدولة بالإعانة المالية وبيان الأصناف المستحقة لها. فالصنف الأول هو: ذلك الشخص الذي استدان لغاية إصلاح ذات البين بين المتخاصمين، فعجز بعد ذلك عن رد الدين، وهو الذي عبر عنه في الحديث بحامل الحمالة. وإذا كان هذا النوع من الناس يستحق أن تحمل عنه الدولة جزءا مما لحقه من الضرر ، فالمنتج والمستهلك المضطر أولى بذلك للاعتبارات التالية:

أن غالبية المنتجين يستدينون المال لأجل غاية أعظم من إصلاح ذات البين، وهي الإنتاج الذي عليه مدار وجود الأمة واستقلاليتها، وازدهارها، بل وتتوقف عليه كثير من المصالح الدنيوية والأخروية. وعليه، فمن باب الأولى أن تتدخل الدولة لنفي الضرر . ولو جزئيا . الناتج عن المديونية بالنسبة للمنتج، وقد دل على هذا كذلك، ما درج عليه بعض السلف، كالخليفة عمر بن عبد العزيز في رسالته إلى عبد الحميد بن عبد الرحمان وهو بالعراق، ومما تضمنته قوله: "أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين"[٣٧].

وفيما يخص الصنف الثاني، فهو ذلك المنتج الذي أصابته الجائحة في ماله، والجائحة مفهوم عام يشمل ما يلحق الضرر الفاحش غير المقدور على دفعه بمال المرء، سواء كان آفة سماوية، أو آدمية كالجيش، أو ظرف طارئ كالثورة..، فهؤلاء ممن تجبر الدولة الضرر اللاحق بهم، خصوصا المنتجين الفلاحيين الذين يرزؤون في منتوجهم بالآفات السماوية في الغالب.

٣٤ـ المقصود ب "القوام أو السداد" ما يغني من الشيء، وما تسد به الحاجة (المصدر السابق)

٣٥ـ "ذوي الحجى ": أي ذوي العقول (المصدر السابق)

٣٦ـ مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، كتاب الزكاة، باب من تحل له المسألة، حديث رقم ١٠٤٤ ـ ج٢ ص:٧٢٢.

٣٧ـ ابن زنجويه أبو أحمد حميد في كتابه الأموال ـ تحقيق: شاكر ذيب فياض الأستاذ المساعد ـ بجامعة الملك سعود ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية ـ الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م، ج٢ص: ٥٦٥ .

أما الصنف الأخير في الحديث، فهو ذلك المستهلك المعدوم الذي ثبتت في حقه الفاقة والفقر، عن طريق وسيلة من وسائل الإثبات المتمثلة في شهادة ثلاثة من أهل الخبرة، فإذا ثبت ذلك فهو تحت كفالة الدولة إلى أن يصيب ما يسد به حاجته، ويغنيه عن السؤال.

ثانيا: التدخل التأهيلي للدولة.

يعتبر هذا النوع من التدخل من التدخلات الضرورية التي تروم التأسيس لشروط الديناميكا الاقتصادية بين المنتج والمستهلك ضمانا لاستمرار التفاعل بين الانتاج والاستهلاك، تفاعلا جدليا نستطيع صياغته في صورة منطقية، إذا قلنا: إنه لا إنتاج من دون استهلاك، ولا استهلاك من دون إنتاج، وتعود تلك الشروط ـ حسب مالك بن النبي ـ إلى مسلمتين: الأولى: لقمة العيش حق لكل فم، والثانية: العمل واجب على كل ساعد[٣٨]. فالمسلمة الأولى، يفرضها الاختيار لمبدأ معين يلتزمه المجتمع ويسجله في دستوره بوصفه أساسا لعقده الاجتماعي[٣٩]. وتسهر الدولة باعتبارها وليدة ذلك العقد على رعاية الأفراد وخدمة مصالحهم في حدها الأدنى، المتمثل في ضمان مستوى الكفاية من المعيشة الذي يحياه أفراد المجتمع الإسلامي، لأن ضمان الدولة هنا ضمان إعالة، وإعالة الفرد هي القيام بمعيشته وإمداده بكفايته. والكفاية من المفاهيم المرنة التي يتسع مضمونها كلما ازدادت الحياة العامة في المجتمع الإسلامي يسرا ورخاء[٤٠]. ولا يخفى ما في هذا الضمان الذي تقدمه الدولة من إحياء لبواعث الإنتاج في نفوس الأفراد، لأن إحساسهم بذلك، واستشعارهم أن مستوى كريما من الحياة مكفول لهم ولو خسروا في مشارعهم رصيد نفسي كبير، يزيد من شجاعتهم، ويدفع بهم إلى مختلف ميادين الإنتاج..[٤١]. وحتى لايستحيل هذا المنطق الباعث على الإنتاج إلى اتكال وتواكل تأتي المسلمة الثانية التي أشار إليها مالك بن النبي عاصمة من ذلك، من خلال كونها ضرورة تفرضها المسلمة الأولى شرطا لاستمرار التفاعل بين الإنتاج والاستهلاك تفاعلا جدليا مثمرا.

---

٣٨ ـ ينظر مالك بن نبي، مشكلات الحضارة ـ المسلم في عالم الاقتصاد ـ بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ص: ٨٠

٣٩ ـ ينظر مالك بن نبي، مشكلات الحضارة ـ المسلم في عالم الاقتصاد ـ بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، ص: ٨٠

٤٠ ـ ينظر الصدر السيد محمد باقر، اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط: العشرون ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م،ص:٦٦٢ ـ ٦٦٣.

٤١ ـ المصدر نفسه، ص: ٦٣٠

وحتى يتحقق التكامل المنشود بين المسلمتين لابد من النهوض بالأفراد من خلال استنهاض وعيهم الاقتصادي والحضاري من معاقده النفسية حتى تثار البواعث من أجل الانتاج وإرشاد الاستهلاك، وهي مهمة . ولا شك . للدولة فيها الحظ الوافر ، تخطيطا ، ومتابعة، وتنزيلا، من خلال مؤسساتها ذات الأبعاد التربوية والتعليمية.

وبالرجوع إلى بنية الدولة وتكوينها نجد أن أهم عنصر فيها هو السيادة، وهو بمثابة محتد معنوي يخول لها التدخل من حيث المبدأ، باعتبار آثار هذا التدخل تعبيرات محسوسة لتلك السيادة. ومن بين هذه التعبيرات ما يلي:[٤٢]

. ضمانها الحد الأدنى من إنتاج السلع الضرورية والحد الأعلى الذي لا يجوز التجاوز عنه.

. ملء منطقة الفراغ، حسب مقتضيات الظروف، فإن منطقة الفراغ تضم جميع ألوان النشاط المباحة بطبيعتها، فلولي الأمر أن يتدخل في هذه الألوان من النشاط.

ولعل منطقة الفراغ التي تملأها الدولة يقصد منها باقر الصدر توفير الدولة الأسباب التي يعجز عنها الأفراد، لكي ينتقل المجتمع من حالة التكفف والركود إلى حالة الاعتماد على النفس، وتوفير أسباب الرخاء والحياة الطيبة لأفراد المجتمع[٤٣].

ومن الأسباب التي يعجز الأفراد على إقامتها: البنيات التحتية المؤسسة للإنتاج، وقد دلت . في تاريخ الإسلام . مواقف لفقهاء أجلاء على هذا الوجه من أوجه تدخل الدولة، وأجد من ذلك ما أفتى به القاضي أبي يوسف الحنفي للخليفة هارون الرشيد . من ضرورة تلبية مطالب أهل الخراج . خير مثال للتدليل على ذلك، يقول أبو يوسف:" فإذا طلب أهل الأرض الخراجية حفر الأنهار المؤدية إليهم لإصلاح أراضيهم المعطلة، فعلى الدولة الإجابة لطلبهم في إرسال من لهم خبرة ومعرفة بذلك، كالمهندسين والمساحين، ويكون حفر الأنهار على نفقة بيت المال، خير من

٤٢ـ المصدر نفسه، ص ٦٥٤ – ٦٥٥ .

٤٣ـ شبرا محمد عمر، الإسلام والتحدي الاقتصادي، ص ٣٩٧ – ٤٠٠ . ترجمة الدكتور محمد زهير السمهوري، ومراجعة الدكتور محمد أنس الزرقا، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ، شوال: ١٤١٦ه ، ص ٣٩٧ – ٤٠٠ .

أن تكون على أهل الخراج؛ لأن في هذا تعميرا للأرض وزيادة في مساحتها وخراجها، خير من خرابها، بشرط أن لا يضر حفر النهر بالآخرين[٤٤].

فللمنتج في المجال الزراعي – حسب هذا النص – الحق في مطالبة الدولة بخبراء وتقنيين لحفر جداول المياه التي بها يكون سقي الأراضي المزروعة، وفي ذلك ما فيه من توسعة الرقعة الزراعية، وبالتالي الرفع من الإنتاج، وتحسين وضعية المنتج الاقتصادية.

ولما كان نفي المفاسد والأضرار، أو ما يؤول إليها جزءا من المصالح، فإن التحرز من التدخل السلبي للدولة شرط أساسي من شروط التدخل التأهيلي للمنتج. ولبيان جوانب هذه الفكرة أقول: إن من المقدمات التي يجب أن تفهم في إطارها تدخلات الدولة رعاية لمصالح المنتج والمستهلك هي: أن العلاقة بين الدولة من جهة، والمنتج من جهة ثانية مبنية على التكامل وتبادل المنافع، بين الأصل (الدولة) والفرع (المنتج). وغياب التكامل، أو طغيان أحدهما على الآخر سيورث المهالك لكليهما.

ومن النصوص الشرعية الواردة في هذه العلاقة والتي تجسد خطورة التدخل المضر بالمنتج من قبل الدولة عند استفاء حقها المتمثل في: الزكاة، ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى معاذا حين بعثه إلى اليمن فقال: " فإن أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس "[٤٥]

وكرائم الأموال خيارها، وفي سياق تطبيق هذه السنة يفهم قول عمر رضي الله عنه . حين مرت به غنم الصدقة، فرأى شاة ذات ضرع ضخم . فقال:"ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون، لا تفتنوا الناس، لا تأخذوا حزرات[٤٦] الناس"[٤٧].

٤٤ـ فهمي عصمة أحمد أبو سنة، رأي القاضي أبي يوسف في الحياة الاقتصادية للدولة الإسلامية في عهد هارون الرشيد من خلال كتاب الخراج ، (١٧٠ هـ - ١٨٢ هـ) ،– المكتبة المكية – ط الأولى: ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م، ص: ١٣١ .

٤٥ـ البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، حديث رقم: ١٤٥٨ .

٤٦ـ أي خيار الأموال ونفائسها، قال ابن منظور:" وحزر كحزر وهو الحزرة؛ وقيل: الحزرة ما حزر بأيدي القوم من خيار أموالهم؛.. وحزرة المال: خياره، وبها سمي الرجل، وحزيرته كذلك، ويقال: هذا حزرة نفسي أي خير ما عندي، والجمع حزرات، بالتحريك.(ابن منظور، لسان العرب، فصل الحاء المهملة .

٤٧ـ ابن زنجويه، الأموال، ج٣ ص:٨٨٥ .

قال ابن حجر – رحمه الله – " والنكتة فيه أن الزكاة لمواساة الفقراء، فلا يناسب ذلك الإجحاف بمال الأغنياء إلا إن رضوا بذلك.[٤٨]

ويتضح هذا الجانب السلبي لتدخل الدولة، ويتخذ أشكالا أخرى أكثر تعقيدا وتأثيرا مع ابن خلدون في بعض نصوصه في المقدمة، منها قوله:" واعلم أن السلطان لا ينمي ماله، ولا يدر موجوده إلا الجباية، وإدرارها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال... وأما غير ذلك من تجارة أو فلح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا، وفساد للجباية ونقص للعمارة، وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلدهم، ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن، وهذه أشد من الأولى وأقرب إلى فساد الرعية واختلاف أحوالهم[٤٩].

فاقتحام السلطان (الدولة) على المنتجين مجال إنتاجهم فيه مزاحمة لهم، لكونها أغنى وأقدر على مواجهة تقلبات السوق، كما أن لها من سلطتها السياسية سندا معنويا وماديا وقد تستعمله أحيانا وسيلة لتيسير عملية الإنتاج، وتارة أخرى في إجبار المنافسين لها على الاستسلام وترك مجالات إنتاجهم، وفي ذلك انقطاع لهذا المنافس على دفع الجباية للدولة، وفي انقطاعه أثر مضر بكيانها، وتأثير سلبي على العمارة. ويتضاعف هذا الأثر السلبي لما تكون الدولة مبنية على الاستبداد وغياب فصل السلط، وهو ما أومأ إليه ابن خلدون بحكم الأمراء والمتغلبين.

هذا فيما يخص المنتج، أما تدخلات الدولة نفيا للضرر عن المستهلك فكثيرة اقتصر فيها على بعض المصالح التي يحصلها المستهلك من التدخل الرقابي للدولة، وهو ما سينصب عليه الحديث في المطلب الموالي.

ثالثا: التدخل الرقابي للدولة من خلال آلية الحسبة.

بعد أن أوضحنا في المطلب السابق بعض صور التدخل التأهيلي للمنتج على وجه الخصوص، يأتي هذا المطلب الأخير ليعرف القارئ أكثر على الصورة التفصيلية لاشتغال الدولة

٤٨ـ العسقلاني زين الدين بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري ـ تحقيق: مجموعة من المحققين ـ الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية. ـ مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة ـ الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م. ج٣ ص: ٣٦٠.

٤٩ـ ابن خلدون، المقدمة، ص:٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

وأدائها لمهمة حفظ المستهلك في مصالحه الضرورية، وذلك من خلال ذرع من أذرعها التنفيذية[٥٠] – بالاصطلاح المعاصر – المتمثل في مؤسسة الحسبة، وهي من المؤسسات العريقة في تراثنا الإسلامي التي تكون نظاما[٥١] فريدا يتسم . من جهة . بأصالة الرؤية، وعمق التنظير، وينم . من وجه آخر . عن اجتهاد متجدد في التنزيل، وهي خطة من الخطط الدينية موصولة الحبل بنظام الخلافة عامة كما يقول ابن خلدون[٥٢]. كما أنها تمتد نظريا إلى باب كبير من أبواب الشريعة الإسلامية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تتقاطع معه أحيانا، وتتكامل أحيانا أخرى، بل وترادفه عند بعض العلماء.

وباعتبار موضوع الحسبة يحوم حول إلزام الحقوق، والمعونة على استيفائها من غير تجاوز ذلك إلى الحكم الناجز والفصل البات المسند إلى ولايات أخرى[٥٣]، ولكونها من الآليات المهمة التي تؤمن لأفراد المجتمع المتابعة الدائمة لتصرفاتهم بتدعيم الصالح منها وتعزيزه، ومحاربة الفاسد منها والزجر عنه، لما كان موضوعها كذلك، فالمنتج والمستهلك عليهما مدار أحكام الحسبة، لكونهما محل التدافع في الحقوق واستيفائها فيما بينهما في نفس الوقت.

ويستهدف الاحتساب الحفاظ على الضروريات الأساسية التي يتوقف عليها وجود المستهلك واستقامة أحواله كالنفس والمال...، ونظرا لطول مباحث هذه الضروريات سأقتصر على ما يتحقق به حماية نفس المستهلك .

من النصوص الدالة على نفي الضرر عنه في نفسه، والمؤسسة لما يمكن تسميته في لغة العصر بالحجر الصحي، ما أورده يحيى بن عمر عن أصحاب العاهات عندما قال: " وأما ورودهم (أصحاب العاهات) ماءهم واستيفاؤهم منه ووضوؤهم فيه وغير ذلك، فأرى أن يمنعوا منه ويؤمروا أن يجعلوا لأنفسهم من يستقي لهم الماء ويجعلوه في أوانيهم؛ لأن النبي . صلى الله

ـ٥٠ خلاف عبد الوهاب، السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، القاهرة ١٣٥٠ هـ ـالمطبعة السلفية ومكتبته. ص: ٥٠ـ٥١ ـ الفنجري محمد شوقي، الوجيز في الاقتصاد الإسلامي، ص: ٦٠ .

٥١ وسمتها بالنظام هنا؛ لأنها باختصار، تعمل على مراقبة وتصويب الأقوال والأفعال، والمقاصد والسلوك العام للإنسان في المدن والحواضر ونحوها..(المنيس وليد عبد الله عبد العزيز، الحسبة على المدن والعمران ـ حوليات كلية الآداب ـ الحولية السادسة عشرة : ١٤١٦ هـ ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦م ـ الرسالة المائة وستة، ص: ٣٢).

٥٢ـ ابن خلدون، المقدمة، ص: ٢٧٣ .

٥٣ـ الماوردي أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية ـ الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط: بدون، وبدون تاريخ، ص:٣٥٢.

عليه وسلم .، قال: " لا ضرر ولا ضرار"[٥٤] فورودهم الماء وإدخالهم أوانيهم فيه يضر بالأصحاء جدا، وقد قال النبي . صلى الله عليه وسلم .: " لا يحل الممرض بالمصح، وليحل المصح حيث شاء" قال يحيى: قيل: لما يا رسول الله؟ قال: لأنه أذى[٥٥]"[٥٦].

فهذا النص . في نظري . مهم في بابه، إذ يؤسس لما يمكن تسميته "بفقه الأوبئة" الذي يتخذ من الوقاية مبدأ احترازيا واستباقيا لمنع تفشي الأمراض المعدية، لذلك ففرض الحجر على المصاب بالداء المعدي من قبل المحتسب هو لدفع الأذى والضرر عن عموم المستهلكين.

وغير بعيد عن مبدأ الوقاية، أجد الشيزري يسطر توجيهات نيرة يجب أن يكون المحتسب عالما بها كي يوجه بها منتجي بعض المطعومات الأساسية كالخبز واللحم..

يقول – رحمه الله –: " ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجن ونظافتها وما يغطى به الخبز، وما يحمل عليه، ولا يعجن العجان بقدميه، ولا بركبتيه ولا بمرفقيه؛ لأن ذلك مهانة للطعام، وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه وبدنه، فلا يعجن إلا وعليه ملعبه أو بشت مقطوع الأكمام، ويكون ملثما أيضا؛ لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من بصاقه أو مخاطته في العجين، ويشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين، ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين، وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبة يطرد عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق..."[٥٧]

يشير هذا النص إلى ما يجب أن يكون عليه المحتسب من مراقبة لأرباب المخابز، حيث تلزمه المراقبة الدقيقة والشاملة لمختلف مراحل إعداد الخبز، بدءا من نظافة أوعية الإعداد، وانتهاء بالنضج السليم له، كل ذلك لتجنيب المستهلك، الأمراض والأضرار الصحية. والحسبة بهذه الوظيفة الوقائية تعبر . ولا شك . على سلوك حضاري راق، وحماية وقائية فعلية للمستهلك.

٥٤ـ الأصبحي مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ ، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق، حديث رقم: ٣١.

٥٥ـ ـ المصدر نفسه، باب عيادة المريض والطيرة ـ ج ٢ ص: ٩٤٦.

٥٦ـ الأندلسي يحيى بن عمر، أحكام السوق، تحقيق حسن عبد الوهاب، راجعه فرحات الدشراوي ١٩٧٥ م – الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ص : ١٣٠.

٥٧ـ ـ الشيزري عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة . نشر السيد الباز العريني – إشراف محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٣٦ م. ص : ٢٢ – ٢٣ .

وبعد مراعاة تلك الجوانب التي أشار إليها الشيزري يتأكد المحتسب . كذلك . من احترام الخباز للمقادير المتفق عليها من العجين المخصص لكل رغيف، يقول صاحب نفح الطيب: "... والعادة فيه (المحتسب) أن يمشي بنفسه راكبا على الأسواق وأعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان؛ لأن الخبز عندهم معلوم الأوزان، للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم، وكذلك للثمن، وفي ذلك من المصلحة أن يرسل المبتاع الصبي الصغير آو الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الأوزان"[٥٨].

ولا يقتصر المحتسب على الحرص على توفير الشروط الصحية لإنتاج الخبز، بل يتعدى ذلك إلى التخطيط الدقيق لكمية الخبز الواجب توافرها في السوق، وذلك بمعرفة الكمية التي يجب أن توفرها المخابز حتى تسد حاجيات وطلبات المستهلكين، وتعصم بذلك البلد من الاختلال "[٥٩]

الخـــــاتمـــــــة:

وختاما أقول:

. إن تدخل الدولة فعل مشروع، وثابت نقلا وعقلا، لكنه يكون على جهة الاستثناء وليس الأصل.

. تدخل الدولة في علاقته بالمنتج لا يكون بالإيجاب دائما، بل قد يكون بالسلب، واجتناب هذا الوجه الأخير فيه مصلحة للمنتج.

. تدخل الدولة في علاقته بالمنتج والمستهلك له صور وأشكال، فقد يكون عاما غير مباشر، وبعيد المدى، كما في إقامة بعض البنيات التحتية، والمرافق العامة المسهمة في الإنتاج، وقد يكون تدخلا خاصا مباشرا وآنيا، تروم الدولة من خلاله التخفيف من آثار الضرر، كما في تعرض المنتج للجائحة، أو تعرض المستهلك للفقر المدقع، أو جور فاحش من قبل التجار المحتكرين، أو المغالين في سعر السلع الضرورية من غير وجه حق.

. إن الدولة آلية من الآليات المتقدمة والمهمة في نفي الضرر عن المنتج والمستهلك، نفيا يشمل:

. النهي عن استحداث الضرر وإيقاعه، لكونها مظنة للأمر والنهي.

٥٨ـ التلمساني أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : إحسان عباس – نشر : دار صادر ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م، ط: بدون، ج ١ ص : ٢١٨ – ٢١٩ .

٥٩ـ المصدر نفسه، ص: ٢٣ .

. دفع الضرر والتحرز من وقوعه، بالإضافة إلى رفع الضرر وإزالته بعد وقوعه.

ومن توصيات البحث:

. ضرورة إيلاء الأهمية لدراسات فقه الشأن العام عموما، والفقه الاقتصادي خاصة في علاقته بالدولة، لما سيفتحه ذلك من آفاق معرفية أصيلة يمكن اعتمادها منطلقات فكرية شرعية للتصدي للمستجدات المعاصرة في ذلك المجال.

. اعتماد أصل المصلحة وما يرتبط به من مقاربات مقاصدية أدوات منهجية وتحليلية كفيل لإنتاج فقه جديد مساير للتحديات الاقتصادية والسياسية التي يفرضها الواقع المعاصر.

لائحة المصادر والمراجع

- ✓ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
- ✓ ابن منظور، لسان العرب . نشر: دار صادر – بيروت . الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ. مادة " دول"، فصل الدال المهملة .
- ✓ الشنقيطي محمد أمين، تتمة عطية سالم، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٣ هـ . ج ٨ – ٥٣-٥٤.
- ✓ ـابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، شرح العمدة في الفقه، مكتبة العبيكان – الرياض . الطبعة الأولى ، ١٤١٣ . تحقيق : د. سعود صالح العطيشان.
- ✓ ابن جماعة الكناني الحموي الشافعي بدر الدين (ت٧٣٣ هـ)،تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، قدم له الشيخ عبد الله بن فريد آل محمود، تحقيق ودراسة وتعليق فؤاد عبد المنعم أحمد – دار الثقافة قطر – ط : الثالثة : ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م .
- ✓ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت: ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المقدمة)، ص: ٣٥٤ . المحقق: خليل شحادة . الناشر: دار الفكر، بيروت . الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.، ص:٣٥٤
- ✓ ابن زنجويه أبو أحمد حميد في كتابه الأموال . تحقيق: شاكر ذيب فياض الأستاذ المساعد – بجامعة الملك سعود . مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية . الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

- ابن عاشور محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، نشر مكتبة الاستقامة . ط: الأولى، ١٣٦٦هـ ص: ٦٦.
- الأصبحي مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – نشر دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤٠٦هـ– ١٩٨٥ ، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق.
- الأندلسي يحيى بن عمر، أحكام السوق، تحقيق حسن عبد الوهاب، راجعه فرحات الدشراوي ١٩٧٥ م – الشركة التونسية للتوزيع، تونس.
- الببلاوي حازم، دور الدولة في الاقتصاد للدكتور ، دار الشروق، ط الأولى ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م، ص: ٢٠ . ٢١.
- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، حديث رقم: ١٤٥٨ .
- التلمساني أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : إحسان عباس – نشر : دار صادر، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م، ط: بدون.
- الجوزية بن القيم، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، طبع على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمصر، بمطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧هـ، ص: ١٢ . ١٣.
- الجويني أبو المعالي، غياث الأمم والتياث الظلم، تحقيق فؤاد عبد المنعم، والدكتور مصطفى حلمي، نشر دار الدعوة سنة ١٩٧٩م، الإسكندرية.
- الدريني فتحي، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم، مؤسسة الرسالة،ط الثانية: 1434 هـ – ٢٠١٣م،
- الرازي أبو عبد الله، المحصول في علم الأصول، دراسة وتحقيق: الدكتور طه جابر فياض العلواني . الناشر: مؤسسة الرسالة . الطبعة: الثالثة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧.
- الزمخشري أبو القاسم، أساس البلاغة. تحقيق: محمد باسل عيون السود . الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان . الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.
- الشاطبي إبراهيم بن موسى . الموافقات، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان . الناشر: دار ابن عفان . الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- ✓ الشرنباصي رمضان علي السيد، حماية المستهلك في الفقه الاسلامي، ص: ٢٥. حماية المستهلك في الفقه الاسلامي . دراسة مقارنة . ط: الأولى ١٤٠٤هـ ، مطبعة الأمانة.
- ✓ الشيزري عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة . نشر السيد الباز العريني – إشراف محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٠ هـ – ١٩٣٦ م.
- ✓ الصدر السيد محمد باقر، اقتصادنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط: العشرون ١٤٠٨هـ . ١٩٨٧م.
- ✓ الطرسوسي نجم الدين الحنفي(المتوفى: ٧٥٨هـ)، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي . الطبعة: الثانية،
- ✓ الطرطوشي أبو بكر المالكي (ت: ٥٢٠هـ)، سراج الملوك . من أوائل المطبوعات العربية – مصر . ١٢٨٩هـ، ١٨٧٢م.
- ✓ الطوفي نجم الدين، رسالة في رعاية المصلحة، تحقيق وتعليق الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح، الدار المصرية اللبنانية، ط: الأولى ١٤١٣هـ .١٩٩٣م.
- ✓ العربي محمد عبد الله، نظام الحكم في الإسلام ، ص: ٢٣.– دار الفكر– بيروت– ١٩٦٨ م، ص:
- ✓ العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد . الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة . (دار الكتب العلمية – بيروت، ودار أم القرى – القاهرة) . طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩١م
- ✓ العسقلاني زين الدين بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري تحقيق: مجموعة من المحققين . الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية. . مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة . الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.
- ✓ الغزالي أبو حامد، المستصفى في علم الأصول . تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي . الناشر: دار الكتب العلمية . الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.
- ✓ الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، فصل الدال . تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي .

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان . الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م

- ✓ الماوردي أبو الحسن البصري البغدادي(ت: ٤٥٠هـ) ،الأحكام السلطانية. الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط: بدون، وبدون تاريخ،
- ✓ الماوردي أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية . الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط: بدون، وبدون تاريخ.
- ✓ المنيس وليد عبد الله عبد العزيز، الحسبة على المدن والعمران . حوليات كلية الآداب . الحولية السادسة عشرة : ١٤١٦ هـ ١٤١٧ هـ. ١٩٩٥ . ١٩٩٦م . الرسالة المائة وستة.
- ✓ ـالنبهاني تقي الدين، نظام الحكم في الإسلام، ص : ١٠ بتصرف، القدس (مكان النشر غير معروف) ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م، ص : ١٠ بتصرف.
- ✓ النووي أبو زكريا محيي الدين، المنهاج شرح صحيح مسلم. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. . الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.
- ✓ الونشريسي أبو العباس أحمد، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب. تخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي. نشر وزارة الأوقاف، المملكة المغربية ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م.
- ✓ بودالي محمد حماية المستهلك، حماية المستهلك في القانون المقارن . دراسة مقارنة مع القانون الفرنسي، دار الكتاب الحديث، ط: بدون، وبدون تاريخ.
- ✓ خلاف عبد الوهاب، السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، القاهرة ١٣٥٠ هـ ـالمطبعة السلفية ومكتبته.
- ✓ شبرا محمد عمر، الإسلام والتحدي الاقتصادي،. ترجمة الدكتور محمد زهير السمهوري، ومراجعة الدكتور محمد أنس الزرقا، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ، شوال: ١٤١٦هـ .
- ✓ صافي لؤي،العقيدة والسياسة، معالم نظرية عامة للدولة الإسلامية، ط: الثالثة ٢٠٠١، منشورات الفرقان الدار البيضاء، ص: ١٢١

- ✓ فهمي عصمة أحمد أبو سنة، رأي القاضي أبي يوسف في الحياة الاقتصادية للدولة الإسلامية في عهد هارون الرشيد من خلال كتاب الخراج ،(١٧٠ هـ – ١٨٢ هـ) ،– المكتبة المكية – ط الأولى: ١٤٢٣ هـ– ٢٠٠٢ م.
- ✓ مالك بن نبي، مشكلات الحضارة . المسلم في عالم الاقتصاد . بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق.
- ✓ متولى عبد الحميد، مبادئ نظام الحكم في الإسلام، ص : ٣٤ .، الإسكندرية مصر : ١٩٧٨ م..
- ✓ مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري . الناشر : دار الجيل بيروت + دار الأفاق الجديدة . بيروت . الطبعة : بدون . عدد الأجزاء : ثمانية أحزاء في أربع مجلدات
- ✓ الفنجري محمد شوقي، الوجيز في الاقتصاد الإسلامي، دار الشروق، ط: الأولى ١٤١٤هـ . ١٩٩٤م.

فشل استرداد القروض وأثرها على كفاءة السياسة الائتمانية للمصارف العراقية الواقع والمعالجات – بحث تطبيقي في عينة من المصارف العراقية الخاصة والحكومية

The Failure to Recover Loans and their Effect on the Efficiency of the Credit Policies of Iraqi Banks Reality and Treatment – An Applied Study in a Sample of Iraqi Private and Public Banks

هيفاء عبد الامير محمد علي، كلية بغداد للعلوم الاقتصادية الجامعة– قسم العلوم المالية والمصرفية

haifaa.a.alattar@baghdadcollege.edu.iq

المستخلـص: تتنافس المصارف في طرح القروض للعامة ،لذلك نبحث عن حلول لمشكلة قائمة في ظاهرة متنامية لدى المصارف بشكل كبير وهي فشل استرداد القروض والشكاوى والمشاكل الناشئة بينها و بين المقترضين و رغم دراستها للمخاطر وكفاءة سياستها الائتمانية مع مقومات الجدارة الائتمانية للمقترض من نزاهة وسمعة جيدة توجد معوقات تحول بين استرداد الائتمان فأن المصارف تحصن نفسها بضمان موجودات او ضمانات تحصل عليها كأن يكون كفيل او موجود عيني كعقار او حيازة بضاعة مقابل منحها للائتمان لكن رغم هذا هناك فشل في استرداد اموالها وسعيها نحوه لذلك تسعى الى بيع الضمانات في حالة فشلها في استرداد مبلغ الائتمان او التمسك بالطرف الآخر وهو الكفيل لكن تبقى فشل التعثر الاقراضي حالة قائمة يخطط له المصرف لكن تحول بين النجاح والفشل النسبي وخصصت المصارف حساب لمواجهة مخاطر خسائر الائتمان(مخصص ديون مشكوك في تحصيلها)،لذلك هدف البحث الى وصف الواقع لعمليات منح الائتمان في المصارف العراقية واهم المسببات التي تؤدي الى فشل استرداد القروض

وتحليل مقارنة ارصدة حسابات الائتمان ومخصص خسائر الائتمان وبيان اثره وعلاقته في الائتمان الممنوح فاخترنا عينه من المصارف العراقية الخاصة تمثلت في اربع مصارف تجارية واسلامية ومصرف حكومي وتم تحليل ارصدتها للمدة من سنة ٢٠١٣ الى ٢٠١٧ ،وبينت الاستنتاجات ان البيئة التي تعمل بها المصارف العراقية عينة البحث متقلبة سياسياً وشديدة المخاطر لذلك المصارف تحتسب مخصص ديون مشكوك في تحصيلها اقل مما ما اقره البنك المركزي العراقي، وكذلك الائتمانيات الممنوحة من قبل المصارف للمقترضين تعرضت لمخاطر التشغيل هي مخاطر الخسائر الناجمة عن فشل الانظمة السيادية او الاخطاء البشرية (الاحتيال ،والحدث الخارجي)لذلك المصرف لا يتوقع جميع مخاطر التشغيل التي تواجه المدين بالفشل اما التوصيات فتضمنت ان البنك المركزي العراقي حدد نسبة غير كافية من احتساب المخصص لمخاطر الائتمان لسد الخسائر التي تتعرض لها المصارف لذلك يجب رفع النسبة من خلال دراسة جديدة مقترح تقدم من قبل المصارف للبنك المركزي العراقي لتحصينهم، ان تطلب المصارف من المقترضين تعزيز قيمة الضمانات في حال انخفاض قيمتها السوقية عندما تصبح قيمة القرض اكبر من قيمة الضمان.

Abstract: The banks are competing for the granting of loans to the citizens. Therefore, this study looks for solutions to a problem that exists in a growing phenomenon in which all banks are a failure to obtain loans and complaints and problems arising between them and borrowers. Despite the analysis of the risks and the efficiency of its credit policy in terms of the creditworthiness of the borrower, who owns integrity and good reputation, there are obstacles between the recovery of credit. Banks support themselves by guaranteeing assets or through other guarantees obtained from a guarantor, real estate or possession of goods in return for granting such credit. But despite this, there is a failure to recover its money and its pursuit towards it, therefore, seeks to sell the collateral in the event of failure to recover the amount of credit or adhere to the other party is the guarantor, However, the failure of the credit default remains an existing bank-planned condition, but a shift between success and relative failure,

and banks have also assigned an account to address the risk of credit losses (provision for doubtful debts). This study aims to illustrate the reality of lending practices among Iraqi banks and the main causes that led to the failure of the recovery of loans and the analysis of the comparison of loan balances and credit losses, and to illustrate the implications and the relationship to the granted credit. The sample was selected from Iraqi private banks, which are represented in four commercial banks and Islamic banks, and a government bank and their balances analysed for the period from 2013 to 2017. The conclusions showed that the environment in which Iraqi banks operate volatile politically and high risk, so that banks account for the provision of doubtful debts in the collection less than what was approved by the Central Bank of Iraq. Credits granted by banks to borrowers exposed to operational risk are the risk of losses arising from the failure of sovereign operations or individual errors (fraud, external event), Therefore, the bank does not expect all the operational risks faced by the debtor to fail. The recommendations included that the Central Bank of Iraq identified an insufficient proportion of the provision for credit risk to meet the losses suffered by banks, so the ratio must be raised through a new study proposed by banks to the Central Bank of Iraq to immunize them, Banks require borrowers to enhance the value of collateral in case the market value decreases when the value of the loan becomes higher than the value of the collateral.

المبحث الاول

منهجية البحث

مشكلة البحث: تعاني المصارف في العراق عدم استرداد قروضها الائتمانية بشكل كامل وهي مشكلة قائمة لدى المصارف العراقية رغم كفاءة دراسات الجدوى ونجاح كفاءة السياسة الائتمانية

اهمية البحث:_تكمن اهمية البحث في ايجاد الحلول لظاهرة متنامية في كفاءة السياسة الائتمانية وخسائر الاقراض

هدف البحث: يهدف الى تقديم حلول لمشكلة قائمة يعرفها الجميع وهو الواقع لعمليات منح الائتمان في المصارف العراقية من سنة ٢٠١٣-٢٠١٧ وعلاقة خسائر الائتمان في كفاءة السياسة للائتمان النقدي وتم اختيار هذه السنوات للتغيرات الحاصلة في الاوضاع السياسية للعراق وتغيرات سوق العمل المصرفي خلال هذه السنوات.

فرضية البحث: الفرضية الاولى:

لا توجد علاقة ارتباط ذو دلالة معنوية بين خسائر الائتمان وبين كفاءة السياسة للائتمان النقدي

الفرضية الثانية:

اتوجد علاقة ذو دلالة معنوية بين خسائر الائتمان وبين كفاءة السياسة للائتمان النقدي

أدوات جمع البيانات و تحليلها:

اعتمدت الباحثة في بحثه على المنهج (الكمي التحليلي والوصفي) لإنجاز البحث النظري والعملي وعلى النحو الآتي:

الجانب العملي:

اعتمد الباحث في جانبه التطبيقي على (المنهج الكمي التحليلي) من خلال الاعتماد على التقارير السنوية للمصارف من سنة

مجتمع و عينة البحث:

يتمثل مجتمع البحث بالمصرف العقاري الادارة العامة مصرف حكومي، المصرف الوطني الاسلامي، مصرف بغداد الاهلي، مصرف الخليج التجاري وتم اختيارها كونها مصارف تختلف تعليماتها لمنح الائتمان

حدود البحث:

الحدود الزمنية : تم اعتماد البيانات السنوات من ٢٠١٣- ٢٠١٧ للمصارف العراقية عينة البحث.

المبحث الثاني

الجانب النظري

معنى الائتمان Concept of Credit

الائتمان كلمة عربية ترجمت في المعاجم اللغوية تحت كلمة Credit من اصل كلمة لاتينية "هو الثقة

التي تُشعر الناس أن فلاناً ملئ"(**النجفي:١٩٧٦: ص١٠٨**)

تعريف الائتمان:

وردت تعاريف عدة للباحثين منهم من عرف الائتمان المصرفي النقدي بأنه "نوع من انواع الائتمان يتضمن مساهمة البنك في دعم المشرعات الاستثمارية بالاقتصاد من خلال تدبير التمويل اللازم لها وفق ضوابط البنك المركزي وذلك بشرط تقديم المقترض لضمانات تكفي للحفاظ على اموال الجهاز المصرفي مقابل عمولة ورسوم يحددها البنك ويوافق عليها المقترض على ان يلتزم المقترض بسداد القرض وفوائده دفعة واحدة او على دفعات حسب الاتفاق بينه وبين البنك" (**شطناوي : المومني:٢٠١٧:ص٢٤٨**)

كما عرف ايضاً بانه "هو علاقة تقوم على اساس الثقة التي تربط الدائن (المصرف)بالمدين والتي تنجم عنها قابلية المدين في الحصول على السلع والخدمات مقابل وعد بالدفع في المستقبل"(**سلوى:٢٠٠٨: ٢٤٣ص**)

قثس

تعريف القرض:هو تنازل المصرف عن جزء من امواله لطرف اخر لغرض الحصول على منفعة معينة مقابل تعرضه للمخاطر معينة ،فهي مبادلة قيمة حاضرة بقيمة آجله.

(A.benhalima : 1997:p53)

<u>تعريف الاقتراض</u>: هو عملية يقوم المصرف بمقتضاها بمنح عملائه تسهيلات على صورة اموال نقدية او صور اخرى مقابل فأئده او عموله معينه **(سليمان :٢٠١٧: ص٢٠)**

<u>القروض المتعثرة</u> : هي تلك الديون التي عجز فيها المقترضون عن السداد بعد تاريخ استحقاقها نتيجة لعدم استردادها وجب على البنك أخذ مخصصات من أرباحه لمواجهة الخسائر الناجمة عنها. **(صديقة :٢٠١٧:ص١٧)**

<u>الديون المعدومة :</u> هي الديون التي استنفذ المصرف كل الوسائل لاستردادها بما فيها الوسائل القانونية وتعذر علية ذلك **(عبد الجبار :عفراء :٢٠١٦:ص٢٢)**

<u>مشاكل القروض.. بين تسهيلات المصرف والتعاطف مع المقترضين</u>

ان عمل المصارف يعتمد على جذب الودائع ومن ثم تقوم باستثمارها لذلك تضع الآلية لتحصيل القروض وعند مخالفة التعليمات يكون مضاعفة القرض بتفاقم الفائده خصوصا أن حجم الإقراض للمواطنين كبير ويشمل الشريحة ذات الدخل المحدود والموظفين ذوي الرواتب المتفاوته ومن المتعارف بأنها سريعة التأثر بالظروف المعيشية المرتفعة والانقطاع عن العمل، وهي حقائق يلتمسها الجميع ويجب على مسؤولي المصارف تقديرها مادامو يستهدفون بالإقراض جميع شرائح المجتمع ، وخصوصا أن المصارف لديها ديون بالمليارات أقترضتها لتسيير اعمالها الاقراضية وخصوصا المصرف العقاري الذي اقترض من مصرفي (الرافدين والرشيد) لذلك يتحمل مسؤولية الخلل في تقدير المخاطر ، ويجب أن نتذكر بأن سوق الإقراض العراقي لدينا كان ومازال يعاني من تعثرات الإقراض وان المقترض أصبح ملزما بالسداد شهريا لقبوله القرض بالفائدة العالية وبنسبة الحسم العالية التي سعى إليها لتخفيض سنوات القرض، وبالنسبة للمصارف الخاصة (الوطني الاسلامي ومصرف بغداد الاهلي ومصرف الخليج التجاري) لانجد دعما للمواطن لأسعار العقارات ومبالغ الإقراض على نسبة الدفعة المقدمة لشريحة غير قادرة أساسا على أعباء

المعيشة لذلك يلجأ المصرف الى فرض كفيل اواكثر ضمن شروط الاقراض وبدلا من حل جذري لمشكلة ارتفاع أسعار العقارات والإيجارات الشهري.

(المصدر: رأي الباحث بالاعتماد على المقابلات)

التسويق المصرفي للقروض:

التسويقالمصرفي للقروض يؤخذ بعين الاعتبار تقديم الضمانات كما يكون قابلا للتسويق والبيع بسهولة، وهذا لتحويله إلى سيولة نقدية عند الحاجة دون الوقوع في خسارة ف

استقرار القيمة السوقية للضمان هو أن تكون قيمة الضمان مستقرة وثابتة طول فترة سريان الائتمان المصرفي، كما لا يجب أن تكون هذه القيمة معرضة للانخفاض بصورة كبيرة، أو تعرضها للتلف بمرور الوقت وان امكانية نقل ملكية الضمان بسهولة، وبشكل قانوني إلى أي شخص أخر عند الحاجة، ودون إجراءات معقدة قد تتطلب وقتا لتطبيقها. **(عادل:٢٠١٢:ص٤١)**

المنافسة الافتراضية للمصارف: تقديم القروض بكافة اشكالها لتسيير اعمال المصرف

تعمل السوق المصرفية العراقية بالنسبة للمصارف التجارية في ظل المنافسة التامة بنية الكفاءة لذلك توصف المصارف التي احرزت معدلات ارباح عالية بانها اكثر كفاءة من غيرها، ومع هذا المنحنى ترتبط الارباح اما بوضع شبه احتكاري او لأن المصارف استطاعت العمل بفائدة منخفضة تقوم على فرض ان التركز العالي في السوق المصرفية يؤدي الى خفض اسعار الفائدة على الودائع ورفعها على القروض، وبالتالي تحقيق ارباح غير اعتيادية ذات صفة احتكارية من خلال الاتفاقات غير المعلنة او الصريحة بين المصارف ذات الحصة السوقية الرئيسية، وذلك بصرف النظر عن كفاءتها ولا يُجمع المؤيدون لتفسير الارباح بالقوة السوقية على هذا الفهم بل تذهب بعض الدراسات الى القول ان المصارف الكبرى والمتنوعة في منتجاتها تتمكن من اجتناء تلك المكاسب

(https://cbi.iq/static/uploads/up/file-151920597949635.pdf٢٠١٨)

كفاءة السياسة الائتمانية الي تتبعها المصارف في منح الائتمان

ان كفاءة قرار الائتمان يعتمد على التقدير الحصيف للمخاطر والذي لا يعتمد فقط على دراسة المشروع المراد تمويله والجدارة الائتمانية للمقترض بل على بيانات تجميعية لنسب الفشل ونسب التسديد فحالة الفشل مصنفة على ابعاد مختلفة هي : الجدارة الائتمانية للمقترضين قطاعات الاقراض مثل السكن، الصناعة التحويلية، الاستثمارات التجارية، الخدمات السياحية وامد الاقراض بالأشهر؛ والضمانات ... بحيث يصبح تقدير المخاطر محصلة لتفاعل البيانات التجميعية مع معطيات الدراسة الخاصة بالقرض المعني والخطأ في قرار الائتمان يتمثل في توصيف مشاريع واطئة الجدارة الائتمانية بانها جيدة او العكس وهو التقييم الخاطئ لمشاريع عالية الجدارة الائتمانية بوصفها رديئة فعندما تتولى المصارف العامة اقراض هذا الصنف من المشاريع من الضروري ان تخضعها لذلك الطراز من التحليل للتأكد من جدوى تحمل المجتمع لتكاليف اعانتها بأسعار فائدة واطئة او تحويلات نقدية تضاف الى الايرادات او تخفّض التكاليف .ومن جهة اخرى واستنادا الى كلفة التمويل بالقيمة الحالية واحتمال الفشل ونسب التسديد المحتملة عند الفشل يمكن تقدير الحد الادنى لسعر فائدة الاقراض، او ماهي نسب المخاطر المقبولة مع سعر فائدة معين لا لقراض. والمقصود بالحد الأدنى لسعر فائدة القراض هو الذي يجعل صافي القيمة الحالية للقرض صفرا مع مقدار معين من المخاطر. **(علي:٢٠١٨:ص١١)**

وان رصانة المصرف تعتمد على كفاية راس المال ، القوه الإرادية ،الكفاءة الادارية، نوعية موجودات السيولة ،الامان ،المخاطرة، ضوابط بازل (قياس كفاءة المصارف بنموذج camels) و بازل ٣ يقوم على المرتكزات الثالثة لبازل ٢ : كفاية راس المال ؛ والمراجعة الرقابية ؛ والافصاح والانضباط السوقي، مع تعديل وتشديد وتفصيل واضافات بالاستفادة، من تجربة الازمة المالية الاخيرة وللوقاية من تكرارها او على الاقل لتضييق نطاقها في الشمول وحجم الخسائر. **(علي:٢٠١٨:ص٢٧)**اما في جانب الاقراض فان نطاق التنافس ضيق بالنسبة للمصارف الحكومية كونها تقدم قروضاً وتسهيلات لفئات وجهات ليس لديها الاستعداد للاقتراض من المصارف الخاصة بأسعار الفائدة السائدة، ومنها على سبيل المثال سلف الموظفين والمتقاعدين

التي قدمها مصرفي الرشيد والرافدين، وقروض الاسكان التي قدمها المصرف العقاري. إذ ليس للمصارف الخاصة ادنى استعداد لمزاولة هذا الدور كما ان الأسرة العراقية ، بصفة عامة ، من المستبعد ان تتقبل او تتحمل دفع سعر فائدة ١٦% للقرض العقاري ،فإن أهم المؤسسات المصرفية التمويلية في العراق في الوقت الحاضر هو المصرف العقاري على الرغم من الدور الذي قام به هذا المصرف ، إلا إن دوره مازال محدوداً في تمويل الإسكان على مستوى الافراد او المؤسسات وذلك لأن اعتماد التمويل في المصرف العقاري على ما تخصصه الدولة من مبالغ من وزارة المالية أدى إلى محدودية دور هذه المصرف كما إن عدم ارتباطه بالنظام المالي والنقدي العام أدى إلى تحجيم دوره لمنافسة القطاع الخاص في تقديم القروض للمواطنين وانتفاء عنصر المنافسة. **(جمال مطلك: 2011 : العدد24 :109)**

<u>فالضمانات المصرفية التي تعتمد عليها اغلبية المصارف عينة البحث</u>

١- ضمانات عينية : والتي تتمثل بـ (العقارات ،الاراضي ،بضاعة)

٢- الضمانات الشخصية : تتمثل بـ(تعهدات شخصية (كفالات)

<u>(النص القانوني للكفالة)</u>

الكفالة في القانون المدني العراقي المرقم ٤٠ لسنة ١٩٥١ المعدل النافذ مع قرارات محاكم التمييز المتعلقة بأحكام الكفالة ووفق المادة ١٠٢٠ والمادة ١٠٢٤ والتي تتضمن الاتي:

-**احكام الكفالة – العلاقة ما بين الكفيل والدائن** <u>الكفيل غير المتضامن</u>

(نص المادة ١٠٢٠)

" للدائن حق مطالبة الكفيل بالدين المكفول به ويطالبه حالا اذا كان الدين معجلا في حق الاصيل والكفيل، فان كان مؤجلا ولو في حق احدهما طولب الكفيل عند حلول الاجل ". (نص المادة ١٠٢٤)

" اذا تعدد الكفلاء، فان كان كل منهم قد كفل الدين على حدة بعقد مستقل طولب كل منهم بجميع الدين، وان كانوا قد كفلوا معا في عقد واحد قسم الدين بينهم وطولب كل منهم بحصته

الا اذا كانوا قد كفلوا متضامنين فيما بينهم، ويفترض عدم التضامن ما بين الكفلاء الا اذا اشترط التضامن ".

المبحث الثالث

الجانب العملي

نبذة عن المصارف عينة البحث

المصرف العقاري

تأسس المصرف العقاري بموجب القانون رقم١٨ لسنة ١٩٤٨ وباشر أعماله في العام ١٩٤٩ برأسمال اسمي قدره مليون دينار , وكان الهدف المعلن من انشاء المصرف في تلك الحقبة من الزمن هو تخليص وأنفاذ سكان المدن (خصوصاً مدينة بغداد) الذين اضطروا الى الاستدانة لقاء رهن بيوتهم السكنية ضمانا" لتسديد الدين بما يمكنهم من الصرف على مستلزمات حياتهم اليومية أو استثمار هذه الاموال بعمليات تجارية معدودة ،رغم أن المصرف العقاري مخصص لغرض البناء الا انه تمكن من خلال جهوده الخاصة من قبل ادارته الرشيدة ان يحصل على اراضي من الدولة بمساحات شاسعة كانت تعتبر في نظر الاخريين لأشيء كونها تقع في الاطراف الا انه وبالإدارة الحكيمة والادراك الثاقب والتوقعات بتوسع مدينة بغداد اصبحت هذه الاراضي في الستينات والسبعينات في وسط المدينة بعد زحف الاحياء السكنية نحوها.

خلال عام ١٩٦٤ صدر قانون لا يجيز لاي أقراض في الدولة الاعن طريق المصرف العقاري حيث كانت هناك دوائر قد انشات مشاريع أسكان تتولى مهمة أقراض منتسبيها سيما لعمليات شراء البيوت بعيدا" عن المصرف العقاري.

بعد عام ١٩٦٨ نشط المصرف العقاري في ممارساته لتلبية معاملات الاقراض التي زاد حجمها وعلى سبيل المثال فأن معاملات المصرف منذ تأسيسه لغاية ١٩٦٨ بلغت ١٠٠٩١٣ (مائة الف وتسعمائة وثلاثة عشر معاملة) بمعدلات قروض ذات مبالغ تتراوح بين (٥٠٠ولغاية ١٢٠٠) دينار الا انه ازداد ليصل في العام ١٩٩١ الى مليون معاملة.

في عام ١٩٩٧ باشر المصرف بأقراض نشاطات اخرى منها:-

اقراض النشاط السياحي حيث اقراض المستثمرين في قطاع تشييد المرافق و المنشأت السياحية في مدينة بغداد والمنطقة الشمالية وكذلك أنشاء عمارات سكنية ولا غراض تجارية في المدن الكبيرة، واقراض من ترشحهم وزارة العمل والشؤون الاجتماعية لتشييد او تحوير المرافق السكنية بما يمكنها ان تكون دور حضانة للأطفال واستمرت وتأثر النمو بارتفاع حتى وصلت قروض المصرف لغاية ١٩٩٥ الى (٥,٠١٤,٣٢٤) دينار خمسة مليار واربعة عشر مليون وثلاثمائة واربعة وعشرون الف دينار موزعة على (٩٨٠٩٩٠) تسعمائة وثمانون الف وتسعمائة وتسعين معاملة وقد توسع المصرف بممارسة نشاطاته المختلفة بشكل كبير في عام ١٩٨٠من خلال تطبيق قرار الغاء الفائدة القانونية المفروضة على القروض العقارية لغرض السكن وزيادة الحدود العليا للاقراض وتمديد اجال تقسيطها مما ادى الى توسع قاعدة الاقراض لتبلغ القروض المصرفية خلال عام ١٩٨١ حوالي (٧٥٠) سبعمائة وخمسون مليون دينار وبذلك يكون للمصرف قد مارس دورا" اقتصاديا" واجتماعيا" مضحيا" بمبالغ الفوائد التي كان يمكن ان يحصل عليها المصرف لو كان اقراضه يتم بفوائده حتى لو كانت ميسرة (وهو ما تبعته المصارف التجارية و الاستثمارية في نشاطاتها) وتعتبر خطوة رائدة انفرد بها قطرنا بين دول العالم.

(المصدر: بلاعتماد على التقارير السنوية للمصرف)

<u>مصرف بغداد التجاري:</u>

تأسس المصرف كشركة مساهمة خاصة برأسمال اسمي قدره (١٠٠) مليون دينار بموجب شهادة التأسيس بالرقم (م.ش/٤٥١٢)في ١٩٩٢/٢/١٨ بموجب قانون الشركات النافذ حين ذاك رقم (٣٦)لسنة ١٩٨٣ .وهو اول مصرف عراقي خاص سمح تعديل قانون البنك المركزي العراقي رقم (١٢)لسنة ١٩٩١ باشر المصرف نشاطه في اعمال الصيرفة اعتباراً من ١٩٩٢/٩/١٢.

بلغ راس المال المصرف عد تأسيسه ام ١٩٩٢ (١٠٠)مليون دينار والمدفوع (٢٥) مليو دينار واستمر بالتوسع في زيادة راس المال في سنة ١٩٩٧بلغ (١٦٠)مليون دينار وفي سنة ٢٠٠٣ بلغت (٢٦٤٠)مليون دينار وفي سنة ٢٠٠٤ بلغ (٥٢٨٠) مليون دينار وفي سنة ٢٠٠٥ بلغ (٥٢٩٧٣)مليون دينار بعد دخول بنك الخليج المتحد /بحريني الجنسية وشركة العراق القابضة

كمساهمين في المصرف ثم ازداد راس المال المدفوع سنة ٢٠٠٨الى (٧٠)مليار دينار وفي سنة ٢٠٠٩ بلغ (٨٥) مليار وسنة ٢٠١٠ بلغ (١٠٠) مليار دينار وفي سنة ٢٠١١ بلغ(١١٢٩) مليار دينار وفي سنة ٢٠١٢ بلغ(١٧٥) مليار دينار وفي سنة ٢٠١٣ بلغ (٢٥٠)مليار دينار .

(المصدر: بالاعتماد على التقارير السنوية للمصرف)

<u>مصرف الخليج التجاري:</u>

تأسس مصرف الخليج كشركة مساهمة خاصة بموجب شهادة التأسيس المرقمة م.ش/٢٠٠٧ المؤرخة في ١٩٩٩/٧/٢٠الصادرة وفق قانون الشركات رقم (٢١)لسنة ١٩٩٧ برأسمال مقداره (٦٠٠) مليون دينار مدفوع بالكامل ،باشر المصرف في ممارسة أعماله ع طريق الفرع الرئيسي بتاريخ ٢٠٠٠/٤/١ بعد حصوله على اجازة ممارسة الصيرفة الصادرة من البنك المركزي العراقي المرقمة ص.أ/١١٥/٣/٩ والمؤرخة في ٢٠٠٠/٢/٧ وفقاً لأحكام قانون البنك المركزي رقم (٦٤)لسنة /١٩٧٦ السائد آنذاك ليمارس المصرف اعمال الصيرفة الشاملة ،وقد تم تعديل عقد تأسيسه بزيادة رأسماله عدة مرات الى ان وصل (٣٠٠٠٠٠)مليار دينار عراقي بعد ان اكتملت الاجراءات القانونية بتاريخ ٢٠١٤/١١/٧من قبل دائرة تسجيل الشركات بموجب كتابها ذي العدد/٢٦٧٩٠والمؤرخ في ٢٠١٤/١١/٧ وقد تم اجراء القيود الحسابية في سجلاتنا بتاريخ ٢٠١٤/١٢/١٢ بعد اطلاق الوديعة من قبل البنك المركزي العراقي.

(المصدر: بلاعتماد على التقارير السنوية للمصرف)

<u>مصرف الوطني الاسلامي:</u>

تأسس المصرف كشركة مساهمة خاصة بموجب اجازة التأسيس المرقمة م.ش/٢٦٠٧٣ والمؤرخة في ٢٠٠٥/٥/٥ برأسمال قدره (٢٥)مليار دينار مدفوع بالكامل وحصل موافقة البنك المركزي العراقي على ممارسة اعمال الصيرفة الشاملة وحسب الاجازة الصادرة برقم ٢٦٤٢/٣/٩ في ٢٠٠٥/٩/٢٦ وبدأ المصرف نشاطه المصرفي الفعلي في ٢٠١٠/٤/١ ،تمت زيادة رأسمال المصرف الى (٥٠)مليار دينار سنة ٢٠١٠ وزاد رأسمال الى (١٥٠) مليار دينار سنة ٢٠١٢

واكمل المصرف زيادة رأسماله الى (٢٥١)مليار دينار سنة ٢٠١٣ وفقاً للسقوف الزامية المقررة في تعليمات البنك المركزي العراقي.

(المصدر:بلاعتماد على التقارير السنوية للمصرف)

مناقشة تحليل الائتمان ومخصص خسائر الائتمان

(المصدر: البيانات المالية والميزانيات العامة للمصارف وفق التقارير السنوية)

المصارف	المصرف العقاري		مصرف بغداد		مصرف الخليج التجاري		مصرف العالم الاسلامي	
الحسابات	الائتمان النقدي	مخصص خسائر الائتمان	الائتمان النقدي	مخصص خسائر الائتمان	الائتمان النقدي	مخصص خسائر الائتمان	الائتمان النقدي	مخصص خسائر الائتمان
السنوات	مليار/ترليون	مليار	مليار	مليار	مليار	مليار	مليار	مليار
2013	802891	1660	219169	17000	286574	0	361162	12412
2014	746382	1660	228903	17000	288100	9000	330601	22412
2015	993566	1660	261797	30000	310868	14000	459370	16206
2016	810477	1660	220306	25240	318487	14000	454972	21106
2017	1137746	1660	137585	30302	246696	17200	554403	27106
ملاحظة // المصرف العقاري سنة ٢٠١٧ مبلغ الائتمان ترليون								

استنادا الى تعليمات البنك المركزي العراقي الصادر بموجب كتابه المرقم ٧٣/٣/٩ والمؤرخ في ٢٠١٣/٣/٢٤ والمتضمن الغاء العمل بالقاعدة المعيارية الارشادية والعمل بالمادة (١٢) من تعليمات تسهيل تنفيذ قانون المصارف النافذ والمتضمن كيفية احتساب احتياطي الائتمان للديون غير المنتجة للعوائد (مخصص خسائر الائتمان او ديون مشكوك في تحصيلها)

المصرف العقاري سنة ٢٠١٣– ٢٠١٧ظهر مبلغ حساب مخصص خسائر الائتمان(مخصص ديون مشكوك في تحصيلها (١٦٦٠٩٣٣٨١٢) مليار دينار عراقي وهي قروض ممنوحة للعسكريين من سنة ٢٠٠٣ وهي تستحق الشطب والاطفاء لكن بموجب المقابلة الي اجريت مع

القسم القانوني للسيد (مصطفى احمد حسين)بانها متوقفة على المخاطبات مع وزارة المالية ومخاطبا ت الوزارة مع الامانة العامة لمجلس الوزراء لمعرفة من هي الجهة التي تتحمل مبلغ الاطفاء ويعزى ذلك الخطاء الى الدائرة القانونية لوزارة المالية كونها الممول لمصرف العقاري ولازالت الدعاوى قائمة في محكمة بداءة بغداد الجديدة والكرادة والكرخ .

وقد اشار ايضاً بأن المقترضين الذين سددوا مبلغ القرض اقاموا دعاوى قضائية لاسترداد مبلغ الاطفاء مما اخضع المصرف العقاري لقرارات المحكمة واسترجاع مبلغ القرض للمقترض ووفق ما اعتبرته (مديرة التدقيق والرقابة الداخلية المحاسب القانوني (الدكتورة جميلة عبد الزهرة) فشل وخسائر قروض وادرجتها تحت حساب ديون مشكوك في تحصيلها في حساب المدينون لان المصرف ليس لديه الصلاحية في اطفاء تلك القروض وبناءً على ما جاء في تقرير هيئة النزاهة قد نوقش الموضوع في اطفاء ٥٠٪ منها استناداً الى قرار مجلس الوزراء المنحل سنة ٢٠٠١ دون تعويض المصرف فتبين ان هذا القرار يسري لسنة ٢٠٠١-٢٠٠٢ وهذا ما ورد في كتاب الامانة العامة لمجلس الوزراء – الدائرة القانونية سنة ٢٠١١ لافتاً الى ان وزارة المالية في سنة ٢٠١٢ لا يوجد نص قانوني ضمن الموازنة السنوية يخول وزارة المالية دفع مثل هذه المبالغ وفي سنة ٢٠١٥ اكدت الوزارة عدم وجود سند قانوني بإطفاء تلك القروض وبلغت (٩٦) معاملة(وفق تقرير هيئة النزاهة في ٢٠١٧/٨/٣١)

الائتمان النقدي للقروض والسلف والتسهيلات الائتمانية حسب الميزانية العامة للسنة المالية ٢٠١٣ بلغت(٨٠٢٨٩١) مليار دينار بينما انخفضت سنة ٢٠١٤ فبلغت (٧٤٦٣٨٢) مليار دينار ثم يشهد المصرف سنة ٢٠١٥ ارتفاعاً بمبلغ الائتمان بلغ (٩٩٣٥٦٦) مليار دينار واللقاء الذي اجري مع مديرة قسم الائتمان (سهير عبد الحميد جاسم)اوضح فيه ان المصرف اقترض من مصرفي الرافدين والرشيد بكفالة وزارة المالية للمصرف وبفائدة على القرض الممنوح من قبل المصرفين وايضاً اشارت الى ان المصرف قام بطرح القروض للمواطنين والشركات لبناء مجمعات سكنية من مبالغ القرض الاصلي لمصرفي الرافدين والرشيد لكن مدة سداد القرض اطول.

وفي سنة ٢٠١٦-٢٠١٧ بلغ مبلغ الائتمان النقدي (٨١٠٤٧٧) مليار دينار وارتفع سنة ٢٠١٧ فبلغ (١١٣٧٧٤٦) ترليون دينار وهو اعلى ارتفاع لمبلغ الائتمان خلال السنوات الخمس تم منحه من قبل وزارة المالية للمصرف.

(المصدر: بلاعتماد على المقابلات والميزانية العامة للمصرف)

مصرف بغداد

وحسب ما ضَمَنته تعليمات البنك المركزي العراقي رقم (٤) لسنة٢٠١٠ لمواجهة مخاطر الائتمان حساب مخصص ديون مشكوك في تحصيلها (خسائر الائتمان) بلغ الائتمان النقدي لسنة ٢٠١٣ (٢١٩١٦٩) مليار دينار بينما كان حساب الديون المشكوك في حصيلتها (حساب خسائر الائتمان)(١٧) مليار دينار وفي سنة ٢٠١٤ ارتفع مبلغ الائتمان النقدي فبلغ (٢٢٨٩٠٣) مليار دينار وبلغ حساب الديون المشكوك في حصيلتها (خسائر الائتمان) مقابل الائتمان النقدي (١٧) مليار دينار اي ان المصرف لم يقم بزيادة المخصص خلال سنة ٢٠١٤ لتلافي حالة الخسارة بالسداد وان المصرف لم يمر بخسارة خلال السنة وان الرصيد كان كافياً وحسب الدراسة المقدمة والمستندة على اللائحة الارشادية الصادرة من قبل البنك المركزي العراقي.

اما سنة ٢٠١٥ بلغ رصيد الائتمان النقدي (٢٦١٧٩٧)مليار دينار بينما ارتفع رصيد(مخصص الخسائر) المخصص للديون المشكوك في تحصيلها الى (٣٠)مليار دينار عن السنة السابقة ٢٠١٤ اي زيادة بلغت (١٣) مليار عن طريق تحويل مبلغ (١٠)مليار من حساب الاحتياطي الطوارئ بالإضافة الى احتجاز مبلغ (٣) مليار من ارباح السنة ٢٠١٥ واستناداً للدراسة التي قامت بها ادارة المصرف فأن المخصص الواجب احتسابه هو (٢٨٠٠)مليار دينار حيث اخذ المصرف بنظر الاعتبار وضعية الضمانات المقدمة من قبل الزبون والحلول الممكنة لتحصيل الديون. ٢٠١٦ بلغت رصيد الائتمان النقدي (٢٢٠٣٠٦) مليار دينار ومخصص ديون مشكوك في حصيلتها بلغت (٢٥٢٤٠) وهنا نلاحظ هبوط مبلغ (مخصص الخسائر) ديون مشكوك في تحصيلها وذلك لشطب ديون لم يتم تحصيلها.

اما سنة٢٠١٧ بلغ رصيد الائتمان النقدي (١٣٧٥٨٥) مليار وهنا نلاحظ انخفاض مبلغ الائتمان الممنوح لارتفاع مبلغ الديون المتعثرة (٧١) مليار مقابلها ضمانات رصينة (عقارات)لبعض الائتمانيات والبعض الأخرم يذكر نوع الضمان المقدم من قبل الزبون حيث ظهر حساب (خسائر الائتمان النقدي بحدود (٢٥٢٤٠) مليار دينار رصيد اول مده من سنة ٢٠١٦ وخلال السنة المالية ٢٠١٧ احتسب المصرف مبلغ بحدود(٥٠٦٢) مليار دينار فيكون اجمالي حساب مخصص الخسائر (٣٠٣٠٢)مليار دينار عراقي . لجميع الفروع من ضمنها فرع بيروت

الديون المشطوبة /

تم شطب مبلغ سنة ٢٠١٦ مقداره بحدود (٤٩٠٠) مليار من مبالغ الديون والقروض المرتبة بذمة بعض الزبائن والمدور من سنوات سابقة م حساب مخصص ديون مشكوك في تحصيلها

تم شطب مبلغ بحدود (٢٦٠٦) مليار دينار عن ائتمان مقابل ضمان عقارات وسبب الشطب هو (وثائق الضمانات مزوره)

تم شطب مبلغ بحدود (١٢٢٣) مليار دينار عن ائتمان مقابل ضمانات عقارية وسبب الشطب ان الضمانات العقارية المقدمة لاتعود للمقترضين، وان العقار مقدم من شركة نور العقارية ولكنها بالاصل باسم جمعية تعاونية وان الشركة المذكورة غير مسجلة في العراق

ظهر حساب مدينو خطابات الضمان في الميزانية بحدود (١٧٠٦٠) مليار دينار باسم خطابات الضمان مستحقه غير مسدده بينما قام المصرف بتسديد مبلغ الخطاب للمستفيد ولازالت غير مسدده الى المصرف بمبلغ (١٢٣٠٠) مليار دينار بتاريخ ٢٠١٦/٥/٢٣ على خطاب ضمان المستفيد (المديرية العامة لمشاريع الانتاج الغازية) علما ان خطاب الضمان صادر عن المصرف الهندي (ICICI) مع تأييد وجود غطاء مالي

قروض وذمم مدينة بلغت (٤٨٧٨٩٧٩) مليار سنة ٢٠١٦ –٢٠١٧ كونه جزء من الرصيد الذي تم الموافقة على شطبه سنة ٢٠١٥ وتم تنفيذه سنة ٢٠١٦ لان القيمة الدفترية للقروض والذمم المدينة الاخرى تقارب قيمتها العادلة كما في ٢٠١٦/١٢/٣١ و ٢٠١٧/١٢/٣١ على

التوالي، ويعمل قسم الائتمان لأعداد نموذج جديد لصيغة جداول ضمانات مما يسهل عملية تحديد الموقف بشكل واضح من الضمانات المقدمة من كل زبون.

(المصدر: بلاعتماد على الميزانية العامة للمصرف)

مصرف الخليج:

سنة ٢٠١٣ بلغ الائتمان النقدي وحسب الميزانية العامة (٢٨٦٥٧٤) مليار دينار بينما لم يظهر في الميزانية العامة رصيد(خسائر الائتمان) الديون المشكوك في تحصيلها، اما سنة ٢٠١٤ بلغ رصيد الائتمان النقدي (٢٤٥٤٨١) مليار دينار مقابل مخصص ديون مشكوك في تحصيلها بلغ (٩) مليار دينار وارتفع رصيد حساب الائتمان النقدي لسنة ٢٠١٥ بلغ (٣١٠٨٦٨) مليار دينار عن سابقته من السنة محققاً نسبة ارتفاع مقابل (مخصص الخسائر) ديون مشكوك في تحصيلها ارتفع ايضاً الى (١٤)مليار دينار حيث تم زيادة ديون مشكوك في تحصيلها الى (٤) مليار دينار وتحويل مبلغ (١) مليار دينار من حساب الفائض المتراكم استناداً الى الهيئة العامة المنعقدة بتاريخ ٢٠١٥/٧/٥وان المصرف يعتقد بان رصيد ديون مشكوك في تحصيلها غير كافي مقابل الائتمان المقدم من قبل المصرف، وفي سنة ٢٠١٧ بلغ الائتمان النقدي (٢٤٦٦٩٦)مليار دينار وبلغ (مخصص الخسائر) للديون المشكوك في تحصيلها(١٧٢٠٠)مليار دينار حيث تم زيادة (٣٢٠٠)مليار دينار لهذه السنة عن سابقتها من سنة ٢٠١٦ ، يقوم المصرف بشطب مبالغ التسهيلات الائتمانية من المخصص في حالة عدم جدوى الاجراءات المتخذة لحصيلها وينزل من المخصص وفقاً لتعليمات البنك المركزي العراقي ويضاف المحصل من الديون السابق شطبها الى الايرادات.

(المصدر:بلاعتماد على الميزانية العامة للمصرف)

المصرف الوطني الاسلامي

سنة ٢٠١٣ بلغ رصيد الائتمان النقدي (٣٦١١٦٢)بنما مخصص الديون المشكوك في تحصيلها (مخصص خسائر الائتمان)بلغ (١٢٤١٢) مليار دينار وهو اعلى م سابقته من السنة الماضية

٢٠١٢ وذلك لتوسع المصرف في منح المرابحات حيث احتسب المخصص مخاطر الائتمان خلال سنة ٢٠١٣(٧) مليار دينار مضافاً اليه (٥)مليار من السنة السابقة ٢٠١٢ ،اما سنة ٢٠١٤ بلغ رصيد الائتمان النقدي (٣٣٠٦٠١) مليار دينار ومخصص الديون المشكوك في تحصيلها بلغ (٢٢٤١٢) مليار دينار كونه تم احتجاز مخصص مخاطر الائتمان النقدي خلال هذه السنة (١٠) مليار دينار مضافاً اليه (١٢٤١٢) مليار دينار لسابقته من السنة علماً ان مبلغ المخصص الواجب احتسابه استناداً الى تعليمات البنك المركزي العراقي يبلغ (٤٠٢٤٥) مليار دينار وفي سنة ٢٠١٥ بلغ رصيد الائتمان النقدي (٤٥٩٣٧٠) مليار دينار ورصيد مخصص ديون مشكوك في تحصيلها (مخصص الخسائر الائتمانية) (١٦٢٠٦) مليار دينار ولم يكن للمصرف اي مبالغ تشطب لحساب الائتمان النقدي للسنوات ٢٠١٣-٢٠١٤-٢٠١٥،اما سنة ٢٠١٦بلغ رصيد الائتمان النقدي (٤٥٤٩٢٧) مليار دينار ومخصص الديون المشكوك في تحصيلها بلغ (٢١١٠٦)بينما ارتفع رصيد الديون المشكوك في تحصيلها سنة ٢٠١٧ ليبلغ (٢٧١٠٦) مليار دينار بزيادة ع سابقته من السنة ب(٦) مليار دينار حيث ان زيادة المخصص تنم عن زيادة الائتمان النقدي الذي بلغ رصيده لهذه السنة (٥٥٤٤٠٣) مليار دينار.

(المصدر:بلاعتماد على الميزانية العامة للمصرف)

<u>الجانب الاحصائي:</u>

<u>المصرف العقاري</u>: من خلال الجداول الاحصائية ادناه ظهرت الناتج الاحصائية التالية :

١- لا يوجد ارتباط ذو دلالة احصائية عند مستوى دلالة (0.05)او (0.01)وذلك يبين ان لا يوجد ارتباط بين مخصص خسائر الائتمان والائتمان النقدي وهذا دليل على ان المصرف لا يخسر.

٢- لا يوجد انحدار وبالتالي لا يوجد تأثير ذو دلالة احصائية تبين ان المصرف العقاري قد خسر وبالتالي تقبل الفرضية الصفرية (فرضية العدم) وترفض الفرضية البديلة بوجود ارتباط

Correlations

الائتمان عقاري النقدي	خسائر مخصص عقاري ائتمان		
.(a)	.(a)	Pearson Correlation	ائتمان خسائر مخصص عقاري
.	.	Sig. (2-tailed)	
5	5	N	
1	.(a)	Pearson Correlation	عقاري النقدي الائتمان
.	.	Sig. (2-tailed)	
5	5	N	

Correlations

a Cannot be computed because at least one of the variables is constant.

Regression

Warnings

For models with dependent variable عقاري النقدي الائتمان, the following variables are constants or have missing correlations: ائتمان خسائر مخصص عقاري. They will be deleted from the analysis. For models with dependent variable عقاري النقدي الائتمان, fewer than 2 variables remain. Statistics cannot be computed.

مصرف بغداد : من خلال الجداول ادناه ظهرت الناتج الاحصائية التالية :

١-لا يوجد ارتباط ذو دلالة احصائية حيث ظهرت النتائج علاقة عكسية سالبة (0.27-) غير منتظمة جزئياً عند مستوى دلالة(0.05)او (0.01) وذلك غير دال احصائياً حيث ظهر مخصص خسائر الائتمان بالنسبة لعلاقته مع الائتمان النقدي(نسبة الشك) مستوى الدلالة (0.66) بينما المستوى المقبول هو (0.05)اي ان المخصص لا يغطي الخسائر الذي تعرض لها المصرف

٢- يوجد الانحدار ذو دلاله احصائية لكن بمستوى ضعيف غير دال احصائياً عند مستوى دلالة (0.66) حيث بلغ معامل R=0.27 اما **R Square= 0.07** ومعامل R-2 Square= 0.24 ويؤكد هذا معامل F المحسوبة البالغة (0.24)وهي اصغر من قيمتها الجدولية البالغة (10.128) .

يؤكد(**T-test**) المحسوبة البالغة (0.49) اوهي اصغر منT الجدول (2.776) وهذا يدل على ارتباط البالغ (ضعيف 1.87-) ويؤكد ايضاً معامل درجة التأثيرللارتباط (B) لذلك تقبل الفرضية الصفرية البديلة وهي (فرضية العدم)وترفض الفرضية البديلة بوجود ارتباط.

Correlations الارتباط

Correlations

		مخصص الائتمان خسائر بغداد	النقدي الائتمان بغداد
خسائر مخصص بغداد الائتمان	Pearson Correlation	1	-.270
	Sig. (2-tailed)	.	.661
	N	5	5
بغداد النقدي الائتمان	Pearson Correlation	-.270	1

.	.661	Sig. (2-tailed)
5	5	N

Regression الانحدار

Variables Entered/Removed(b)

Method	Variables Removed	Variables Entered	Model
Enter	.	مخصص الائتمان خسائر بغداد(a)	1

a All requested variables entered.

b Dependent Variable: بغداد النقدي الائتمان

Model Summary

Std. Error of the Estimate	Adjusted R Square	R Square	R	Model
50985.539	-.236	.073	.270(a)	1

a Predictors: (Constant), بغداد الائتمان خسائر مخصص

ANOVA(b)

Sig.	F	Mean Square	df	Sum of Squares		Model
.661(a)	.236	612809956.607	1	612809956.607	Regression	1
		2599525187.798	3	7798575563.393	Residual	
			4	8411385520.000	Total	

a Predictors: (Constant), بغداد الائتمان خسائر مخصص

b Dependent Variable: بغداد النقدي الائتمان

coefficients(a)

Sig.	t	Standardized Coefficients	Unstandardized Coefficients			Model
		Beta	Std. Error	B		
.072	2.722		94871.761	258264.908	(Constant)	1
.661	-.486	-.270	3.852	-1.870	مخصص خسائر الائتمان بغداد	

a Dependent Variable: بغداد النقدي الائتمان

T-Test

One-Sample Statistics

Std. Error Mean	Std. Deviation	Mean	N	
2959.821	6618.362	23908.40	5	الائتمان خسائر مخصص بغداد

One-Sample Test

Test Value = 0.05						
95% Confidence Interval of the Difference		Mean Difference	Sig. (2-tailed)	df	t	
Upper	Lower					
32126.13	15690.57	23908.35	.001	4	8.078	خسائر مخصص بغداد الائتمان

<u>مصرف الخليج التجاري</u>: من خلال الجداول ادناه ظهرت الناتج الاحصائية التالية :

١- لا يوجد ارتباط ذو دلالة احصائية حيث ظهرت النتائج علاقة عكسية سالبة (0.105-) غير منتظمة جزئياً عند مستوى دلالة (0.05)او (0.01) وذلك غير دال احصائياً حيث ظهر مخصص خسائر الائتمان بالنسبة لعلاقته مع الائتمان النقدي(نسبة الشك) بمستوى دلالة (0.86) بينما المستوى المقبول هو (0.05)اي ان المخصص لا يغطي الخسائر الذي تعرض لها المصرف .

٢- يوجد الانحدار ذو دلاله احصائية لكن بمستوى ضعيف غير دال احصائياً عند مستوى دلالة (0.66) حيث بلغ معامل R=0.11 اما **R Square= 0.01** ومعامل

R-2 Square= - 0.32 ويؤكد هذا معامل F المحسوبة البالغة (0.03)وهي اصغر من قيمتها الجدولية البالغة (10.128) .ويؤكد

(**T-test**) المحسوبة البالغة (0.128 -) وهي اصغر منT الجدولية (2.776)
و ايضاً يبين ذلك معامل درجة التأثير بين المتغيرين للارتباط (B) البالغ(0.435-) وهذا يدل على ارتباط ضعيف لذلك تقبل الفرضية الصفرية البديلة وهي(فرضية العدم)وترفض الفرضية

		مخصص الائتمان خسائر الخليج	النقدي الائتمان الخليج
خسائر مخصص الخليج الائتمان	Pearson Correlation	1	-.105
	Sig. (2-tailed)	.	.867
	N	5	5
الخليج النقدي الائتمان	Pearson Correlation	-.105	1
	Sig. (2-tailed)	.867	.
	N	5	5

البديلة بوجود ارتباط.

Correlations الارتباط

Regressionالانحدار

Variables Entered/Removed(b)

Model	Variables Entered	Variables Removed	Method
1	خسائر مخصص الخليج الائتمان(a)	.	Enter

a All requested variables entered

b Dependent Variable: الخليج النقدي الائتمان

Model Summary

Std. Error of the Estimate	Adjusted R Square	R Square	R	Model
32162.082	-.319	.011	.105(a)	1

a Predictors: (Constant), الخليج الائتمان خسائر مخصص

ANOVA(b)

Sig.	F	Mean Square	Df	Sum of Squares		Model
.867(a)	.033	34262738.246	1	34262738.246	Regression	1
		1034399540.585	3	3103198621.754	Residual	
			4	3137461360.000	Total	

a Predictors: (Constant), الخليج الائتمان خسائر مخصص

b Dependent Variable: الخليج النقدي الائتمان

Coefficients(a)

Sig.	t	Standardized Coefficients	Unstandardized Coefficients			Model
		Beta	Std. Error	B		

.002	9.955		29618.555	294857.236	(Constant)	1
.867	-.182	-.105	2.389	-.435	مخصص خسائر الخليج الائتمان	

a Dependent Variable: الخليج النقدي الائتمان

T-Test

One-Sample Statistics

Std. Error Mean	Std. Deviation	Mean	N	
3010.913	6732.607	10840.00	5	الخليج الائتمان خسائر مخصص

One-Sample Test

Test Value = 0.05						
95% Confidence Interval of the Difference		Mean Difference	Sig. (2-tailed)	df	t	
Upper	Lower					
19199.59	2480.31	10839.95	.023	4	3.600	خسائر مخصص الخليج الائتمان

<u>المصرف الوطني الاسلامي</u>: من خلال الجداول ادناه ظهرت الناتج الاحصائية التالية:

٢-يوجد ارتباط ذو دلالة احصائية حيث اظهر الرائج علاقة موجبة جزئياً غير منتظمة (0.537) غير دالة احصائياً حيث ظهر مخصص خسائر الائتمان بالنسبة لعلاقته مع الائتمان النقدي (نسبة الشك) بمستوى دلالة (0.35) بينما المستوى المقبول هو (0.05) اي ان المخصص لا يغطي الخسائر الذي تعرض لها المصرف.

٢- يوجد الانحدار ذو دلاله احصائية لكن بمستوى ضعيف غير دال احصائياً عند مستوى دلالة (0.35) حيث بلغ معامل R=0.54 اما R Square= 0.29 ومعامل

R-2 Square= 0.05 ويؤكد هذا معامل F المحسوبة البالغة (0.213)وهي اصغر من قيمتها الجدولية البالغة (10.128) . ويؤكد

(**T-test**) المحسوبة البالغة (1.101) وهي اصغر منT الجدولية (2.776) وايضاً يبين ذلك معامل درجة التأثير بين المتغيرين للارتباط B البالغ (8.381) وهذا يدل على ارتباط ضعيف لذلك تقبل الفرضية الصفرية البديلة وهي (فرضية العدم) وترفض الفرضية البديلة بوجود ارتباط.

Correlations الارتباط

		مخصص الائتمان خسائر اسلامي وطني	الائتمان وطني النقدي اسلامي
الائتمان خسائر مخصص اسلامي وطني	Pearson Correlation	1	.537
	Sig. (2-tailed)	.	.351
	N	5	5
وطني النقدي الائتمان اسلامي	Pearson Correlation	.537	1
	Sig. (2-tailed)	.351	.
	N	5	5

Regression الانحدار

Variables Entered/Removed(b)

Method	Variables Removed	Variables Entered	Model
Enter	.	الائتمان خسائر مخصص اسلامي وطني(a)	1

a All requested variables entered.

b Dependent Variable: إسلامي وطني النقدي الائتمان

Model Summary

Std. Error of the Estimate	Adjusted R Square	R Square	R	Model
86547.451	.051	.288	.537(a)	1

a Predictors: (Constant), اسلامي وطني الائتمان خسائر مخصص

ANOVA(b)

Sig.	F	Mean Square	df	Sum of Squares		Model
.351(a)	1.213	9087668309.260	1	9087668309.260	Regression	1
		7490461205.313	3	22471383615.940	Residual	
			4	31559051925.200	Total	

a Predictors: (Constant), اسلامي وطني الائتمان خسائر مخصص

b Dependent Variable: اسلامي وطني النقدي الائتمان

Coefficients(a)

Sig.	t	Standardized Coefficients	Unstandardized Coefficients			Model
		Beta	Std. Error	B		
.187	1.705		155897.368	265762.045	(Constant)	1
.351	1.101	.537	7.608	8.381	مخصص خسائر الائتمان وطني اسلامي	

a Dependent Variable: اسلامي وطني النقدي الائتمان

T-Test

One-Sample Statistics

Std. Error Mean	Std. Deviation	Mean	N	
2543.555	5687.563	19848.40	5	خسائر مخصص وطني الائتمان اسلامي

One-Sample Test

Test Value = 0.05						
95% Confidence Interval of the Difference		Mean Difference	Sig. (2-tailed)	df	t	
Upper	Lower					
26910.39	12786.31	19848.35	.001	4	7.803	وطني الائتمان خسائر مخصص اسلامي

المبحث الرابع

الاستنتاجات والتوصيات

الاستنتاجات:

١- على الرغم من ان المصارف عينة البحث تتمتع بالجدارة الائتمانية لموجوداتها المالية باستخدام التصنيفات الائتمانية الداخلية الا ان المخاطر الموقعة ومقارنة التعرضات الي تحدث داخل البلد من الاحداث السياسية والصراعات التي لها تأثير سلبي مباشر على انخفاض قيمة الموجودات ووفاء المدين بالتزاماتة .

٢- الائتمانيات الممنوحة من قبل المصارف الاربعة عينة البحث للمقترضين تعرضت لمخاطر التشغيل هي مخاطر الخسائر الناجمة عن فشل الانظمة السيادية او الاخطاء البشرية (الاحتيال، والحدث الخارجي) لذلك المصرف لا يتوقع جميع مخاطر التشغيل التي تواجه المدين بالفشل.

٣- لا توجد في المصرف العقاري قروض خاسرة من سنة ٢٠١٣-٢٠١٧ فقط القروض التي تم منحها قبل سنة ٢٠٠٣ ولم تسدد بسبب تغير النظام السيادي للبلد.

٤- المصارف عينة البحث تتنافس في تقديم القروض طويلة ومتوسطة للأفراد والقطاعات كالقروض السكنية وقروض السيارات للأفراد وقروض المجمعات السكنية للمستثمرين داخل البلد بهدف تحريك عجلة النشاط الاقتصادي.

٥-البيئة التي تعمل بها المصارف متقلبة سياسياً وشديدة المخاطر ورغم ذلك المصارف تحتسب مخصص اقل مما اقره البنك المركزي العراقي.

٦-اظهرت النتائج الاحصائية انه لا يوجد ارتباط بين مخصص خسائر الائتمان والائتمان النقدي بالنسبة للمصارف عينة البحث العقاري نتائجه اوضحت بان المصرف لا يخسر، بينما مصرف بغداد والخليج ظهرت النتائج علاقة عكسية سالبة، اما المصرف الوطني الاسلامي فيوجد ارتباط ذو دلالة احصائية حيث اظهر النتائج علاقة موجبة جزئياً.

٧-ان المصرف العقاري لا يوجد انحدار وبالتالي لا يوجد تأثير ذو دلالة احصائية تبين قد خسر، اما مصرف بغداد والخليج والوطني الاسلامي فيوجد الانحدار ذو دلاله احصائية لكن بمستوى ضعيف غير دال احصائياً.

التوصيات

١-البنك المركزي العراقي حدد نسبة غير كافية من احتساب المخصص لمخاطر الائتمان لسد الخسائر التي تتعرض لها المصارف لذلك يجب رفع النسبة من خلال دراسة جديدة مقترح تقدم من قبل المصارف للبنك المركزي العراقي لتحصينهم.

٢-ان تطلب المصارف من المقترضين تعزيز قيمة الضمانات في حال انخفاض قيمتها السوقية عندما تصبح قيمة القرض أكبر من قيمة الضمان.

٣-عمل المصارف بشكل دوري على مراجعة القروض والذمم المدينة على اساس ربع سنوي لتحديد حجم المخصص للديون المشكوك في تحصيلها.

٤-اعادة تقييم حجم الخسائر للائتمان الممنوح ووضع معالجة تصحيحية لها في الوقت المناسب لتقليل المخاطر التي تنجم منها.

٥- التزام المصارف بما اقره البنك المركزي العراقي من احتساب مخصص مخاطر الائتمان (مخصص ديون مشكوك في تحصيلها)

المراجع:

التشريعات والقوانين:

١- القانون المدني العراقي المرقم ٤٠ لسنة ١٩٥١ المعدل النافذ .

الكتب:

١- ألنجفي/ حسن توفيق / معجم المصطلحات التجارية والمصرفية /دار الحرية للطباعة –بغداد ١٩٧٦

المجلات:

١- احمد ابريهي علي / المصارف والائتمان في العراق والتجربه الدوليه/ مجلة الدراسا ت النقديه والماليه البنك المركزي العراقي_العدد الثالث تموز ٢٠١٨.

٢- جمال باقر مطلك/ تفعيل دور نشاط القطاع الخاص في مجال التمويل السكني/ مجلة المخًطط والتنمية/ معهدالتخطيط الحضري والاقميمي للدراسات العليا/ العدد 24 -2011 ص109

٣- سلوى عبد الجبار / المخاطر الائتمانية واثرها في القرار الائتماني الصائب/مجلة جامعة كربلاءالعلمية /المجلد السادس /العدد١- ٢٠٠٨- ص ٣٤٣

٤- عبد الجبار هاني عبد الجبار/عفراء هادي سعيد/ /اشكالية القروض المتعثره في العراق وسبل معالجتها / جامعة بغداد كلية الادارة والاقتصاد /مجلة العلوم الاقتصادية والادارية / المجلد ٢٢- العدد ٨٧- لسنة ٢٠١٦.

٥- هشام علي شطناوي / محمد عبدالكريم المومني/ ادوات التحليل المالي في خفض مخاطر الائتمان المصرفي المجلة الاكاديمية لجامعة نوروز (لعدد 1)2017، المجلد ٦

٦- A.benhalima: **monnaie et régularisation monétaire**, édition dehlab , alger, 1997.p53

الرسائل والإطريح:

١-بن مداني صديقة /انعكاسات القروض المصرفية المتعثرة على اداء البنوك التجارية في الجزائر /اطروحة دكتوراه في العلوم التجارية المالية والمحاسبية / دراسة في عينة من المصارف التجارية في الجزائر ٢٠١٦-٢٠١٧.

٢- سليمان محمود الابراهيم /الديون المتعثرة ومعالجتها في المصارف الخاصة السورية في ظل الازمه / الجامعة الافتراضية السورية / رسالة ماجستير في ادارة الاعمال -٢٠١٧

٣- فادي سيف / مدى كفاءة المصارف الإسلامية في ضبط عملية منح الائتمان المصرفي / رسالة ماجستير ادارة الاعمال التخصصي MBA/ ٢٠١٦

٤-هبال عادل/ أشكليه القروض المصرفية المتعثرة/رسالة ماجستير في العلوم الاقتصادية / دراسة حالة الجزائر- ٢٠١١-٢٠١٢

التقارير والمقابلات:

١- الميزانية العامة لمصرف العقاري للسنة المالية ٢٠١٦-٢٠١٧ / والمقابلات الميدانية مع (مديرة قسم الائتمان /سهير عبد الحميد ، مديرة التدقيق الداخلي المحاسب القانوني / د.جميلة عبد الزهرة ،القسم القانوني /السيد مصطفى احمد حسين)

٢- التقرير السنوي لمصرف بغداد من سنة ٢٠١٣-٢٠١٤-٢٠١٥-٢٠١٦-٢٠١٧

٣- التقرير السنوي لمصرف الخليج ٢٠١٣-٢٠١٤-٢٠١٥-٢٠١٦-٢٠١٧

٤- التقرير السنوي لمصرف الوطني الاسلامي ٢٠١٣-٢٠١٤-٢٠١٥-٢٠١٦-٢٠١٧

النت:

١- المصارف والائتمان والعمق المالي بين العراق والتجربة الدولية الدكتور احمد ابريهي علي كانون الثاني ٢٠١٨ (٢٠١٨-https://cbi.iq/static/uploads/up/file-151920597949635.pdf)

2- Jack Rodman, "**Asia's Non Performing Loans : Can the Problem Be Solved**" , Ernest and Young, Tokyo, 2002, p02. Mis à jour : 14 février 2019 :Affichages : 3652

3- http://www.nazaha.iq/body.asp?field=news_arabic&id=4702

تقرير هيئة النزاهة

كشف فريق عمل دائرة الوقاية في هيأة النزاهة، الذي قام بإجراء زياراتٍ ميدانيةٍ إلى المصرف العقاري لمتابعة الاجراءات المتخذة بشأن الملاحظات التي تضمنها تقرير الدائرة الشامل في ٢٠١٧/٨/٣١، أن نسب متابعة تنفيذ تلك الملاحظات التي تكون ضمن صلاحية المصرف بلغت (٧٥٪)، الأمر الذي يتطلب استمرار المتابعة مع الجهات المعنية؛ بغية معالجة ما تبقى منها. وأشار الفريق في تقريره، المُرسلة نسخةٌ منه إلى مكتب وزير الماليَّة، إلى موضوع إطفاء (٥٠٪) من القروض الممنوحة للعسكريِّين قبل عام ٢٠٠٤ استناداً لقرار مجلس الوزراء المنحل في عام ٢٠٠١ دون تعويض المصرف، بالرغم من مفاتحة الدوائر المعنية، إذ تبيَّن أنَّ هذا القرار يسري لعامي (٢٠٠٢-٢٠٠١)، وهذا ما ورد في كتاب الأمانة العامة لمجلس الوزراء - الدائرة القانونية في عام ٢٠١١، لافتاً إلى أنَّ وزارة المالية أشارت في عام ٢٠١٢ إلى أنه لا يوجد نصٌّ قانونيٌّ ضمن قانون الموازنة السنوي يُخوِّلُ وزارة المالية دفع مثل هذه المبالغ، وفي عام ٢٠١٥ أكدت الوزارة عدم وجود سندٍ قانونيٍّ بإطفاء تلك القروض .
التقرير أكد قيام وزارة المالية بتأجيل زيادة رأس مال المصرف البالغ خمسين مليار دينارٍ عراقيٍّ لحين تحسُّن الوضع الماليّ، مُشيراً إلى استمرار التجاوز على العقارات العائدة للمصرف من قبل عددٍ من الوزارات، وتمَّت إقامة دعاوى مدنيةٍ، وحازت القرارات على الدرجة القطعية، مُنبِّهاً إلى وجود معوِّقات في تنفيذ هذه القرارات؛ كون بعض هذه المؤسّسات خدميةً، إضافة إلى التجاوزات من قبل أشخاصٍ مجهولي الهوية على أراضي المصرف، وحيث إن من متطلبات الدعوى توجيه

الخصومة، الأمر الذي يتطلب معرفة الشخص الذي تُقام عليه الدعوى؛ وبسبب صعوبة معرفة الأسماء الكاملة للمتجاوزين، تمَّت مفاتحة قيادة عمليات بغداد لإزالة هذه التجاوزات، والإجراءات مستمرةٌ بذلك.

وبخصوص عددٍ من السلبيات التي تمَّت معالجتها من قبل المصرف، أشار التقرير إلى زيادةٍ في نسبة التسديد في فرعي (الديوانية، والبصرة) للمبالغ المستحصلة من الجباية ومبالغ التسديدات للقروض الفعليَّة الخاصة بقروض (الوزارات، وعموم المواطنين، والإقراض السكني الجديد)، وإقامة دعوى مدنيةٍ بحقِ الأشخاص الذين تمَّ رفع إشارة الحجز عنهم بدون تسديد مبلغ القرض، رغم عدم وجود كتابٍ صادرٍ عن المصرف، وما زالت الإجراءات مستمرةً بهذا الصدد، إضافة إلى شمول جميع المواطنين سواء كانوا (المتوفين طبيعياً أو الشهداء من جراء العمليات الإرهابية) بإطفاء قيمة القروض، وقيام المستأجرين بتسديد بدلات الإيجار عن العقارات العائدة للمصرف . فيما لا يزال التلكُّؤ في معاملات تسديد القروض التي تعود لعامي (٢٠٠٢ –٢٠٠٣) في الفرع الرئيس مستمراً، إذ لم تُسدَّدْ قروض (٩٦ معاملة) تمَّ إبلاغ مقترضيها بأنه سيتمُّ عرضها للبيع لانتهاء المدَّة القانونية للتسديد، والاجراءات مستمرة بهذا الصدد، إضافة إلى استمرار تكرار إشراك الأعضاء في لجان المشتريات لأكثر من مرةٍ، وعدم استغلال البناية العائدة للمصرف العقاري – فرع الرصافة سابقاً؛ لوجود مخاطبةٍ من قبل البنك المركزيِّ العراقيِّ تمنع بيع أو إيجار أو استثمار أيِّ عقارٍ عائدٍ للمصرف.

http://www.nazaha.iq/body.asp?field=news_arabic&id=4702